يأخذني الخيال غالبًا، أبدد به وحشة واقعي، لا تسقط عيني، بل لا أُسقطها على الأرض إلاّ لمامًا، لا أتذكر أنني أحنيت قامتي يومًا لألتقط من عليها شيئًا. ومهما كانت قيمة اللقية التي تلوح لي، فلقد كنت أمرّ عليها بسلام سارحًا عنها، أو مطّرحًا منها ما قد تعود به عليّ، زاهدًا فيها في أكثر الاحوال، وما الذي ينفعني من لقية مرمية على الأرض، مرت عليها مئات العيون أو ربما داست عليها مختلف الأقدام؟ وأمضي ثم أنسى. ويبدو أنّ القوة العظيمة التي صنعتني، كانت هي الأخرى تشاطرني الحال، إذ نادرًا ما ألقت بين يدي شيئًا ثمينًا يستحوذ على دواخلي أو يغريني، ثم إنني، برغم ما كنت أشاهد أو يلوح لي مما يتحقق لغيري، قياسًا على ما لم يتحقق لي، كنت أتطامن مع حقيقة أن هذا العالم المواربالمتناقضات، قد يقتل السعيد في لحظة واحدة، بينما يطيل عمر الشقي عشرات السنوات. كان يتراءى لي في الوقت نفسه، أن في أعماق أي قانون مهما كان جائرًا عدالة ما، وربما كان ذلك هو ما كنت أمضي

إليه ولا أدري. لا يعني هذا إنني أغالب في مجمل حياتي خيبة أو نكوصًا في نِسب حظوظي، وإنني لم أكن أملك طموحًا، إنما طموحي كان في ما أصنعه بيدي، وليس في ما يلقيه أحد أمامي، ربما من هنا كان سروحي وزهدي، حتى نده قلبي إلى ذلك الحب الخلاق، وتسلل الى جوارحي ثم تناهى بي إلى سماوات ثلاث أو أربع أو حتى سبع، قرصٌ مغلّف بشريط لامع شفاف مرمي على أرض المتنبي، يحمل على صفحته المعروضة للعيان، عنوانًا لافتًا مرسومًا بخط الثلث الرصين، كأنه صادر من بين أنامل هاشم البغدادي الخطاط، يقول: "المدونة الرقمية" مع عنوان فرعي أصغر مكتوب بخط الرقعة لا تكاد تتبينه العين المسرعة، " حب هذا العصر. ولما بدا لي العنوان، بفرعيه، مغريًا إن لم يكن مثيرًا، وجدتني مندفعًا لانتشاله من مكانه على أمل أن أفتحه في البيت، وأجد في مكنون صفحته المدورة الملساء، ما يبهجني أو يثير متعة ما في نفسي، إنما ذكّرني هذا بحديث قديم جرى بيني وبين صديق عن اللقى وشغفه بذلك، حتى أنه أراني مرة حافظةً جمع فيها لقاه الكثيرة من نقود معدنية وورقية، وأقلام حبر ثمينة مطلية بماء الذهب وقطع ذهب وفضة صغيرة ؛ محابس وقلائد على هيئة سلاسل دقيقة وبنعومة خيوط الحرير، ومجاميع حصى ملون صقيل وخشن له عيون نزت منها دموع حمر التقطها من سواحل الأبيض والأحمر والأسود قضى عليها معظم أصيافه، ضم إليها صورًا له قديمة جعل، أغلب الظن لأنها جميلة، يغالب فيها ما بدأ يطرأ على

صحته من تدهور قاهر امتص رواء جسده، وما يزال يتذكر، بشيء طريف من أسى طفولي، قطعة الذهب التي عثر عليها على حافة بركة، ثم عاد ورماها في العمق منها لأن صديقه "الغيور" حسده عليها؛ إنها تعود لميتة، ويقصد لفتاة ميتة لأنها قرط صغير مما يعلق في آذان الفتيات. بينما كنت أتابع طريقي، انعطفت نحو بائع كتب على أرض المتنبي، يدعى بالأحمر، مهووس بقراءة ما يقع بين يديه، أولى نظره الى كتاب يقرأ فيه، تاركًا الآخرين يقلّبون أوراق كتبه أو يتصفحون عنواناتها وقد يسرقونها وهو ساه عنهم. سألته قبل أن ألقي نظرة فاحصة على مفروش بضاعته:

– ألديك كتاب إبن طفيل لحي بن يقظان؟ بادرني بنظرة حالمة ولكن شاكّة إن كنت أمزح أم أجدّ، ثم بعد تروّ أو تردد قال:

– ما اسم الكتاب؟

ولما كنت أعرف هذا البائع وأعرف مقدار ما قرأ من كتب وحفظ من معلومات وأسماء وعناوين، والكتاب الذي سألته عنه شهير واسم واضعه على طرف كل لسان، توقفتُ عند سؤاله فأردفت:

– حي بن يقظان لابن طفيل، ولم أكن وعيت أولاً أنني قلت ذلك بالمقلوب، ذلك أننا لو لم نكن عرفنا إسم الرجل واسم كتابه وجاءنا بالمقلوب "إبن طفيل لحي بن يقظان" لاقتنعنا، فمن الشائع أن يكون إسم شخص ما "يقظان"، وليس غريبًا أن يكون إسم إبنه حي، أما

إسم "إبن طفيل" فلا غبار عليه إن جاء عنوانًا لقصة أو رواية تروي حكاية رجل اسمه "إبن طفيل". حقًا كانت انتباهتي متأخرة لكن السليقة هي التي أنقذتني من مناكدة هذا البائع المفترس وجنبتني شماتته بجهلي عنوان كتاب قرأته أكثر من مرة بتقديم مدني صالح وطبعة بغداد.

– نعم لدي، لكنه في المخزن فوق. إنتظر لحظات وأعود به إليك.

– حسن، قلت وجعلت أنتظر.

مع قصر قامته دبت خطواته سريعًا؛ هذا كتاب مهم لا بد من قراءته، أعلم هاته لي من فضلك.

قطعت عليه حوارًا يطول ولا ينتهي، وقد يسألني عن حاجتي إليه قبل أي شيء. طفقت أتابع خطواته العجلى وأسارق النظر نحو عناوين مغرية كثيرة، وفي ذهني أنني سأنقده ثمنه وأمضي، ففي جيبي قرص يقرصني كل لحظة في شعور مبهم وغريب. كنت مشوش الذهن أنتظر رسالة من صديق، يقفني فيها على رأيه في فصول روايتي التي بدأت بنشر فصول منها تباعاً، في واحدة من صحف بغداد تحت عنوان "عارف بن نبهان". كان يخيفني ألّا تحظى روايتي هذه باهتمامه، ومع طول انتظاري كانت لهفتي تشتدّ. وما كنت أنشده منه في سري، درجة النجاح في عملية تماهي روايتي هذه مع حكاية "حي بن يقظان،" في فلسفة التدرج المعرفي من التنشئة الحيوانية الى الإنسانية، والإيمان المطلق بالله حين ينشأ طفل بين الحيوانات، ومن التخلف الساذج العفوي، إلى

الرقي والعلم وأرقى أنواع المعرفة في روايتي، حين يقع البسيط في محيط معقد أعلى في درجات العلم والذكاء، أو بعبارة أوفى؛ في تدرج الكائن من المعاينة البسيطة للملموسات الى الإيمان العميق على أنها الشاهد الوحيد على الوجود.

زوجتي تعرف تفاصيل روايتي، لقد قرأنا معًا حكاية إبن طفيل في وقت سابق غير بعيد، وكنتُ توقفتُ عند مدلولها الفلسفي عقب القراءات الكثيرة التي تناولتها، ويومًا بعد آخر جعلت أفكر في نسخ الفكرة القائمة على قدرة تكيف الإنسان لمحيطه الصعب، والنفاذ منه إلى محيط أعلى ولربما أغنى، ولكن بعد صبر وعناء طويلين.

ما واجهني أولاً وقد انفتحت المادة على شاشة الحاسوب، أنّ الصفحة الأولى مصدّرة بهذا التقديم:

تقديم

"قارئي العزيز إنما هي صفحات كتبت بدم حار ما لديك منها بعض ما لدي، فإن قبلها عقلك وحسبها واقعًا حيًّا كما لو أنه واقعك، فلك الحرية في أن تتقدم فيها وكما يحلو لك، أما إذا لم تحسبها كذلك فما هي سوى سطور سود دبّجها خيال جامح، جمعها في قرص لا تعدو مساحته مساحة الكف، فلك الخيار كذلك في أن تتقدم أو تحجم، الأمر متروك لك، وسيّان عندي أن تقرأ ذلك وتعدّه واقعًا، أو تقرأه وتعدّه خيالاً، فربما كنتَ في كل ذلك محقًا، فمن حسنات الواقع، أنه هذا الكم الهائل من الأشياء المثيرة التي تحيط بنا دونما فكاك، تبهجنا أو تحزننا، كما أن من حسناته أيضًا أنه أنتج لنا خيالاً واسعًا لصيقًا به، فتهيأ لنا أن نكتب من خلاله ما يسري عنك وعنا، ولو على هيئة تضليلات ستكون، أو هكذا يخيل إليّ، فرصًا كافية لنتغلب بها على مصاعبنا في حال

انكشاف أمرنا. في الأخير فان هذا ليس سوى السلوى التي قد نبدد بها بعض عتمتنا".

سليم ناصر

ملاحظة: ***ثم أنك وأنت تمضي في قراءة ما بين يديك، ستجد أن إسمي" سليم ناصر" الذي سيرد فيها، قد يكون مطابقًا لإسمك أنت أيضًا، عندئذٍ ستكون أنت مدون الرسائل الواردة فيها، وهذا محض مصادفة غريبة قد لا تحصل الاّ في الأحلام، ثم أنها قد لا تكون سارة بالنسبة إليك، لأسباب" عائلية" لن تكون خافية عليك، واعلم أن هذه الرسائل إن كانت واقعية، فهي أكثر الرسائل الغرامية عددًا بين عاشقين أديبين أو فنانين، سمّهما ما شئت، على مر التاريخ أو هكذا أظن، ثم ما عليك إلاّ أن تكبر الخيال الذي أنتجها إن كانت كذلك.. لك وحدك القرار.***

سليم ناصر

تناولت كأسين من الماء مرة واحدة لضرورات صحية وعاودت الجلوس إلى منضدتي. غرفتي ذات طابع شتائي، مفروشة بسجادة من النوع الكاشاني جاءت على مقاس الغرفة تقريبًا، ويبدو أنني لم أفكر بمزاحمتها بشيء آخر، مما يمكن أن اسدّ به فراغًا ضيقًا ظل قائمًا أمامي محاذيًا الباب، إلاّ قطعة صغيرة من سجاد مما يوضع عادة في الداخل، مهادًا للدخول أو الخروج. ليس على منضدتي سوى حاسوبي، ومجموعة كتب ودفتر أو دفترين وأقلام حبر ورصاص، أستخدم الأخيرة منها أولاً، كلما عنّت على بالي فكرة ما. كتبي الأهم، موضوعة داخل مكتبة ثانوية جانبية ذات مجموعة أرفف،غير متجانسة في الإرتفاع والطول، وضعتُ تصميمها أمام نجار مغربي، فصنعها على هواي - وكان هذا أودع رسائله الى حبيبته لدى صديق له جار، فأفشى سرها لزوجته التي نشرت خبرها بين جاراتها؛ ففضل الهرب الى العراق، على مواجهة زوجته بوجهه الذي خادعها به طوال عشر سنين - كنت أعددتها على هذا النحو، امتثالاً لطول الكتاب، وتأكيدًا على أولويات الكتب التي

أطالع، فكانت هذه التي في القمة الأهم، والتي تحتها بعدها في الأهمية وهكذا. أمامي على الجدار المقابل صورة لي في شبابي لا اشبهها بشيء، علقتها لكي يزدري من يراها غبطته بحال ما، على الجدار الآخر لوحة تخطيطية للفنان جواد سليم بعنوان في الحمام وهي لنساء يتحممن، تقابلها لوحة تخطيطية أخرى لفتاة بأنامل الفنان زهراب، ورابعة بورتريه بلا عنوان للفنان الفرنسي فرانسوا بوشيه، وكنت أطلقت عليها عنوان "الوجه المحموم" انطلاقًا من ألوان الوجه التي سادها الأحمر المحشو بالظلال، والتي هي الألوان العامة للوحات هذا الفنان الكبير، إلى جانبها وفي موقع أدنى منها، ورقة مثبتة الأركان بدبابيس فضية، مخططة عليها صورة "جيفارا" ، رسمتُها له بقلم القوبياء قبل ثلاثين عامًا، نقلاً عن صورة غلافِ كتابٍ صدر بعنوان "غيفارا" عام ١٩٧٤ بقلم أندرو سنكلير، وبترجمة ماهر كيالي، أعلى الجدار اليمين خارطة ملونة للعالم شبه قديمة؛ أتابع من عليها التقسيمات الحديثة التي أجريت على بعض الجغرافيات، والفوران الذي يحصل على هذه الأرض أو تلك، وأنعم نظري مليًّا على أنف أسدي الذي اقتطعت مقدمته مساومات الحروب ! ليس من شك في أن كلاً منا يحب قراءة ما يكتبه الآخرون، وقد يفضل ذلك على كتابته أولاً، ولا أدري إن كان ذلك، لأنه يحسب أنه يعرف نفسه ويجهل الآخرين، أو لأن لا مندوحة له من القراءة بوجه عام، أو هذا ما يحصل معي، وهنا على وجه التحديد، إذ أرجأت العمل في روايتي التي استنفدتِ الكتابةُ فيها قسطًا ليس هيّنًا من طاقتي، لإعود

اليها ريثما أنهي قراءة ما وقع تحت يدي. إن السر في تماهي إسمي مع إسم مدون هذه الصفحات، هو التماهي عينه الذي يحصل أحيانًا بين الشخصيات في أدق أسرارها، وهذا شيء عجيب وأعتقد أنه سيظل مدة طويلة بلا جواب، ولكن لماذا السؤال إذا كنا نجد في ما نقرأ سواء عنا أم عن غيرنا مفاتيح إلى متعة ما؟

كل ما يحيط بي، يهيب بي أن أقرأ بشغف لذيذ. ثمة موسيقى تعزفها الريح خارج شباكي، عروق مطر دافق تتشابك على زجاجه الصقيل، موجة من برد مبهج تجتاح جسدي، زوجتي الحبيبة إلى جانبي، أعدت لنا فنجاني قهوة بالحليب، وأنا مطمئن إلى انها ستفهم حصول مثل هذه المصادفات، فلا أظن شكًا سيرتفع إلى قلبها وتغضب مني لأن إسم مدون هذه المدونة مطابق لإسمي...

قدر

يبدو أنني كنت على موعد مع أعظم أقدار عمري. هكذا فكرت إذ ألقيت أول نظرة عليها، مع صوت معاونتي، أقدّم لك مدرسة الرسم الجديدة "بلقيس أحمد سليمان اليماني"، ثم انعطفتْ نحوها، الاستاذ "سليم ناصر" مدير المدرسة، والأديب المعروف. دخلت غرفة المدرسات المجاورة لغرفتي، لإلقاء تحية الصباح التي اعتدت أن أبدأ بها حضوري.

كانت إطلالتي على صورتها الجميلة الباذخة، أشبه بإطلالة على بستان فريد أو على منبع نهر أو على إشراقة نور. هكذا تملكني المشهد أو هكذا أحاطني بمزاياه.

ما كنت أعلم أنني على هذا القدر من الحظ، لاسيما بعد أن جاءت بعد دقائق وطرقتْ باب غرفتي، ودخلت عليّ بسيمائها الجليلة وطلعتها

البهية الوقور. ما دار بيننا من حوار وهي جالسة قبالتي، عزز قناعتي بأن المرأة التي تمتلك مثل هذا الجمال، إنما هي على قدر أكبر من الذكاء والموهبة وسعة الاطلاع، وأنها فوق هذا مستمعة من طراز فريد، يجللها الوقار وتزيدها ألقًا، لفتات رشيقة نحوي كأنّ بها ترتشف حديثي.

لم يكن اسمها غريبًا عليّ، "بلقيس أحمد سليمان اليماني"، فلقد سبق أن لفت انتباهي بنسبة ما، منذ أن توقفتُ أمام لوحة لها في معرض عام، منذ ما يقرب من عشر سنين. لا، المرأة ذي لفتة من لفتات السماء وهبة من هبات الله، ومن أي باب يحكم النفاذ إليها فهي غُنْم عظيم. وكما يلوح، فإنني وجدت فيها ما يَعِدُ بذلك الحب الفريد، الذي كان يبحث عنه ولا يجده، رجل مثلي طوال عمر ناف على الستين.

كان حوارنا هادئًا. كنت فيه حذرًا ومندفعًا في آن، أستشف فيه المرأة، كلّ المرأة، بينما لا أمنحها جميع نفسي. ولكي لا أهدم قناعة امرأة مثلها أثبتتْ حضورها الراسخ منذ اللحظة الأولى، بدأتُ أصدّ اندفاعات نفسي وأوازن بينها، لترسيخ صورة الموظف المسؤول والمثقف الأديب. لقد ناورتُ مناورة ألفيتني في نهايتها نجحت فيها، لاسيما بعد أن غادرتْ غرفتي سعيدة، مثنية على حسن الإستقبال، ولطف الحديث، وجمال الجلسة معي، معبرًا من جانبي، عن الصورة الكبيرة التي تحققتْ لها في نفسي.

لا أنكر أنني كنت أتوقف بين لحظة وأخرى، عند صور جسيمة كنت فيها أفرغ شحنات عاطفتي نحوها. صور كانت تقول توقف. إياك

أن تتقدم، وكان ذلك يتبدد في اللحظة نفسها، فـالواقع هنـا أقـوى مـن الفضيلة التي حاولت أن ألزم بها طاقتي، بل وأعتى. وكنـت كـل لحظـة أردد:

"يا أيتها اللحظة الراحلة تـوقفي فأنـك عادلـة " مـستعيدًا بـذلك عبارة يوناني قديم لأنها أصـبحت معـي، ثـم كنـت بعدئـذ أنهـض مـن مجلسي، أقف بإزاء شباك غرفتي، أطل على حديقةٍ الشمسُ فيها تـتراءى لي، أنها تغادر مخدعها توًّا.

المفجأة الأولى

كل يوم يمر تنهض العلاقة بحياء وهدوء. ليس هنالك من إعلان عن نوع المشاعر، سوى مشاعر الإحترام، وأنّ كلاً منا بإزاء شخصٍ لفتهُ الى حقيقة ما. وحقيقة الأمر، فأن شيئًا منها لم يصدر ليعدني بها أو يغويني فيها، بل إنني كثيرًا ما كنت أتهيب إفلات ما قد يفقدني احترامها ويربك صورتي في عينيها. ليس من شك في أنني كنت على يقين بحقيقة ما ينحته النهر في الشاطئ كل يوم، كنت سعيدًا بذلك، بل خلت أنني أسعد انسان، لا أغني مع الورد الذي يمتد مع طريقي، بل مع الصورة التي سأراها، سواء في غرفة المدرسات بعد أن أحيي الجميع تحية الصباح، أم في غرفتي بعد أن تزورني كما مضت العادة عمومًا، لنتداول موضوعات شتى، بما فيها ما ترسم وما أقرأ أو أكتب. وكنت قبل أيام أعلنتُ لها عن رغبتي في رؤية لوحة جديدة من لوحاتها. لا المرأة ذي

ليست شيئًا هينًا، إنما هي شيء خاص، لافت، جميل، يثير الحلم والرغبة والتملك والحب العميق. يا إلهي. أي السماوات فتحتَ أبوابها، لينهمر عليّ هذا المطر الدافق الغزير؟ وأي حافز أثارته لوحتها لأنبري لكتابة مقال عن نسبة الخيال في فنها؟

أتيت بنسخة من الجريدة التي نشر الموضوع فيها، لم أعلن لها عن ذلك، كنا جالسين معا بعد أن بادرت إلى زيارتي، ثم قدم صديق، وهو قاص خمسيني، يعرفها، سلم وجلس قبالتهاعلى الكرسي الثاني المجاور لمنضدتي. ويبدو أنه كان قرأ الموضوع فجعل يطريه، وهي تستمع بحس مرهف من دون أن تفقه أنّ الحديث يدور عنها أو عن فنها، ثم حين غادر هذا الغرفة سلمتُها الجريدة دونما إشارة إلى ما فيها عنها. في الغرفة المجاورة فَتَحتها مثلما عادت تقول، رأتْ أول ما رأتْ صورتها ثم صورة لوحتها والموضوع المكتوب عنها، وأغلب الظن أنها كانت المفاجأة السعيدة الأولى التي دونتُ فيها، بإمضاء راسخ، شيئًا مني في قلبها. في الوقت عينه كانت، أرسلت لي رسالة تصف فيها مشاعرها السعيدة بذلك، لكن نقالها فشل أو هي فشلت في إيصالها إلي، فكانت تلك أول خسارة لي أتذكرها بأسف، لأنني لم أطلع على ما كانت دونته عن كتابتي عن فنها.

- تمامًا كما لو أنكِ دونت رسالة لي بخط يدكِ كانت في طريقها إلي وتناولتها يد الريح، أو ظلت ترقد في صندوق البريد عددًا من السنين لم يلتفت اليها ساعي البريد. همستُ لزوجتي.

- يحصل هذا وقد قرأت أن رسالة مكثت تقبع في صندوق بريد عقودًا من السنين، فإذا اكتُشفت كانت مثارًا لطرافة أو حتى لأسف أو حزن، لأن اصحابها غابوا عن الوجود؛ كل شيء في أوانه لذيذ.

كانت تقول ذلك شبه محزونة، كنت أكثر حزنًا منها لأنها لم تجرب ذلك كما أعتقد، أما أنا فكم ضاعت مني رسائل سهرت ليالي في تدوينها ثم كانت خيبتي كبيرة إذ فشلتُ في إيصالها. نعم كل شيء في أوانه لذيذ.

سريان النار

يتملكني الهيام بها كلما رأيتها أو سمعتها، يدور على محور خيال وموسيقى وشعر، وأنا ألمس نوعًا من التجاوب تبثه بسرّ خفي عيناها، أصبح يربطنا ويقربنا إلى بعضنا. وحقيقة الأمر وجدتني مأخوذًا بحبها بلا حدود، وبأنه الحب الوحيد الذي يليق بي وبجدارة تامة لا نظير لها.

خلال وجودنا في المدرسة لم يحصل أن تلفن أحدنا للآخر، حتى في حال غيابي أو غيابها، وهو أمر يحصل أحيانًا لظروف خاصة أو لظروف أمنية عامة، يترتب عليها ضمن ما يترتب قطع الطرقات، وعودة كثير من الموظفين والعاملين إلى بيوتهم. ولما كانت المدرسة بعيدة عن بيتي كنت أبكر للالتحاق بالدوام، إذ كان علي أن أواظب على عملي في اليوم نفسه في المؤسسة الإخبارية التي أعمل محررًا فيها، منذ الأشهر الأولى التي أعقبت التغييرات الدراماتيكية التي حصلت في العراق العام ٢٠٠٣.

بات الشد يزداد، والعيون تتراسل، ولكن بحياء وهمس دونما كلام. كنت أشعر أن حياتي الحقيقية ابتدأت بها، وعليّ أن أتشبث بها كما يتشبث الغريق بطوق نجاة. وحقيقة الأمر، إنني لم أعرف حبًا عاصفًا وجديرًا بنفسي التي كثيرًا ما أثبتت الوقائع، واعترف الشهود بأنها ذات طابع صعب وخاص. وإنني لأشعر بذلك حقًا، إذْ لم أعرف حبًا في حياتي، يثير في أرجائي كافة هذه الموسيقى الفريدة التي تحيطني بهذا الغنى وبهذا النعيم. هل أقول إنه حب مثقف يأخذ بالعنق ويلويه؟ نعم. هو كذلك؛ تداخل فيه الجمال ودقة الحركة وكمال الخُلق والصمت الجليل، حلاوة اللسان وطلاقة القريحة وثقافة العقل، والقاسم المشترك في صناعة الفن. كم مضى علينا ونحن نفزّ على الخيال قبل الجسد، والذكرى قبل الصورة؟ كانت الرغبات تتداعى أمام هذه المَنَعة التي هي عليها، والهالة التي لا يمكن النفاذ إليها، النار تسري لكن في خشب متين، لا يبث وهجه إلا على استحياء بين شخصين يتدفآن عليه بصمت ووقار.

إحالتي على التقاعد

صدور قرار إحالتي على التقاعد لبلوغي السن القانونية، برغم الفوضى غير الخلاقة التي فتحت في البلد عينًا وأغمضت أخرى، أثار زوبعة في داخلي، لكنه في الوقت نفسه رفع الغطاء السميك والثقيل الذي كان يخيم على صدرينا، فكانت رسالتها التالية، هي المنبع الثر لعاطفة ظلت تتنامى وتتوارث كالنار التي لا تنطفىء، وقد وجدتها أثمن الفرص لكي أبلغها ما كنت طويت صدري عليه.

"أيها العزيز لشدّ ما شعرت بالحزن والفراغ كلما مررت من باب غرفتك وأنت بعيد، لقد مررت بها صباح هذا اليوم، وأنا مسكونة بحلم جميل. صحيح إنني لم أرك إلا.."

"الأعز والأغلى. كان لرسالتك أبلغ الأثر على نفسي. وإنها لمنّة منك عليّ. وإنني لسعيد حقًا إذ تأتيني رسالة منكِ بهذا الحرف البليغ.

حقًا أنني لأعدّ نفسي حاضرًا ما دام حضوركِ قائمًا في نفسي وسيبقى خالدًا"

بل كان هذا الجواب نقطة الإنعطاف في علاقتي معها، ففي هذه الرسالة أفضيت بما اختزنه قلبي "حضورك قائمًا. الأعز والأغلى. وإنني لأعُدّ نفسي" كل ذلك لم أفكر في الإعلان عنه سابقًا ولم أهيىء نفسي لقوله إلا حينما كتبتُه. وحقيقةً كنت أحسني بإحالتي على التقاعد فقدت مكاني بصورة غير ملائمة! فما كنت أعتقده هو أنني قدمّت لعملي التربوي جهدًا لا يخالفني أحد على قيمته، أنفقت على إنفاذ "مبادئه" العرق بعد العرق. كما جندت طاقات الطلاب والطالبات جميعًا، فنفضنا التراب الذي تراكم على المقاعد الدراسية، وعلى كتب المكتبة المهملة، وأعدنا إليها بهاء صورها وعناوينها وأسماء مؤلفيها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إنما امتد إلى الرحب والأبهاء والحديقة التي أضفى رونقها الجديد على المدرسة، طابعًا مفتوحًا ومريحًا وعصريًا. من جانبي ومن ناحية أخرى لم أغفل اللحظات الجميلة التي نعم فيها طلابٌ وطالباتٌ أدركوا سن المراهقة، في ما عدّوه خلوات خيالية للتهامس البسيط والحيي، بل ولمشاورة الأصابع للأصابع والأكف للأكف.

جاءت رسالتها هذه، مفتاحًا أشرع قلبي على طاقات هائلة من النور، وكنت مع ذلك أتساءل، هل صحيح أن هذا يحدث لي؟ الشيء المفرح المثير للسعادة والحافز على الأمل والحياة يعود لي؛ يخصني؟ هل صحيح أن هذه المرأة الصامتة، المحدثة اللبقة، إذا تحدثتْ، فتحت قلبها لي؟

ليس سرًا إن قلت إنني حال رأيتها، علّمت نفسي كيف أتعامل معها، ويبدو أنني، وكما أسلفت، نجحت وهذه غاية عظيمة. ولا أدري حقًا إن كان وجودي في المدرسة، سيوثق العلاقة بيننا مثلما توثقت الآن. هل كان الفراق حافزًا إلى تفجير المشاعر الصادقة والحارة، بدل المجاملات الحيية الوجلة، التي كنا نتبادلها أثناء لقاءاتنا في غرفتي؟ أما كان من المحتمل أن تتعهد الأيام، لو استمررتُ في موقعي، بما يمكن أن يكون أكثر مما حققتُ معها الآن؟

مهما يكن من أمر بقائي في مدرستي وقربي منها، أو إحالتي على التقاعد وبعدي عنها، فقد كنت أشعر بأنني سعيد غاية السعادة الآن، ولربما يليق بي أن أقول إنني في طريق، هو ضمن مواصفات عدة، طويل أو سيكون طويلاً وشاقًا على أي حال.

ذات يوم، قلت لزوجتي، قصت عليّ امرأة قريبة لي قصة حبها؛ أحببتُ شابًا وعدني بالزواج. كان يعمل مصورًا شعاعيًا في مشفى اليرموك، ولما كان المشفى هذا قريبًا من مدرستي التي أعمل فيها معلمة، كان يرافقني حتى مدرستي أو أرافقه حتى مشفاه. لم نشعر يومًا أن حبًا في الوجود يفوق حبنا وهناك من هو أسعد منا، أو هكذا هو حال المحبين جميعًا، حتى تم زواجنا. لم نعمل مراسم زواج صاخبة، إذ سافرنا مباشرة وبعد حفل عائلي محدود إلى بيروت. هناك خلال شهر عرفنا أجمل فسحة للحب؛ كنا فيها بين الجبل والبحر.

سكتت، فاضت عيناها بالدموع، ثم لكي ترتاح سمحتُ لها بالهطول، وحتى كفت عن النشيج والإرتعاش. استعادت بعض صفاء صوتها؛ لم يمض على زواجنا سوى سنتين وقد أنجبنا ولدًا حتى مات زوجي بالسرطان بتأثير الإشعاع. لم ينفعه عمله بين الأطباء ولا سفره إلى خارج العراق. كان وحيد عائلة غنية مثلما كان لي. سنتان فقط عرفت فيهما الحب والزواج، وكل السنوات اللاحقة باختلاف ألوانها لم تمحق حبي له، ولكن أشهد أن قسمًا منه تحول إلى ولدي وآخر إلى إبنه، حفيدي، وتثبت عليهما. ما زلت أزوره في قبره في مقبرة "محمد سكران" وإن هي بعيدة عن بغداد، وحيدة أو مع ولدي، كما لو انه شهيد حب، أضع باقة ورد على قبره وأناجيه وأصلي على روحه، أتصدق على بعض الفقراء الذين يزورون موتاهم هناك بالنقود أو الطعام ثم أعود. خمسة وعشرون عامًا وأنا لا أترك مناسبة من دون أن أزوره، ولا سيما في مواسم الزيارات أو أعياد ميلاد السيد المسيح أو رأس السنة الميلادية، كان ريحًا عذبة مرت على جسدي ونفسي ما زلت أحسها، كان مقدرًا عليه أو عليّ، لكي يظل مخلداً أن يموت هكذا، أو تلك هي إرادة الرب. ما عساني أفعل غير هذا؟ من فضيلته أنه حينما رحل لم يأخذ معه كل شيء، لقد ترك القسم الأعظم من حسناته لنا.

إنه لما يثير الأسف ألّا يستمر حب كهذا، فقد طوت المرأة جوانحها على ولدها الذي كانت في الأخير سعيدة به؛ لأنه كان صورة من أبيه.

علقتت زوجتي وكان لا يسعدها أن تنتهي قصص الحب هكذا، هذا أحد أشكال الحب الذي لا تتوقف العبرة عند شكله حسب، وإنما في ما يؤول إليه أيضاً، ولعل من حسن حظ قريبتك هذه أن ولدها على صورة أبيه ليس بالشكل وحده، إن لم يكن بالحسنات كذلك.

في بحر عميق

"أسعد الله أيامكَ كلها، فالعيد فسحة صغيرة لن تتسع مهما كبرت، لما في القلب من أمانٍ، لكَ أحلاها وأغلاها مع الدعاء بالصحة والحسنات"

كانت ذي رسالتها تسبقني فيها إلى المباركة بمناسبة حلول عيد الفطر، لأكون في حضرة سيدة كاملة ومن الطراز الرفيع. ولما كان علي أن أجاريها بإسلوبها ندمت على إجابتي:

"أشكركِ، وأتمنى لكِ عيدًا سعيدًا وصحة دائمة"

إذ حسبتها إجابة مقتضبة ذات بعد رسمي جاف، فظللت بعد ذلك معذبًا. وحقيقة الأمر أن ذلك حصل فور ورود رسالتها، ولم أكن قرأتها جيدًا. كنت مباغَتًا بها، إنما أخذتني فوق ذلك صدمة بوقعها، جعلتني

أبادر مباشرة إلى جوابها. لبثت أتململ أسيفًا مفكرًا في الطريقة، وكذلك المناسبة اللائقة التي أنتهزها حتى انقضت أيام العيد. إن السعادة التي طفحتْ فيها أيامي في بيتي مع عائلتي، ومع أصدقائي في النادي والمقهى لأشعر أنني في عيد، كان يخالطها بين آونة وأخرى فوران يدّوم في عقلي وقلبي، حتى كتبت اليها، أكمل النقصان في رسالتي السابقة، وأشعر كليًا أنني في عيد تام:

"كم أتمنى أن تكون أيامكِ أجمل الأيام وأن تكوني أسعد الناس، إنما الذي يزيد سعادتي هو أن أشاهد لك لوحة جديدة تصدر قريبًا من بين أناملك الجميلة، سيدتي".

لن أكون مغاليًا حينما أتملكني السعادة وأنا أشاهد تخطيطًا للوحة قادمة لها، كان السحر يأخذني برهافة خطوطها وانسياب تشكيلاتها، حتى كنت أظن أنها تضع جسدها بخطوطه المرهفة في كل لوحة لها، ولا أعرف إن كان هكذا هو الامر حقًا، أم هي الرغبة؛ رغبتي فيها. إن أعظم ما يمكن قوله أنها جعلت تبعث في خيالي نشاطًا خلاقًا تعداه إلى جسدي! ردّها اللاحق كان جميلاً، رقيقًا، لماحًا؛ "إن رسالتك الرقيقة أكدت وصول سلامي بكل ما في جوارحي" أعلق بصري على ساعة الحائط البندولية، التي أهدانيها صديق لي بمناسبة سكني في بيتي الجديد. تغشاني فكرة نزع بندولها هذا ووقف الزمن الجميل الذي أنا فيه، لكي لا يتعداه إلى غيره. ثمة ريح متباينة الإتجاهات تضرب أشجار

البيوت والشارع العام، ويبدو أن بعض الناس فكروا في ما سيؤول إليه الجو العام فأسرعوا خطاهم؛ هؤلاء نحو المخازن التي قصدوها أولاً، وأولئك نحو بيوتهم بعد أن حققوا لأنفسهم أو لبيوتهم شيئًا. تتسلل صورة البحر إلى عيني، ذاك المد الهائل الذي كم ضربتُ في عميق مياهه، وهذا الذي أراه الآن وها أنا أخوض في وشله، وأسرح في ما يمكن أن يكون بين أصابعي منه. ومثل كل مرة كنت أقول إياك أن تتعجل شيئًا فتفسد سعادتك، وأراها أكبر مني وإنني أضرب في بحر عميق. كان المطر ينصب هذه المرة سريعًا يغسل البيوت والأشجار، ولكن تضيق به مجاري المياه التي لم تكن هُيأت لمثل هذا اليوم بعد. يغرق الشارع، تشقة بمشقة لافتة سيارات تجهد أن تكون مسرعة، ويُنقع رجالاً ونساء يعبرونه مسرعين وبلا مظلات، ثم ما يلبث أن ينقطع فجأة في ما يمكن أن يعد طرفة من طرف الكون الذي يضع في كأس الحب قطرات من كرمه، من أجل أن يغدو كل شيء نظيفًا وسعيدًا ومسكرًا، ومثلما هي عليه نفسي الآن.

أمر رباني

الهدية التي بعثتُ بها إليها، بيد مدرّسة كبيرة السن كتوم، بيتها ليس بعيدًا من بيتي وزوجها العجوز صديق لي، رابني صمتها عليها أيامًا ليست قليلة، في الوقت عينه كنت ألفي ذلك شيئًا طبيعيًا، بناءً على ما ارتسم في ذهني عن طبيعة شخصيتها. لكنها بسليقتها الملهمة ومجساتها الحساسة، كانت تدرك أن عليها أن تقول شيئًا لابد منه، ما كنت أريده ردًا على جميل، بقدر ما كنت أتمناه مناسبة للوصال :

"أحتجتُ هذا الصمت كي ألتقط انفاسي. نعم. مندهشة كذلك، إلا أنني لست بمستغربة، فمفاجآتك كثيرة ولا حدود لقدراتك خَلْقًا وابتكارًا. شكرًا على كل ما فعلته، وصار عليك أن تعتني بصحتك ونفسك وذلك أيضًا من أجلي".

تفاديًا لما قد يحصل لي بين، وكنت أعبر الشارع، زعيق أبواق السيارات وسرعتها المجنونة أجلت ردي أنا الأشد لهفة والأعظم حبًا، أو هكذا كنت أحسني:

"أيتها العزيزة المباركة الموهوبة، شكرًا على مشاعرك. لم أفعل شيئًا باهرًا من أجلك. شوقي إليك لا تحده حدود، هل أستطيع أن أكلمك على التلفون الأرضي وفي أي وقت؟ محبتي الفائقة".

حصل الإرسال بعد ساعة من هذا الوقت، إذ تعثرت بالرصيف والتجأت إلى مقهى أعدّل ما حسبته التواءً في قدمي، وأداري بعض الآلام فيها. هناك شربت شايًا عذبًا لذّ لي شربه مرتين بحيث عددت عثرتي على الرصيف والتواء قدمي فرصة مقدّرة، من أجل ذلك!

ها هي العاشرة. الوقت الذي اتفقنا فيه على الاتصال. الحوار الذي جرى بيننا كان من أكثر الحوارات مباشرة وحرارة وكشفًا. إعترفتُ لها بصورة مريحة، بحبي لها وإعجابي بها، وشددتُ على ذلك أكثر من مرة، ونوهتْ هي قائلة بأنّ "ما بيننا أمر رباني" فسعدت بهذه المكاشفة غاية السعادة، إذ عددتُ هذا أمرًا خالدًا لا قدرة لبشر على محوه أو التنصل عنه. لقد رسخ الله علاقتنا وكفى بذلك اعترافًا وإقرارًا وشهادة. كان صوتها يأتيني سلسًا واثقًا وجميلاً، وكنت أعدّ ذلك من سمات الصدق في القلب. أو هكذا جعلت أغلّب يقيني هذا على غيره، ذلك أنه كان جميلاً هو الآخر. تلك الليلة نمت سعيدًا وحسبت سعادتي إحدى أعظم

سعادات الناس. وإنها مما يمكن أن تصنعه أنت بيديك حتى لـو تـراءى لك أنها جاءت ممن هو بعيد عنك.

كنا نرتشف قهوتنا بصمت صاغرينِ، نـستمع، مـع مـشاعر الحـب التي "نقرؤها" ، إلى أصوات خافتة بدأت تنـوس في دواخلنـا، تـستحثنا على الاستمتاع بلحظتنا، فثمة مطر وتباشير حـب تـشبه مـشارف أغنيـة جميلة، متناوبينِ النظر من نافذة غرفتنا إلى حركة الشارع المتصاعدة تحـت الأضواء التي بدأت تسترد بعض عافيتها هنا وهناك، ملونـة ومبهجـة في اتفاق غير معلن على أن الحيـاة جميلـة بـما لا يوصـف، أو هكـذا جعلـت تقوّلني هذه الرسائل اللذيذة، بل هكذا مضت تعطف رقبتي نحو ما كنا نراه ونغفل عن جماله، وكنت أقول؛ فتنة الحـب لـيس في الحـب وحـده، وإنما في ما يفتح لعينيكِ، فلا ترد لأنها كانت مبتهجة مثلي.

ما يسحرني منها منذ أول حبنا، صمتها على أشياء إن أجابت عنهـا أو لم تجب فالأمر سواء. وميلها إلى الصمت عمومًـا، وفـر لي قناعـة بـأن الصمت مفتاح للتفكير بأشياء أفضل، أو بصورة أفضل، وهـو في حـال أخرى غنى عن الزوائد والبديهيات، وليس خرسًا .أتذكر أول صمت لها لقّني بدوار حينما قلت لها؛ ما أجمل الحيـاة الآن! كنـت أريـدها أن تقـول نعم، فإن فعلتْ فبمعنى أنها بي، مثلما كنت أفكر أنها بهـا. ظللـت أنتظـر ردها وأنظر في عينيها. كانت نَعَمها عصية وكذلك لاؤهـا، وكنـت بـين هذه وتلك أجدها مثل أغنية جميلة ولكن بلهجة غير لهجتي.

– ماذا تقولين؟

ألححت عليها بالسؤال، وظلتْ تنظر في عينيّ حتى حولـتُ بـصري إلى البعيد، ولم يكن ذاك معنيًا بالجواب عنها، ولمـا عـدت كانـت عيناهـا الشذريتان تفحّان بالنار.

في لحظة مفاجئة

لم يتبادر إلى ذهني أن وراء إحالتي على التقاعد عقوبة ما على حبي. بيد أن نفسي بدأت تضيق بفراغي وتلوم من تسبب فيه. كان الجو العام للبلد "المتنازع" عليه، أقوى من كل شعور حول إجراءٍ مثل هذا، حتى بدا لي أنّ عليّ لكي أنسى، أن أساوم نفسي بين الحياة على هذا النحو والنحو المقدر على بعضهم؛ الموت في الشوارع تفجيرًا أو اغتيالاً. كانت حصيلتي العظيمة ترتفع بي عن الإنهيار، الغنيمة هنا أكبر من هذه الخسارات، كنت أقول وأستعين على ذلك بطاقة حب أقوى. كانت قوتي الجسدية تؤهلني لأن أعمل بكفاءةٍ عقدًا كاملاً، وليس سنتين أو ثلاثًا أخريات. كانت لهفتي إليها تزداد، وأحاسيسي نحوها تتآزر، وقياسًا على هذا كنت أجد ثمة حاجة، كائنًا ما كان حجم هذه الحاجة، إلى مراسلتها أو لقائها للتعرف على آخر أحوالها وشؤونها، لذلك ما أن

مر إسبوع على آخر مراسلة بيننا، حتى فكرت في مراسلتها، ولكن إن كان يوجد صمت، يتطلبه الذوق وتترغبه الحكمة فهو صمتها، ومع ذلك كنت راغبًا في سماع صوتها أو قراءة كلماتها، ومن يدري كيف تحصل المفاجآت، أو تتعانق المستحيلات، عندما انهمرت علينا كما ينهمر المطر ويفوح عبير الزهر. ولم أملك إلا أن أكظم دهشي وأمارس تأملي، لحياة وارفة اقترحت عليّ في لحظة مفاجئة أن أكون شاعرًا أو رسامًا أو حتى نبيًا!

كنت إذّاك جالسًا في مرسم رسام تشكيلي صديق لنا، يقع في الطابق الثاني من بناية شبه قديمة. كنا منفردين في حديث متناوب عن الفن والنقد والقصة والرواية، ولما ظهرتْ فجأة نهضنا. تركتها تصافح الرجل أولاً ثم تصافحني ثانيًا.

مثلما لم أخفِ دهشي من حضورها لم تخف ذلك من وجودي، ودلائل السعادة تطفح على عينيها. وكلما اختلستُ النظر إليها والتقت نظراتنا، تقول ابتسامة خفيفة؛ نعم، ها إننا نلتقي على مصادفة تتحدى أعمق معاني الوعود.

جاء قدومها للسلام على الفنان، بمثابة نوع من الإعتبار لرجل كانت له يد طولى، في تقديم إسمها على لائحة الفنانين المحدثين. وكان اتصل بها لمعرفة آخر أخبارها، ودعوتها لحضور معرض قادم لرسوماته يقام على إحدى قاعات فندق شيراتون، ثم أنها في طريقها إلى جريدة

على موعد إجراء حوار معهـا. غادرنـا غرفـة الرسـام باتفـاق إشـاري. سايرنا الرجل حتى الشارع العام، معلنًا عن رفقه الشديد بحركتها وهي تهبط الدرجات، ويكاد يضع جسده متكًا لجسدها، ويشدّ من بعـد عـلى يدها! هناك ودعناه ثم سرنا قليلاً معًـا، تحـدثنا عـن اللحظـة المفاجئـة، وكيف تُختلق المفاجآت، وعددنا ذلك من قبيل هبات الرب الذي جمعنـا أولاً بلا ميعاد، كانت سعادة اللقاء غير المرتقب تغمرنا، وتحثنا على قطع الطريق دونما الإلتفات إلى شيء مما يحيط بنا، كنا عاشقين صغيرين التقيـا أول مرة على حب جديد، مَسوديْنِ بلحظتهما السعيدة. لم أكن أشعر أنني في كل لحظة كنت أكسب ودها، ولم تكن هي كذلك على أغلـب تقـدير، إلا حينما سكنت عيوننا على لحظة الوداع. قلت أخيرًا؛ ألا ما أجمـل هـذا اللقاء، وافترقنا هذه المرة مثل حبيبـين كبـيرين تـتخطفهما المـسؤوليات، ليتوجها بهدوء رصين، كل إلى غايته؛ هـي إلى الجريـدة تـؤدي غرضـها، وأنا إلى عملي أُسلمه نفسي ولم يكن ثمة من تفكير بغير ذلك للأسف.

عودة الروح

أيامي الجميلة مضت متسارعة أعقبتها أيام أمست عصيبة، إذ مرضتُ بالإنفلونزا ولزمتُ الفراش وبعد إذ راودتْ زوجتي شكوك بوجود علاقة بيني وبين امرأة ما. تابعتُ نفسي أمس وأول أمس وقبلهما وجدتني أشبه بمن فقد قدرة التحكم بنفسه، لذا أغلقتُ الهاتف حذر أن تتصل بي بلقيس أو تسأل عن سر صمتي وغيابي، خامرني خلالها، أنا الآخر، ظن تعلق بنوع العلاقة بينها وصديقنا الفنان، حينما استعدتُ في حلم محموم صورة كفه وهي تشد على كفها في انفعال طافح بالمسرة والود، تقابله بسعادة فائقه حتى لكأنها تفرد له ذراعها الآخر لتلتفّ عليه. في الوقت نفسه كنت محزونًا على وطني لكثرة ما يتعرض له من عدوان مصنوع في الخارج منفّذ في الداخل، كانت آليات الجيش الامريكي تجوب شوارع بغداد بلا أخلاق وبسرعة مهلكة، ثم ما تلبث

أن تستدير في انعطافات غير متوقعة تحطم فيها الأرصفة الوسط، تبعثر زهورها، تخالف السير العام وتذعر الناس وتثير شتائمهم. وبرغم معرفتي الكيفية التي جاء بها هؤلاء وتقديري حجم ما سيؤول إليه وجودهم في بلدي من خسارات على الزمن القريب والبعيد، كنت أفكر؛ أن في الحياة كوابيس أشد هولاً مما في الأحلام. لكن بعد إذ مرت الآليات ملاحقة بما أطلقته في الصدور من لعنات، غابت صورها وإن لم تتلاشَ أصداؤها في نفوس جلاس المقاهي ورواد المطاعم وسابلة الرصيف وباعة العربات المتجولة، وبرغم ما كنتُ عليه إزاء ظواهر محزنة مثل هذه وغيرها، كان الحب سيد تطلعاتي، يمسح آثار التدمير ويرمم روحي:

"مساء الخير سيدتي المبجلة، كان لصمتك ما يحزن روحي، فهل لك أن تطفئي نار الذي لا يحمل لك إلا الود الطاهر والتقدير الخالص ".

كأني بها كانت على موعد خفي مع رسالتي إذ لم تشأ أن تمهل نفسها ساعة أو ساعتين لترد، بل جاء ردها مباشرًا وفي اللحظة نفسها:

"أوَ كأنني لا أعرف، أو كأنك في اختبار؟ هوّن عليك أيها النبيل. أنا أيضًا أراك بالعين ذاتها. ألم أطلب منك أن تعتني بالإنسان الجميل الذي فيك من أجلي؟ لا تؤذه أرجوك. لا تقسُ عليه فهو شفاف حساس نقي مثل

كرستالة نادرة تختزن الأنوار، لتعيد بثها شعاعًا يفوقها ندرة. لك في الروح مقام عالٍ".

قلت لصديق حميم كان يجلس إلى جانبي؛ أنا الآن سعيد. لقد تبدد الحلم البغيض! دعني أسلم على الناس جميعًا، الأطفال والشيوخ، الرجال والنساء، بل على الأرصفة والشوارع والجدران. كنت هائمًا أيتها المرأة النبية، لك أجمل قصصي وأعذب أمنياتي، بل لك روحي.

لم أصارحها بشكوك زوجتي، كنت أتطامن مع خيالات عاتية، منساقًا مع وهج الحب، متغافلاً عما يجري في الخفاء من سعير، كان الحب في أوله، وعليّ ما أمكنني الحفاظ عليه، فهو هنا كالطائر الغريب إن فزَّ على ريب يطير ولا يعود.

"الآن رُدّت الروح. أشكركِ وتبارك قلبكِ النبيل".

هكذا أجبتُ. هكذا رددتُ وقبضتُ على أمنياتي.

- إنه شيء كالريح، خاطف، مارد، موار. أنتَ تأخذني، أو هو في تقدير صحيح، الى أشد المناطق حساسية، لا سيما في هذا الوقت وفي هذا العالم المليء بالمعارك والحروب والفناء؛ "حب هذا العصر" يا له من عنوان ساحر وجذاب، ويا لرفاهية بعض الناس. إستمر في العرض، فلا بأس من أن نطلع على موضوع كهذا، ولو من باب الفضول الذي قد لا يكون مشروعًا لنا القيام به، وكأننا نطلع على أسرار رسالة مغلقة، سقطت من يد حاملها في الطريق. لكن ما يبرر فعلنا أن العنوان مغر،

محايد، ومفتوح، ومهما كانت أسراره فلا أظنها ستكون أسرارًا مؤذية، أو هكذا أحتمل أو دعنا نحتمل من أجل أن نبدد وحشة أيامنا المتطاولة، التي ليلها المرعب أطول من نهارها الملبد. ربما سيكون من المستحيل أن لا نحس رعشة الحب، تنبث في نفوسنا "المتماسكة" . سيكون من غير الممكن أن لا تخترق نفثاته نوافذ قلوبنا المغلقة.

لم أجب، كنت أريدها أن تقول ذلك، بل وتشاركني القراءة، وتمتد أعصابها معي حتى النهاية، حديثها هذا منحني شعورًا بالفوز؛ أن لقيتي لم تكن بالبائرة. ما حسبته اللحظة على أنه إنطلاقة نفسية جامحة؛ الخاطف والمارد والموار، وأشد المناطق حساسية، إنما هو انفتاح النفس المحاصرة، جراء ما يبهجها الآن أو يحرضها على منابع لذتها أو متعتها أو ما هو أبهى بتعبير أخص.

الرغبة المستحيلة

أشعر أحيانًا أن ما يتطلبه الذوق أن تكون هنالك فسحة لنا بين رسائلنا المتبادلة، أو هذا ما جُبلتُ عليه في علاقتي بالآخر مهما كانت متانة علاقتي به، ولكن من يعرف حجم رغبة هذا الآخر في الواحد المشترك بين إثنين؟ وبرغم ما كان يواجهني من صعوبات جراء عملي المرهق في المؤسسة والطريق الممل منها وإليها، وأجواء البيت التي ما برحت مشحونة مترقبة، كنت أشعر ببهاءٍ نفسي قريبٍ من بهاء مَن ينتظر رسالة جميلة أو هدية مفرحة، لذا لم أُفاجأ حينما نطقتْ رسالتُها، تأخذ عليّ صمتي وسكوتي الظاهرين.

"ما لها الكرستالة؟ أين بريقها الخلاب؟ لمَ الليل طويل هكذا؟ لقد ضلل عنادل الغبش. أين تغريدها البهيج؟ إني لا أسمع فهل وهل؟ إن كانت بخير فهذا

أقصى الأماني. المسرات كلها لك وسلامي لمن في القلب مكانه"

أمسى علي اللحظة أن أسمع دواخلي، لقد بدأت تتكلم أو تهذي دونما إذن مني. المخطوف أنا كان يسمع ولا يريد أن يكتب، جف الحبر أو تلاشت ذراته في الفضاء، وتناثرت هناك الأوراق، كان همه أن يتابع الصورة التي ملأت خياله والمحطة التي عليها قدماه. لم يستعجل الردّ، فالحلم واليقظة له، وها هو زمنه السعيد لم يغادره لحظة بعد؛ نفسه شبه الخرساء اطمأنت أخيرًا لتنطق بعد ساعة بما كانت تفح به جوانبها وهي هائمة في اللامحدود:

"يا سيدتي، ما مرّت لحظة إلا وأنتِ معي؛ فوق رأسي وبين عينيّ وتحت ضلوعي؛ مقدسة غاية التقديس، محبوبة أعظم الحب. غدًا سيكون لي متسع من الوقت لأدعوك الى طعام الغداء في أي مكان تودين. أيتها الملاك الذي وهبنيه ربي، أقبّل عينيك وأنتظر ردك".

– حتى الآن، ونحن نسبح في هذه الهيولى، كان يخيل إلينا أن علينا أن نتسامى فوق آلامنا، آلامنا الكثيرة التي أضحت تتألب علينا. لم تعلمنا هذه الرسائل ذلك، بيد أنها لصدقها وحرارتها أصبحت تذكرنا بذلك؛ تذكرنا بأن ما نفتقر إليه هو هذا؛ جزء صغير من التسامي لنتغلب على أوجاعنا، ولكن ليس بشيء غير الحب.

– حصل لي مثل هذا وكان سريعًا، يوم كنت طالبًا في المتوسطة، أركب الباص. حملني الإزدحام الشديد ومضايقة أحدهم لفتاة جميلة على التخلي عن مقعدي لها. ظللت بفعل الوضع نفسه واقفًا " فوق رأسها" لا أتزحزح، أنعم النظر في جمالها وفي ضفيرتها الشقراء كيف ضفرتها أو من ضفرها لها، وعلى ساقيها الصقيلتين حتى توقف الباص في محطته الأخيرة. هناك وقبل أن نفترق، تجرأتُ واقتربت منها وسألتها؛ في أي مدرسة أنتِ؟ لم تجب لكنها بادرتني؛ وأنت؟ قلت النظامية، وكانت قريبة منا، قالت؛ آه، وكنت أحسب أن إسمها مريم حين سألتها هل إسمك مريم، أجابت فاتن، قلت ما أجمل الأسماء، أجابت ولكن مريم أم المسيح، ومضت بين مجمع الحافلات مثل غزالة في غابة ملتفة، ومنذ افتراقنا حتى أشهر عديدة ظلت صورتها وكنت أجهل إن كانت طالبة أم لا ، مصدر سعادة لي. لقد غمرتني بلحظاتها الجميلة تلك، وبرغم أن هذا لم يكن حبًا لكنني ما زلت أتذكر لحظاته تلك بود. لقد حصل شيء سهل، لكن لا أظنه كان مجانيًا، منحني سعادةً وخفةً طفلتين حتى أنني كنت أتملى جسدها بشغف عميق، وهي تغادرني وتلوّح لي بيد بيضاء. ما منعني من متابعتها أو إطالة الحديث معها موعد الإمتحان، ولو لم يكن في الحصة الأولى لتغير الأمر.

– إذًا لتزوجت غيري؟

– أنت تعرفين أنك كنت تدورين في فلكي مذ خلق الله الكون، وأعتقد أن الفتاة مسلمة، تبينت ذلك من الصندوق الصغير الذي على هيئة قرآن نهاية السلسلة الفضية التي تطوق عنقها.

اتصلتْ بي، وكنت في حقيقة أمري مشبوب العاطفة، لا أفكر إلا بها وبصوتها وصورتها. في هذا الاتصال أعلنتُ لها عن أمر لم تعد نفسي تطاوعني على السكوت عنه، كان يتسامى بي فوق خصوصياتي الكثيرة، وفوق ما كان يحصل في بغداد ومدن العراق كافة، من قتال الأمريكان من جهة، والتقاتل بين أبناء الشعب أنفسهم من جهة أخرى، والإنفجارات المدوية التي تحصد الناس الابرياء من جهة ثالثة، ورغبتي فيه تتأجج لحظة بعد لحظة وتزيح ما عداه بألف عذر وعذر، منها أن الحياة تمضي برغم ما يحيط بها من آلام وأوجاع أورَثَناها الإحتلال، وأننا على هذا الصعيد أو سواه جزء من ذلك ولسنا استثناء.

إعترضتْ اعتراضًا كاد يكون قاطعًا، إن لم يكن كذلك تمامًا، إذْ أعلنتْ؛ إن الذي بينها وبين زوجها الشهيد من عقد وإرث وتاريخ ما يزال قائمًا، وإنها تتصور نفسها حتى الآن في عقد معه لم ينفصم، ثم هناك علاقاتها الاجتماعية سواء الخاصة أم العامة؛ أهلها، زملاؤها في الفن، زميلاتها في المدرسة، أشياء شائكة أخرى، ثم أنه قد يعود، كل شيء جائز في هذا الزمن العجيب، إذا كانت الأمور الصغيرة تحدث في الزمن السهل، فلماذا لا تحدث الأمور الكبيرة في الزمن الصعب؟ قد يكون يطوف الآن على جثث رفاق وأصدقاء أكلتهم الحروب، ثم يعود، أنا أؤمن بالغيب ومقدرات الغيب، إنه موجود في نقطة ما من السماء، مثل حبة قمح مرمية على الأرض، وكما تنبت هذه يعود هو، دعني أحبك وكفى. وإذا عاد؟ قلتُ، هنا ستكون له الغلبة حتمًا وستكون أجمل

صديق لنا، ألم تكن صديقًا له؟ لماذا نفكر في هذا ولا ندع الأمور على شفافيتها هذه؟ أليس هذا أجمل ما في الوجود؟ وكنت أرد عليها؛ سأموت. صدقي إنني قد أموت، وكانت تهوّن الأمر بروح الأم المقدسة، وتداري ذلك بحكمة الإلهة الكاملة، حتى برد جسدي وبردت روحي، سأترك الموضوع لكِ وللأيام القادمة، ولما يتقرر في المجهول أو في الأعالي، حيث لا يجد الإنسان نفسه هناك إلّا مقودًا منصاعًا سواء أكان الأمر له أم عليه.

وحسبت أنني خسرت المعركة، هذا إن كان الحب الخالص يُعدّ يومًا معركة، غير معركة النفس العظيمة المتجلية بكل ما تحمل هذه الكلمة من مبنى ومعنى.

نعم. شعرت أنني خسرت أهم معارك حياتي. المعركة الأعظم التي أنتظرت طويلاً الفوز بها. اذن يا لحماقتي وغفلة عقلي، هكذا بدأت أفكر؛ إذًا يا سيدتي بيديك مفاتيح حياتي فنامي الآن ولتصبحي على خير، نامي كأي طفلة سعيدة كلّت من اللعب مع الصديقات والأصدقاء، نامي قريرة العين، فارغة الفؤاد، جميلة مثلك في كل حال، واسلمي ولو لخيال يطوف حولك كل لحظة وكل آن، لبقايا رجل متمسك بقدره معك، مؤمن بأنك، على أي صورة كنت وتكونين، هبة من هبات الله.

أخيرًا بدأت أفكر بأن هذا، هو السبيل الوحيد للإعلان عن حقيقتي، فإن كان كذلك، فلا أظنني نادمًا الآن أو سأندم غدًا. لقد

أوصلت حقيقتي ويكفيني أن أكون صادقًا وصريحًا وملتاعًا، فليس بالشيء اليسير أن يصمت العاشق طويلاً، وإن لم يكن الأمر كذلك فطاقات الناس مختلفة، ولربما كان أفضلهم، أسرعهم إلى الاعتراف بحقيقته. وحقيقة فإنني ما أعلنت عن ذلك إلا لما بي من رغبة في الدخول في عالمها المغري والجميل معًا. كنت أشعر بحب عظيم دخل قلبي وعليّ أن احقق تنفيذه لا لأتخلص من عنفوانه، بل لأمارس السعادة المطلقة معه أو فيه. ولربما كان من المعقول القول؛ إنني بإعلاني هذا كنت مندفعًا غاية الإندفاع وبرغبة صادقة، وإن لم أكن رسمت حدودًا لطاقتي أو تبصرت حجمها، كنت نويت ركوب المغامرة دونما حساب، ذلك أن عقلي وجسدي كانا يفحان بها وبحبها، كنت أشعر انني مندفع الإندفاعة التي ليس من وراءها ندم على شيء، فهل أجمل من حبيبين فنانين يقرآن على سرير مشترك، أو يتحاوران على صناعة لوحة وتسودهما لذة عاتية؟ لقد ألغيت الحدود والمسافات وحتى الأعراف، إذ كانت بالنسبة لي، كالعروة التي تمسك بها ذلك البدوي فحسب أن فيها ربه ودينه ودنياه، وبالتلي شفاءه ومبتغاه.

إن الحب الذي على شاكلة حبي هو مجد، والاعلان عن مجد شيء مغر ويثير المتعة والسعادة، فلماذا لا يكون الأمر صريحًا، ولماذا التخفي خلف مظاهر كاذبة، كلا. إنني لسعيد الآن، لقد قلت كلمتي، وكائنًا ما كان أو سيكون صداها، فإنني أظنها قد وصلت.

- ألا نعاود شرب القهوة من جديد، المطر يشتد، والريح تعول، والحب يلفح، ثم ألا ترين أنّ في الحب يصبح كل شيء جميلاً؛ الريح،

البرد، المطر وحتى رغبة زوجين كهلين في ألّا يناما متباعدين في ليلة باردة؟

– القهوة جاهزة، أما ما عداها فلا أظنه قائمًا الآن، ألا تذكر كيف يفترق نومنا حين نقرأ الكتب؟

– نعم أذكر ذلك. كان سحر القراءة يبعدنا عما سواها. كان الكتاب يسحبنا الى بساطه، فينسينا ما كنا ننام عليه، وما يفترض أن نفعله عليه كذلك!

لم يكن فراشنا وثيرًا ذلك الوقت، فكانت جلودنا تنسلخ عليه، يتبين لنا ذلك ونحن نغتسل معًا في الحمام، ولم يكن ذلك إلّا عذبًا وشهادة تفوّق مشترك لذيذ. أرى ظهرها الأبيض أحمرَ ملسوعًا وترى ركبتي منزوعتي الشعر محكوكتين، فيضحك كل منا على ضريبة الآخر، ونهزل إذ ينهمر الماء على جسدينا وروحينا، فنتداخل أو نتمازج كرة أخرى في لذة مبلولة، متمهلةعادة ونواصل الإغتسال، ولا شيء أسعد من ذلك، ويا لعقولنا البريئة تلك. تجنبنا الإنجاب عشرَ سنوات؛ عقدًا من السنين جبنا فيه العراق جنوبًا وشمالاً، الفرات ودجلة وشط العرب والخليج والزاب وجبل سفين العظيم، أوربا الشرقية والغربية، عدنا من كل هذه بهدايا بخسة وثمينة أغلبها صغير، كنا نضيق بكثرة المحمولات، نميل إلى الخفة ولا نزعج أنفسنا بالأثقال حتى لو كانت على صعيد النفس، بهرتنا أضواء المدن وأنهارها، السين والراين على وجه الخصوص،

الحدائق والمتنزهات، ازدحام الحشود وكأنهم في حشر في المطارات، لن ننسى منظر برج إيفل علامة باريس في الليل مثلاً ولا كنيسة صوفيا بين أضويتها، إذ تلتفت إليها وأنت في عُلاك؛ تشق طريقك الى جبل فيتوشا فتبدو لك مثل شمس تظهر لك في ليل، ذكريات لا تحصى وجمال بشري لا ينسى في الشوارع والمقاهي، في الحدائق والحانات أو على سواحل البحار!

– إذًا تناول قهوتك قبل أن تبرد. أو لعلها لن تكون كذلك، فلها حرارة قلبك الذي أحس غليانه الآن!

أنفاسي وأنفاسها

أيام مضت بسرعة الريح، لكنها كانت تدق على صدري بحوافر الخيل، حتى لأخشى أن يسمعها غيري؛ زوجتي مثلاً. لقد تجمع سحاب العالم كله في صدري، وأنّى التفتُّ كانت صورتها المنفلتة من بين جموع الناس، تملأ ببهائها عيني. أراها تنأى عن البشر وحتى عني، وكما لو أنها في حال من اكتشف في الصديق غدرًا أو خيانة. كانت الصورة الخيالية لوحة قائمة بنفسها، لو وصفتُها لها لرسمَتْها بإلهام فريد. إمرأة في طرف من الشارع تفصلها عن رجل ينتظرها في الطرف الآخر منه، حشود رمادية كثيفة كأنها الدخان، تشقها بفرادة جامحة منورة الوجه دون سائر الوجوه، ساهية النظر فلا يبدو عليها أنها على موعد مع أحد، تمر قريبًا منه ثم حين يشخص أمامها تشيح عنه أو لا تلتفت إليه، وكلما طاردها أو سعى إليها توارت عنه أو تناءت وظلت هائمة في ملكوتها

بين الارض والسماء. لا ياسيدتي، كل شيء إلا هذه الأحلام! لقد أقمتِ في روحي أعمدة من الضياء، ورسختِ فيها بوادر الأمل، والهمتِني آيات من الذوق واللياقة والكرم. فمن يغفر لك هذا الصمت ومن لا يعذرني على هذا الجوى؟

برغم لوعتي كنت أكذب نفسي وأكذب الواقع، آمل أن تتحرك أناملها فتكتب لي، أو يرن صوتها العذب في مسامعي. إنني أعرف مشاغلها وهمومها وأقدرها حق قدرها، ومع ذلك فإن أحلامي كانت تزداد، في أن لا تمر هذه التجربة المترعة بالأخيلة مرور الكرام. إنني أشك في ذلك، ثم أليس مصير البشرية مرهونًا بالحب والحرية منذ علاقاتها البكر ومدوناتها الأولى؟ أليس ذلك بالروح قبل الجسد، فلماذا نبخل على أنفسنا بطاقات الروح التي لا يفجرها بهذا العنفوان غير الحب، حبنا هذا؟ وإنني لأسألكِ هنا، إلى ماذا تهفو روحك كل صباح حينما تتطلعين إلى زهرة تفتحت توًا في حديقة بيتك، وإلى العصفور يحرض جناحيه على اختراق الفجر نحو زرقة المجهول في مديات السماء؟ بل ماذا يحرك فيكِ البرعم الطالع توًا من عمق الأرض نحو النور والهواء؟

نعم. ها هو شهر يمر، يسودنا فيه صمت كسيادة الموت، وكلما حاولت أن أعيد الحياة إلى ما كانت عليه، اصطدمتُ بتوجس قاهر كانت وراءه هذه المرة صورة الفنان التي بدأت تظهر لي مفزعة بعد أن كانت قريبة مني بلا حدود. كنت أريد المثول بين يديها كما يمثل الطفل

أمام الأم الرؤوم، هل أقول شيئًا غير ذلك؟ لكنها الكبرياء، أأقول الكاذبة، التي كانت تقوم أمام حبها العظيم وصمتها العميق. إنها بعيدة عنى الآن، أنا بعيد عنها كذلك، المسافات بين مناطق بغداد واسعة، بعد مكالمة مباشرة بالتلفون الأرضي وجدت نفسي ملزمًا للقيام بها، مهما كانت اعتبارات نفسي لنفسي، فوجئت بأنها كانت مريضة، فتأسيت عليها لأنني أعرف حجم ما يأخذ المرض منها. دعوْتُها لوجبة غداء كنت اقترحتها في رسالة سابقة. إعتذرتْ وأحالت ذلك إلى صعوبة الظرف الأمني المضطرب، والتحوطات التي على المرء أن يحيط نفسه بها، فـ "أن لا تُقتل، تُختطف أو تُسلب نقودك، أو تُجرد من ملابسك، كل ذلك صعب للغاية بل لا يمكن تصوره "، عندئذ قد تتهمني بالجبن والخيانة إذ تستنجد بي فلا أنجدها، هي التي حضرت من أجلي وعلى موعد معي، وهو ما كنت أخشاه ولا أساوم عليه. ثم جرت إعادة مصارحتها من جانبي عن الشعور الحقيقي الذي أكنه لها منذ أن رأيتها حتى الآن.

قبل أن أستعيد هدوئي، شعرت أنني تطلبت ما يمكن أن يعد مستحيلاً في مجال ملغوم بالمفاجآت كل لحظة، ومن دون سابق إنذار. لقد قُتل الناس بالمجان، واختُطفت نساء بريئات وعُبِث بعفافهن الكريم، وقطعت بالسكاكين الملوثة أثداءهن الطاهرة دونما سبب مبرر أو مشروع، قُطعت رؤوس أطفال وصبية، شباب وكهول، ولطخ الامريكان البعد الوطني والطقوسي لمدن العراق، وصار الموعد المقدس

الجميل، شيئًا يمس اللياقة والذوق ولا مجال للتفكير فيه، وبدلاً من أن أسقط لومي على نفسي وحدها، لعنت هذا السِفر الأسود الملطخ بالدم، بل لعنت جميع أباطرة التأريخ بلا استثناء، كنت أفكر أن قتل الفرح في نفوس الناس، عمل من أدنى الأعمال بلا تحفظ ولا استثناء، فكم اكتظ هذا المدوَّن الفج بآهات ملايين الناس دونما حساب!

ها أنا أهرب من الصور الكئيبة المؤذية، قرفت منها، أضعها في حفرة عميقة، عميقة جدًا وأهيل التراب الأسود عليها، ألوذ بصورتها الجلية الناصعة؛ هي الحقيقة الواحدة الوحيدة، ألمس جسدها وأتملى جمالها، أريدها وأفكر في الوقت عينه في الحيف القاهر إن نازعني أحد على حبها، لا شيء يزيح ما يُثقل صدري إلا قربها، حينما تمتزج أنفاسي بأنفاسها.

تداعيات السفر إلى دمشق

يشاغلني أصدقائي الثلاثة الذين يعملون معي في قسم التحرير، بهموم البلد بعيدًا عما تقدمه عامة صحفنا الرسمية، ولا سيما الطبيعة الغائمة للوضع القائم برغم مرور أربع سنوات على تأسيسه، وقد عمت الفوضى، وصار الموت على الهوية مجانًا ودونما قصاص رسمي، يؤشر الحالة أو يعالجها بما يتناسب وحجمها أو ثقلها، وبعد أن أمست الجثث المجهولة والمعلومة تطفو على سطح دجلة، فما تلبث ان تتهادى حتى القاع لتدفن هناك، أو تنحرف حتى شاطىء من شاطئيه، وكنا نتساءل من هي الجهة التي بيدها مقود الحكم، من هي الفئة المتنفذة فيها، ثم من هي الجهة المقابلة لها التي تدحض مشروعاتها، قوتها، مهادها، بعدها الستراتيجي، نظرتها السياسية والعقائدية، الجهات، الأحزاب، العشائر، القوى الإقليمية والعالمية، وأخصها الولايات الأمريكية "اللعوب"

بحسب سعيد الذي له اطلاع واسع وعنيد على تاريخها "القمعي الملوث بدماء الشعوب"، وما نلبث أن نعود إلى همومنا الكثيرة ومسراتنا القليلة. ولعل ما جعل يسودنا اليوم، أننا نخفي مسراتنا مهما كانت صغيرة أم كبيرة ونعلن عن همومنا، أن هذه الأخيرة أمست لصيقة بحياتنا، إلى حدّ أننا ما نفتح عيوننا على صباح، إلا وعلى سطوح آذاننا ترقب ما. سعيد اعتذر عن الدوام اليوم لكي يتابع مسيرة اختطاف عمه وابنه بذراعين مكتوفتين، فقبل أيام اختطفوا إبن عم له شاب في بواكير عمره، ثم هاهو أبوه يذهب وحيدًا بحسب شروطهم ليقدم فدية؛ مبلغًا كبيرًا من المال ومسدسًا ورشاشًا، اختطفوه هو الآخر بكليته؛ هو وسيارته والفدية والمسدس والرشاش وانقطع الإتصال، كل ذلك يؤلم خاطري ويرميني في الدائرة نفسها التي تدور بالناس الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم وقعوا لهذا السبب أو ذاك في أحبولة الجريمة الغاشمة. كذلك كنت أعلم أن بلقيس تواجه هذه الأيام وضعًا نفسيًا لا تحسد عليه لصعوبات، ترتبط بسفر أخيها الى خارج العراق طلبًا للأمن والعمل، منها غلق الحدود مع العراق، كما أنها في الوقت نفسه، لم تكن ترغب في أن تدخلني في علاقة جانبية عزمت منذ ولادتها على أن تنأى بي عنها.

في مكالمة مع صديقنا الفنان علمت أنها قد تسافر إلى دمشق قريبًا إن لم تكن سافرت، علمت ذلك بطريقة غير مباشرة دفعًا للشك أو الظن، إذ سبق أن كررتُ ذكر إسمها أمامه مدفوعًا إلى التخفف مما كان يضيق

به صدري من حبها، ويبدو أنها فعلتْ الشيء نفسه أمامه أيضًا، كما صرّح هو لي بذلك بتوكيد ثقيل " السيدة بلقيس تمتدحك وتقدر إعجابك بفنها كثيرًا"، كل ذلك كان يأتي طوعًا وبلا وعي، نصرّح به أو نصرخ به حتى، في وضع يغيب فيه وعينا. على أي حال شعرت أن شيئًا عظيمًا يُجهض في داخلي، إن المسافة بين بغداد ودمشق، هذه المرة، وقفت بيننا، ولا أدري مم غضبتُ، منها أم من نفسي، أم مما يحيط بنا ويلتف حولنا ويختلق كل آن ما يهدم فينا، من أبنية نفسية وعاطفية وحضارية، بل ووجودية كذلك؟ بتُّ أتساءل لِمَ لم ترد على رسالتي ولماذا لم تخبرني بسفرها لكي يطمئن قلبي، وكيف يعلم الفنان بذلك أولاً ولست أنا؟ إنّ ما يخيفني الآن أن تجد في ذلك البلد ما يشغلها عني، فقد تُفتح أمامها آفاق عمل هناك، أو تسنح لها فرص للفسحة والتغيير، ذلك أن امرأة مثلها ستحظى بكثير من السوانح الممتازة في مجال الفن تحديدًا، وما عليّ، هكذا بدأت أفكر،إلا التذرع بالصبر حتى تعود. لقد صبرتْ كثيرًا، وعانتْ كثيرًا، وقد يتحقق لها ما يغذي طموحًا مخبوءًا، كانت منذ زمن قد لا يكون قليلاً، تتمناه وتهفو إليه، ولربما يُقدم إليها على طبق من بلور. وأعتقد أنها تستحق ذلك.

لم تكن ظنوني في غير محلها أو هكذا تطرفتُ في التفكير أو تطيّرت. فبعد انتظار صامت وقلق، ردت إليّ بعض الكتب التي سبق أن أرسلتُها اليها على سبيل الهدية أو الإعارة مرفقة برسالة داخل مظروف معنون على صندوق بريدي القريب من بيتي:

"العزيز جدًا، تعجز الكلمات عن التعبير، وأنا أتعكز على يقيني بأنك تفهم وتقدر. لك كل آيات الشكر والإمتنان، فقد أعطيتني من الدعم ما يكفي ليشد أزري ويوفر لي الأمان".

(بلقيس اليماني)

هكذا كان عليّ أن أواجه هذا الأمر الذي حسبته جديدًا وغريبًا عليّ وغامضًا كذلك. مرة أخرى أخذتني دوامة الأسئلة والتأويلات، لم يكن إزاءها غير الصمت أداري به وضعي، وغير الأمل في رسالة جديدة تُقبل إليّ منها، تكشف لي بعض ما غمض عليّ في رسالتها هذه، وولّد حزنًا في نفسي. ها هو يوم جديد بعد أيام طويلة مضنية، يضع فاصلة لترددي وعذاباتي، إذْ كان عليّ فيه أن أرسل لها رسالة، في محاولة من أشق المحاولات وقعًا على نفسي، وفي الحق ومنذ أيام كانت تتنازعني رغبتان، كلتاهما شديدة عليَّ، أن أرسل إليها رسالة، أو أحجم عن ذلك. لقد وجدت طوال تلك الأيام، أنّ عليّ أن أكابد صبرًا عظيمًا، ذلك أنها كانت دائمًا معي ولا شيء إلا ويذكرني بها أو يشير إليها، لقد دخلت مفاهيمي وتصوراتي وأخلاقي وطقوسي، بل وحتى وساوسي، وكنت أقاوم وأقاوم ولعلني وجدت في الصبر والصمود، نوعًا مما يحفظ صورتي التي أسبغتْها عليّ، وكان ينبغي أن أتحلى بها، وهي مما يتفرد بها الرجل الممتاز. ولكي أنهي عذاباتي أرسلت:

"حزين أنا وأسيف. لكن بعد تفكير طويل، وجدت أن عليّ أن أسلّم عليك في ما قد يكون مغامرة، أرجو أن لا تكون مؤسفة، فتحيتي إليك قريبةً كنت أم بعيدة"

– إننا في الحقيقة نشقى بمواقف أعزّ الناس علينا، وقد تكون هي الأبلغ والأكثر عددًا في حياتنا، وبذا يكون بؤسنا متصلاً.

– أنتِ على حق في ما تقولين.

– حبك ألجأني إلى عرّافة؛ قارئة كف من نوع نادر، هي البعيدة وأنت القريب.

– أذكر ذلك فقصّي عليّ إن لم تكوني نسيتِ.

– فيما بعد، أتذكر جليًا ذلك ولكن فيما بعد، لا تُعجلني على شيء طارئ.

أفكر أحيانًا أن المسافات وما يشغلها مما يشكل حاضرنا، هي التي تحدد علاقتنا بالماضي، لذلك حين تخلو خواطرنا مما يحيط بنا، تتقلص المسافات تلقائيًا لتلقينا في تلك التي نعدها رحبًا ولم تكن جميعها كذلك. المسافات هذه تمسح الظلال القاتمة وتنوّر السطوح، لذلك نفرح ثم سرعان ما نعود، فمن علل السطوح أنها لا تحتفظ بالأشياء طويلاً.

أتذكر أنها جاءتني يوم ذهبتُ إلى عرّافة، برغم أن العَرافة والتنجيم مَكرَهة في ديننا، ولسوف تعيد المشهد كاملاً أمامي، وسأكون مسرورًا بذلك ولا سيما حين ختمتُ العلاقة بقليل من الدم، لا ستبق عقد

الزواج الذي سيختم هو الآخر بذلك. وليت ختام الأمور، كل الأمور، بالعطر!

الساعة الآن هي السادسة والنصف مساءً، ومنذ الواحدة، وهو موعد تسلم رسائلها، لم تصلني رسالة منها، سأستدعي طاقة، أرجو أن تكون قوية بما فيه الكفاية، لانتظار جوابها. غدًا ستنهض الحقيقة غير موشحة بأي وشاح، ولن أريدها إلّا كذلك؛ سافرة كوجهها، مضيئة كروحها، في هذه المدة الزمنية التي مرّ عليّ فيها جفاف كفيل بحرق غابة نخيل، لا أحسب أنها ستقول غير الصدق حتى لو كان الرد صامتًا. نعم. سيكون الوقع عظيمًا، عودةً سعيدةً لحب عظيم، أو صمتًا مطبقًا كريمًا لائقًا أشدّ اللياقة برجل مثلي. بل يا لسعادتي المفرطة! ما أعظم هذا المساء، ما أجلّه وما أجمله، لقد طارت إليّ رسالتها، الساعة الثامنة إلّا دقائق خمسًا:

"سعيدة أنا الآن، بعد ظن جاوز بي كل الحدود. ما أطول أيام الغياب والوحشة".

يا لجمال الأنامل، يا لرشاقتها. يا لصفاء هذا القلب الكبير، لنبله، وعذوبته، يا لتناسق الصورة والمثال، ويا لعبقرية الخلق الإلهي.

"اذًا لماذا هذا الصمت المضني يا سيدة عقلي وروحي، والمبادرة هي أبدًا بين يديك" "همومي أرهقتني، ومشاغلي الكثيرة كبلتني، ولم تغب عني".

بما أن رسائلنا في مثل هذا الوقت من الليل لا تنطوي على مغـامرة، ما دام مبيتي في المؤسسة، وأمتلك حرية الإطلاع على الرسائل مـن دون رقابة من أحد، كنت أقول يا لحظي العظيم ويا لسعادتي مرة أخرى، هذه الليلة سأحلق في الاعالي وسـأجفو النـوم. سـأقرأ وأنتظـر وأسـتمع الى الموسـيقى. سـأغادر آلامـي، ولـربما مارسـت رياضـة اليوغـا لأشـفي جسدي، وأؤهله لحب لم أعرف مثل عاصفته من قبل. أيتها المـرأة التـي كنت أنتظرها منذ ألف عام ما أبهج لحظاتي هذه معك.

أعتقد أنني الليلة أنجزت شيئًا جميلاً. لقد حققت حبي لهـذه المـرأة الفريدة، لقد أعلنته بصورة حازمة. لقد وهبتها سيادة عقلي وروحي، كما أنها أكدت حضوري في حياتها، هل ثمة شيء في الكون أعذب من هذا؟

الفنان يتصل

في لحظة غير متوقعة، وربما أمست أو ستمسي من لحظاتي غير خالصة السعادة، أن اتصل بي الفنان يخبرني بوجود بلقيس في بغداد. أشعرتُه بسعادتي وتغافلتُ عن حقيقة معرفتي بذلك. كنت على يقين يا صديقي من سفرها إلى دمشق لإقامة معرض لرسوماتها، هكذا اتفقنا بل أنا من اقترح عليها ذلك. مشاغلي الكثيرة منعت عليّ متابعة آخر أخبارها، الإتصال بها، إلا مرة واحدة أو الإتصال بك بعد أن علمتُ بوجودها هنا. لم نعد نمتلك أقدارنا، أمست لوحات فنانين عراقيين كبار، تباع في أسواق عمان كما تباع في سوق النخاسة أجمل النساء، هذا عار وطني، من هنا اعتكافي وعيشي على ما أنا عليه من زهد وكفاف، أرجو أن تكون واثقًا من أنني أفرح بلقياك. أغلق الجهاز وتركني في دوامة صغيرة، ولكن ملتفة؛ هذه الحميمية ببلقيس وتقصي مشاغلها،

هذه العفوية المنداحة التي يزودني بها بأخبارها! ترى هل قلبه مثل قلبي يضيق بحبها؟ وإذ كنت أعرف سجية الرجل بما لها من جذر ريفي ليس بعيدًا عنه تمامًا، برغم ما هو عليه من التقدم في مضماري الفكر والفن، كنت أتقبل منه هذه العفوية على ما تفعله في نفسي من أفاعيل. كنت أريده ألّا يكون غريبًا، لكن صورته السريعة كانت تصرّ على أن يكون كذلك.

ظن صحيح

الصمت يفرض سطوته على المسافة بيننا وليس غير رسالة عند الثانية من بعد ظهر اليوم لم أقل فيها سوى السلام عليك "لا جواب عليها. مضى منذ الخميس يومان صامتان لكنهما كانا عليّ شديدين، بالغي الشدة، فهنالك رغبة عاتية لمواصلة الإتصال، وسعادة عظيمة متحركة ذات نوازع لا مجال للسيطرة عليها، حتى جاء هذا اليوم السبت. لأنني أجد في هذه المدينة الجميلة "الكرادة" بعضًا من نفسي التي تهفو الى الشارع النظيف، والناس الذين يغلب على سيماءِ كثيرِهم طابعُ العافية والسلام، والمقاهي والمطاعم الكثيرة، وفرص الأذن الرخية التي لا تسمع فيها شيئًا نابيًا، هبطتها ظهرًا. كنت أنتظر كما لو من بين عتمات الغيب شيئًا يأتيني منها. إذًا لا بد أن شيئًا طارئًا حصل لها، أو أمرًا غير سارّ داهم قلبها، وفق ما يحدث لنا بمناسبة وبغيرها لكي لا ترد.

"مساء الخير. أرجو لكِ السلامة، وأطمع بمعرفة أخبارك التي أتمنى أن تكون طيبة لا يشوبها قلق ما". أرسلت وعدت بذاكرتي التي لا لجام لها، إلى الرسالة السعيدة التي وردتني اليوم من صديقي الشاعر الذي غادر العراق إلى دولة من دول الثلج الأوربي، بعد أن كان يتغنى بربوع مدينته الدافئة، بل قريته المترعة بالماء حتى كُنّي بالشاعر الرعوي."أنا الآن في اقصى سعاداتي".

جاءت رسالتها هذه المرة سريعة، بالسرعة التي أرسلت فيها رسالتي:

"أيها العزيز ظنك صحيح. أنا في بيتي الذي حطمه الأمريكان والخسائر كثيرة".

التفتتْ إليّ زوجتي يمتص صوتَها أسى شديد، وقالت تهمس لكي لا يسمعها الأمريكان، أو هكذا حسبتْ لحظتها:

- أنظر كيف تُحطّم بيوت الناس. ما لم تحطمه الزلازل يحطمه الإنسان. قالت ذلك وذهبت تعدّ لنا فنجاني قهوة آخرين.

- الزلازل لم تحطم مثلما حطم الإنسان، ثم إذا أخطأ الزلزال هدفه وهذا قد يحصل كثيراً،

فإن زلازل البشر في الصميم. نحن بحاجة إلى إعادة إنتاج. أرجوكِ لا تجعلي مزاجنا ينحرف نحو مسار آخر. دعينا نتمسك بهذا الشيء الذي وإن كانت له زلازله، فهو ممتع ولذيذ.

- أوافقك فأنا بحاجة إلى ما يعزز قناعتي بوجود امرأة على مثل هذه الأعصاب أولاً، ويسود قلبها هذا السلام ثانيًا. قالت ذلك وفتحت النافذة ليتسرب إلينا من الحديقة الأمامية هواء بارد، حتى حسبت ذلك فرصة لي انا الآخر لأزيح شيئًا مما تسرب إلى نفسي.

- الكرادة.

- ما بها؟

- وحدها كفيلة بأن تجدد العراق. لم أشك في كلام زوجتي، فأضواء الكرادة التي تغالب الظلام وحدها كفيلة بحفز النفس على إطلاق مثل هذا الكلام، ثم الناس الذين يأخذ كل منهم نصيبه من الحياة برغم ما يحيط بها من تهديدات. أنا أعلم أن الكرادة مدينةً، كانت تراود أحلام نسبة كبيرة من البغداديين قبل غيرهم من العراقيين. إلى جانب الكرادة أحببت الأعظمية التي تسكعت في شوارعها كثيرًا أيام الشباب، وكم شعرت

آنذاك أن المطر فيها أجمل المطر في بغداد. قلت:

- إنها لكذلك، فمدينة تحفل بهذا القدر من الناس وهذا التنوع الغزير، لجديرة بذلك حقًا.

حقًا، لقد ارتجفت أعصابي.انسكبتْ القهوة التي في قدحي على أوراقي، وتبلبلت حركتي بين إنقاذ الأوراق والرد على الخبر الفاجع، ومعاينة سلّة الاخبار المحزنة التي وضعت أمامي.

"أيتها الغالية.. ما جاء هؤلاء لينشئوا حدائق في العراق، ترى أي شيء أستطيع القيام به الآن"؟ لا أدري كيف يتأتّى لامرأة ألّا تتحطم ولا تنكسر ولا تنهزم، وكيف أنها ترد على الرسائل وتجيب بجَلد أعظم من جلَد الرجال.

استباحات الأمريكان

في ذهني عشرات الصور التي استباح فيها الجنود الأمريكان حرمة العراقيين، إذ اجتاحوا بيوتهم وحطموا ممتلكاتهم وسرقوا أموالهم، وتركوا للنهب والتدمير متاحفهم وأندر آثارهم وانتهكوا أعراضهم، من ذلك، ليس ذلك وحده، ما فعله بعائلة عراقية جندي أمريكي يدعى "ستيفن جرين"، الذي اغتصب طفلة ذات أربعة عشر ربيعًا، بعد أن قتل والديها وأختها عادًّا العراقيين ليسوا بشرًا؛ يدخل جرين البيت بحرية فائقة، وبالحرية الفائقة عينها يسحب مسدسه الأمريكي الأسود السريع الطلقات، ويقتل ثلاثة أنفس بريئة ويقوم بجريرته، لقد أغراه جمال فتاة بكر فسقط في شهوته، فأسال دمها البريء مرتين؛ "لقد عاملتهم كما لو أنهم ليسوا بشرًا". يعترف ستيفن بأعصاب باردة وينتهي كل شيء، فالقانون الأمريكي معدل في الأساس لحماية مثل هؤلاء الأوباش، حتى لو كانوا مغفلين!

ذهبتُ الى مستشفى الراهبات الذي غُيّر اسمه الى مستشفى "القديس رافائيل"، لفحص درجة السكّر في دمي، أنا أحب الفحص في هذه المستشفى لاعتقادي أن كل شيء صادق فيها، وكل ما فيها نظيف وجميل، بمن فيهم العجوز التي تقيس ضغطي، وتهديني مسبحة خشب صقيل في رأسها صليب، أصبحت هذه المرأة صديقتي المهذبة التي تدعو لي بالعافية؛ ضغطك شباب بالعافية، وتبتسم لي ابتسامة طيبة. أجمل من رأيت من نساء هناك طبيبة رقيقة العود ريانته باعتدال، في عودها هذا انحناء عود الخيزران على نسمة ريح. أتابعها بنظري حين تغادر غرفتها حتى تغيبها غرفة ثانية.

مساءً أذهب إلى ناد إجتماعي أجلس مع صديق جلسة طيبة جدًا، إلّا أن ثقل الحادثة كان مخيمًا على صدري، أقرر المبيت في المؤسسة. أباشر بالكتابة اليها:

"مساء الخير. أنا حزين جدًا. أقدّر وضعك. أشاركك الهم. أدعوك للصمود والثبات. أنت امرأة بحجم الكون، ما يترتب عليّ لا أتردد عن تسديده".

ترد بحجمها الملكوتي الراسخ، وبلغة راسخة هي الأخرى لايشوبها قلق أو ارتباك:

"أيها الغالي، هوّن الأمر. لاشيء يعدل صحتك. إطمئن فأنا بخير، أما الخسائر فهي كبيرة؛ مكتبي، الحاسوب، التلفزيون، الأبواب،

الزجـاج، التحـف، اللوحـات، حواملهـا، الفـرش الناعمـة والخـشنة، التخطيطات، الأقلام، الأصباغ وقـس عـلى ذلـك. إنهـا مجـزرة، لوحـة سريالية رسمها مجنون، جيراني الطيبون وقفوا معي وأنت كذلك."

هل أستطعت التعبير عن مشاعري. هل أفصحتُ حتـى الآن عـن عمـق انفعـالي وتـأثري. هـل شـاركت المـرأة العظيمـة حجـم مأسـاتها والخسائر التي لحقت بها؟

"من يعرف لماذا كان هدفهم هذا البيت، ما الذي اسـتدعاهم إليـه دون غـيره مـن بيـوت، ألم تفقـأ عيـونهم الكتـب الكثـيرة، اللوحـات، اسطوانات الموسيقى الكلاسيك عليها صور باخ، بتهوفن، موتـسارت، صور زوجين شابين يكسف جمالهما العيون"؟

إنه لحيف كبير أن يلحق ببيت مقفل، تركه أهله معلقًا بـين الأرض والسماء مثلما لحق بهذا البيت، إذ حُطمت الأبواب وعُبـث بالمحتويـات، وكُسّرت التحف وهُـشمت المـصابيح وسرقـت المقتنيـات، وأشرعـت الأبواب والشبابيك للريح، ومهما يكن من أمر فالموضوع هـذا إذا قـيس بموضوعات أخر، فلن يتعدى غير أن يكون لعبة سـوداء، لعبهـا رجـل أبيض لا يُحزن قلبه شيء من هذا بل ولا حتى غيره.

إلى مدينة السماوة

وأنا أحقق موعدي مع صديق لي، وكنت فرحًا بذلك لأنه اختارني لرفقته دون سواي، غالبني الشوق إليها، بعيدًا عن العهد الذي أقمته على نفسي حيالها؛ ألا أكرر كثيرًا وقعي عليها. لكنّ سبعة أيام زمن نفسي طويل على حبيبين متباعدين، وكذلك لكي أتدارك الغليان الذي يلهب عواطفي إزاء صورتها الماثلة أمامي: (امرأة وحيدة تعصف ببيتها الريح، تقف بجمال معلوم على هشيم مقتنياتها، تفكر في ما تعمل؛ ترمم أو ترمي) وذلك قابل لأن يكون لوحة مؤثرة أو قصة بعنوان؛ "تفاصيل" مثلما خططت لذلك، ولربما ستكون ضمن مجموعة قصص جديدة لي.

"لا أشك في أنني عذبتكِ البارحة، بعد أن أرسلت رسالتين وأغلقتُ هاتفي لظرف طارئ. ما أشد أسفي. أنا الآن في طريقي الى مدينة السماوة. أعتذر شديد الاعتذار. أيتها الشجاعة الفريدة، لأنّ

سماءك عالية أحلق دائمًا نحوك. الأمريكان قطعوا الطريق العام. إنهم في كل مكان".

"أنا الآن في طريقي إلى بيت الريح، أو ها أنا أطأ عتبته. لا أطلب منك سوى تجاوز حزنك، فقد فعلت أنا ذلك، روحي ذات كبرياء عنيد فكفّ عن القلق أرجوك، أنا بحاجة إلى قوتك المعهودة، دمت لي وتمتع بوقتك".

غادرت إلى مدينة السماوة مع هذا الصديق الذي شدتني إليه علاقة جديدة دافئة، إنما من النوع الذي يدخل القلب فيسبغ عليه الأمان. ولما كنت أميل إلى مثل هؤلاء الناس لم أتردد في قبول دعوته، فوق أنني عددتها تكريمًا لي.

ها نحن الآن بمواجهة الأمريكان بدباباتهم التي حرنت وسط الطريق العام، فوهات أسلحتهم موجهة نحونا، تدور مع دوران الرؤوس المغطاة بخوذ حديد، وجوههم سود وبيض، تترصد حركاتنا من وراء زجاجات سود ملتصقة بعيون غامضة لا نستشف منها إلّا خوفًا، مؤمنين بأن أي حركة من أيّ منا قد تؤدي إلى قتله في الحال. كنا نعلم أن ردّ فعلهم سيكون سريعًا وعنيفًا، في الوقت عينه نجدهم غرباء مذعورين، نقول أنا وصاحبي كم سيكون حجم اللعنة التاريخية التي حلت عليه؛ ذلك الذي ضللهم بـ"الطريق المفروش بالورود"! هناك أجبرونا على التوقف على مسافة بعيدة، بانتظار حركة منهم ومن بعدُ

متابعة سيرهم. لقد تراكمت قوافل السيارات بعد السيارات، وما نـزال نترقب، تحت قرار مجحف، بادرة تحـركهم، حتـى أشـعرونا بثقـل وقـع الإحتلال. هنا تساءلت أمن أجل أن لا يحصل مثل هذا، أسـلم صـلاح المناضل الشيوعي جسده لذئاب صحراء السماوة نزوعًا للحريـة وبرمًـا بالجدران؟ يتخفى صلاح حتى ينام السجناء وتثقل عيون الحراس، ينفذ بإعجوبة من أسوار السجن ويمضي إلى "حريته الداميـة"، لـيس أمامـه سوى المطلق المضل؛ الليل ومتيهة الصحراء، وعيون بدأت تطلـع عليـه بأضواء تثقب عتمة أي سـتار. بمـن فكـرتَ ومـاذا قلـتَ لحظتهـا، أي ضريبة بحجم ضريبتك يا صلاح والـذئاب الكـاسرة تتناهـب جـسدك الكريم؟ كم ارتعاشة تحت أنيابها الـصفر ارتعـشتَ، أي الـصور مـرت عليكَ وعلى أيها جمدتْ عيناك؟ يا إلهي مـن لديـه سـجل بـسعة الأرض ليحصي ضرائب القديسين؟

لأن صاحبي تململ وقاد سيارته بوصة نحو الامـام، ذُعـر الجنـدي الأمريكي الأسود ووجه فوهة بندقيته نحوه تارة ونحوي تـارة أخـرى، ومن يدري لماذا أثارته بسمة صاحبي حتى هبط اليه ودعاه بإشـارة مـن يده للترجل من سيارته. تردد بالهبوط أولاً ثم حـين رأى الإصرار باديًـا فتح الباب وهبط. تراجع الجندي الأمريكـي ومـا تـزال فوهـة بندقيتـه مصوبه نحوه، ثم قال بصوت أجش:

Raise your hands.

ما لم أتوقعه أنّ صديقي أجابه وبصوت أعلى:

Never.

ذهل الجندي الأمريكي على قرار صلب غير متوقـع، لكنـه أضـاف وبصوت أعلى:

I said raise your hands.

I said never.

استدار الجندي، مكث لابثًا في مكانه يتمتم بكلـمات مبهمـة لكنهـا تبدو مستسلمة، تحرك شمالاً وجنوبًا مرة تلو مرة، عاد بعدها إلى موقعـه، وسأل بصوت هادىء كما لو كان مأخوذًا بصلاة:

Why?

رد عليه بعفوية هادئة هي الأخرى، وبـصوت فيـه إقـرار تعليمـي راسخ:

Because you are a soldier, and I am a teacher, a great teacher.

لا أظن صديقي مدرس التاريخ كان ضليعًا بالإنكليزية لـيرد عليـه الرد الأنسب؛ بأنه إبن هذا البلد وأنه محتل غريب. ومع ذلك أسقط بيد الجندي الذي لا يبدو أن لديه أوامر بالقتل، عـلى حركـة تـشبه النأمـة لا تشكل خرقًا للنظام أو تهديدًا للحياة، وفي مسافة غير قريبة من آليـاتهم.

لحظات ظل يتملى وجه صديقي حتى لكأنه يبحث عن سمات المعلم فيه، ثم حين وجدها، عاد أدراجه منكسًا رأسه وارتقى دبابته وخفض فوهة بندقيته. قلت، لقد كنت شجاعًا حقًا، موقفك هذا لن أنساه، لقد تحديت جنديًا أمريكيًا لديه أوامر بالقتل على أي حركة، وأتذكر أن شابًا من محلتنا مرّ بالقرب من دبابة عليها جنود أمريكان، يحمل موتور مبرّدة كان أصلحة توًا، وها هو يعود به إلى بيته حاملاً إياه بيد على كتفه، كان الوقت مساء فظنوا انه يحمل قنبلة سيلقيها عليهم ففاجأته رصاصة اخترقت صدره. قال كان يمكنه أن يقتلني من مكانه لكن حياتي وكما يبدو أقوى من موته، ثم أن هذا الجندي الاسود لابد أن يكون هنالك في حياته معلم عظيم شخص اللحظة بين عينيه، أرايت كيف خفض فوهة بندقيته حال سمع بي معلمًا؟ قلت، تمامًا وسكتُّ، كنت أرى ململة آلياتهم وهي تشرع بالمسير، وطفيف تنفّس سياراتنا التابعة، كنا في حال نجوى.

تحركوا بطيئًا بطيئًا أول مرّة، ثم في أقصى سرعة لهم. لقد ظلت المسافة الفاصلة بيننا وبينهم، ثابتة إذ لا يمكن محاذاة آلياتهم أو تجاوزها، لم تغادر فوهات أسلحتهم نقاطها المحددة من رؤوسنا أو صدورنا حتى انعطفوا نحو جهة ما، وغابوا في المدى المفتوح على الجانبين.

رحلتي إلى السماوة، التي جاءتني بدعوة من هذا الصديق، في سيارته الصغيرة الأنيقة، كانت من أجمل الرحلات نحو مدينة عراقية. لقد جمعتني رحلات كثيرة إلى معظم مدن العراق بأصدقاء ممتازين،

وكانت عمومًا رحلات ناجحة وممتعة ومقرونة بذكريات جميلة لا تنسى. أما هذه، فما يميزها أنها في سيارة خاصة ومع صديق واحد. وهي السفرة الأولى لي معه، والرجل دمث الأخلاق طيب السريرة حلو المعشر، يقدرني ويحترمني ويكن لي مودة ولطفًا، وكما أشعر نحوه تمامًا. كانت هذه الرحلة أشبه بأغنية عذبة مع خلّوها من الأغاني. كنا نستمع طوال الطريق، الى قراءة قرآنية مسجلة بصوت مقرئ مصري لا أعرف إسمه، يقلد بامتياز صوت محمد صديق المنشاوي، المقرىء العظيم الذي أحب قراءته حبًا جمًا، وأضع لها امتيازًا لا يدانيها فيه أي امتياز، وأشبهها من بين القراءات بخط الثلث من بين الخطوط.

لقد استُقبل هذا الصديق في السماوة استقبالاً حافلاً، من لدن أصدقائه ومعارفه وزملائه، فقد كان مدرسًا سابقًا في المدينة، حظي كما يلوح باحترام الناس ومحبتهم ونبل صداقاتهم. ألقى في اجتماع عقد على قاعة مديرية تربية السماوة، كلمة صادفت هوى جميع الحاضرين ولاقت استحسانهم، وكاد يبكي. ثم قرأ بعضًا من قصائده وكانت جميلة ومؤثرة كذلك، ثم تتالت الكلمات متناولة شخصيته، وطابعها التربوي والذكريات معه. مساءً أغدقت علينا دعوات المبيت، فكان أن اخترنا بيت ناقد صديق، هناك تناولنا وجبة العشاء، وتعللنا حتى ساعة متأخرة من الليل بموضوعات تناولت الثقافة والنقد، وهل ثمة مطالع جديدة لثقافة عراقية مغايرة فاتفقنا واختلفنا، وكنت متحمسًا لبزوغ ثقافة طليعية ناهضة، على أيدي شباب مثقفين، أكاديميين وغير أكاديميين،

تمتلىء بهم صحف تعد بالعشرات لم نعرف مثلها وعددها قبل اليوم، وأخيرًا عطف مضيفنا حديثه على الحب فدرنا فيه مسحورين بتجارب يتيمة قبل الزواج، لكنها كانت من الغنى ما جعلت بعضًا منا لا ينساها حتى بعد الزواج، كنت تحدثت عن حب سليمة أول حب لي وكان ذلك في صباي، بينما كنت مكتظًا بحبي الجديد، متكتمًا على الإعلان عنه برغم ما كان يفعله في داخلي. نهضنا في الصباح الباكر، كان الفطور اللذيذ بانتظارنا، ومضيفنا كان متعة فريدة بأخلاقه وحسن ضيافته وشتى أحاديثه. في الطريق ونحن نعود كنت أشعر أنغامًا تمرح في نفسي، كما تمرح غزلان في مرج أخضر، ثم إنني لم أدرك إن كانت أحاديث الليلة الفائتة أو أشعة الصباح اللينة تستل من صدري بعض أسراري، وهناك في ذلك المرج بحت له بها. وقف سيارته على هامش الشارع واستحلفني أن أصرح له باسمها. إن ذلك مستحيل، قلت له وهو يهددني بتركي وحيدًا في العراء. كنت أعرف انه يمزح إذ لم يسبق أن اجتمعنا على شيء مثل هذا، كانت رصانته منذ انطلاقنا حتى هذا الوقت تمنعني من التفكير الجدي بتهديده، لكنني إن كنت أعرف عنه أشياء، لم أعرف مدى حرمانه من حب جديد مضى يحدثني، ونحن نتابع سيرنا، عن حاجته إليه. كلنا في حاجة إلى هذا لننتصر على ما يحيط بنا، قلت تلقائيًا ولم أكن أهدف إلى تعذيبه. قال فقط لأكتب قصيدة عظيمة، وكاد يبكي.

صباحًا وفي حدود التاسعة انتبهت أم يوسف إلى رنين جهازها فسارعت إليه. مريم برغم كثرة الأقارب والأصدقاء! أهلاً مريم. نحن

بخير إن كنتما كذلك. لا تقلقي. كل ما يحصل هنا هو عام في الاقل حتى الآن برغم قسوته، إن جسدي يقشعر ونفسي تتقزز منه، وإن كان ثمة حزن فهو على الجميع. أمس نزلنا أنا وأبوك إلى سوق الغزْل، اشترينا طيري حب نادرين، يقول البائع إنهما هنديان، أسميناهما مريم ويوسف؛ محبة بإسميكما. نعم أعرف، لقد اتصلنا به أول أمس ولا نريد أن نعرج به على أوضاعنا، من جانبك بلغيه تحياتنا، نحن من جانبنا نحرص معه على وقته، ولا تنسيْ الإتصال الدائم به، إن ذلك يبدد وحشة وحدته. إنه على ما يرام عمك نزار. نعم نتواصل. والدك نزل للكرادة منذ أكثر من ساعة، إنه يتسوق من سوق ارخيتة ولا يذهب بعيدًا عنه، يتسوق من هناك سريعًا ويعود سريعًا منذ استهداف مطعم هناك من مفخخ، تعثر وهو في طريقه إليه وسقط على الأرض قبل أن يدخله فمات خارجه. لقد استهدف رواد المطعم وهم دائمًا كثر لما يتمتع به من طعام نظيف ولذيذ، لكن الله خذله فأحرق جثته على الرصيف. إنه يسمع صوتك ويحييك، لقد بتنا نحسب حساباتنا ونحن نخرج أو نعود، لكن هذا لا يعني أن الحياة متوقفة. لا أحد يستطيع ذلك، ذلك أنها من صنع الله وليس من صنع البشر.

كدت أصيح من موقعي بل إنها من صنعنا نحن البشر، لكنني أعرف أن صوتي لن يغير من عقيدة زوجتي المسيحية حتى النخاع! بل إنني؛ أنا نفسي سوف أكرر ما قالته الآن على مسامع أخي نزار غدًا؛ ما ينبيه الله لا يهدمه البشر. حقيقة لا مراء فيها!

أعذب أمنياتي

متناسيًا حكمتي العاقلة؛" زر غبًّا تزددْ حبًا" منطلقًا من جيشاني العاطفي الذي لا يمكن وصفه ولم يمضِ سوى ثلاثة ايام، على عودتي من سفرتي التي لم تستغرق سوى يومين، في غدوّ ورواح مع مبيت ليلة واحدة، هتفت روحي أن أكتب إليها لكنني امتنعت.

مضت الساعات حثيثة كخيول البريد القديم، كما عبر أحد زملائي عن رحلة الزمن في الساعات، وها أنا الآن أدوّن الرسائل وحيدًا في غرفتي على الحاسوب. ما أشد وحشتي وما أعظم حاجتي إليها. أعظم الخسارات،أقول، حينما تتبدد عاطفتك الجميلة وأنت وحيد لا يشاركك فيها أحد، ولا تدري على أيٍّ يقع اللوم إن لم يكن على القدر قبل نفسك أنت، وسيّان لديك أو لغيرك فما المألوم إلا أنت. حينما تكون وحيدًا مشتط العاطفة ولا منفذ لك، تكون أنت الضحية وقد تكون ضحيتك؛

أنت، أنت نفسك قبل غيرك. إذًا ولكي تفك حصارك بدهاء صغير منك، قد تلتفت إلى ما يبعدك ويشغلك ويطفىء لهبك. قد ألتفت الى روايتي التي أسميتها " البحث عن مدون المدينة الفائرة" التي أكتب فيها منذ وقت طويل ولم أنجزها، وقد صدرتها بهذه العبارة التي اطلقها ذات يوم الرومانسيون" حرام على من يغني وروما تحترق". نمت. كنت متعبًا جدًا فنمت. وكان عليّ في الآن عينه أن أكتب قصة بعنوان "تفاصيل" كما نوهت قبلاً، تحكي حياة امرأة وحيدة تقاوم بشجاعة نادرة، وقائع حياة شاقة بعد أن يُستباح بيتها في غيابها وتُدمر محتوياته على أيدي جنود غزاة، وقابلة لأن تكون رواية كبيرة تحكي بانوراما الاحتلال والطابع المروّع لأحداث بغداد؛ التدهور الأمني العام، التهجير والفزع الذي اخترق حياة الناس، في مدن الدورة، السيدية، البياع، حي العامل، أبو غريب، ومناطق ومدن أخرى. آه، ما أبشع الجدار الذي يفصل بيني وبينها. والفارق الكبير بين علمي بنفسي وجهلي بها، ولم يكن ذلك إلا مؤلمًا لي، كنت أريد لنظري أن يخترق كل جدار ليراها، بل ليرى كل صديق صديقه البعيد، هذا الذي وارته المسافات والأحداث والجدران. يا إلهي إنّ أعذب أمنياتي الآن تقبيلها، ولم يكن ذلك إلّا مستحيلاً أعرفه ولكنني أتمناه.

إنه الموت يا صديقي

اشتياقي إليها يأخذني كما تأخذ الغريق موجة بحر، لذا كانت درجة مقاومتي تستنجد بأوهى المبررات لأكتب إليها، إذّاك أشعر بأن الموجة التي أخذتني، إنما ألقت بي على الساحل وهذا أول ما كنت أبتغيه، فأن أكون على ساحل النهر لا يعني أنني على رمل الصحراء. المهاتفة التي ضربت أذني أوقعتني في أشد أحزاني على صديق ؛ صباح مات. أسرعت إلى داره أول ما سمعت ذلك من زوجته، غير مصدق، لألقي نظرة الوداع على صورته الحبيبة قبل أن يوضع في تابوت، وتأخذ به حفرة ضيقة في باطن الأرض. كنت انفردت به عائدًا من نزهة في الكرادة، وكان في حديثه ينثر على مسامعي لغة وثقافة العقد الستيني العاصف في العراق، كنت في الوقت عينه أتأسى لأنّ ذلك العقد مرّ من دون أن تستمر بهجتنا فيه، هناك كنت أرى الساحات والشوارع وحتى الأزقة تحيينا وتبتسم لزمننا الجديد، زمننا الطافح بالفرح والآمال

الكبيرة، لكنها للأسف عادت تبكي لأن كل شيء انكفأ على نفسه وزال سريعًا وكأنه كذبة كبرى، بل تحول الى كابوس صار الضحك فيه بكاءً والأهازيج نواحًا. حين ودعته، كانت يدي لا تودعه وإنما لتقول أن الشيء الذي يمضي لن يعود وإننا قد لا نلتقي ثانية. كان ممددًا مثل عملاق غارق في حلم يعرف وهو في حلمه أنه كاذب، لذا ارتسمت على شفتيه بسمة كأنها الهزء بعينه، وعلى عينيه نظرة لن يعدّها الرائي جامدة، بقدر ما هي ثابتة على إدانة شيء ما لعلها الحياة التي لم تنصفه. هكذا كان يشعر دائمًا. لم أقبّل ميتًا قبلاً، على كثرة من مات لي، سواه؛ انحنيت عليه وقبلت جبينه الباذخ الشجاعة الذي لم يسجد لصنم، كان باردًا كالثلج هو الذي كان حارًا كالنار. يا إلهي أي المفارقات تحصل بين لحظة وأخرى؛ بين يوم ويوم، بين الحياة والموت، وهيجان الروح واستسلامها للمكروه، كنت أشعر الحزن الأشد أن روحه الآن بلا ردّ فعل وهي الجياشة بردود الأفعال. آه، الشيء الغريب، الشيء غير المعقول، المعجز والملغز حصل فما أوهن جسدي وما أجنّ نفسي، ما كنت أسفت عليه أسفًا أسودَ، إنه برحيله أخذ معه قصصنا الأنيقة المشتركة، وصوته العذب الذي كان يردد به أجمل الأغاني التي كنا عرفناها على مدى شوط صداقتنا الطويل. الشيء الذي يمضي لا يعود ثانية، مضيت أردد، وكنت أشعر أن بموته حصلت خيانة كبرى، ولّدت في فؤادي فراغًا لا يُسد فلقد كان قرينًا لا يعوض، هل أقول إنه كان نفسي الثانية التي كنت أتماهى معها؟

عرفته منذ الدراسة المتوسطة في النظامية ببغداد، يوم كانت في زقاق من شارع الرشيد مقابل جامع "سيد سلطان علي"، وقبل أن تنتقل الى السعدون. كان الدوام كاملاً ؛ أي على مرحلتين؛ صباحًا وعصرًا. بعد الدوام الصباحي نقضي وقتنا أولاً في تناول طعام الغداء مع الأذان الذي يأتينا من الجامع بصوت أحد هذين المقرئين؛ محمد عبد الباسط عبد الصمد أو أبي العينين شعيشع، ولكل منهما صوت شجي يخلب اللب، وأخصهما أبا العينين، ثم نقضي الوقت هنا وهناك حتى يحل موعد الدوام الثاني، وغالبًا ما نشغله بالتفرج على الملبوسات الأجنبية من بدلات وقمصان وأحذية، وأكثر ما كان يستهوينا إلى محتوياته مخزن " باينير" ثم ما نلبث أن نعود على صوته يغني لفريد أو يقلّد أذان أبي العينين.

كان هو المندائي ذو الفكر العلمي المبكر يستجيب للنداء، استجابة الفنان الوليد لموسيقى باذخة، وأما أنا فكنت أطرب وأخشع وأتدانى من رب الخلق؛ شيئًا فشيئًا كان يقربني من ملامح فكره، بل كان يغويني حتى غُويت. أواه يا صديقي الجبار؛ إنه الموت. ذلك الطائر الوحشي الذي ينتزع بمنقاره الذي لا يرحم، الابيض السعيد من عيون الناس ويغرقها بالأسود الكئيب.

"هل أُمسيّكِ؟ إذًا لكِ أعذب المساءات، ولك كذلك راحة البال سيدتي". وكنت ارى السماء فارغةً من أضوائها التي لم تكن في الأصل كافية، لقد تبعثرت هنا وهناك وكان السير بين فراغاتها المدلهمة والمتباعدة يقبض النفس. تكاد أصداء ذلك الموت تقهر نفسي.

صعوبة الإيجاز

التفتُّ إلى جريدة أمامي أقلّب صفحاتها، تراودني في الوقت نفسه ذكريات قديمة جعلت تجول في الشوارع الفرعية والأزقة الظليلة، وترف النساء اللواتي كأنْ لم يظهرن للشمس، وبيوت تتعالى على أسيجتها الأمامية الواطئة، أشجار تين وعنب وأخرى. وليس سوى سليمة تظهر لي حين أدق الباب بدعوى الحاجة إلى رغيف خبز حار من تنور والدتها أم حسين. لم تكد سليمة بضفائرها المخضبة بحناء المغيب، تسلمني قرصة الخبز بفوح عبقها اللذيذ، حتى واتتني برسالتها: "أجبتكَ قبل أن ترسلها، قائلة: شكرًا لزهر المساء. لي منك روحٌ وعطرٌ مُسْكِر". وحقيقة فإن الذي سكر وفي تمام سكره أنا.

ليس من السهل معرفة البعيد في مثل هذا الوضع الصعب، فالمرأة في أزمة ضخمة وهي محاصرة بمشكلات كثيرة، وبرغم ذلك تجيب على

الرسائل بشفافية عالية تصل إلى حدود الفروسية التي يتغنى بها الرجال ولم يُعرَّف بها، للأسف، الاّ الرجال! نعم. أعترف أن شوقي إليها ينازعه في الآن نفسه، شوق الى زوجتي التي تطالبني وقتًا بعد آخر بأن أكون لها، وتحثني على الإتصال بها كلما فرغتُ من عملي.

على أي حال سأمهل نفسي والمرأة زمنًا لا أعرف مداه، أمنحها فيه إسترداد أنفاسها ولن أجازف بالكتابة اليها اليوم، بيد أنّ ما يجب أن أذكره هنا وأؤكده كذلك، هو أنّ أشدّ ما يؤلم نفسي، اليوم الذي أتوقف فيه عن رسائلي إليها، وحتى الآن فلن أقول، إلّا كما يقول غيري في مثل هذه الأمور؛ إنّ أكثر ما نعرفه عن أنفسنا هو ما لا نعرفه عنها.

"أمس كان عصيًا، حيث عاودت قوة مشتركة اقتحام بيوتنا. ومنعتنا من الخروج.. كنتَ وقدح الشاي والغزّالي رفقتي الحميمة".

غمرتني سعادة دافقة، إلهي أي مطر يغسل جسدي الآن؟

"كم أشكر الله، كم أعبده لكأنه أشركني في صياغتك. أستغفره أيتها المحيطة بخيالي. أنا في طريقي إلى البيت وكل ما يحيط بي من حجر ونبات وبشر أكلمكِ فيه".

تابعت القراءة في الجريدة أتصفح فيها أخبار السياسة، وأتشوف إلى زمن أجمل، والسيارة التي تحملني تنقل إليّ عبر ضجيجها:

"أحسد أولئك البشر والحجارة والشجر، سلّم على الروح التي أحب"

من أين يتأتى لي الإيجاز؟

عطفت نظري الى زوجتي، طالعني التألق الذي جعل يتموج في عينيها، قلت أوتشعرين شيئًا مبهمًا يظهر لعينيك ثم يختفي؟ أوتشعرين كأنّه ذلك الحب الذي متنا فيه؟ نظرت هي الأخرى في عينيّ، طافت فيهما طويلاً وأجابت؛ نعم ثم ها هو يحيينا، أتريد أن تقول ذلك أيضًا؟ قلت؛ نعم. قالت؛ إذن هيا نخرج الى الشارع العام نتعشّى هناك، أشعر طربًا يخض جسدي، يضيق به هذا البيت. أغلق شاشة الحاسوب، فثمة مطر قادم أريد أن أغمر جسدي فيه. هبطنا الشارع العام، تجولنا على رصيفه لا تسقط عيوننا على أحد سوى ما بتنا نتحرى عنه، مطعم خال أو آخر غير مزدحم أو ثالث فيه متسع لإثنين مثلنا. لم يمض وقت طويل ونحن نبحث عن مطعم من هذا النوع، ونختار واحدًا لم يدخله أو يراود الدخول فيه إلاّ عائلة مكونة من زوجين شابين، يحثان طفلتهما الصغيرة على التقاط دميتها الملونة التي سقطت من يدها، والتي ستسقط منها ثانية لتدوسها دبابة امريكية، حتى هطلت شآبيب مطر ربيعي جديد. بينما أمسك بيدها لأحثها على الدخول وقفت صامتة تحت المطر تتنفس أنسامه البليلة، كان مطرًا عطوفًا إذ ما أن رش الشارع وغسل الأشجار وبعض النفوس التي استقبلته بود إلا وانقطع. لم تتقبل المنديل الذي قدمته لتجفف شعرها الذي قطّر ماءه على وجهها. قالت دعني باغتسالي واطلب لنفسك ما ترغب فأنا صائمة هذا الوقت. كان قرارها الذي لا أعلم لماذا فكرت فيه صائبًا، إذ لم أكمل طعامي حينما رأيت الزوجين

يتداركان وهما على الرصيف القريب دمية صغيرتهما تنزلق ثانية من بين يديها لتسقط في الشارع وبمحاذاة الرصيف، والدبابة الأمريكية القادمة بسرعة فائقة تلغي ما فكر فيه الرجل أو المرأة كذلك، وتسحق الدمية وتساويها مع الأرض. لا أحد يعلم أو يفكر طويلاً، لماذا انحرفت الدبابة هذا الإنحراف المفاجئ، لتسحق الدمية وتخرب جزءًا من الرصيف، فلقد مرّ كل شيء بعجالة فائقة طوتها صفحات هذا الشارع الزاخر بالمفاجآت، لذلك لم تحزن زوجتي ولا سيما بعد أن وجدنا الزوجين يغادران مكانهما على صمت مطبق، ويعودان الى مخزن الدمى يبتاعان منه لطفلتهما دمية أخرى. قالت دعنا نشرب الشاي في كوفيه، قلت حسن فما أجمل رأيك، وكانت إحدى الكوفيهات قريبة منا وأختلف إليها أحيانًا أستمع فيها إلى بعض الأغاني، أو أقرأ شيئًا وأنا أشرب القهوة أو الشاي.هناك تفتحت أسارير زوجتي فقد بلغ الشارع قمة ازدحامه، وبدأت ألوان الناس تترى أمامنا كما لو في مهرجان، غابت الدبابة في ظلمة ما، لم يعد لها وجود أو صدى، وما كنت لأظن أحدًا سيتوقف على لحظة عابرة مهما كان وقعها مؤلمًا، قياسًا على ما يُحسَب الآن أنه اللحظة السعيدة الدائمة.

في البيت ونحن ندخله على هدوء ضوئه الخافت همست لي زوجتي؛ دعنا نكمل متعتنا، فأن تمكث لحظات تحت المطر، وتقرأ في رسائل حب تحسها منداة بمائه الذي ما يزال يبل ثيابك، فذلك ما لا يتكرر.

متعة الكتابة إليها

ها أنت ترى الناس يتدفقون هذا المساء كما لو أنهم خرجوا من عباءته لا من بيوتهم، جلستَ في مقهى من مقاهي الرصيف مع شعور بسعادة غامضة، لم تكن تعرف إن كان مؤداها وحدتك الخالصة التي تتنادى فيها أعماقك الملونة غالبًا، أم هذه الجموع المتدافعة نحو الحياة، أم أصداء حبك لها، كنتَ في غاية الشوق إليها ومثلما أنت عليه في كل الأحوال.

"مساء الخير. وليته أجمل مساءات الناس".

أجابت بلغتها التي بنقاء سريرتها ورهافة روحها:

"إنه كذلك حقًا، فأي مساء لا يكتمل بهاؤه وانتَ نجمه العالي"؟

قوتك وإلهامك يا رب، فليس في الإمكان أحسن مما لدي الآن. لم أكتب شيئًا بعد، تركتها إلى كلماتها التي ربما أغلقت روحها عليها،

منقطعة إلى تجاوب أصدائها فيها، لتذكرني هنا بالزاهد المتبتل الذي يكتفي بتشهد صغير يملأ كيانه ساعات. من يعلم ما الذي تفعله الآن إن لم تكن منقطعة عن أيما شيء سوى رنين ذاتها، على مزيج حزنها وسعادتها، حيرتها وصفائها، في هذا الذي يدّوم بين جنباتها ولا تستطيع الإبانة عنه، بهذا القدْر الذي يأتيها والقدْر الذي تبعثه، وبما لا يزيد على طاقتها ولا ينقص عنها؟ ومثل كثير من المرات التي أكتب فيها إليها، تظل روحي تهتز على أرجاع كلماتي، حتى لكأنها تضيف إليها؛ أنا الآن طائر بألف جناح لا يريد أن يحط، فإن رغب فعليك.

- أتشعرين باهتزاز ما؛ روحك، جسدك مثلاً؟

في رواية لمن تقرع الاجراس لهمنكواي، تسأل العرافةُ بطلةَ الرواية التي تعترف لها بعلاقتها الجسدية بصديقها بطل الرواية، عن عدد المرات التي يهز الأرض تحتها. ها نحن نهتز على كلمات، أتعرفين أن ضغطة صغيرة واحدة على كلمة (delete) تشطب كل هذا الذي بين ايدينا؛ هذا الذي ما ينفك يهزنا ولا يتركنا نهدأ. ضربة واحدة تمحق عشرات بل مئات أو حتى آلاف الصفحات، عندئذ يكون المولود كما لو أنه لم يولد، فإذًا أي مغامرة يخوضها هذا الذي يفقد عمله، أو يلقيه لقدر غير معلوم، أو لمصير غامض في شارع، وإن كان كثير الناس لكنه شحيح الأضواء؟

قد يكون للسكّر الذي تعاني منه هذا المفعول، سأجلب لك شايًا بالحليب مع السكر الطبيعي فانخفاض السكّر يؤدي إلى الارتجاف.

أو تظنين ذلك؟

أجبتُ دونما رغبة في حوار يدخل مدخل التحقيق، فزوجتي لا تريد الإشارة إلى موضوع يدعى اهتزاز الأرض، فقد مضى على ذلك بيننا زمن ليس بالقصير، وكل ما ترغب في التعبير عنه هو الطرب الداخلي، إذ ما علاقة رسائل الحب التي على مثل هذا النبل، بل وما علاقة الأغنية الخفاقة والموسيقى الناعمة بهذا، غير طرب الروح وتسامي النفس.ألم تصارحني يومًا في ما يحدث لك وأنت تسمع أغنية لعبد الوهاب من مثل" في الليل لما خلي" أو" لما أنت ناوي" أو" حياتي أنت" ، وما مقدار ما يتحقق لأذنك المرهفة ونفسك المنفتحة على الطرب الذي له طبيعة الخيال من إشباع؟ ما أثر اللوحة التشكيلية كذلك عليك وعلى غيرك غير الحبور والدهش الذي يعصف بدواخلك؟

كانت تريد أن تقول الروح أولاً ، ثم إنك أنت الرجل الكبير تفكر في غير هذا؟ إن ذلك من إنفعالات السكّر الذي يتعتع الدماغ كما تتعتعه الخمرة الثقيلة.

على صمتها صمتٌ، لم ألحف في الحديث عن شيء يتحقق لنا على أكثر من صورة، على ما تبثه الرسائل فينا من" طفوليات" ،أو تعيدنا إليه من نزوات، عن بساطها الذي يترجح بنا أو نرجحه فوق الريح، عن إشراعها نوافذنا إلى طلائع النور عند بواكير الصباح،كنت أراها كجبل منيع له قمة فوق السحاب، تضع قدح الشاي بالحليب أمامي وترتشف

شايها الخالص بصمت. كنت أجد ذلك شيئًا ممتعًا، بل رفيعًا أن يعمك الصمت وأعماقك تصطخب.

متجاوزًا "مَنَعة" نفسي، التي إن لم تجد عذرًا لتحطيمها أجده أنا، عدت إلى الكتابة إليها؛ ذلك أنها أصبحت متسعي إلى أجمل عواطفي وأفكاري، لقد تفوقتْ على العديد مما لدي لأهتم به؛ الكتاب، الكتابة، الأصدقاء، العمل في مجال واسع، الأصداء العميقة للأحداث المؤلمة التي تلم ببلدي وخارجه كذلك.

"حقًا أنا في شوق مبرّح، ومن أمنياتي أن ألتقيك ولو في مرسم صديقنا الرسام، ومن أمنياتي كذلك، أن أهديك شالاً جميلاً أو بدلة مناسبة، أو حذاء يعلو كعبه على هامات أولئك الذين آذوك، أن أقول لك هذا هو تضامني."

كنت أظن وقياسًا على ما تبادلنا من رسائل أنها ستكتفي بالصمت، ومداراة وضعها النفسي الخاص، فالكابوس الأمريكي ما يزال جاثمًا وليس من السهولة مغادرة ذلك إلى مزاج آخر، لكن هزارها ما لبث أن غرد في قلبي:

"باقة ورد على طاولة عينيك، أيها الرقيق لا تشغل بالك بشال أو عطر، أنت بهجة الروح وثباتها في وحشة الأيام. دمت بطمأنينة وسلام"

بعد قليل سأهبط إلى الكرادة؛ أراك بشالك الأزرق وبدلتك الزرقاء

المخططة بنيلي دفين، أرى لمحة من شعرك السبل وأغرق في خمرة عينيك، أسمع أنغام صوتك تستهوي أقصى أطوائي، أراك بكاملك المكمل وإهابك التام، وثمة نداء يستحثني على أن أهتف؛ "يا قصيدة خيالي وعطش روحي دعيني ألمسك."

ما يمكن قوله الآن، أن المتعة التي أستشعرها وأنا أفرغ من رسالتي إليها، سواء في ذروة لهفتي وهو ما يحصل كثيرًا أو سواها، هي المتعة عينها التي تحصل لي وأنا أفرغ من كتابة قصة ناجحة من مثل قصتي الجديدة التي بعنوان " تفاصيل".

في مرسم الفنان

زرت صديقنا الفنان في مرسمه أو مكتبه كما هو كذلك ظهرًا، مترسمًا خطراته نحو بلقيس ومحتملاً لقاءها، كنت أتمنى أن يحصل ذلك، أن تطل لأرى توهج عينيه والطفل الذي يفرح بدميته كذلك. أشعر أن العالم في عيني هذا الفنان الغريب دمية. الدمية في عيني الطفل، وليس في عيني الكبير، على أي حال وضعها سحرته واستفزته واستثارت شهوته. ولم يكن هذا الكائن الذي يطمح إلى تفكيكه إلا جميلاً في عينيه، مدهشًا وملغزًا معًا، وفيه ما يدعوه إلى النفاذ إليه ولو بتحطيمه، إن هذا الشيء الصغير؛ اللوحة مثلاً هو "العالم منطويًا بين يديك" هكذا يردد ويبتسم الإبتسامة التي ربما هي أجمل ابتسامة لأنها تأتي من خلف شعاع عينيه الطفلتين! إن ما يثير فيه أن فرحه يستدرج فرحك. لأنك تشعر ببراءته تشاركه فيه، أو هذا ما كان يحصل لي معه، مع إهتمامه، صدقه، اهتزاز

روحه وصميميته، وكل هذا كان يدعوني لزيارته، ثم أنه على مساري إلى المؤسسة. كم أنا حزين الآن لأن شيئًا ما يخالط سعادتي به. كنت أتمنى ألا يحدثني عنها فيفزّ قلبي، وأتمنى ذلك لكي أعرف، لمجرد أن أعرف، فما كنت أظنه إلا هيمان في غابة تعود لي. ربما خيل إلي لحظة أنني أذكره بها، من يدري ألّا يكون الأمر كذلك، فمن دهاليز الذاكرة أن تقرن أحيانًا بين شخصيتين، إذ تترسم الخطوط الغائرة أو اللامرئية التي تجمع بينهما، حتى لو كانتا متباعدتين فكيف إذا كانتا متقاربتين، مثلما عليه الحال بيني وبينها ولو على مستوى الظاهر وحده حسب؟ قال؛ كيف هي، قلت؛ من؟ قال؛ بلقيس. من غيرها؟ قلت؛ أنت تسألني عن امرأة تعرفها خيرًا مني. أطرق هنيهة، رفع رأسه نحوي، حدق في عيني مليًا ونفث غضبة سريعة ومفاجئة؛ أنت تكذب!

لم أغضب ليس لأنه قال الحق، وإنما لأنه لم يعرف أنه قال ذلك، لأن دليله ضعيف إن لم يكن معدومًا، كنت أضحك في سري، بل ضحكت علنًا، قائلاً ما لمزاجك اليوم، الفن يعكر المزاج، حين لا يكون مطاوعًا، هل الأمر معك كذلك؟ كنت أحدق في عينيه الصغيرتين أبحث في عمقهما الدامي الآن، عن ذلك الوثاق الذي يربطه بها، أو الذي تعلق به وقد يهوي من ذروته يومًا وهو لا يدري. لم يجب وتمنيت أن لا تأتي، لأنني كنت أشعر أن في مراقبتي لها لو حضرت، لكان ذلك تجاوزًا عليها إذ لا بد أن يتضمن شكًا ما، ولعدّتها هي الأخرى كذلك لو أحسّت بها. لم تأت لأنها لم تضرب موعدًا لأحد. نهضتُ خشية أن

يسقط، فالعالم الكبير يصغر في الحب حين تضطرب الآمال فيه، وكنت أحسب أن الأمر كذلك معه. ولم يكن الأمر غير ذلك، حينما نهض نحو لوحة لم تكتمل، رفعها بين يديه لحظات وكاد يأتي بها إلي قبل أن يعود بها إلى موقعها على أسفل الجدار. رفع كأسه وقدمه إليّ قائلاً في نخب الإلهة، في صحتها. وتهالك على كرسيه.

لحظةً خيل إليّ أننا وبطلا المخطوطة نتتابع في الأحاسيس، في ما يصدر عنهما وعنا. فمن المحتمل أن تكون النفوس نفسًا واحدة باستثناء ما قد يطرأ عليها أو على بعضها من مواقف طارئة تحرفها الى مواقع حادة أحيانًا، كما يحصل في الحروب والمنازعات، وحتى في هذا فكم اختلطت جثث القتلى وضاع على أهلها فرزها بين هذا لي وهذا لك، وفي شك أن الذي لك قد يكون لي وبالعكس، سيحصل ذلك ونحن نلملم" جسد" رامي الذي سيتحول إلى أشلاء غامضة في ساحة الطيران. من غير المعقول أن تتحول ساحة الطيران ؛ ساحة العمل وتجمعات عمال الطابوق وأهل المهن الإنشائية ساعات الصباح الباكر بل ساعات الفجر الأولى، إلى أتون تتطاير فيه الرؤوس والأذرع والسيقان دونما موعد ودونما إنذار، سوى هذا القبح المزروع في نفوس بعض الناس، هذا القبح الذي لا يرتوي إلا بانفجار يتلوه انفجار ليحصد أعظم عدد من الرؤوس. أقول ذلك وأنا أسيف أن يقود الجميل الى القبيح. أن أنسى ما كنتُ اهتززتُ عليه! إن ما يترتب على الحب، غالبًا ما ينتج الشعور

بالفرح، أو هكذا كنا نريد لذا فنحن نتقدم فيه، مخلفين وراءنا ما لا يسهم في تجميل حياتنا. نحن نسعى إلى ذلك ما أمكننا، وهو ما لا سبيل لنا إلى ما هو أفضل منه.

ما سيأتي

غادرت مكتب صديقي الفنان سريعًا على مكالمة من زوجتي، تسألني فيها عن صحتي ومن وراء ذلك عن موقعي. كل قلق من زوجتي يقلقني، وعلى مسافة بعدي منها يكون حجم قلقها ويكون عذابي. أشعر أحيانًا أن علي أن أؤدي اليمين ساعة أخرج وساعة أدخل، وكل هذا بمقدوري أن أفعله، مع ما يولده في نفسي من احتقانات، لو طالبتني به علنًا. وأغلب الظن أن ذلك ناتج من كون زوجتي لم تلتحق بوظيفة بعد تخرجها، وفضلنا معًا أن تنصرف لبيتها ربة له، فكانت دائرة نظرتها إلى العلاقات الوظيفية ضيقة، ومحترسة كذلك! لقد تواشجت خلجاتي مع خلجاتها بشكل غريب، لذا كانت سعادتي منقوصة باستمرار كلما لمستُ في ملامحها لفتة إلى وراءي. في حدود السادسة من اليوم نفسه، ولم أكن تشبعت بتداعيات صديقي الفنان، جلست في أحد

مقاهي الكرادة مع أصدقائي الثلاثة، نتحاور في الوضع السياسي العراقي الذي فرّق بأكثر مما جَمعَ، وباعد بأعظم مما قرّب، وبَلبلَ بأشدّ مما وحّد، وننسى بين حين وآخر مبادءنا السامية فنهبط نحو قاع الطائفية، ندافع عن الطائفة، كما لو اننا أعضاء في حزب من أحزابها المتطرفة، ثم ما نلبث أن ننعطف نادمين، فنؤشر على أخطاء سياستنا التي ليست بالقليلة، ونحمّلها الإسهام في مسؤولية ما نحن فيه، وكان ذلك، في الوقت نفسه، يؤلمنا جميعًا، لاسيما حين نرى الأطماع قد فزت في نفوس "المؤمنين" فصار رجل الدين؛ وارث الرسول الأعظم في ولايته على الناس، غير ما كنا نرتجي منه، يأكل بإسراف ويكنز كما الملوك، فنعود نندب حظنا، ونلقي باللوم على النظام السابق في انفعال حار، له ألوان مختلفة لِما أورثنا من ظلمات لم تكن بالحسبان، جرّت ما جرّت على العراقيين جميعًا من الكوارث والويلات، ومع ذلك كنا على يقين بأنّ ما سيأتي بعد كل هذا، هو ما تقرره الحياة السوية القادمة لتنصف به من يأتي بعدنا، كنا على يقين ثابت من هذا.

"لائذة بفراشي، معتصمة بتذكارات ابن عربي، والخارج مشتعل بكل أنواع الأسلحة، يجيء نبض رسائلك الحاني، فيهبط مَلَك النوم رحمة لم أنعم بمثلها منذ زمن بعيد. تعود على حلم جميل، جميل كم أنت عذب".

مرة أخرى تركت لها ولنفسي فرصة استرداد الأنفاس، أن تكون لنفسها يومًا، وأكون لنفسي يومًا آخر، برغم ما يضج بداخلي كل آن

من ترددات كلماتها ومشاعرها، بل وكرمها كذلك. كنت بذلك، في الوقت نفسه، أتقرب لزوجتي سواء في تلفنات قصيرة أو رسائل مقتضبة تُحمّسها إلى الحياة وتزيدها إصرارًا طفوليًا على حبي، ما يسهم أو ما كنت أحسبه يسهم في إضفاء نوع من الشرعية حتى لو كان مموهًا على حبي، لأشعر بسلام جميل، جميل جدًا.

عدت اليها مشوقًا، غير مرتوٍ من الكتابة إليها أو قراءة حروفها:

"مساء الخير معلمتي وحاضنة أحلامي. لقد أنتهيت الآن من عشائي؛ جبنة وزيتونًا وأقداحًا متتابعة من الشاي.. اقرأ في رواية باولو كويلو "ساحرة بورتوبيلو" سأوصلها اليك بعد إكمالها. أنتِ حياتي، نظري، أنا الآن في المؤسسة"

أمست كلمة "في المؤسسة "نقطة أمان وإشارة إلى حرية التراسل أو حتى وجوبه، ما دامت الطريق سالكة والشوق محتدمًا.

لم يطل انتظاري.. المرأة أقوى من جميع أنواع الاسلحة التي تحيط بها، وأعظم من وحدتها ووحشة ساعاتها. إنها ترد وترد، وتتناغم في ردود ورسائل ومشاعر تطفو على سطح آلام حياتها. يا إلهي هل مازالت على حال جمالها؟ كانت رسالتها على اقتضابها تقول: "عافيات. زادًا هنيًا وشايًا بعبق هيل الذكرى"

ثم جاءني صوتها العذب الجميل تقلق عليّ، وتخاف على حياتي لأنني أبيت الليلة في المؤسسة فثمة انفجار في الكرادة، وآخر في الباب

الشرقي، وثالث في مدينة الحرية. قلت لها، أنا هنا لكي أستطع الكتابة اليك وتسلّم رسائلك، وكان صوتها خافتًا خفيضًا لم أتبينه مباشرة. دار بيننا حديث فيه حرارة خفية ولهفة دفينة، لكننا انتهينا على موعد قادم للقاء عند "صديقنا الفنان " الذي لم أعد أشك في أنه يحبها بقدر ما يحترمها، فمن فضائل بعض النساء أنهن يثرن الحب والإحترام في آن. الساعة الخامسة والنصف فجرًا.

ثلاث طرقات خفيفات في تتابع وئيد، أوصلنَ خطوات زوجتي إلى الباب، قلت لها هذه طرقات امرأة والساعة الرابعة عصرًا، فلا خوف ولا هم يحزنون تقدمي، ولداك في الخارج ونحن كهلان، ولا نملك إلا هذه السيارة شبه العاطلة التي ملأ جسدها الغبار. فتحت الباب على صورة فاطمة. الوجه الكرادي الأبيض مع وردتين حمراوين على الخدين. يا لهناء من يشم ويتبخر ويتبختر، قلت، وربت على كتف قلبي المتطامن على حب هذه التي عادت ببطاقة دعوة: السيد سليم ناصر وزوجته، ثم حين فضضتها" ..... يشرفنا حضوركم حفل زفاف ولدنا أحمد على كريمة السيد عبد القادر كامل السامرائي على قاعة نادي العلوية في الكرادة..... وبحضوركم...." علي حسين صالح السلامي.

تلقيت الدعوة بتلقائية تامة فنحن في حاجة لملامسة أي مظهر من مظاهر الفرح، ولمغالبة ما نرزح تحت ثقله ولو بأبسط الصور وأبهظ التكاليف، وهو ما يحصل أحيانًا في مثل هذه المناسبات. هناك لم نجد؛ زوجتي وأنا مكانًا للجلوس، بيد أن مضيفنا انتبه إلينا وشق الصفوف

وأجلسنا في مكان جانبي، حسبناه أفضل الأماكن لأن دائرته كانت من ضيوف كبار. كنا متوجسين مما ظننا أنه سيدور في الحفل من موسيقى وغناء صاخبين، يرافقهما في العادة رقص وأهازيج أكثر صخبًا مثلما يحدث في مناسبات الفرح هذه الأيام، بيد أن هذا لم يحصل إلا في صورة ستلازمني طويلاً، إذ حضر العريسان في موكب شبه صامت يقطعان طريقهما إبتداءً من الباب الرئيسي للقاعة نحو المسرح، تتناثر عليهما الورود من الجانبين، يحف بهما في خيال بهيج سليم ناصر وعروسه بصحبته يدًا بيد والقس في الإنتظار، المهنئون يلقون هم الآخرون الورود وتحت المنصة تتم المباركة، تصبح كلاديس التي كالملاك شريكًا له في الحياة لا انفصام عنه حتى الموت،" باسم الرب يسوع اتخذتك يا سليم زوجًا لي" .. "أعاهدكِ على أن أصحبكِ في الفرح والحزن، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض. سأظل معكِ دائمًا وسأحبكِ دائمًا حتى يفرقنا الموت" . الجميع جلوس حتى إذا بدأت الموسيقى ورقص عليها العريسان، نهض شباب وشابات معدودون يرقصون. كل هؤلاء كانوا متفقين على أن يكون العرس هكذا. الموسيقى ناعمة والرقص هادىء وزغردة خافتة أو زغردتان وتصفيق خفيف. بين العصائر والكيك الذي وزعته فتيات مهيآت لأعراس قادمة تفاءلتُ بالحياة. كل ما يحصل لن يوقف الحياة، بل لن يُذبل الجمال، هذا الشيء الذي من دونه لا تصلح النفس. لم أعرف إلا لاحقًا أن للعريس عمًّا توفي من قريب، بُعيد أن حُجزت القاعة وسُلّمت الأجور، وإكرامًا لموته لم يُدعَ إليه قريب من

أقرباء العريس، فكان على هذا الهدوء. هكذا يريد الموت أن يفرض سلطانه حتى على أفراحنا، لكنه لم يقدر تمامًا، إذ غادرنا القاعة شبه جذلين، بل جذلين.

اللهمّ

ها هو الخميس يرحل صامتًا مفعمًا بأحاسيس مرهفة كأنها المد الهادىء على ساحل سعيد؛ فما يزال "مسائي، منذ رسالتها أمس، وردًا وصبحي عسلاً" وكل لحظة تعابثُ الصمتَ الذي قررته، فكرةُ مكالمتها لأسمعها سعادة نفسي فأتمهل بل لا أفعل. هاتفي يضرب كل ساعة، وأي رسالة تأتيني هي منها، يصور لي خيالي. ولكي أشاغل نفسي عن ذلك، تناولت مذياعًا صغيرًا من الصنع الصيني جلبه لي صديق من الكويت، أوصيته على ياباني، بدأت أحرك مؤشره من دون أن ينقلني إلى محطة نافعة، وتراودني في الوقت عينه صورة ذلك الصبي الأنيق الذي لفت إليه أنظار جلاس المقهى، وهو يلاحق فتاة جميلة لها مظهر مغرٍ، كانت تسرع آنًا وتبطىء آنًا، وهو يسرع كلما أسرعت، ويتباطأ كلما تباطأت، من دون أن يفلح بمكالمتها. كان في مظهره كمن يداري ما

يتوقع مثله من أنظار الناس أو ألسنتهم، لذا كان مبلبل الخاطر مرتبك الخطوات، حتى دخلت مخزنًا لبيع العطور ولبثت لحظات هناك. عاد بعدها وحيدًا خالي الوفاض؛ يرفع منديلاً أبيض يمسح عرقًا تصبب من جبينه. لم يدرك الصبي الغرّ الذي تعثر وكاد يسقط، وكدت أسرع قبل غيري لنجدته، أن الفتاة ربما استدعته للإختلاء بها بعيدًا عن الأنظار، أو لكي يجرب وتجرب معه ما قد يبادرها به من هدية ما. قلت هي ذي التجربة الأولى لا ريب لهذا الذي لم يتعلم بعد طريقة اقتحام القلوب، وتأسيت عليه إنما خشيت عليه من الإنهيار. كانا جميلين لائقين بعضًا لبعض، ولكن ليس على هذا وحده تقوم الأشياء، قلت وانصرفت لرسالتي:

"مساء الخير. مساء الكرادة أجمل مساءات بغداد. أيتها الراعية التي غمرتني بدفئها العذب وظلها الظليل، وأزاحت عن نفسي غبار الأيام، ما أنبلك وما ألطف معشرك، أقدس تلك الأيام، وأعبد تلك الإطلالة التي لها ذلك الإهاب الطاهر والكمال الباهر. يا سيدتي. يا لبّ روحي. ماذا أقول؟ أنا الليلة في المؤسسة، أنت نديمي وسعادة نفسي".

أسرعت إلى هاتفي الأرضي. رفعت السماعة. سمعت المسؤول يقول: مكالمة من الأهل، وحسبت أنها اتصلت كما في مرة سابقة، لكن صوتًا جميلاً دافئًا وأخاذًا هو الآخر عزف في أذني. كان صوت زوجتي طاب لها أن تسلم عليّ وتسألني إن كنت تعشيت أم لا، وتطمئن على وجودي في المؤسسة، وغير مشغول بمكالمة مشكوك فيها، وإن كنت

سأعود إلى البيت مبكرًا فغدًا هو الخميس. جرى ذلك في حدود التاسعة والنصف، وكنت تعشيت توًا برفقة قدحي شاي، وظلت أسئلتها تتردد في دواخلي؛ مرة تنشيني ومرة تعذبني، وحتى العاشرة، لحظة تدوين هذه الأسطر على الحاسوب، لم يترنم هاتفي بنداء آخر.

عند الحادية عشرة ليلاً، وقد خضبتُ صفحات ليست قليلة من روايتي بمجموعة أقداح من القهوة المرة، جاءتني رسالتها بعد أن استبدت بي ظنون، مبعثها سوء الأحوال التي نمر بها الآن.

"الغالي جدًا. كم كان صعبًا التماسك أمام فيوض مشاعرك النبيلة الراقية. أنا مثلك أحن إلى تلك الأيام الممتلئة بحضورك الحميم، الذي جعل المستحيل ممكنًا. أدرك أنّ من موجبات سعادتي، أن تكون مرتاحًا منفتحًا على الحب والناس والأماكن. أملي أن تكون بأوفر صحة، مساؤك ورد وصبحك عسل".

حضرت ابنتنا الكبرى سهاد وابنتاها رفل وياسمين، وهذا شأنهن مساء كل خميس؛ يشاركننا العشاء ويمكثن حتى ساعة متأخرة من الليل، نشتعل بحرارة اللقاء، وبحراك مرح وخفيف يضيف لمسات الأبناء والاحفاد إلى أجواء البيت. حتى الآن لم أعرف أن كانت زوجتي نقلت شيئًا من شكوكها إلى سهاد، ولما كنت أعلم أن البنت على سرّ أمها، بأكثر مما الولد على سرّ أبيه، جعلت أراقب دومًا عينيها لأراهما صافيتين، يمرح في داخلهما فرح متعال عن كل حزن. غدا الجمعة وهو

يوم صامت أو سيكون صامتًا مثلما مضت العادة، وحتى السبت سيكون الله في عون الناس جميعًا؛ العاشق منهم وغير العاشق، يرفرف فوق جفني طيفها، هذا الذي هو أشبه بإغفاءة على أغنية عصماء، هذا الذي له وقع الغزل القديم جميل وأخاذ.

أغلقت كتابي وما تزال فكرة مهاتفتها تعاودني فأتمهل كرة أخرى ولا أفعل، رنين السعادة يهزّ أعطافي، يُنهضني، أفتح الشباك، أتنسم عبير الأشجار أشعر قربي من الله، أدعوه: أللهمّ لا تعاقب أحدًا على حب.

الثلاثاء

"مساء الخير، وهو ما أتمناه لكِ دائمًا. ولكن لا أدري لماذا أشعر الآن، أنّ لهذا المساء وحشة ثقيلة على نفسي، أنتِ وظرفكِ، وحدكما من يبدد ذلك، قلبي يدعو أن تكوني بأفضل حال، محبتي."

اليوم أحد؛ وهو أجمل أيامي وأحرص على ألا يتبدد سدى، وأنتظر ما لا يمكن إلّا أن يأتيني، ما لم يحدث قاهر.

في تناوب بين أملي ويأسي جرست حروفها التي رفّ عليها قلبي. نعم هذا الجرس القادم هو جرس حروفها، فما جاءتني رسالة لها "إيقاع" رسائلها، أو هكذا يكذّب عليّ خيالي!!

"ارتعش قلبي فرحًا وأنا أرى توهمًا باب غرفتك مفتوحًا، ثم خفتُ جدًا من أن تُشغل بسواكَ فلذت ببيتي. هيأتُ لنا الشاي بانتظار أن

تطرق فطرقتَ الآن. ماذا تسمي هذه المصادفات؟ البلبل الذي غادر شبّاكي منذ أربعة أعوام غرد هذا المساء، والشجرة العقيم تفتّح قداحها. أي يوم يناسبك الثلاثاء، حيث سأذهب عند صديقنا الفنان؟ والآن هل أنا عند حسن ظنّ قلبك النبيل"؟

"الثلاثاء، الثلاثاء سيتحقق أجمل أحلامي. أراكِ؟ يا لشوقي. هل أستطيع أن أكلمك بعد دقائق، إذًا يا لسعادتي".

- أمعقول أنك لم تشتهِ حتى الآن قدحًا مرًا من قهوة تركية؟ هتفت زوجتي في أذني ونهضتْ. كنت مندهشًا مع الرسائل كما لو أنني غيمة بيضاء، أو كما لو أنني موجة بحر. فلقد عرفت مثل هذه الرسائل، كنت كتبت عددًا منها لامرأة عرفتها قبل زوجتي، وظلت أصولها بين ركام كتبي أعود إليها ساعة تتوحش روحي، وأحن إلى الشيء الذي هدر في قلبي زمنًا ثم مضى:

"" أنتِ لي وكل ما بيننا يزداد فتكًا وضراوة، وكأن الأيام لم تزدني إلا إصرارًا. غدًا سأمر على دارك، سأضع قدميّ على عتبة الباب، سأمسح بيدي غباره الثقيل، وقد أجرؤ قليلاً أو كثيرًا فأدقّ عليه"" .

وضعتْ زوجتي قدحي القهوة أمامنا قائلة على مثل هذه الرسائل يجمل شرب القهوة، تمامًا مثلما يجمل على صوت المطر. وأردفتْ، ألا ترى أننا نطرب غالبًا على الصوت وليس على الشيء نفسه؛ صوت البحر، صوت الريح،صوت الرعد، صوت المطر، صوت الحب وهكذا،

ثم ألا ترى أننا أصوات قبل أن نكون أجسادًا تتحرك، فمن أنت ومن أنا دون أصواتنا، ومن سليم وكلاديس وسليم الآخر وبلقيس، أو سليم وزوجته ولربما إسمها" خديجة" ، إن لم نكن صوتًا واحدًا ولكن بأوتار مختلفة، ثم ألا ترى أن أول مظهر لوجودنا صوتنا الذي يشكل أقوى مظاهر حضورنا؟ رشفتُ أول رشفة من قهوتي كانت عميقة بفعل رغبتي أولاً ، ولأنها فقدت شيئًا من حرارتها ثانيًا. قلت ؛ الحب ينضج مع العمر وها أنت ترين مقدار الحكمة والتروي في الحب هذا. ردت؛ ولكن السؤال... وسكتت. هي تعلم بإحساسها العالي أن الحب لا يُسأل، وإلا لكان علينا أن نسأل ملايين الناس لماذا تحبون، وسنكون عندئذٍ كمن يسأل الريح لماذا تهبّين. قالت إن أعظم ما ينبغي فعله مع الحب هو أن نرضخ له، فهو ممتع كالسفر على بساط الريح. لم تكن ذي المرة الأولى التي أشعر فيها دفء أحاسيس زوجتي تجاه الحب، لكنها المرة الأكثر وقعًا على نفسي الآن، بعد أن تضاءلت الأحاسيس المباشرة بيننا حول موضوع كهذا، إذ كنا كمن طوى صفحة لا حاجة له لإعادة النظر فيها مرة اخرى.

هاتفتها. جاء صوتها يحمل آثار جماله بوضوح أقل مما هو في حقيقته. ثم بدأ يتجلى شيئًا فشيئًا، واتسعت مساحته حتى خلتُ أنني أراها عليه. أرى صورتها الثرية الترفة، الغزل في عينيها، الرقة في التفاتاتها والانسجام في أعضاء جسدها. قلت لها: "مساء الخير. ردت: مساء الخير. وتبادلنا التحيات ثم، انتِ وحدكِ؟ نعم انا وحدي والوضع يبشر بالأمان هذا اليوم".

كنت منفعلاً شوقًا، ولا أظنني سأكون غير ذلك يومًا. الأمر الذي حملني على أن أكرر على مسامعها؛ أحبك، حبًا لا مثيل له. قالت، هو قدر كما سبق أن قلت لك. قلت: قدر رباني جميل منعش دخل عليّ بدون إذن من أحد، وتدخّل في الكثير من تفاصيل حياتي. قادني الى أشياء ومنعني من أشياء، ثم سألتها بتحرش صريح، هل ما زلت جميلة؟ قالت: قبل أيام ضربتني الشمس فلوّحت وجهي وتساءلت ماذا سيقول لو رآني؟ قلت: "الحلو لو نهض من منامه". سكتتْ ثم صارحتها بما كنت أردد كل يوم وأنا في طريقي الى المدرسة، متمثلاً ما كان يردده الفنان اسماعيل صبري، قبل أن يأخذ طريقه بيوم واحد الى صالون مي زيادة، الذي يعقد كل ثلاثاء: "إن لم أمتّعْ بميٍّ ناظريّ غدًا أنكرتُ صبحك يا يوم الثلاثاء" أو في قراءة ثانية رددتها كثيرًا وعلى أكثر من خمسين عامًا ولا أتذكر مصدرها "إن لم أكحَلْ بميّ ناظريَ غدًا فلا تعودنّ يا يوم الثلاثاء". ها أنت إذًا يا مي تجلسين أمامي، أراكِ بإهابك الجميل ونظراتك الفاتنة، يغازلك على القرب عاشق ولهان. ضحكتْ ضحكًا سعيدًا وضحكتُ معها مفتوح العين والفؤاد، كانت تلك لحظات سعيدة، كنا فيها كما لو أننا صديقان قديمان متآخيان، وكررتُ عليها أنها جميلة جدًا، فقالت؛ عيناك الجميلتان تريانني هكذا. وسكتُّ على حقيقة أنها جميلة وجميلة جدًا، بل أن جمالها لا يقاوم، فيه امتياز من امتيازات السحر، وقبل أن أرى كل شيء صريحًا ولذيذًا، طازجًا ورائقًا، ولم ينصرم من الوقت أكثر من دقائق على اتصالنا، حتى وجدت رسالة منها، تقول:

"سمعت من اذاعة B.B.C أنّ غدًا منع تجول في بغداد أرجو الإنتباه والحذر"

انبعثت موسيقى ناعمة شعت دفئًا وحنانًا ورحمة، عطفت قلبي نحو الأم والأخت والحبيبة الصادقة، وما كنت لأستطيع مغالبة دفق مشاعري؛ فالسماء تمطر حبًا ورحمة، ونماذج باذخة المعنى من نساء جميلات رحيمات لهن قلوب ملائكة، يتجلين لحظة إثر لحظة. " أشكره على ما حباك به من قلب مفعم بالرقة والإحساس، ولك خالص حبي"

أدرك أنها حين يتحول الحديث عن حبي لها تصمت، أو لا تعلق كثيرًا، وكأنها تترك الحديث لإيقاعات عميقة غير مباشرة، أو وكأنها تركن كل ما يتعلق بها الى الآخر، والكيفية التي يتعامل بها معها، مع صورتها في نفسه، مع قياساته واعتباراته التي لا دخل لها فيها، ولربما هي تعلم أن الصمت الذي تفرضه على نفسها، ثم على الآخر الذي لابد من أن يصمت أخيرًا، يزيد من جلالها ووقارها وهو ما يحصل دائمًا.

يومان مضيا عليّ في المؤسسة، لم أغتسل فيهما كاملاً، لم أتحرر من ملابسي جيدًا، غدًا موعدي معها، لا أدري كيف أفي بوعدي، وقد حجزني إجراء منع التجوال هذين اليومين، عن تزويدها برواية "شيكاغو" لعلاء الأسواني وروايتين لباموك التركي.

واصلت قراءتي في رواية "ساحرة بورتوبيللو":

(لكنها تابعت خلع ملابسها، بلوزتها ثم الجينز فالصدرية. لاحظت نهديها اللذين كانا أجمل نهدين رأيتهما على الإطلاق. أخيرًا

خلعت سروالها الداخلي، وها هي تقدم لي عريها. باركيني، قالت أثينا، أبارك "معلمتي" ولكن سبق أن اتخذتُ الخطوة الأولى ولم يكن في وسعي التوقف الآن، لذا غمست أصابعي في الكوب ونثرت على جسدها قليلاً من الشاي. كما هذه النبتة تحولت الى شاي، كما اختلط الماء بالنبتة، أباركك وأسأل "الأم الكبرى" أن يظل الينبوع الذي أتت منه هذه المياه في أفق دائم. وأن تظل الأرض التي أتت منها هذه النبتة في خصوبة وسخاء) ليس من شك في أن يوم الثلاثاء، أصبح واحدًا من أحلامي الجديدة، كما كان واحدًا من أحلامي القديمة، فبعد اللقاء الذي حصل مصادفة في مكتب الفنان الصديق، قبل ما ينوف على الأربعة أشهر، لم نلتق مرة بعد ذلك اليوم، أصبح اللقاء القادم حلمًا، وكيف لا يكون كذلك؟

الحلم قبل اللقاء

ليلة الأثنين لم أنم جيدًا. كان عليّ أن أنهي قراءة هذه الرواية التي وعدتها بها، ثم كان علي أن أهوّن قلقي على صحتي التي لم تكن على ما يرام. وحتى الثانية بعد منتصف الليل، أكملت القراءة وتهيأت للنوم. جاء نومي قلقًا لذا سرعان ما استيقظت، وكان ذلك عند الرابعة والربع فجرًا، على حلم جميل دخلت عليّ فيه تنسل شعرها السبل بماء الورد، ثم في معابثة مثيرة ترش على وجهي ما يتجمع بين أسنان المشط من قطرات. كنت أنتشي وأتفتّح. وها أنا كلما نسلت شعرها ورشت وجهي بذاك الماء المعطر، انتشيتُ وتجسدتُ، حتى نهضتُ وأحطتها بذراعيّ وكان جسدها المفعم بتوهجه يبثني سعيره، فأشد عليه وأشد وألفّ ولا أملّ حتى يصبح جزءًا من جسدي لا ينفصل عنه، فإذا تقاطر ماء السماء وارتجت الأرض وهنت عضلاتي، لأشعر بحاجتي للمكوث في فراشي

ساكنًا لحظات ربما نمت فيها ثانية بعد ثانية عدة مرات، شعرت فيها براحة ما، بنوع من الاستقرار الجسدي والنفسي، قائلاً ما يمنعه عنك الواقع يهبكه الحلم، ونهضت نشطًا موعودًا بأجمل وعد، ليس لأنني سأقابلها بعد ساعة أو ساعات حسب، وإنما لأنني كنت مغمورًا حتى لحظتي هذه بمائها اللذيذ كذلك!

اللقاء

حلقت ذقني جيدًا وغسلت وجهي وارتديت ملابسي، موعدنا الحادية عشرة ظهرًا. إذًا لدي الوقت الكافي للتأكد من برنامجي الصحفي. صحبت سعيد أقرب الثلاثة إلي وحافظ أسراري وقد تجاوز محنة خطف عمه وابنه في كوكب "المسرات العراقية السوداء" وهبطنا مبنى المؤسسة نحو الشارع العام. الجو غائم تمامًا وهو عذب البرودة وينذر بمطر وشيك.

في التاسعة صباحًا لا يمتاز هذا الشارع بحركة كثة. وسوى بعض الدكاكين ذات الطابع المنزلي، فلم يكن هنالك محل للألبسة أو للعطور فتح أبوابه بعد. إذًا كان علينا، أنا وهذا الصديق الحميم، أن نتمشى رخيين وفي صحبة عبقة حتى العاشرة، ليفتح أصحاب المحال محالهم.

عند هذا الوقت، أمطرت السماء. ترى هل تجاوز حلمي المنعش لذته الليلة الفائتة فتنبأ كذلك بهذا المطر، أم إنه الإنحراف الفني لما لا يستطيع الواقع المقيد تحقيقه لحلمه الحر؟ أظن ذلك. ولكن ما هو الشيء الأجمل من المطر، حين يرش الشوارع ويغسل الشجر، قبل أن يصلح النفس ويرشق النوافذ ليطرد النعاس؟ أما إذا انحرف ذهنك إلى قطرات من دم فلا علاقة له بذلك، ذلك أننا نعيش أيامنا هذه مليئة بهذا النوع من "الماء" !

في مقهى لا نجلس فيها إلا عصرًا جلسنا. نظرة عامل المقهى الينا تحمل نوعًا من الدهش، إذ لم يسبق أن جلسنا هناك صباحًا، طلبنا شايين جاءنا بهما وفي نفسه وسلوكه الكثير من الحبور. وجدنا هناك كثيرًا من الناس يتناولون فطورهم ويمضون، فالمقهى هذه مزدوجة الطابع الخدمي، مطعم في الصباح ومقهى في المساء. يبدأ المطعم من باكر الصباح وينتهي عند الثانية من بعد الظهر. ثم يباشر طبيعته اللاحقة؛ مقهى تضج بلاعبي الشطرنج والدومينو والنرد بدءً من الرابعة عصرًا الى ما بعد التاسعة مساء. أغلب رواد هذا المطعم/ المقهى مسيحيون، وهم جميعًا مسالمون ونظيفون عمومًا وغير صاخبين، والجميع ينظر الينا نظرة اعتبار كوننا صحفيين. ولعل ما يجمل قوله في هذا المجال، أنني وجدت هناك أحد طلابي من المسيحيين في نهاية السبعينيات أو اوائل الثمانينيات، في مدرسة تعدّ من أعرق مدارس بغداد، وأن أحد طلابها في زمن سابق كان رئيس الوزراء وقائد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨

القائد الوطني الشهيد عبدالكريم قاسم رحمه الله، وهو أمر لم أتثبته جيدًا، فكل زعماء العراق هم من مدارس هذا البلد بلا شك.

- ما يؤسف له أن الحكام الجدد لم يحفظوا لهذا الرجل العظيم عهدًا يليق به حتى الآن، فلم يعيدوا اليه حقوقه بما يستحق، ولم يبرّزوه قائدًا وطنيًا مثالاً ورمزًا فريدًا في هذا العصر، وأغلب الظن أن ما ينطبق على سلوكهم معه، هو المثل الشائع؛ فاقد الشيء لا يعطيه. كانت سنتا حكمه الأوليان سنتي فرح طوعي لم يستشعره العراقيون بزعيم مثله طوال قرون من الزمان. لقد أعاد إلينا وكنا شبابًا ذلك الألق الذي يغمر النفس بحاكم نبيل، عرّفنا من خلال حياته بصور من النبل لم نعهدها من قبل.

- كنت أشعر بذلك عبر أحاديث والدي، كنت صغيرة، وأصغر نسبيًا على أحاديث السياسة التي لم يكن يتكلم بها الّا الرجال. شاهدت تمثاله مرة وأنا في طريقي إلى السوق العربي والشورجة فحزنت، كنت أتمنى أن يكون بحجم وارتفاع تمثال الرصافي مثلاً، ولا أدري من أجبر الفنان على هذا الحجم.

- معكِ تمامًا، كما أنه بدا متشنجًا وهو المسالم والوديع. ليس من شك في أن الدوائر التي تربصت به قطعت عليه سلاسة جسده، وأقلقت عليه صفو خواطره فبدا متوفزًا بعض الأحيان.

- كان أبي يقول ذلك ويدخل البيت مذعورًا كلما عاد من اجتماع. كان حبه له لا يجارى وللثورة لا ينقطع، لذلك سقط معها في أول أيام سقوطها. كان شيئًا مروعًا بالنسبة لنا. تجمع أهالي المحلة رجالاً ونساءً،

صغارًا وكبارًا مسيحيين ومسلمين يشيعون أبي في احتفال قل نظيره، الرجال الى الرجال والنساء الى النساء والأطفال في تجمعات صغيرة متطفلة، بعض من النساء المسلمات استطعن أن يلبسن الأسود، لبسنه في فورة سريعة وظل وضعهن هذا يراود أنظار الأخريات، اللواتي لففن أجسادهن فأخفين ملابسهن الملونة بالعباءات السود، فأمسى جمع النساء كتلة سوداء. ما زلت أشعر أن موت أبي كان فاجعة محلية، أما تشييعه على ذلك النحو فلا يبتعد كثيرًا عن لوحة غضب الناس على الحكام الجدد. ولعلك تعرف أن أهل الكرادة ما فتأوا يتذكرون ذلك القائد الوطني، ويتأسون على مصيره. وإن دُفِن ذلك الرجل الكريم ليلاً ثم نُبش قبره وأُلقي بجثته في نهر، فلقد حظي أبي بمدفن معروف وفي قبر غير مجهول يؤشر عليه صليب.

- كنت أريد لقبر ذلك الرجل، الذي أثرى بسلوكه القويم خيال الشعب بالزعيم الوطني والشعبي، أن يصبح مزارًا وقد يتحقق في قابل الأيام.

- كم أود لو انتبه الناس والمسؤولون إلى ذكراه وألقوا باقات الورد بين قدمية كما يفعل الناس في بلدان أخر مع أبطالهم وشهدائهم ورموزهم، بمناسبة وغير مناسبة. كنت أتمنى أن أرى أكاليل الورد تزين قامته.

- شخص واحد يفعل ذلك، ولن تـريْ إلا الجميـع يفعلـون، وقـد يكون هذا أنا.

كان ترحيب هذا الذي أصبح رجلاً وإطراؤه، كلما التقيتـه، مبالغًـا فيه الى الدرجة التي يبعث على الحياء، فلقد عرفني على زوجتـه وأبنتيـه، وكثيراً ما ألحف في دعـوتي إلى بيتـه القريـب لتنـاول الغـداء أو العـشاء. كانت إعتباراته هذه لي تثير عجب أصدقائي ممـن لا يعـرف مـنهم مهنـة التعليم.

نصف ساعة كانت كافية لمغادرتنا. حينما قـدمت إلى عامـل المقهـى ثمن قدحي الشاي تردد في أخذ النقود، وعبر عـن اسـتعداده للتغـاضي عن ذلك كرمًـا منـه ولطفًـا. حقًـا لقـد غـشي فـؤادي شـعور بالبهجـة والسعادة، أن يبادر عامل مقهى إلى هـذا التكـريم العفـوي الـذي كـأن الإنسان هنا مجبول عليه. توجهنا الى عمق الشارع، فلـربما بكّـر أحـد إلى فتح محله قبل العاشرة. كنت أبتغي شراء هدية لها. كنا نسير تحت المطر في بهجة وحبور. كان مطرًا رهوًا تأخذه ريح خفيفة تارة عنا وتعيده أخـرى إلينا. كان طربي الداخلي هو الآخر، رهوًا متتابعًا رقيقًا كما لو أنه النـسيم العليل.

بدأت المحال والدكاكين تفتح أبوابها. لم يكن المطر يومًا عائقًا أمـام حركة البيع والشراء، لذا توقفنا عند أكثر من بائع عطور، لنرسو أخـيرًا عند أحدهم، لأبتاع لها قنينة عطر نوع "فلوركنزو" كنـت فرحًـا بهـا. لم

أجد ما يناسبها من الملابس والأحذية، تركت الأمر للقاء آخر وأنا أعلم بأنها لن توافق على شيء. المهم لقد اكتفيت بالعطر والرواية التي هـي في تقديري، رواية جيدة إنْ لم تكـن ممتـازة. وإذ أصـبحت الـساعة الحاديـة عشرة إلا ربعًا ركبت سيارة أجرة عامة، فما هي إلاّ دقائق وأصل. نويت أن أتلفن لصديقنا الفنان لأتأكد من وجوده، فأحجمت لأنني رغبت في أن يكون وصولي إليه نوعًا من المفاجأة، ولكي لا يحسب حـسابًا خاصًـا للقاء يرسخ ما وطن في هواجـسه عنـا. كـل شيء عـلى طبيعتـه، فمـثلما جاءت جئت، والمسألة لا تتعدى التوجه إلى مرسم فنـان لإنجـاز عمـل ما، أسـوة بـالآخرين القـادمين إليـه. ارتقيـت درجـات الطـابق الأول وكانت غُسلت بالماء توًا بما يدعوك لحيطة وحذر مطلوبين، ثـم ارتقيـت الدرجات إلى الطابق الثاني الـذي يقـع فيـه مرسـمه. قريبًـا مـن العتبـة سمعت نغمة صوتها تأتي عـبر البـاب المغلـق. نغمـة خاصـة فيهـا غَنـاء وغِناء. رفّ قلبي. إذًا لقد حضرت.

طرقتُ على الباب طرقة ثم طرقتين. سـمعت صـوتًا مـن الـداخل يقول: إدخل، فدفعت البـاب برفـق ودخلـت. كـان الفنـان جالـسًا إلى منضدته، وهي على كرسي من كـراسيّ الـضيوف "المقـربين" قريبًـا مـن المنضدة. سلمتُ وبدأت بمـصافحتها أولاً ثـم هـو ثانيًـا وقـد سـحبني للتقبيل، كما هي حاله معي دائمًا.

أخذت موقعي إلى كرسي قبالة منـضدته، وإلى جانـب غـير قريـب جدًا من كرسيها. بعبارة أخرى كان عليّ أن التفـت التفاتـة يـسيرة لكـي

أسدد نظري إليها. كررت السلام عليها وكررت هي بدورها السلام عليّ كأننا لم نلتق على موعد ما، ثم أردفتُ السلام عليه وقدمت له نسخة من جريدة، ضمت صفحتها الثقافية مقالاً عن تجربته التشكيلية. فوجئ الرجل بالموضوع وفرح فرحًا واضحًا، يناسب أهمية المقال، فهو بنظري صاحب مشروع فني يجب أن ينظر اليه بمنظار موضوعي، بعيدًا عما يدور عن تطرفه الحداثوي بين أوساط مثقفين متفقين في أندر الأحوال ومختلفين في أغلبها. في محاولة مني للنظر إليها طويلاً وبثها شوقي الحار، التقت نظراتنا فابتسمتْ ابتسامة خفيفة حيية وخفضت رأسها.

كانت الجلسة دافئة. ونحن في حديث عام وساخن عن الفن والصحافة، والوضع السياسي في العراق طُرق الباب. القادم الذي دخل على كلمة "إدخل" كان هو القاص الخمسيني نفسه، الذي سبق أن زارني في غرفة الإدارة قبل أن أحال على التقاعد، يوم أتيت إليها بالصحيفة التي نشر فيها موضوعي عن لوحتها.

كان حضوره بالنسبة لي حضورًا ثقيلاً هذه المرة برغم محبتي الفائقة له، ذلك أنه طويل الإقامة في المجال الذي يجلس فيه، فكيف إذا قدم على موعد أو برنامج عمل؟ إنَّ عليّ أن أقطع الطريق عليه إلى حديث متشعب متواصل، وعلى الفنان إستطراداته بأحاديث متضاربة ومشاريع متصلة لا تنتهي! في الوقت نفسه كان دافع ما يحثني على متابعة مساقط نظراته على بلقيس وهو يوجه الكلام إليها، أو وهو يتشرب حديثها؛ إن أعظم ما وهبه اللهُ الإنسانَ بصره، وأقتَله كذلك، ففي الوقت الذي كنت

أرى سعادة عينيه وهما تصبان سلامًا على وجهها، كان الجحيم يصب ناره عليّ، لم أكن شعرت يومًا بمثل هذا الشعور الغريب، ولا بمثل هذه النظرات المتزاوغة مني بين إثنين، حتى انتهيت إلى يقين بأنها كانت تستقبل ذلك بصمت محايد وبسرور تلقائي، كما لو أنه اعتراف داخلي بأنها تستحق ذلك؛ فتحدّثْ ما شئتَ أن تتحدث وصبّ من نظرك ما تصب، فما أنا إلا هذه الأيقونة التي لا تزيد بهذا أو بغيره ولا تنقص، أتاني هذا، وهو ليس بالجديد على مداركي، في اللحظة التي كان سيله فيها ما يزال منهدًا لتلتفت إليّ في نظرة حميمية دالة على أن الوقت حان للإنصراف، وقد مضى على لقائنا ساعة كاملة. نهضتُ بفجاءة أدهشت الإثنين؛ الفنان وضيفه القاص، معللاً أنّ لدي عملاً في المؤسسة وعليّ أن أنصرف لمتابعته، أما هي فلم تقل شيئًا فليس عليها أن تعتذر لأحد. كما أنها ليست مبالة للاعتذار، وعلى أي شيء؟ كعادته ترك ضيفه الصامت ورافقنا إلى الشارع مترفقًا بخطواتها ومتمهلاً في توديعنا.

في الشارع تبادلنا الهدايا. كانت أعدت شيئًا على سبيل الهدية؛ حقيبة بسيطة ولكنها تنم عن ذوق لتعدد استخداماتها. تجاهلت وضع الفنان وما كان يبثه،من جوى، لسانُه وعيناه، بل وحتى انحناءة جسده وهو يميل إلى جهتها متحدثًا معها، غير محتسب لوجود أحد غيرهما.

دعوتها الى الغداء في مطعم فرفضت، أنا لا أشتهي طعامًا الآن في الأقل ولا تشغل بالك بذلك. إذًا دعيني أشترِ لك حذاءً، وفي الحقيقة كنت أريد أن أبتاع لكِ حذاءً لكنها الالوان والأشكال والحجوم. لا

ياعزيزي لا تتعب نفسك، لدي الكثير منها، وأصبحت لا ألبس إلا ما يتناسب مع حركتي وأنا حريصة على ذلك أشكرك.

قطعت عليّ ما كنت أتمناه من التجوال في شارع الكرادة/ الداخل، مبدية عذرًا يتعلق بوجود من لا تريد أن تراهم أو يرونها على هذا الإمتداد، وبدلاً من أن نتجه شمالاً نحو أقصى الكرادة وأجوائها المريحة، أخذنا طريقنا يمينًا ولم يكن هذا بالطريق المناسب، حتى إذا وصلنا منعطف شارع آخر، انعطفنا تلقائيًا معه. هناك لم يكن الحديث صالحًا لكثرة حركة السيارات وأبواقها المتلاحقة، وصعوبة المشي على الرصيف على طريقة العشاق إذ يمشون. قلت لها مغالبًا كل ما يحيط بي، أشكرك على المجيء وينبغي أن تعلمي أنك أو أنّ حبّك، هو أعظم تجربة في حياتي وأكثرها نضجًا، وإنني أعتز بذلك. قالت، هو كذلك بالنسبة لي، فلقد عرفت ووقف في طريقي كثر من الرجال ولا سيما الفنانون منهم، وسواك لم أهفُ إلى أحد، وكان هذا كلامًا بالغ الأثر على نفسي، فاكدتُ على كلامها ولم أعلق كثيرًا.

لم أحسب تلك الساعة ولا الآن أنّ الظرف الذي جمعنا كان مناسبًا أو منصفًا، إذ لم نتبادل كثيرًا من الأحاديث ولم نتطارح الرغبات، كما لم نتكلم عن أي مشروع يمكن أن ترسو عليه أحلامنا وتطلعاتنا. لقد اجتمعنا على فراغ وانتهينا عليه. نعم كنا مسرورين على اللقاء، مسرورين لدرجة الإمتنان، ثم أننا تبادلنا هدايا، لكن ما حصل في النهاية كان أمرًا عاديًا، ذلك أننا ما أن وصلنا الى شارع آخر يؤدي الى

بيتها حتى قالت، إنّ هذا الشارع يؤدي الى بيتي ومن الأفضل أن أستقل سيارة أجرة إلى هناك. كنت أفكر بأن طبائع الطرق قد تحدد طبائع اللقاءات، وهي هنا كل ما كان يشكل عائقًا أمامنا، ليس سواها.

أخذت موقعي إلى جانبها، متجاوزًا الكيفية الكريهة في مجاملة سائق التاكسي بالجلوس الى جانبه، وترك الآخر القرين خلفك في الحوض وحيدًا. لقد سادت هذه الطريقة الذكورية غير المتحضرة، بل البدائية، نظام الجلوس في سيارة الأجرة في العراق وحده، ربما، من دون سائر البلدان، لأهبط قريبًا من ساحة الأندلس. قبل هبوطي من السيارة نقدت السائق أجرته وكان رجلاً طيبًا. حين هبطتُ وأغلقتُ الباب خلفي عطفت نظري إليها وكانت في الحقيقة تنتظر ذلك. حييتها فردت بابتسامة جميلة عذبة ومضتْ.

تمشيت قليلاً. جاءت سيارة أجرة عامة ركبت فيها وأذناي إلى أحاديث الركاب، وموجات من اطمئنان تتهامس في داخلي تقربني من الآخرين. كنت كمن أنجز في كل الأحوال مهمة ناجحة، وها هو منفتح على الناس، كنت بكل ما تملك نفسي من حب، منصبًا على الناس والحياة. عندما وصلت إلى مبنى المؤسسة اتصلت بها، ردّت أنها وصلت وهي الآن في حديقة الدار؛ وذلك ليطمئن قلبي.

في التاسعة جاءني هاتف أم يوسف تسألني أين أنتَ الآن وما موقعك من مكان الإنفجار؟ أجبت أنا في الكرادة، أجلس كعادتي في

الكوفي شوب المقابل لمستشفى رافائيل لأتناول قهوتي فيها، أنا بسلام ويبدو أنه ليس قريبًا تمامًا، والوضع غامض حتى الآن.

هبوطي الكرادة كان مبكرًا بعض الشيء، من أجل أن أمارس نوعًا من رياضة المشي بعد أن ازداد وزني بضع كيلوغرامات، ثلاثة كيلومترات صباحًا مشيًا رياضيًا تنزل الوزن وتحرك الدم وتفيد القلب. تتراءى لي في الآن نفسه شوارع بعض المدن التي زرتها كيف أن أرصفتها تستوعب أصحاب الدراجات في مسار خاص، وكيف يمكن للماشي أن يمشي بطلاقة، وكذلك للراكض الذي يريد إنقاص وزنه.

الأرصفة للمارة وليست للمحال، هكذا يقول القانون، أو هي مشاركة عادلة بين الإثنين. هنا تعترض طريقك البضائع المكدسة، وعربات الأكل السريع وكابينات الصيرفة وتصليح الساعات وباعة السجاير، وأخرى ثابتة ومتنقلة لا عدّ لها، ولا سيما المأكولات المسلوقة التي يأتيك بخارها سائغًا يراوغ النفس. ومع ذلك واصلت طريقي مأخوذًا بمبدأ "خذ من الرصفة ما عليها"، متناسيًا الفارق بين ذلك الزمن الشحيح الذي استن هذا المثل واليوم.

كنت وأنا أحث سيري تاخذني الرغبة في الجلوس في مقهى، وأنا بطبعي أميل إلى ذلك مذ كنت شابًا أعزب، أقف في رأس الزقاق أو أجلس عند باب المقهى، أراقب الناس وأتابع خطوات فتيات المدارس ساعة انصرافهن من مدارسهن.

ثمة صور كثيرة تترى على خيالي لوجوه صباحية المنظر بامتياز، ملأى بالحيوية والحبور تترادف أسماؤهن كما لو حفرت على الفؤاد، كن يتهامسن بها ونظراتهن تتراقص بين البياض الناعم والسواد الفاحم، أو البياض المخملي والخضرة الخَفِرة؛ عائشة، زينب، سلوى، سوزان، مريم، فاطمة، ماركريت واحلاهن مما تحفظ ذاكرتي مجدولين. على هذه الأرصفة التي كانت انظف مما هي عليه الآن، دبت خطواتنا الفتية، وانتشر الضحك الساطع المقهقه في الأرجاء، وانبثت قصائد غزل بريء بين الآذان.

لم يعد طريقي سالكًا، أمامي مفردات محل تجاري عرضها صاحبه على الرصيف، وإلى قريب منها ظهرت حفرة تنز ماءً يفيض على الشارع العام، وهنا حلّت جلستي في الكوفي شوب قبالة مستشفى رافائيل لأتناول فيها كأس ماء وفنجان قهوة سادة بلا سكر أو حليب. لقد قطعت ما يكفيني من المشي الرياضي ابتداءً من بيتي حتى هذا المكان.

كنت أقول ساعة صباحية مريحة ربما مقررة سلفًا أن تكون هكذا، قبل أن يجلس على المائدة المجاورة رجل في عمر الشباب، أتعب نظره في التحديق بي وبفضاء الكوفي شوب الخالية إلا من كهلين مثلي، جلسا في الداخل يتحاوران بصمت ويتناولان قهوتيهما ببطء. حسبته أحد طلابي فغالبًا ما صادفت ضباطًا، ومهندسين، وأطباء، ومعلمين، ومدرسين أو حتى جنودًا كانوا طلابي؛ يعرفونني ويسلمون عليّ وانا لا أعرفهم.

أكثر من مرة غضضت بصري عنه وأنا أحسه على خطوة مني. ما حصل أخيرًا أنه غادر الكوفي شوب مسرعًا نحو سيارة أجرة في الجانب الآخر من الشارع العام، لم أدرك إن كانت تنتظره هناك أم لا واختفى قبل ان يأتيه ويأتيني العامل لمعرفة طلباتنا، تاركًا في نفسي غصة صغيرة؛ لماذا لم أترك فسحة لهذا الذي قد يكون أحد طلابي للسلام عليّ. حقًا كان هنالك دافع خفي يصدني عن هذا الرجل الذي لم تستهوني صورته، وكنت أشك في أن تكون لأحد من طلابي، فعيناه الزائغتان وكثاثة لحيته والقمصلة الجلد التي يحيط بها جسده كانت أشياء بعيدة عن قبول نفسي، وفي الحق فأنا لم أفعل شيئًا سوى أن نظراتي لم تستقبل تطلعه الدائم بي، وبالمحيط العام الذي نحن فيه، وان حاجتي إلى خلوتي كانت مدار سعادتي. عندما اتصلت بي زوجتي على خبر الإنفجار لم أعرف كيف استعدت صورة هذا الرجل، وكيف تراءى لي أنه من فجر مطعمًا في الجزء الجنوبي من الكرادة بعد أن تناول إفطاره كاملاً فيه، بحسب ما أظهرت الوقائع من بعد. لقد أشيع بأن رجلاً محتزمًا بحزام ناسف مخفيه تحت قمصلته، دخل مطعمًا وأوصى على" كبة كبيرة" تناولها بلذاذة فائقة، ثم أوصى على أخرى مثلها شرب بعدهما الشاي المهيل على مهل مرتين. ولما كان المطعم في أشد زحمته والعدد " ملائم" فجر نفسه. ما أحسسته أخيرًا أن نفسي تكاد تخرج من جسدي، وخطواتي وأنا أغادر مجلسي نحو بيتي ثقيلة مخدرة، على نقيضها قبل ساعة أو ساعتين. وبرغم ما استبد بي من شعور مقرف وأسف شديد، تنازلت عن المشي على

الرصيف الذي اكتظ بالحاجات، مغامرًا بالمشي على حافات الشارع العام، معاهدًا نفسي على الهبوط غدًا قبل أن تفتتح المحال أبوابها، وتمنع رياضة المشي الحرّ على الرصيف، ولأعود مثلما كنت أفعل من قبل؛ أشرب قهوتي في الكوفي شوب عينها.

العاطفة المحكومة

أعترف بأنني أحبها كما ورد في رسائلي الكثيرة اليها. أعترف أنّ حبي عاصف يجتاحني كل آن، لكنني تساءلت عقب اللقاء عن مقدار ما حققت من الحب، مقدار ما سوف أجني في لقاء آخر أو ما قد يسفر عنه؟ أسئلة كثيرة راودتني لبثت دونما جواب ! كانت الأيام الثلاثة التي أعقبت اللقاء، أيام تفكير دائب في مقدار التواصل الحميم في لقاء آخر، وحجم حلقات الفراغ في العلاقة بيننا، فكتبت لها متجاوزًا ما تولّد في نفسي من شعور متناقض مضطرب، سببه حساسية الظرف النفسي الذي تسقطه علينا قوى عليا، هي الأخرى أقوى منا بيد أنها ليست الله :

"سعدتِ هذا المساء وكل مساء. أشكرك على ذلك اللقاء. لقد تحملتِ عناءً كبيرًا من أجله ما يُعدّ تضحية في هذا الزمن العسير. إن ما حصلتُ عليه منك كان شيئًا كبيرًا. أشكرك عظيم الشكر. لي أمل بلقاء قادم أكثر سنوحًا للتعبير عن جمالك، ومساؤك تَرَف وياسمين".

مضت رسالتي هذه اليها مساءً وانا وحيد إلا من صديق كان يغالبني الحديث. وقتها تمنيت ان تؤجل الرد، لكنه جاءني مشربًا بودها الحميم وقلبها الصادق الأمين :

"يا صديق الروح ومؤنس وحشة الأيام. هل كان ذلك حلم ليل طويل. نور صبح شفيف. أحاول لملمة فرحي لأطيل تأمل وجهك الحنون وعينيك النبيلتين".

كنت اثناء لقائنا ذاك طرحت على مسامعها بأنني قد أزور المدرسة للسلام على المدير الجديد، وهو صديق قديم لي تهاودت مبادؤه، بعد أن تعرض الوطن الى إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وبعد قضاء محكومية عشر سنين في نقرة السلمان، ترك السياسة ثم أنه خفف من غلواء شاربيه الكثين وأطال لحيته وصار يصطف أخيرًا في صفوف المصلين.

على أي حال لم أجد في نفسي الرغبة الجادة لزيارة المدرسة ومديرها، وقد رافق الموضوع بعض الأحداث الجسام التي راح ضحيتها العشرات من الناس الأبرياء، في الصدرية هذه المرة، وعلى متن سيارة حمل مكتظة بالفاكهة والخضروات.

«أسعد الأوقات. سأرجئ زيارتي لظروف أمنية»

كان ذلك مساء يوم سابق على الدوام. وحقًا كانت نفسي تتوق للدعة ما دامت الأحداث تأتي تباعًا، وفي مفاجآت غير محسوبة أو متوقعة، وهي في أغلب الأحوال غير مُسْعِدة، على عكس ما يحصل في

جغرافيات أخر. ولعل من مصادر رسالتي أنني كنت أشاهد البحر من على شاشة التلفاز مغمورًا بسفن بيض، وعلى مياهه القريبة وساحله الممتد بشر من كل عمر يلهون أو يتشمسون، ببشرات بيض وحمر وسود، وفي ظني أن أغلب الذين غنموا هذة الفسحة المشمسة هم اصحاب البشرات البيض التي لها لون الحليب، ولا سيما النساء اللواتي أشرعن أجسادهن، بكل حرية ومتعة، للشمس، وأعود أقارن محنتنا في شوارعنا وحريتنا وفسح النزهة واللهو البريء لدينا، ثم الكهرباء التي لا تأتي إلا على أوقات متفرقة، تتفرق فيها نفوسنا على ما قد تحققه لنا سويعات منها، غالبًا ما يعقبها غضب أو ندم على خساراتنا الفادحة فيها.

كان جوابها قد ورد وأنا في موقعي قرب التلفاز، ومن حسن الحظ في مكان منه بحيث لم يسمع أحد فيه رنينًا ما، وكنتُ منذ أيام خفّضت جرس هاتفي الى أدنى درجة ممكنة:

"أيها المفدى أنا في غاية الشوق وسلامتك فوق كل الاشتياقات. تحرسك عين الذي لا ينام. مع الود"

لقد انطوى هذا الدعاء الذي جاء في الرسالة على دفء قلب الأم والأخت والحبيبة والزوج، فهل كانت هذه المرأة المعجزة كل أولئك النساء؟ نعم قد تكون كذلك، وربما هو هذا ما شعرتُ به دائمًا ومنذ علاقتي بها، ما جعل عاطفتي نحوها موزونة ومحكومة بحسابات مختلفة كثر.

ليس من شك في ان الشوق الذي لوّحتْ إليّ به هو الشوق عينه الذي أحمله اليها، وهو ما يشدنا إلى بعضنا شدًا عميقًا بحيث لايبدو أن بمقدور أحد منا، أن يستغني عن الآخر بأي صورة من الصور، وكانت عبارة "ايها المفدى" قد زلزلتني تمامًا كما حصل معي على عبارتها "تحرسك عين الذي لا ينام"، بل على مجمل رسائلها التي تتجلى فيها ملاكًا بصفة إنسان!

ان الحرارة العبقة التي تُضمّخ كلامها، تنقلني الى مدارج روحية سامية قلما نُقلتُ اليها في حياتي، بل تحيلني الى ذلك العطف الحار الذي كنا نتدفأ به أيام طفولتنا، بين حنايا الأم وعطفها الدافىء، بل وأكثر من ذلك حين نجده عند الأخت الكبيرة التي قد تفوق الأم حنانًا وعذوبة، إنّ عطف هذه المرأة بقدر ما يشعرني بالراحة والسلام، يشعرني كذلك باللذة والاشتياق، كأن حضنها، حضن أخت جميلة تحفز في مراهقة الصبي، أعمق تداعيات الحلال والحرام !

حتى الثانية من الليل لم أنم إذ كنت متوهجًا، وكان عليّ أن أنام لأنهض مبكرًا، لأعدّ الأخبار التي كانت تأتي محملة برنين الواقع اليومي المأزوم بالخلافات والانفجارات، إنما سيكون عليّ قبل ذلك أن أنزل إلى الكرادة لتناول إفطاري. حسن قلت، إن حبة فاليوم من فئة ٢ ملغرام كافية لإنزال النوم عليّ، وكدت أشك في فعالية ذلك.

انفرجت أسارير زوجتي على مكالمة من زوجة أخي نزار، تخبرها فيها بنجاح حفيدها سامي في الإمتحانات الشهرية، بعد أن كان متخلفًا

في الرياضيات والجغرافيا. سامي في السادس الإبتدائي، ذو ولع أصم بالرياضة والموسيقى، يعزف عن قراءة دروسه ليعزف موسيقى فاغنر وشوبان وريمسكي كارسكوف، أو يتابع بطولات الأندية الأوربية. ولعل هذا جاء تأثرًا بعمل أمه مشرفةً في مركز النشاط الرياضي في المنصور، وليس من عمل أبيه الموظف الحديث في البنك المركزي.

سامي قريب جدًا من قلب زوجتي لذا دخل الفرح قلبها بلا مفتاح، وهي التي سمته بهذا الإسم، إسم جميل تقبله كل أذن وكل لغة ودين، فهو في العراق مثلما هو في أمريكا، وهو في مصر ولبنان مثلما هو في انكلترا وفرنسا. وبرغم أن تسعينيات القرن الماضي لم تكن تحمل أبعادًا طائفية كما تحمل اليوم، أصرت زوجتي على هذا الإسم. هل كانت تتنبأ بما قد يحصل لاحقًا؟ ولكن إن ينجُ أحد بإسمه فهل ينجو بدينه أو مذهبه؟

شكل نجاح سامي في الإمتحانات الشهرية، حافزًا في نفسه على الإنصراف إلى دروسه، مع ولعه بالموسيقى والرياضة، ولكن بعيدًا عن الدردشة الطويلة مع الأصدقاء. وعدّ هذا عند العائلة تحولاً نحو ما هو مرسوم لأن يكونه في المستقبل طبيبًا مرموقًا! فأن تقضي وقتًا في العزف على البيانو، ووقتًا آخر على مشاهدة مباراة كروية، لا يمنعك من الدراسة جيدًا لتكون طبيبًا لاحقًا. ولأن بغداد تلهو وتلعب فوق دوي الإنفجارات، استمرت حفلة الإبتهاج بنجاح سامي، بين العصائر الطبيعية وبسكويت البيت الذي تصنعه يدا مايا زوجة نزار، وأحاديث

مرحة وطرائف من تلك التي يجيدها نزار عن أحاديث السياسة وما آل إليه الوضع الأمني، وتبدد ثروة العراق النفطية بين عصابات السياسة الجديدة، وهذه وإن أخذت شطرًا من الوقت لكننا لم نعطها الفرصة لان تفسد علينا بهجتنا، فلكل شيء حديثه، ثم أنها وإن كانت طرائف دامية فقد حولناها إلى طرائف عابرة، فنحن الآن في حماية فرح صغير جعلناه بإصرار أن يكون كبيرًا.

مثل سفينة

برفقة زوجتي التي جلست في المقدمة إلى جانب إبني، وصلت إلى المؤسسة عند العاشرة من صباح الأربعاء. إن فرز الصور حين لا يكون بينها فرق كبير يعد من أصعب الأحوال، لذا كانت الصورتان تترادفان على عينيّ وخواطري، وفي حالات مراوغة من الظهور والتخفي كما لو في تألب مقصود، لا يقفني عند صورة محددة واحدة. كنت سعيدًا وبين سعادتي وسعادتي أنى التفت كان هنالك دجلة أول الصباح ونحن نحاذيه، بمنظره الفضة المشبعة بالذهب، يجري في مصهر ممتد باسترخاء من أقصى الشمال نحو أقصى الجنوب، في تحدّ ساحر خلاب يجذب العين والروح؛ فتتقصيان سعادته التاريخية والزمن في أوله فلا تغيبان لحظة عنه. هنا حاولت أن أرسخ مسافة الفرح الصغيرة المبثوثة بين نفسي وعيني الآن، إذ يمكن أن تكون في الحياة سعادة برغم ما يعترضها من

تقلبات. كنت أتقرى صمت زوجتي، وهو صمت محزن غالبًا حتى حططت بيدي على كتفها؛ ما أجمل هذا الصباح! ردت بك أولاً، كان الغناء جميلاً والسيارة تتهادى كما هي نفسي، كما هو دجلة، كما هو الكون جميعًا.

عندما فتحت غرفتي كانت ما تزال ترافقني، بل وجدتني أفكر فيها بقوة وها أنني أراها ماثلة أمامي بكل جبروتها تحدق بي وتبتسم، وتتبدى لي كما يتبدى النور في الأفق القريب.

فجأة لاحت لي رغبة عنيفة مبهمة هزت جسدي وأوشكت أن تطوح بي. أسندتُ جسدي ورأسي إلى الباب، كادت عيناي تدمعان لولا أنني منعتهما منعًا قاهرًا، اذًا ماذا تفعل لو رحلتْ، لو هجرت، لو نأت بصورة من الصور، ماذا تفعل لو..؟ وجعلت أفكر، أن الحب نوع من الأقدار لكنه أعظمها على الإطلاق. إن ما كان يؤلمني ويعبث بدواخلي؛ أن زوجتي التي تحبني"أحبك حبًا لا يوصف"، اكتشفت منذ البداية علاقتي ببلقيس وبمرور الأيام حاولتُ أن أمسح عن قلبها المحب بعض هذا اليقين، وقد استدعى ذلك مني جهدًا فائقًا، تجاوزت فيه على الصدق وعلى الحقيقة وعلى اليمين. وكنت أجدني محقًا وهي صامتة صبور؛ متطامنة صدقًا أو ادعاءً.

لا أريد القول إن زوجتي بصفاتها هذه، ستنتفض انتفاضة لبوة جريحة لو عرفت الحقيقة كاملة، قدر ما أقول ها أنا الآن مثل سفينة؛ يأخذها الموج وتصدها العاصفة!

نأيت ببصري عن الشاشة وأنا أشتهي سيجارة عنّت لي، كما تعنّ دمية مفقودة لطفل، أشرتُ حيث وقع، قلت انظري إلى خارطة اليابان، كان نظري توقف لحظة عليها، ألا توحي لك بأشلاء حصان؟ قالت؛ هكذا تبدو أو هكذا تبدو لو شئت، بينما هي موحدة حتى النخاع. تمامًا، رددتُ ثم عطفتُ، كوحدة أوطاننا مثلاً. ردت ساخرة؛ مثلما تفضلت وأومأتْ نحو الشاشة أنْ أواصل القراءة. منذ ليلة أمس لم تنم زوجتي جيدًا وأصبحت برمة، عندما سمعتْ ورأتْ من على التلفاز من يدعو إلى تقسيم العراق إلى أقاليم، حينها علقتْ ؛ ترى ومن سيحمل إسم العراق لو أصبح أربعة أو خمسة أقاليم، وإلى أي إقليم منها ينضم تأريخه المجيد؟ ثم إذا حلت حرب قادمة بين هذه الأقاليم فثق أنها ستكون على هذا التأريخ، قبل أن تكون على آبار النفط أو نسب كميات المياه المستحصلة من دجلة والفرات. قلت كل شيء وارد أو قائم ولكن ما أصعب ما سيكونه هذا الشيء. العراق عميق التاريخ وصلبه، وامتداداته غنية ومتشعبه ومهاده ملهم، فلن يكون سهلاً على مشروع يحاول تقسيمه. أتمنى ذلك فما زلت غير قادرة على التفكير باستحصال جواز سفر إلى الموصل وديالى والأنبار وآخر إلى البصرة والناصرية و ميسان، وثالث إلى النجف وكربلاء والحلة والسماوة وغيرها، فضلاً عن الرابع أو الخامس إلى كردستان، وبغداد تتناهبها الطوائف والأديان..... يا لمحنتك يا عراق.

الأمريكان

غادرت المؤسسة إلى البيت. ثمة قبضة تشدّ على قلبي. كلا. كان البيت سعيدًا جدًا. فزوجتي في مزاج رائق، وهكذا أمضيت وقتي بين افراد عائلتي وكتابي وأخبار التلفزيون المقرفة بأحداثها الجسام، والنوم ثلاث ساعات نهضنا بعدها على صوت إبني الكبير، يهبط من غرفته، ينده على أمه: استيقظي الأمريكان دخلوا الزقاق، وها هم يقتحمون البيوت. دبّ ذعر في البيت استيقظ على إثره ولدنا الثاني. لقد أوقف الأمريكان سيارة "همر" قبالة بيتي والأخرى التي لم نرها حطمت باب الحديد الخارجي لبيت جار قريب. أطفأنا الأنوار التي جاءت مع اقتحامهم وكانت مقطوعة منذ أيام! إنها الساعة الرابعة والنصف فجرًا، وعلينا أن نتهيأ لما يحتمل. وقائع لا نملك مقاومتها بامتياز، فنحن لا نملك في البيت سلاحًا، سوى مسدس صغير جدًا من ذلك الذي قد

يجرح ولا يقتل، أخذتنا حيرة في المكان الذي نخفيه فيه. إتجهت إلى المكتبة في غرفة الاستقبال لدفنه بين مئات الكتب، لكنني عدلت عن هذا الاجراء فلربما فكر الأمريكان في هذا الأسلوب، أخيرًا انتبهت إلى الساعة الجدارية الصينية الصنع التي نوهت عنها في حروف سابقة، وهي ذات تاج عال نسبيًا يمكن اخفاءُ شيءٍ صغير خلفه، وضعته هناك واطمأننت. دخل بعض من الجنود بيتي، بينا انتشر على طول الزقاق وغاب في البيوت الأخرى آخرون. لما شاهدوا مكتبتي خفضوا فوهات أسلحتهم، وسألوني عن هويتي وهوية الكتب التي تحتويها، ثم سألوني إن كان لدي سلاح، فاعترفت لهم بأن لدي مسدسًا صغيرًا أحتفظ به وسيلة رمزية للدفاع عن النفس، وإلاّ فهو قد لا يقتل عصفورًا. تناولوا المسدس وكان صغيرًا جدًا حقًا وعدوه سلاحًا خطيرًا إذ يقتل من قرب، وصوته غير مدوٍّ، والإحتفاظ بسلاح مثل هذا شيء يعاقب عليه القانون، ولولا أنك كاتب لأخذناك معنا. لم أجادلهم كثيرًا فقد ينقلب عليّ أحد منهم، إن لم يكن جميعهم، فاكتفيت بشفاعة كتبي وسلامة البيت والعائلة، وهكذا مررت منهم بخسارة زهيدة مُنيت بها لصدقي، قياسًا على ما لحق ببعض جيراني من خسارات؛ تحطيم باب بيت أحدهم مثلاً.

عقب ساعة من قلق وارتباك وخوف ساد الزقاق بأكمله، ذهب الأمريكان. إنتشرنا في الزقاق نبحث عن الأضرار التي لحقت ببيت الجار، فاذا بالباب الحديد الضخم قد حُطم وحُطم معه قفل غرفة أحد

الأولاد. كادت تحصل مواجهة بالسلاح بين صاحب البيت وأولاده، والجنود الامريكان الذين انتزعوا إبرة الرمي من رشاش وجدوه لديه لتعطيله وأعادوه إليه. طلبوا منه إن كان لديه ورق لعب أو مشروب مسكر كالويسكي. نام المترجم أثناء ذلك على واحدة من كنبات غرفة الإستقبال. أخيرًا غادروا ككلاب الغابة الجائعة، وقد سرقوا من تحت وسادة الرجل أكثر من نصف مليون دينار، وبعضًا من حلي الزوجة اعتادت أن تنزعها عند النوم، وتضعها على منضدة جوار السرير. لم ينم الناس تلك الليلة وكذلك زوجتي، أما أنا فعدت وغفوت حتى السابعة والربع، وهذا شيء لم يحدث كثيرًا في حياتي، أن أستيقظ عند الفجر فأعود ثانية إلى فراشي لأنام، قد يفعل الحزن الكثيف الذي يولده الأمريكان ذلك، لست أدري!

إنفجار

مع مجموعة من أصدقائي العاملين معي في القسم أنفسهم، سعيد، أحمد، عبد الباقي قصدنا المقهى التي اعتدنا الجلوس فيها عصرًا كلما سنحت لنا فرصة الى ذلك. هناك جلسنا وفي أنفسنا ترقب دائم، مأخوذين بما قد يفجعنا في أي لحظة. لم يكد الهناء في الجلسة يتحقق كليًا حتى جاءت مكالمة من زوجتي:

"حدث إنفجار في حيّنا استهدف مركز الشرطة وتجمّع تصليح السيارات، حطم زجاج البيت وهشم الباب الجميل لصالة الإستقبال، وقتل ضمن من قتل إبن بنت خالي". أجبت:

"لا إله إلّا الله. ماذا يريد هؤلاء القتلة. خسارة البيت زهيدة، ولكن خسارة شاب جامعي مؤهل خسارة

فادحة. أنا لا أستطيع المجيء فلدي عمل هام في المؤسسة" وفعلاً كان الأمر كذلك.

ارتبك الخط، وتعذر سماع الصوت، فأغلقتُ الهاتف. ارتبكت جلستي مع أصدقائي، علق سعيد على أن هذا الحمام لن ينتهي في حين علق أحمد على انه مرسوم ومتفق عليه من أطراف محلية وخارجية تقودها أمريكا "محررة الشعوب" قال كلمته الأخيرة ساخرًا، وعقب عبد الباقي، لو لم تكن هناك ثغرات في الحكم وفي الصف الوطني، لما تسلل إلى البيت العراقي هذا الشيء المشين. أفكار كنت أجدها منقولة على ألسنة الجميع وليس هناك غيرها؛ أمن البلد نابع من تراص الصف الوطني دونما استثناء. ولأنني على اطلاع على فوضى المصالح والخلافات، فلم أقل شيئًا، ذلك أنني لم أجد حلاً قريبًا يمكن تقديمه أو الركون إليه. عدت إلى غرفتي وحيدًا بعد أن تفرق الأصدقاء. في وحدتي هناك تتوفر لي فرصة إنجاز عمل ما. مواصلة تدوين مثل هذه الرسائل، القراءة في كتاب، الكتابة في فصل من روايتي، الإستماع الى الراديو وأشياء كثيرة أخر. كنت في حقيقتي بائسًا محزونًا هذه المرة، ومع ذلك حاولت الإتصال ببلقيس على التلفون الأرضي لتحويل الموضوع المؤلم إلى نقيضه ما أمكن. جاءني صوتها المترع بالثراء يمسّي عليّ بالخير. أهلاً قلتُ، يا لهذا المساء القدسي ويا لصوتكِ الغني / ويا لمسائكَ الأروع. قطعتُ ما كانت تريد إضافته، بالسؤال عن أحوالها وأخيها الذي أخفق في الهجرة حتى الآن نحو دول اللجوء. أبديت أسفي وحزني، ثم

استعدادي لتقديم مساعدة قد لا تكون كافية إلا بقدر ما، فكانت كما هي المرأة القوية الصامدة التي تؤمن، بأنّ الحياة في الأخير معها ولن تكون ضدها، ثم ألم تأخذ عزيزًا عليها؟ ألم يحطم الأمريكان بيتها وأثاثها ومقتنياتها في غيابها؟ ألم يكرروا المحاولة فهزمتهم وطردتهم، ثم أغلقت موضوع خساراتها؟

سألتني؛ وماذا تفعل الآن؟ / أحاول ترميم ذاكرتي لأواصل العمل في روايتي، وأنتِ؟/ أرسم ولا شيء يسد فراغي وحاجتي إلى الحياة سوى ذلك، أنت تعرف حاجة الفنان إلى فنه حينما يقف حياته عليه، أو حينما يبدأ معه منذ الصغر. الأمر هكذا معي حينما تولد مع فطرتي أولاً، ومع رعاية والدي ثانيًا، ومع الشهيد ثالثًا./ من هنا أنت تقطرين فنًا / هذا يا صديقي إطراء. / ولكنه نابع من حقيقة ومن... / وما هذا الوراء من؟ / شيء أكبر من الحقيقة، إذ لا حقيقة مطلقة.. تصمت، ويستمر صمتها حتى تقول مع السلامة. تذكرني بالطفلة التي تسبح على الساحل فحتى هذا لديها بحر. ما أوسع مخيالها!

غالبًا ما نكون في عملنا نسابق الوقت، لالتقاط الأخبار وانتقاء ما يصلح لمستمع يراود نفسه الأمل في سماع خبر سار، لينتصر به على ما يحيطه ويحبط ثقته في إقامة وطن جديد. وفي حال من الفوضى تارة والنظام أخرى، كنا ندأب على نمذجة عملنا للخروج بأخبار ناجحة، مطمئنة في أدق تعبير: لقد تم القبض على الجناة الذين... العراق يحقق تزايدًا كبيرًا في صادرات وواردات النفط... شركات الإستثمار العالمية

تعلن عن رغبتها في إعادة إعمار العراق.. الواقع الأمني سيحسم لمصلحة الوطن وقوى الإرهاب تتراجع...! لقد انصرفت مباشرة الى العمل بين متابعة ما نُفّذ من مواد، وتصحيح بعض المواد التي تزاحمت حول منضدتي. لم أتناول عشائي إلّا بعد العاشرة. إتصلت بزوجتي كيف هو الوضع؟ هل عرفت شيئًا جديدًا عن الإنفجار؟ ردت بصوت مفجوع لا جديد وأنا لم أتحرك بانتظار عودتك، هل تعشيت؟ نعم قبل قليل، وسألت نفسي عن سؤالها هل تعشيت، هي المفجوعة بقريب!

اليوم هو الجمعة. نفسي تاقت للذهاب إلى شارع المتنبي، الذي تنطوي زيارته على متعتين؛ متعة الإطلاع على آخر ما وصلنا من كتب تأتينا من منافذ لم نسمع بها من قبل، ومتعة اللقاء بأصدقاء أدباء وغير أدباء. بكرت بمغادرة بيتي قبل الفطور، ولما كانت الكرادة في صباحها أجمل والفطور في مطاعمها ألذّ، أفطرت هناك وكذلك شربت الشاي. أخذت سيارة أجرة إلى هناك. ما آلمني وأنا في الطريق فراغ جيبي من نظارتي. لم يطل أسفي فهناك بائع يعرض نظارات طبية، تحصل منه على ما تريد دونما تقرير من طبيب. أنت تفحص عينيك بعينيك، حين يضع بين يديك ورقة جريدة لتقرأ بموجب نظارتك الجديدة، وأنت سعيد.

وكما هو المتنبي أبدًا مضى، كالبحر السادر بموجه، يهدر بروّاده من الجدد الشباب، ومن القدماء الكهول والشيوخ، وكل فرح بليلاه؛ فمن كان لهذا النوع من الكتب كان غيره لسواه، وهكذا في محفل جميل ومثير قلّ أن تجد له مثيلاً. هناك بدأت أتطلع إلى الكتب التي تتوه على عنواناتها

العين، وإلى اللهفة والإقبال على الكتاب. اقول إن كنا حرمنا من أشياء كثيرة، فلم نحرم من المتنبي والكتاب. لقد فتحت السوق العراقية أبوابها جميعًا للكتاب بشتى مضامينه، بعد ذلك الحصار الظالم عليه. لقد دفع بعض من باعة الكتب في هذا الشارع/ السوق هذه الأيام، الجزية قتلاً جراء الإتجاه المذهبي الذي ينتمون اليه، أو الطاغي على نسبة ما يعرضون من كتب، فكانت الخسارة موجعة للطرفين، لأنهما كانا على وفاق تام مذ كانا يبيعان الكتب المستنسخة سراَ وجميعها معارضة لنظام صدام. ابتعت لنفسي بعض كتب النقد والروايات، ولأم يوسف قاموسًا ضخمًا وحديثًا تدخل فيه من العربية إلى الإنكليزية وبعض المجلات، بما فيها مجلات الأطفال لأنها تميل إلى قراءة قصصها. ولأنني ما زلت في إطار الحب ورسائله، طرفت عيني نحو كتاب صغير أصفر الغلاف، يحمل عنوان " تاريخ الحب ورسائله الخالدة" بقلم ابراهيم المصري، من إصدارات مجلة الهلال المصرية، ضممته إلى كتبي مقررًا أن أقرأ لاحقًا فيه، بل سأقرأ أول ما أقرأ الرسالة الموجهة إلى جوستاف فلوبير من حبيبته؛ توبخه فيها على غيرته عليها "كيف يمكنك أن توفق بين أفكارك السامية ومبادئك الحرة، وبين هذه الغيرة الطائشة الحمقاء التي تلاحقني بها وتحاول أن توقعها عليّ كحكم الإعدام....."؟ وغيرها وغيرها من قصص ورسائل لمشاهير في الأدب والفن؛ تولستوي، فلوبير، محمد إقبال، الرسام الإيطالي جيوتو، الموسيقي الالماني شومان،الروائي الصيني تيان تسن، حتى لتتداخل قراءة الرسائل أحيانًا بين الورقي والرقمي، ونفكر

في الوقت جميعه بأن الحب، هو وحدة وجود الإنسان أينما كان وفي كل زمان، وأجمل ما فكر فيه البشر على الإطلاق.

من هناك ملت إلى فرع جانبي ظليل، يأتي الهواء عبره دافقًا وباردًا عذباً، حيث مقهى صغير لا يؤمه إلا باعة الذهب أو صاغته لانه قريب من معارضهم أو دكاكينهم. لقد نزعت نفسي إلى هناك حبًا بالوحدة، وشرب الشاي الخالص المصنوع على نار الفحم الهادئة، وبعيدًا عن أصدقائي في مقهى الشابندر الذين سأخفّ اليهم ساعة أشرب الشاي، وأقلّب كتبي بحثًا عن صفحات بيض مما قد يحصل سهوًا في هذا الكتاب أو ذاك. وأنا أدخل الشابندر التي يختتم بها المتنبي مسيرته التي تبدأ من نقطة على نهاية شارع الرشيد، وأرى روادها الكثر بحيث لا تجد لك مقعدًا تجلس عليه، سمعت من يناديني باسمي سليم، الأستاذ سليم. شهد المتنبي حريق مكتبة المثنى في العام 1999 فذهبت مع النار وإلى الابد كنوز المخطوطات النادرة والكتب الثمينة، ولم نكن نعرف يومها العبوات المتفجرة؛ اللاصقة منها وغير اللاصقة أو الأحزمة الناسفة والسيارات المفخخة، ولكن ما حصل فيه لاحقًا من انفجار كان كارثة حلت بشارع ثقافي فريد، أخذ بناره عشرات الشباب من أصحاب المكتبات والرواد وعمال الخدمات، وأحرق وأتلف مئات الألوف من الكتب والمطبوعات، وهدم أو خرب مباني كانت تضم مشتغلين في الطباعة والإستنساخ والتصحيف، وغير ذلك من مهن لصنع الثقافة لا غير. شققت طريقي نحو الرجل الذي ناداني، وكان كسبي من ندائه

أولاً المكان الذي سأحتله قبل معرفته وقد بدا غريبًا على عينيّ." السائق" أبو مصطفى العسكري، آه أهلاً والعتب على الذاكرة المتعبة. في الجمعة لا حديث يدوم في الشابندر أكثر من دقائق أو تسمعه جميعه، لذلك رحبت بالرجل الذي لم تكن معرفتي به سوى أنه ضابط في الجيش العراقي القديم، أحيل على التقاعد منتصف التسعينيات وقبل أن يصل إلى السن القانونية، لأن في صلاته " غلوًا" فصار سائق أجرة. تمت المعرفة الصريحة في سيارته، لكن وعيه بالحديث الجريء الذي دار بيننا مما لم يكن مسموحًا به آنذاك، ويعد من قبيل المغامرة إذ قد يكون كل من السائق والراكب مأجورًا للسلطة، عمّق في ذاكرته الشابة صورتي أو إسمي. لقد هزل الرجل واسمرّت سحنته البيضاء وتجاوز شبابه نحو كهولة لا أظنها إلا متعبة. لم يدر حديث طويل بيني وبينه لكن قميصه الاسود نبهني إلى سؤاله عنه، لقد فقدت أخي هنا في الإنفجار الذي أودى بحياة العشرات، لم نعثر عليه، عثرنا على جثة سوداء غائمة الملامح ؛ يقول ذلك كمن مسه جن، كان أسفي هذه المرة شديدًا كأنما ليوثق العلاقة بيننا، أنا هنا كل جمعة أو جمعتين، وأنا كذلك، إذن يمكن أن نلتقي ثانية. دفعت ثمن شايه وغادرت، وفي صفحة من خيالي أسف الأدباء على صديقهم المحترق عدنان صاحب مكتبة عدنان، وحزن صاحب مقهى الشابندر العميق على أربعة أبناء وحفيد. ليس من شك في أن كارثةً عمت المتنبي، ولكن أن يعود مجرى المتنبي دافقًا، والشابندر إلى سابق عهده؛ ينتصب في مقدمته وعلى مجلسه الخاص صاحبه العتيد،

وتنبثق الى الوجود وبحلة أجمل مكتبة عدنان وغيرها وغيرها، فذلك ما لا يمنعك من القول؛ إن الحياة ليست بالسهولة التي يتمناها أعداؤها. من هناك، من فتحة المتنبي على شارع الرشيد، سأجري طقسًا غالبًا ما أجريته، المشي في شارع الرشيد حتى الباب الشرقي، أسترجع لحظات تعد إضمامة صغيرة من آلاف لحظاتي في هذا الشارع المجيد، سألقي نظرة على عقد النصارى؛ أستروح فيه عطرًا مضى وتأريخًا لا يستعاد يوم كان مكتظًا بمئات البيوت وآلاف أجمل الناس، سألقي هذه الوردة التي بيدي تحت أقدام عبد الكريم قاسم، جوار رقعة النحاس المكتوب عليها:

الزعيم

عبد الكريم قاسم

فجر ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

ولد في ٢١ / ١١ / ١٩١٤

استشهد في ٩ / ٢ / ١٩٦٣

أصوره في لقطة أمامية تتسع لجسده مع شعار الجمهورية العراقية التأريخي الجميل أول إقامتها، أستعيد إطروحته المثالية " عفا الله عما سلف" هل كانت هي مقتله؟ أحزن كل الحزن على نهايته المؤسية، وأتمنى لو كان مدّ يدًا للجماهير التي هرعت إليه تدافع عنه وتحميه، يوم انقض عليه البغاة، أفكر في الضريبة التي دفعناها؛ عقودًا للوراء منذ ذلك اليوم. يمتد ذلك الشريط الطويل أمامي، منذ تموز حتى اليوم؛

ضربة بعد ضربة، دمًا مضمخًا بدم، أمضي قدمًا حتى الباب الشرقي، مطلاً على تلاشي مقهى بيكادلي الجميلة بجلاسها المتأنفين، والبرازيلية وزبائنها المرموقين وأخصهم الشاعر حسين مردان، سينما بردواي التي أثارتنا بفيلمها الشهير "الآن وإلى الأبد" من بطولة برت لانكستر، أرنست بوركانين،فرانك سيناترا ومونتكمري كليفت بحيث طفرنا،مجموعةً، سياج النظامية لنشاهده، ونحزن حزننا العميق على أغنية فرانك سيناترا إثر موت أحد أصدقائه من أبطال الفيلم ذاك، نحن الذين سحرنا الصوت الذي خلد الحزن على الصديق من دون أن نفقه تمامًا اللغة التي غنى بها، أورزدي باك، نصب الحرية الذي أقف تحته الآن الشاهد الوحيد الذي ظل قائمًا، قاهرًا جبروت الحكام الذين تعاقبوا عليه، يطل على رؤوسهم جندي جبار يحطم أسوار السجن العريض،آملاً أن تندفع من خلفه الجموع لتمسك بقرارها حتى الأخير، أعود من هناك إلى بيتي، وصدري يؤلمني؛ مملوء بقليل من المسرة وكثير من الحزن معًا، شأننا أبدًا.

شيء أعظم

لم يمض الحديث بيني وبينها، من دون أن يترك أثرًا عميقًا في نفسي المتوهجة بها، ظل يلازمني أيامًا، كنت عليه كمن فقد جاذبيته في عالم هلامي يتحرك به ذات اليمين وذات الشمال، ها أنا اسمع صوت قلبي، ها أنا اسمع صوت عقلي، وكل منهما لا يريد أن تفصح لغته عن شيء محدد وواضح، إلا من دمدمة عاتية تُفقد الإتزان. يا ربّ السموات كم أنا مأخوذ بهذه الريح العاصفة، بل كم أنا مغرم بها من دون أن أعلم إلى أين تاخذني في دورانها الموار؟ اللحظات التي أكتب لها فيها هي اللحظات الوحيدة التي أستعيد فيها توازني وأتحرر من عالمي المموه بالظنون: "أجمل العواصف عاصفتك، والليالي ليلك، والنهارات نهارك، أجمل الحب حبك، وأجمل النساء أنت".

أرسلتُها وذهبتْ أسرع من العاصفة. ظللت أتابع أصداءها المتخلفة في نفسي وكنت أزداد أوارًا بعد أن طال انتظاري. كنت على

يقين مطلق بأن ما سيردني منها لن يكون الّا كما سلف أن وردني من قبل، غاية في الأناقة، وغاية في اللطف، ولن يكون غيره بأي حال، بيد أن ما كان يتصابر عليه عقلي، كان تتلهف عليه روحي، وكنت أفزع من ذلك في أننا حتى في هذا، لا نملك وحدة قرارنا وكذلك حريته، فأتمنى لو كان للإنسان في الموقف من حاجته، أحد إثنين، عقل أو قلب لكي يحظى بالاستقرار. إن ما يجعلني أفكر هكذا، أنّ لحظة لم تمر بعد إنفاذ رسالة مني لم تكن موارة في قلبي ووجداني.

ساعةً أمضيتُ في تصفح بعض الصحف وما تعج به من أخبار مظلمة ومن إثارة للطائفية والنعرات، كنا، زوجتي وأنا، على أهبة الإستعداد لزيارة قريبنا والد الشاب الشهيد، لتقديم تعازينا إليه. لقد استقبلنا الرجل بشجاعة أولاً فعزيناه بما يليق بسمعة ولده، وأمضينا عنده ما يقارب ساعة، قضيناها وقضاها الرجل معنا في حزن شديد، تخلله بكاء مرّ منه، ولوعة شديدة، وتأكيد ممسوس على مناقب الولد الشهيد. تتالت الأحاديث عن القتل والسلب والتدمير، الذي لحق ويلحق بالعراقيين، وتبادل الأذى بين الأطراف، والنتائج المترتبة على ذلك، ولاسيما ما يتعرض له الشاب الواعد، والاستاذ الكفوء، والعالم والطبيب، والطفل والمرأة والرجل البسيط. ما لفت نظري أن المرأة الأم كانت أقوى شكيمة وأقل دموعًا من زوجها الذي بدا مسكينًا، الأمر الذي قادني إلى التفكير، بأن لا جنس للأعصاب ولا طائفة أو دين، فقد تكون أعصاب المرأة أشد من أعصاب الرجل في الشدائد والملمات، ثم

إذا انتبهنا إلى أننا استنفدنا الغاية التي قدمنا من أجلها نهضنا، أوصينا المرأة بزوجها لئلا تتضاعف المحنة عليها! ودعنا الرجل معززين ثقته برحمة الله، ومؤكدين على أنّ المحنة محنة شعب.

"باقة ورد وقداح في طبق من بلور.. سعيدة بك
وعذرًا للتأخير".

هل ضقت بها؟ هل كانت أكبر من طاقتي وخيالي؟ هل تأجج صدري بسعيرها؟ نعم. كنت أمشي مختالاً، لقد عدت إلى قراري مملوءًا فخرًا، ولكن بهدية كلما طالعتها وجدتها أكبر مني.

بدلاً من أن تزور زوجتي أختها سناء التي في الموصل، حصل العكس إذ طُرق الباب. كنا على علم بذلك، فالمفاجآت غير مرغوب فيها في أحسن الأحوال، الموصل لم تعد آمنة على الناس جميعًا وأخصهم المسيحيين. لنا مصالح حيوية هناك والمغادرة تعني الإفلاس؛ بعْ كل ما تملك بثمن بخس أو لا أحد يشترى، وسماسرة السوق بدأوا ينهشون أملاكنا كما تنهش الذئابُ الحملان. بادرتنا الأخت مع أول رشفة ماء. البيت، الأثاث، مصنع الراشي الشهير، الوظائف، الموصل العزيزة جنة العراق ومسقط رؤوسنا منذ خلق الله البشر. حقًا أسقط بيدي كما يقولون وزوجتي تسمع ولا تجيب، إذ ليس بمقدور أحد منا أو من غيرنا يمتلك حلاً لأحد. وضعت الأخت أربع رزم ضخمة من الدولارات بيد أختها؛ أمانة حتى نرى ماذا نفعل، بغداد أفضل من غيرها، لأنني

امرأة لم أفتش وإلا لما كنت أعرف كيف ستمر هذه الأوراق لو كان حاملها رجلاً. أبو سامح يسلّم وأعجزه التفكير في حلّ عن الحركة، سوى المكوث في مصنعه أو البيت. ترك الجلوس في مقهاه وغادر حانته، أفضل الأماكن الآن دهوك أو السليمانية أو اربيل، والمشكلة، مشكلته الرئيسية، هي من يشتري من دون أن يكون نذلاً، وهذا مستحيل الآن. رأيي أن نتوجه إلى بغداد نسكن الكرادة قريبًا منكم، ثم أنها أكثر مناطق بغداد تأليفًا بين الأطياف. أتعرفان أنني لم أشاهد دجلة في بغداد ولا "أبو نواس" ولم آكل السمك المسقوف عليه؟ الموصل استحوذت عليّ فهي التي أنجبتني وكنت أتمنى أنْ أموت فيها، وقِدْرٌ من كبتها العسل معي!

في طريقنا إلى مساء أبو نواس يتصل أبو سامح بزوجته فتطمئنه على وصولها، أول مرة يتصل بي أبو سامح، لم أخرج من البيت كثيرًا، لا إتصالات إلا مع من في الخارج، الداخل نار والخارج صقيع. ذهب الجميل وبقي القبيح، ولا أدري أي أقبح سيحصل غدًا. لم أتطرق مع الأخت عن أي طريق عليها أن تختار وأيها الأفضل، أفضّل أن يبقى المسيحي في بلده؛ فالموصل بلا مسيحيين شيء لم يطرأ على بال أحد، بل ستكون كالعملة بلا وجه آخر، كذلك فضلت ألّا أكون دليلاً على طريق لا أمان فيه، أو لعله سيكون كذلك، وكنت لا أتمنى ذلك.

خطأ في التوجيه

كانت ظهيرة الجمعة جميلة جدًا، ولاسيما بعدما أمطرت السماء مطرًا أزاح الغبار الذي ملأ فضاء بغداد. خرجت أتابع ما برعم أو أزهر من أوراد حديقة البيت الشريطية الشكل. أجمل ما يصافح نظري، الورد بعطره وألوانه، وصورتها بمختلف تجلياتها، وأعذب ما يحرك دمي رغبتي في حضورها وقربها مني، لذا كنت أستدعيها حتى في الخيال وغالبًا ما كان خيالي فيها جزءًا من واقعي معها، وقليلاً ما استدعيتها إلى حالات أخرى كنت أجدني مدفوعًا إليها. الزقاق قبالة بيتي مفتوح على فضاء جميل، وإنه ليوم رائع وأنا سعيد، وكل ما يحيط بي غاية في البهاء حتى أنه

حملني على مراسلتها:

"ما أبهى الكون الآن حبيبتي. صب الله بهاءه على قلبكِ الحاني".

كنت تلك الظهيرة أقرأ الفصول الأخيرة من رواية "حفلة القنبلة" لكراهام كرين، وكانت تشدني لحظة بعد لحظة أخرى، فالرواية ذات بعد ذهني يدين فيها الكاتب بلسان الراوي، وهو كاتب الرواية كذلك حالة الجشع عند جماعة من الأغنياء ورخص أنفسهم، أولئك الذين اطلقت "آنا لويز" بطلة الرواية عليهم تسمية "الضفادع". كانت الرواية في ذروتها وفي تنام مغناطيسي نحو اللحظة الأخيرة للجذب. كانت تزحف نحوي في تدرج بطيء كتدرج الحمى في الجسد المحموم. وها هي اللحظة المناسبة تدنو، قبل أن يصوّت الجهاز معلنًا عن صوت رجالي خشن؛ "مَن حضرتك"؟

أزحت الرواية جانبًا وقلت: إنها النهاية المؤسفة. لقد قُصم ظهر حبنا كما يقصم جسر بين عاشقين. لم تكن الجمعة جميلة ولم تكن بهيّة. كانت كاذبة خادعة المظهر، ذات إهاب مضلل يوقع بالجاهل والحكيم. ويا لشقائي إذ آمنت بهذا البريق الأخاذ لسناءات زرق صَفَتْ من التراب والغبار، والنور الرائق الذي تسلل من خلف غيوم سمر، أضفتْ على الكون ذلك البهاء الذي رفرف على قلبي، ولكن كذبًا للأسف.

لقد سقطتُ في ما اطلقتُ عليه "عاطفتي النبيلة"، فصار الكون ضيقًا مظلمًا أشبه بالنفق المفضي إلى خراب. نعم. لقد دب الخراب إلى روحي وكان أساي منصبًا على ما يمكن أن يلّفها الآن من ضيق وحرج وافتضاح!!

كانت الأشياء تلتف علي. أشياء كثيرة بمعنى ولا معنى. هطلت عليّ كمطر الساعة الماضية، وبدلاً من أن تصفّي روحي وتغسلها، ألقت عليها جبالاً من الرمال لوثتها، ووقفت بوجه طموحها ونزوعها، نحو الجمال والخيال والأحلام.

في مواقف كهذه كنت أتمنى أن أكون أنا الضحية لا هي، أن يكون العالم بمن فيه أنا، في كفة وهي في كفة. إن رعايتي لها أشبه برعاية الأب، ولكنني في الحقيقة حبيب، حبيب يتمنى أن يمتزج جسده بجسد حبيبته حتى ولو في الأحلام.

وهرعتُ إلى النوم. لاشيء أدعى إلى إرجاء العذابات وتسكين الآلام غير النوم. ولكن كيف، ومن يجيئني به؟ حبة فاليوم رقم ٢ كذلك كافية، وكفيلة بذلك لمدة ساعة أو ساعتين، وبعد ذلك فقد "في طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال".

والرواية في يدي أقرأ وأعيد وأشرد عنها ولم تكتمل قراءة صفحاتها الأخيرة بعد، نمت. كان نومًا قلقًا ثقيلاً بعيدًا عن سريري واطمئنان نفسي والراديو الذي إلى جانبي، وأحلامي الملونة ترقص أمام عيني. أخيرًا استيقظت. لقد حصل النوم وكفى. مضت بموجبه ساعات وبقيتْ ساعات على وتيرة واحدة، ولكنها أخف من أخواتها الأول من دون أدنى شك.

المرأة، بدأتُ أقول، قوية، وهي ذات سلطان على نفسها، وليس لأحد القيومة عليها الى درجة الإطلاع على رسائلها، وما نحن إلّا

زميلين نتراسل أحيانًا على سبيل تزجية الوقت في قضايا الأدب والفن والكتابة ؛ ما كتبنا أو قرأنا وما رسمنا. الأمر إذًا ليس بهذه الصعوبة النفسية البالغة التي انجرفتُ اليها. لقد اكتشفتُ أنّ هدوء الأعصاب، يقرّب البشر من الحل ولو في أدنى الدرجات، مما يخلق أملاً من نوع ما، قد تبالغ فيه النفس المجهضة وتتشبث به. على أي حال غدا ليلي أقل قلقًا وألمًا من ظهيرتي، وكأنما الله منحني نوعًا من الأمان، لكن الصباح حين أطل كنت كمن فزّ على شيء مخزٍ!

كنت أريد الوصول إلى المؤسسة، وفي طريقي كنت أفكر في شتى الحلول والمحاولات لمعرفة طبيعة الأمر وصداه على نفسها المرهفة. كيف عالجتْ الأمر إن كان ثمة علاج. هكذا راحت الأفكار تتداعى لحظة بعد لحظة حتى استقررتُ، على أن أرسل لها رسالة عامة الملامح، وكما لو أنها موجهة إلى مجموعة أصدقاء أو صديقات هي منهنّ.

"الزميلة المحترمة. كان يوم أمس بهيجًا بعد أن أمطرت السماء وأزاحت عن صفحتها الغبار. ومن منطلق هذا الجو البهيج آثرت إرسال رسالة عامة لأصدقائي وأنتِ منهم، وبدلاً من أن تطلعي عليها، إطلع عليها شخص ربما كان واحدًا من أهلك الكرام فحسبها شخصية، فكان أن اتصل بي يسأل عن هويتي، فأغلقت الاتصال خشية وتحسبًا من شيء، ليس المقصود منه شخصًا معنيًا بحدوده وإنما الجميع.."

زميلك سليم ناصر

ولربما كانت هذه الرسالة، أبهم الرسائل التي وصلتها مني. فها أنا ذا أبدأ رسالتي بالزميلة، وهو ما لم يحدث في جميع رسائلنا. ثم هذا الحديث المبهم عن اتصال ورسالة محرجة، وأهل وأقارب وهلم جرّا، من حديث ملغز وغريب وبعيد عما يجري من مألوف رسائل وأحاديث بيننا، فأجابت بالاسلوب الخطابي الرسمي الذي بدأتُ به رسالتي اليها نفسه:

"الزميل. انا في بيتي من الخميس وهاتفي معي. ماذا حصل"؟

لم أصدق رسالتها، بل رحلتُ في عوالم مجنونة أخذتني معها دون تحديد هوية ما. الرسالة موجهة لها، والإتصال الغريب من الجانب الآخر جاء مشفوعًا برقم هاتفها، اذًا أين الصحيح وأين الخطأ. تلفنت لها. ومن على الطرف الآخر جاء صوتها الفواح بالجمال. آلو. قلت: صباح الخير. قالت عميقًا، صباح النور. البارحة، عشت في دوامة، إذ كتبت لكِ رسالة فردّ عليّ رجل يسألني عن حضرتي ومن أكون، فارتبكتُ وأغلقت هاتفي إذ حسبته أحدًا من ذويك تناول هاتفكِ في غيابك، وظللتُ في حيرة لفتني بألف سؤال وسؤال طوال البارحة واليوم. ضحكتْ. يا صديق روحي، لم أتلق أي رسالة. البارحة كنت وحيدة في بيتي، ثم إنّ من غير المسموح لأحد أن يتناول هاتفي ويقرأ رسائلي. كذلك إنه معي لا يفارقني، ويبدو أنك ضربت على رقم قريب من رقم هاتفي فحصل الإلتباس، لا تثريب عليك فقد تختلط الأرقام وتتداخل الاتجاهات، ولا أظنك ارتكبت ذنبًا كبيرًا، فمثل هذا يحصل في

أحسن الظروف، فكيف ونحن نعيش أشقاها؟ ولما كان رقمها مخزونًا في ذاكرتي ويمكن الزحف على رقم واحد غير المقصود، أدركت غلطتي. كم أنا محظوظ أيتها الرائعة، لقد عدت مجددًا الى الحياة. وتمنيت أن أغلق الهاتف سريعًا لأعيش سعادتي بعيدًا عن أي مخلوق آخر، فسعادتي الآن تقتضي وحدتي ولو كان قريني أحب المخلوقات. كنت كالطائر الجذلان محلقًا في أقصى السماوات.

عندما عادت أم سامح إلى الموصل، وتركت ما حملته من مال أمانة في ذمتنا، خفت آلام زوجتي على مصير أختها. من طرفي أمسكتُ بما أمسكتْ هي به، من أنّ ما تركته يمكن أن يكون مصدرًا للإطمئنان في حال نزح أبو سامح وعائلته إلى بغداد، إنما ازددنا إطمئنانًا حين تلفنت لنا أم سامح بأن زوجها، نصّف معه في عائدية المصنع رجلاً إسمه مصطفى بكر عبد الغفور لقاء مبلغ من المال تسلمه نقدًا، وها هي بعد أيام في طريقها به إلينا.

أخبرتها زوجتي بأن تحتفظ بجهدها من مشقة السفر إلى بغداد، وترسله على عنوان صيرفة الطيف في الكرادة، نتعامل معها كلما أرسلنا بعض المال إلى ولدينا مريم ويوسف، فإن حملت معها في المرة الأولى مبلغًا ليس بالزهيد، فإنما لترى بغداد وتتعرف الوضع فيها كذلك، الآن يمكنها وبسلام نفسي تام أن ترسل نقودها على العنوان الذي حددناه لها وهو قريب من دارنا، ولن يكلفنا الوصول إليه مشقة ما.

أخيرًا تسلمنا المبلغ ولم يكن كبيرًا جدًا مثلما توقعنا وقياسًا على إسم مصنع، ويبدو أن أبا سامح رضي بالمبلغ هذا. وكما صار يخيل إلينا أن الرجل ليزيد من درجة اطمئنانه، غيّر أسم المصنع؛ من مصنع" السماح" إلى مصنع" الإيمان" وألحقه بعبارة لصاحبه الحاج مصطفى بكر عبد الغفور، وبينا عرفنا لاحقًا أن الرجل هذا أحد أثرياء الموصل ومن أبرز وجهائها المرموقين، ازددنا ثقة بان قريبنا وضع أمام عينيه الإحتمالات كلها، فلعب اللعبة المضمونة وبخسارة قليلة إن لم تكن بربح غير قليل.

بغداد

الشارع مظلم تمامًا وخال من أي حماية سوى الابـراج الكونكريتيـة المفرغة مـن حراسـها، وكـذا نقـاط التفتـيش وبغـداد نائمـة عـلى دوي الانفجارات المبهمة والرصاص المتجاوب، والأخبـار المحزنـة وانتـشار جغرافيا المفخخات. نفسي مشوبة بالأحداث بحيث لعنتها تلك الليلـة، وكأنها أوصلتني معها إلى طريق مسدود. تركت شقة إبنتي العاشرة لـيلاً وكنت هاتفتها، بلقيس، التاسعة والنصف. إن أي قنـاص بوسـعه الآن، أن يثقب رأسي أو أي جزء من جسدي، بسهولة لا ينفذ إليه أي نوع من أنواع القانون. أسرعت في سيري، وحاولـت، مـا أمكـن، أن أغـيّر مـن سياق حركتي لِأموّه على نظر القناص المفترض تحديد هدفـه، ولأفـوّت عليه من ثمّ دقة تصويب رصاصته. من ورائي صدر صوت مكتـوم نـمّ عن سقوط جسد حديدي على الأرض، حسبته مـا حـسبت فغـذذت في

سيري. انعطفت إلى زقاق وأويت إلى دكان قريـب مـن بيتـي، كـان هـو الدكان الوحيد الـذي ظـل مفتوحـاً تنفـذ أنـواره إلى مـساحة صـغيرة خارجه. الدكان جزء من بيت صاحبه، فهو مطمـئن بعـض الإطمئنـان على سلامته، طلبت من الرجـل علبـة دخـان pine وعلبتـي مـشروب غازي بلا تحديد. قبل أن ينفّذ طلباتي إنطلق الرصاص. هتفت به زوجته التي كانت مطلة برأسها على الزقـاق وتراجعـت الآن وصـارت داخـل البيت، الى تحقيق طلباتي بسرعة وإلّا فالرصاص غزيـر، ومجهـول الهويـة ومتعدد الإتجاهات. توغلتُ في الفراغ أمامي بانتظـار أن يجلـب الرجـل حاجاتي التي رغبت عنها الآن، وتمنيت أن أهرع إلى داري التـي لم تكـن بعيدة، لأنجو بجلدي قبل فـوات الأوان. ظهـر الرجـل الـذي لا أدري أين غاب، وتلقفت كل ما جاء بـه وهرولـت إلى البيـت. هنـاك تلقتنـي زوجتي مقبلة رائعة، ضمت جسدي وهي تقودني إلى عمق الدار: الليلـة يا رجل أحتاجك كما لم أحتجك من قبل، فكلـما شـعرتُ بتعـب شـديد شعرت بالحاجة اليك. انـا متعبـة جـدًا الآن، حـاجتي اليـك روحيـة لا جسد فيها، وإلا (مازحة) لعضضت عليك بأسـناني! فـأرجو أن تفهـم هذا، وهـو عهـد بيننـا منـذ الآن. قلـت حـسنًا وأعـددت نفـسي لكـل الاحتمالات. لم ننم معًا، فغزارة الرصاص ونـشوء قلـق جمـاعي اقتـضى النوم جماعات، فنامت زوجتي مع إبنتي الأخرى الضيف. ونام زوجهـا مع علي ولدي، ونمت مع صديقيّ الأثيرين؛ كتابي الممتاز ومذياعي غير الرديء.

حفلة القنبلة

انجزت إتمام قراءة "حفلة القنبلة" وكنت أشرت على الحوار بين بطلي الرواية الرئيسيين الزوج ووالد الزوجة:

- "ألا نسامح أحدًا حتى الموتى"؟

- "أوه. المسامحة يا جونز. إنه مصطلح مسيحي. هل أنت مسيحي يا جونز"؟

- "لا أعلم ولكنني أعلم بأنني لم أحتقر أحدًا بقدر احتقاري لك".

"أنت تستعمل المصطلح الخاطئ مرة أخرى. إنّ علم دلالات الالفاظ وتطورها مهم يا جونز. أقول لك إنك تكره. أنت لا تحتقر. إن الاحتقار لا يأتي إلّا من خيبة عظيمة، وأكثر الناس غير قادرين على الشعور بخيبة عظيمة. وأشك إن كنت قادرًا على هذا الشعور،

وبالنسبة لهم فتوقعاتهم الدنيئة تحول دون ذلك. عندما يحتقر المرء يا جونز، يكون ذلك كجرحٍ عميقٍ لا علاج له إنه بدايات الموت، ويجب على المرء أن ينتقم لهذا الجرح ما دام عنده الوقت الكافي لذلك، فاذا مات الشخص الذي أصابك بهذا الجرح فلن يبقى لك إلا أن تهاجم الآخرين. ربما لو كنت أؤمن لانتقمت من الذي أؤمن به لأنه جعلني قادرًا على أن أشعر بالخيبة. بالمناسبة أتساءل وهذا سؤال فلسفي: كيف ينتقم المرء منه. أظن ان المسيحيين سيجيبونني بقولهم عن طريق إيذاء نفسه".

- انظري كيف يحرف هؤلاء الكتاب المعذَبون، روح الدين المسيحي، فالمسيحي الحق لا يكره ولا يحتقر، هو وريث ابن الرب، يسوع المسيح، البار من أجل الأثمة، المنفصل عن الأوزار، حامل خطايا البشر والمرتفع بهم عن الكره والاحتقار، انعمي النظر في عبارة الكاتب الأخيرة إذ يثوب الى نفسه. النفس المعذبة غالبًا ما تعود الى صفائها في اللحظات الأخيرة.

- كما أن الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان، وفي هذا تقديس لميثاق الشراكة بين الرجل وامرأته، فإن من طهّره الرب يسوع لا يحتقر ولا يكره. ومن علّمه؛" لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك" لا يقع في الخطيئة.

- على أي حال هذه رواية وليست كتاب دين، ومثلما نقرأ الآن.

- ونجد ما يرضينا ومالا يرضينا، ما يسرنا وما يحزننا.

- تمامًا، ومثل ما يحصل للبشر جميعًا.

وكان جونز قد حاول الإنتحار لحاقًا بزوجته التي ماتت في حادثة تزلج على الجليد، وكان يحبها بعمق ولم يَقدِم، بينما انتحر الدكتور فيشر والد الزوجة بعد ان برهن على بشاعة جشع أصدقائه الأثرياء، حتى بعد أن أخبرهم بأنّ واحدة من هداياه لحفلة الليلة التي يمنحها بعد وجبة الشراب والطعام، تحمل قنبلة قاتلة، وذلك بأن تقدموا الواحد تلو الآخر وتسلموا هداياهم التي خبأها في حوض غمره بالنخالة إمعانًا في إذلالهم.

كانت الحفلة تقوم على خدعة صغيرة، هي أن أيّ هدية لم تكن تحمل أي قنبلة، فهي إذًا لن تكون قاتلة. لكنهم، لصرامته، صدقوا. وكذلك، لجشعهم، تقدموا. هنا بعد هذه التجربة المثيرة وربما المُرّة على نفسه لم يبق لديه من لعبة أخسّ من هذه اللعبة الماكرة يلعبها لكي يحتقر أصدقاءه، قرر الانتحار. وبذا أنهى يقينه ليس بلعبته وانما بفلسفته كذلك، اذ ليس كل غني جشعًا، كذلك ليس بمقدار كل الأغنياء مثله أن يلعبوا لعبته.

هكذا تنتهي هذه الرواية القصيرة الجميلة العميقة، لتبدأ رحلتي مع "شيكاغو" رواية علاء الأسواني، وهو روائي مصري قرأت له "عمارة يعقوبيان" من قبل ولم أدهش بها مثلما أدهش بهذه، إعتقادًا مني أنّ "عمارة يعقوبيان" نسخة تجميعية لأجزاء من قصص وروايات نجيب

محفوظ وتحولات عوالمه المكتظة بأجواء الطبقات السفلى من المجتمع المصري وعلاقاته المتشعبة، بينما انطوت الرواية الثانية على روايتين متداخلتين وإن انفصلتا نسبيًا في الموضوع وفي لون الحرف للتفريق بينهما، وهو تكنيك ليس بالجديد، ولكن ما يحمل على الإعتراف بهذه الرواية، أنها تنفتح على آفاق واسعة تحث القارئ على الاستجابة لها لأنها تمس في ما تمس الواقع المصري كذلك، ولكن بثيمات سياسية عضوية لا تقلل بالمباشرة صيغة العمل الفني، وإن يتضح من خلالها البعد السياسي للروائي نفسه، فضلاً عن الطابع الجنسي المباشر الذي طبع بعض صفحات هذه الرواية المختلفة والممتازة.

حقًا لقد قرأتُ هذه الرواية أول صدورها. كنتُ أحد المبشرين بهذا الإسم الجديد لما تحمله روايته من صناعة فنية تامة النضج، وإمكانية سردية عالية ولغة دالة ونظيفة، بله انتقاءها الدلالات التي ترشحت منها، وهو يتناول موضوعًا على أهمية مستديمة؛ واقع الشعب المصري الذي لم يتغير بما فيه الكفاية منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وبعد أن جاءت سياسة الإنفتاح عقب التغييرات التي حصلت بعد موت عبد الناصر لتزيد الأمور تدهورًا، ليغتني من يغتني ويفقر من يفقر، أنتِ الأخرى قرأت الرواية وصفقت لروائي جديد وقلتِ؛ إنه يشبه نجيب محفوظ وذلك ليس عيبًا، الآن أصبح الرجل مختلفًا فلقد ظل الاهرام رابضاً في فسحته الجليلة بينما أمست الوفود تتقدم عليه، من بينها هذا الوافد الجديد؛ كاتب شيكاغو!

أو يطير بي إليها

أكتب هذه السطور؛ اخاطبكِ فيها، أتكلم معكِ وأفكر فيكِ وأتمنى لو نقرأ معًا، نتحدث في ما نقرأ ونتحاور فيه، نتفق كما اتفقنا على ساحرة بورتوبيللو، ونختلف كما اختلفنا على شموس الغجر، واتفقنا على أن لا إطلاق في الحكم، كل شيء خاضع للجدل والإختلاف والتعديل، كل شيء أؤكد لك ذلك إلا حبنا فهو المطلق الوحيد في هذا الكون، هو الوحيد غير القابل للنقاش، لقد ختمنا عليه باصابعنا العشرين، ومن المحال أن يتجزأ أو يمحى أو يزول. هو وحدة واحدة ذات امتياز خارق، منفصل عن الاحكام والتشريعات، ولا توصيف له بل تعجز كل الكلمات عن الإتيان بما يعكس حقيقته، أو يصل إلى أدق معانيه، هل أستعير من القرآن الكريم؛ لو كان البحر مدادًا لكلمات "حبي" لنفد البحر ولم تنفد كلمات "حبي"؟ أستغفر الله.

حينما قالت زوجتي " ولهذا فانا أعض بأسناني عليه" تحولت روحي إليها وتساءلت، ما دام حب زوجتي بهذه المبالغة من المشاعر العالية، فمن يمنحني إذًا حريتي للتفرغ إليها؟ ولكن من يمنعني من الحب، من هو القادر على انتزاع حب دخل قلبي وانغلق عليه، من يستطيع؟ "تحيتي إليك أيها المحبوب"

في اللحظة التي غادرت فيها مجلسي العائلي، وكنت منشغلاً منذ صباحي بالإستعدادات الأولية لاستقبال ضيوفنا عصرًا لمناسبة زفاف ولدي أحمد، وردتني رسالتها.

"ما كنتِ لحظة إلا رحمة على قلبي. مساءً سأتصل بك؛ أبثك أشواقي وقد أُسمعكِ صلاتي عليك".

عند العصر بدءً من الخامسة تقاطر الضيوف، تبادلوا التحيات والأحاديث مثل ما هو مالوف في أي تجمع مثيل، ثم تناولوا الطعام وكانوا من الجيران جميعًا، لم أدعُ أحدًا ممن هو في مكان بعيد؛ تلافيًا لصعوبات الوصول والمخاطر التي يواجهها القادم من مكانه ذاك، ثم مع أي تجمع صغيرًا كان أم كبيرًا، يخشى المجتمعون اندساس رجل ملغوم يحيل الفرح إلى ترح، والأجساد الحية المنتظمة إلى أشلاء ميتة مبعثرة. حصل هذا مع تجمعات فرح آلت إلى مناحات، وتجمعات عزاء لحق فيها بالمتوفى عشرات من الابرياء، ذهب فيها صديق قديم لي، كان جرحه من أبلغ جروح قلبي على صديق. لم أعرف خبره إلا حينما ذهبت

لزيارته. كان دكانه المعطر بمئات قناني العطور في "شارع النهر" مغلقًا، لم أصدق الخبر من جاره إلا بعد أن عدت بعد أشهر أسأل جاره الآخر عنه. آه ما أبلغ الأحزان حين لا تصدقها، ثم تعود فتصدقها لأنها حينئذ تضرب قلبك!

منذ صباح اليوم وجد الناس المتوجهون إلى قلب بغداد طريقهم مقطوعًا عند "ساحة النسور"، لحصول انفجار كبير استهدف تجمعًا للشرطة، وأملى قانونه المجحف عليهم، بالترجل من المركبات والسير زرافات زرافات عبر منطقة المأمون، للنفاذ من هناك الى الشارع العام لاستقلال المركبات القادمة من "أبو غريب". الوطن مسحور بالمفخخات ودوي الانفجارات ولا خسائر إلّا في الفقراء، فمائدة الملوك منصوبة على جميع الملذات حتى في أفدح الخسارات. كنت إذّاك راغبًا في ما يفرج عما تراكم في صدري من غبار العمل، الذي كان يلوح لي يافطة تضاف إلى آلاف اليافطات التي تحيط بنا، فنعود نضحك منها إذ نجدها لا تنفع أحدًا ولا يصدقها أحد.

"مساء الخير، وسعادة قلبك بدعاء صادق حار. مساء روحكِ الطاهرة ونبلكِ الكريم، صلاتك المستقيمة ونورك اللألاء، ما أشدّ شوقي إليكِ وأنا في غربتي الآن"؟

أخاذًا وسريعًا جاء جوابها؛ يدغدغ قلبي بلوامس مرهفة تذكي طربه وغناءه وسعادته: "مساء الجمال أيها الرائع. لماذا أنت قريب من

روحي هذا القرب، تدري بكل خلجاتي قبل أن أبوح. أنا معكَ سمير دهشكَ ورفيق غربتكَ وأنيس ليلك". وكدت أقول لها والنار تسري؛ إذًا تعالي إلي، تعالي.

انفتح هاتفها، وسمعت صوتها. آلو؟ ممتدًا على خيوط حريرية ترفرف على الاذن والقلب، ولو لم أعرفها وجاءني صوتها هذا بهذه الرفرفة الترفة، لتعللت بأذن بشار لبعض الحي.

قلت مساء الخير. قالت مساء النور. كيف الصحة، كيف الأمور / لابأس/ تعشيتِ؟ / أنا الآن في الحديقة / وحدكِ؟/ طبعًا وحدي/ كم أتمنى أن أكون قريبًا منك. سكتت لم تجب، أضفت؛ / لكِ صوت جميل فيه غناء ورخامة وامتدادات موسيقية أتغنين؟ / نعم. وكان هناك من يقول لي يمكنكِ أن تكوني مطربة.. وغنت بصوت جميل ذي طواعية مرنة، لا تسألوني ما اسمه حبيبي لفيروز. غنت بعضًا من الأغنية وسكتت. قلت: صحّ صوتك أو صحّ لسانك كما يقول البدوي لمن يقول الشعر أويغني. كان ذلك يجري على صفيح ساخن، وبيني وبينها بضعة أميال لا غير، ولكن لو وضعنا صعوبات الطريق ومخاطره لعُدّت المسافة الفاصلة بمئات بل آلاف الفراسخ والأميال. الليل، وهي، وحديقتها، ثلاثة أشياء جميلة. أي حلم أن أتحول إلى طائر يحلق فوقها أو فراشة ليلية تحط على شعرها؟ بأي شيء مضت تفكر بعد انتهاء مكالمتنا الطويلة؟ كنت عرفت منها أثناء ذلك، أنها ترسم في لوحتين معًا بعد أن أنجزت لوحة سبق أن تحدثنا عنها إسمها "كرستال"، وهو عنوان جميل

قالت أنها ستوظفه أيضًا في كتابة قصة قصيرة. كذلك دار الحـديث ثانيـة عن "ساحرة بورتو بيللو" وقد أشادت بها: حقًا أمتعتنـي هـذه الروايـة بشكل كبير، أشكرك عليها وسأعيدها حال نلتقي.

الليل وحده يدرك معاني كلماتها وقلبي ورب العـرش. مَـن يـدرك فرحي، حينما أقدم لها هدية تسر بها أو عملاً يمتعها وينال رضاها؟ فمن يا إلهي يأتيني بها وأهبه ما أملك أو يطير بي إليها؟

رغبة في لقاء

يخيل إليّ أننا، نحن البشر، في الحب نسبح على ساحل بحر عظيم، ما زال أكبر الشعراء يكتبون فيه، ويغني له أشهر المغنين، وتساوت في الترويج له إن لم تكن قامت عليه أعظم الديانات. ولربما تجسد لي على هيئة جهاز وقاية يمنع الشر، ويقاوم الباطل، ويوقف الحروب، ولعل من أجلى حسناته أنه سلام، لا تكلفة فيه سوى ما يرفرف به على القلوب من هناء، وعلى الألسن من جميل الكلام. كانت هذه الفكر تتجاذبني وتزيح عن صدري غبار أمس حين اتصلت بي سهاد، تشير إلى وضع أمها الصحي بعدما أضناها تأخر أحمد، إبننا الأكبر، في سهرة حتى قبيل منتصف الليل. كنت طمأنتها وأمها من قبل، بأن أفواجًا من الشباب صاروا يحولون أرصفة بعض الجسور، الجادرية مثلاً، إلى ملاذات لهم، يجتمعون هناك تحت خيمة الليل وفوق فروة دجلة، يثلجون صدورهم

ويغسلون أنفسهم ويمتعون أنظارهم ولا شيء غير. الليل هناك جميل كأنه قطعة ليست من ليل بغداد، فلا تقلقي أنت كذلك. كنت سعيدًا، أكون كذلك كلما استقررت على طمأنينة الوضع الذي يحيط بي، لا سيما وضع عائلتي، فكأنني أتسلل عبره إلى أجمل أهدافي. كنت أريد اللقاء بها.

"أجمل مساءات الله على بشر. وأرهف دعاءات الملائكة. أيتها الصافية كنبع في جبل. النضرة كخميلة في الربيع ما أشد سعادتي الآن إذ أُشارك هذا الكون في السلام عليك، وأسأل متى ألقاك؟"

بعثت برسالتي هذه في حدود التاسعة والنصف ليلاً. وحتى صباح الخميس لم أسمع تجاوبًا ما. القلق يعود من جديد فالاحتمالات كثيرة، إلهي متى يعرف الإنسانُ الإنسانَ رغم بعديْ الزمان والمكان؟ متى يكون بميسوره أن يراه وهو في أقصى نقاط الكون! هل أقول كم أرقني هذا السؤال؟

أردفتُ رسالتي تلك برسالة قصيرة صباح اليوم التالي: "صباح الخير"

السبت بتباشيره الطيبة وأفيائه العذبة، كان يضمر خلف الصمت، جوابًا لا أرق منه؛ رسالة قصيرة لكن بظلال وأفياء وارفة وبتلاوين لغوية ثرية: "صباح الانوار والعنبر. الطفلة فرحة بهدية العيد. ليت كل الأيام أعياد".

ياإلهي. الطفلة فرحة بهدية العيد. أي لغة عميقة صادقة وأي روح أطلقها! إهتزت روحي. كل مرة يأتيني ردها تهتز روحي على شيء لم أقرأه من قبل. الحب بيننا يولد كل لحظة، جديدًا لم نعرفه، كل رسالة كأن لم تسبقها رسالة، الفرح فيها طازج وبللوري ومتملك، الطفلة فرحة بهدية العيد. أي شعر، أي نبل وأي قلب عظيم يتشفف، ليعلن عن بهجته برسالة لم تقل غير "صباح الخير"؟ أي براءة وأي طفولة إذًا تنام هناك؟

- إقرأ. النار تشتعل، يبدو أن ثمة نيرانًا لا تنطفىء، ولربما من هذا ؛ من أوارها، وليس من منفعتها فقط، قدّس الإنسان النار.

توقفتُ عن القراءة، كنت أريدها فرصة لاسترداد الأنفاس لا للإستمرار، قلت؛

- كذلك لأنها اكتشاف، وكل اكتشاف عزيز لأنه ينم عن موهبة، وما الحب إلا موهبة الإكتشاف. إنه موجود في كل قلب، لكن من يستدل عليه؟ الموهبة وحدها.

عثرت على القرص ضحى يوم جمعة، وها نحن نواصل القراءة فيه ونلتقط من عليه مسراتنا ليلاً، هل الليل هو الفرصة الأوفر لالتقاط الأشياء الضائعة؟ اقول وأستعيد تلك الرسالة التي ظللت أحتفظ بها في صدري منذ عقود من السنين"" أواه يا سيدتي، النار الأزلية وحدها التي تعدل ناري. وهمانَ من يفكر بإطفائها"" وكنت إذاك في لحظة من

لحظات التقاط تلك النار الأزلية مع وجودي في ليل كركوك، تلبية لدعوة صديق.

ليلاً، اتصلتُ بها. مساء الخير / مساء الخير/ أشكرك على رسائلك، ودعيني أعترف لكِ بأنني في الرسائل أكثر طلاقة مني في الحديث المباشر/ لا ليس الأمر هكذا، إنما نحن حين نتكلم تنطلق أفكارنا مباشرة وهو ما لا يقل تماسكًا عما في رسائلنا، أحاول في الأيام القادمة أن ألتقيكَ لأنني سأسافر الى دمشق، أي مكان يمكن أن نلتقي فيه؛ نادي التشكيليين أليس هو المكان الأفضل؟ / بل، هو المكان الأنسب وليكن موعدنا هناك، وتصبحين على خير. لقد تم الأتفاق على لقاء جاء منها، أفبعد هذا عيد؟

اللقاء

نهضت من مكاني وأطللت على الفضاء فاذا بالقادم هي، نعم هي بكمالها وتمامها فاستقبلتها استقبالاً يليق بها، وأخذ كل منا مكانه متقابلين على طاولة واحدة.

ها هي أول مرة وجهًا لوجه معي، أنظر إليها وأتملى جمالها كما كنت أفعل في غرفتي القديمة يوم كانت قريبة مني وكنت قريبًا منها.

حييتها. قائلاً: أهلاً وسهلا بكِ. أنا مشتاق إليك. قالت: أشكرك وأنا كذلك. ونظرت إليها مليًا. كنت تمنيت أن نكون على مجلسين متقاربين، إلا أن ذلك لم يحصل، فما تزال طاولة غرفتي المدرسية تمثل أمام عيني؛ لا أنا أحركها ولا هي تريم.

أخرجتُ مجموعة من الروايات كنت حملتها معي: ليلة القنبلة لگراهام گرين وتمنيت أن تكون هي قراءتها الأولى لظرافتها وذهنية

طبيعتها، ورواية الأحمر لأردوهان باموك الروائي التركي الحائز على جائزة نوبل لعام ٢٠٠٦ ورواية "بولان" لاليزابيل اللندي، ورواية "بنات الرياض" للروائية السعودية رجاء عبد الله الصانع، وكنّ على مستويات مختلفة، رواية بولان كانت الأقرب الى نفسي.

نهضتْ وتناولتْ مغلف النايلون الذي وضعتُ فيه الروايات قائلة: لقد سمعت برواية "بنات الرياض" ولكن لم تتح لي فرصة قراءتها، ثم قدمت لي قلمًا ذا حبر جاف فضي اللون مقطعًا بخطوط متعامدة ذهبية أكسبته قيمة وجمالاً.

ومتى ستسافرين الى دمشق؟ هذه الأيام. الأمر يتوقف على درجة جاهزيتي. سكتتْ، نظرتْ في عينيّ نظرة خاطفة كشأن نظراتها إليّ دائمًا، قلت، وعلى مقدار ما كنت أمتلك من نفسي، إذًا أنا سأسافر غدًا إلى الشمال لحضور المؤتمر الدولي الأول لحماية الصحفين العراقيين ممثلاً للمؤسسة. قلت ذلك مثبتًا نظراتي في عينيها اللتين غضتا في صورة مبهمة من الرقة والعذوبة وربما الحزن كذلك.

قلت: أتعرفين، وهنا أوصيت لنا بشيء نشربه ففضلت الشاي، أو تجيدين صناعة الشاي؟ قالت: أصنعه صناعة حاذقة، وكلما أعددتُ الشاي كنتَ معي، فاذا شربتَ شايًا عذبًا فتذكرني.

قلت: أتمنى أن أعيش معك في بيت واحد، حتى لو يفصلنا– إن شئت الفصل– حاجز من زجاج لا ينفذ أحدنا من خلاله الى الآخر، إلّا

عبر شباك صغير يسمح لنا بتناول الطعام من إناء واحد ونشرب الشاي معًا ونقرأ في كتاب واحد، معًا كذلك.

ابتسمتْ وشاعت بهجة خفيفة على روحها، وقالت: موضوع طريف للوحة جديدة قادمة، ولقصة أطرف لو تشاء. رجل وامرأة في بيت واحد، يفصل بينهما حاجز من زجاج، يتطاعمان من إناء واحد، ويتشاربان الشاي من كوب واحد، ويقرآن في كتاب واحد كذلك، وكل ذلك من خلال كوة في حاجز الزجاج، أليست هي ذي الفانتازيا؟. أتذكر يوم انعطفتَ نحوي (تقصد اللفتة المفاجئة التي قمتُ بها حال عُرّفتُ على وجودها أول دوامها) قلت: نعم. قالت: لقد اهتز قلبي منذ تلك اللحظة، لذلك ما أن عدتَ الى غرفتك حتى تبعتك لتجديد السلام عليك. رددتُ: أما أنا فلقد شهقتْ قامتي حال صوبتُ نظري اليك بارتفاع قامة منارة!

ويبدو انّ من هنا بدأ هذا الحب. من نظرة واحدة سريعة خاطفة ولكنها حاسمة. قلت؛ أرغب في أن أقبل يدك فهل تسمحين؟ قالت؛ لا، دع الأشياء بيننا هكذا، فالفواصل كثيرة وقوية ولا أرى نفسي قادرة على مقاومتها، أو الإطاحة بها. أنتَ تعرف إنني مازلت أنتمي الى ذكرى عزيزة علي، وهنالك تقاليد وهنالك أعراف وهنالك التزامات. وهناك أهل وأخوة وأخوات، فلا يمكنني التفريط بكل هذا.

مضى على لقائنا ما يقرب من ساعة، تبادلنا فيها أحاديث شتى. عندما نهضتْ صافحتها من جديد وقبلت يدها. وهنا حسبت أنني

اغتصبت ذلك، وكان عليها من حياء أن تغض الطرف وتبتسم. كانت بقدر مَنَعَتها كريمة بإطلاق.

لقد أيقنتُ بما لايصل إليه أدنى شك، بأنني حللت في قلبها محلاً لم يحلله آخر سواي على الاطلاق، وإنني قد تسللت إلى قلبها برفعة كانت محط إعجابها، منذ اليوم الأول للقائنا حتى هذا اليوم. رافقتها حتى الباب الخارجي لبناية النادي، استأجرت لها سيارة أُجرة، ولن أنسى مطلقًا نظرتها اليّ من خلف زجاج السيارة وابتسامتها الحية المكتنزة باعترافٍ مغرق بالإمتنان، لقد ذهبت السيارة بامرأة عزيزة أخذت معها جزءًا كبيرًا مني، ومع ذلك فانّ ما تبقى منها كان خليقًا بالإعتبار، حتى أنني شعرت بعد ذاك بالإمتلاء. من يعرف ذلك غير الله. وهل تكفي معرفة الله دون سائر خلقه من الناس؟ حقًا، كنت أتمنى أن يعرف الناس جميعًا بحبنا، ليس لأزداد سعادة ورفعة حسب، وإنما ليحسدوني كذلك.

خارج الدائرة

يومًا سألتها عن صديقنا الفنان، بعد أن فضح أمامي حبه لها في ثمالة شبه مطلقة. قالت هو رجل دمث الأخلاق، وله بعض الفضل في تقديمي للجمهور، يهتم بي كثيرًا ويقدر فني، وبرغم أننا جميعا نميل إلى الحداثة فهو الأكثر فينا. حقًا هو يحيرني برسوماته، يقول إنه يعتمد على غشاوة البصر أو ما يدعوه هو بـ " غيومة" البصر، فلا لوحة له إلا وتدخل مختبر العين نحو المخ في صورة إستيهامية مضلِّلة، يقول أنا لا أؤمن بالعين الساذجة، ولا أفرح للفرح السريع، أشير للشيء خلف الأكمة. قبل أيام عرض أمامي لوحة له غريبة جدًا قائلاً؛ ماذا تقرأين فيها؟ لم أفهم منها سوى حريته المطلقة في الرسم والتشكيل الفني اللامحدد بطريقة فنية واضحة، فهو يمزج بين التجريدية والسوريالية والعبثية، وأنا أدعوها هنا بـ"الشخصانية المطلقة". لم يعرف الفن

الإنطباعي في لوحاته جميعًا ولا يحسب له حسابًا إلا ضمن " تاريخه العريق"، قلت؛ هو ذا فنك الذي لا نقاش عليه. إنك تمزج بين الموتى لتُخرج حيًا، وأعتقد أن أجمل ما سرّه مني شهادتي هذه، وهو في كل أحواله صديق كريم، ولا شيء غير. زرته في مرسمه الذي هو مكتبه معًا، وكنت في الحقيقة ميالاً للقاء به، إذ كلما التقينا عرض لنا إسمها فيريحني ذلك بل يسرني كثيرًا، كان وحيدًا والمساء الذي سربل بغداد يصبغ الوحدة برداء ثقيل، إن لم يكن يملأ النفس بنداء بعيد وعميق، حتى لكأنك ترى أو تجد بعض الناس يغنون له. ربما كان هذا شأن صديقي هذا المساء أو هو ما حسبته عليه أنا. كان ترحيبه شديدًا، حتى أنه خرج من وراء منضدته، أغلق هاتفه وقابلني في الجلسة، نقل مشروبه أمامنا على منضدة صغيرة، أضاف إليها قدحًا آخر واسترسل في حديثه بالترحيب بي أولاً؛ جئتَ في الوقت المناسب وكأنك على دعوة مني، تململ في جلسته، أرسل بصره نحو نقطة لا محددة، كنت أحسبه عند ذاك يبحث عن حديث من بين أحاديث كثيرة جلها أثير على نفسه. ومتمهلاً معه كنت مأسورًا إليه؛ أتأمل معه ما سيتحدث به أو عنه، ولا أظنني يومًا سئمت منه؛ ليس لخصوصية موضوعاته أو خصوصية حديثه عنها، إنما لعمق الحرارة التي يتحدث بها والصدق العاطفي الذي يفوح منه، وهو الشيء الذي يقربني إليه، ولا سيما حين يقترب مني وعيناه المتألقتان بفرحه الدائم مركزتان على عينيّ، ويسرني بحديث عن لوحته الجديدة، سواء هذه التي أكملها أو تلك التي يعمل فيها. عرّج

على عمود نُشر له في إحدى الصحف العراقية، يدعو فيه إلى فن جديد حديث يتخطى المألوف، ويحث خطاه حيث وصلت إليه فنون الغرب في آخر صيحاتها، لا انفصال في العالم، المسافات تقلصت، والانسان هو واحد وتطلعاته واحدة، وعلينا أن نكتشفها عبر سبر أغواره الداخلية المضطربة التي يتخفى خلفها أو يخفيها في أقصاه، فيكاد لا يشعر بها بفعل عوامل القهر التي تسم عالمنا الشرقي الميت أو الممات. الفن حالة أخرى مغايرة للشعور لا سيما المباشر منه، هذا الذي تحط عليه العين لحظة ثم تزرأ به. لا خالد إلا هذا الذي يزرأ بالعين وينفذ إلى المخ، وأكاد أقول؛ إنه كذاك المبضع الذي أنتجه المخ ثم صار من بعدُ أداةً تتدخل فيه. برغم أنني أتفق معه في طبيعة الفن وأعارضه في وظيفته بالقدر الذي نعيشه في عالمنا الآن، مضيت أنصت لحديثه، حتى نهض وعاد إلي بلوحة قائلاً؛ أتقرؤها؟ قلت نعم إنها أنت بما عليك من فن لا يشاركك فيه إلا نفر قليل. قال، إنها هي. قلت من هذه ال هي، قال بلقيس. اللوحة بساط أحمر غامق الحمرة بيضوية الشكل بإطار محزز كما في لوحة بيكاسو "حياة ساكنة مع كرسي خيزران"، يشع في داخلها مركز متوهج بلون البرتقال، بحجم بؤبؤ عين ولعله بؤبؤ عين، يركز شعاعه على ما هو خارج اللوحة، محاط بأشكال غريبة بعيدة بحيث لا تكاد تفصح عن نفسها، سوى أنها قادمة من مجهولها البعيد، أشياء أشبه بمخالب وأنياب ومناقير مقذوفة بفعل ريح أو هي تطير، وثمة إلى الجانب الأيسر من اللوحة، وفي مساحة تقترب من منحنى الإطار وهو يسفل من أعلاه

باتجاه اليمين نهض، شكل من عمودين متعامدين على هيئة صليب أو شجرة، أحمر هو الآخر بفارق درجة عن لون قاعدته،، علَّق على طرف منه قيثارًا عاريًا من قوسه، وعلى الطرف الآخر المقابل قوس صياد. هناك في نقطة ما قريبًا من الصليب/ الشجرة، أو تحتها وفوق أوراق، لعها أوراق الشجرة مختلطة بريش، تساقطت ودكن لونها، استرخى شكل على هيئة خط مرن القوام، يشفّ عن صيغ شكلية شتى؛ حبل، أفعى، جسد ما، ولعله جسد امرأة في حالة استرخاء، ومن الغريب أن يثير هذا الكائن المجرد غريزتك، كلما تضبب نظرك أو غام واختلق لك أو لنفسه صورة امرأة مستلقية على ظهرها تستقبل رجلاً ما، ثم جعل يضرب بفرشاته باللون الأحمر الفاتح أو الواهن وفي تدرج في الدرجة أو الدرجات، خطوطًا رقيقة شبه عابثة شملت أرجاء اللوحة جميعًا إلا مركزها المشع. كانت الخطوط ذي تتعانق وتتوازي في توالٍ عنيف وقد ملأ فراغاتها بأشكال نمنمية غاية في الصغر والغموض حتى باتت تكوّن مشهدًا مستقلاً، إذ ما أن يقف بصرك على شكل منها حتى ينصرف إلى الأشكال المجاورة الأخرى؛ يستعرف صورها أو مدلولاتها. صرفت نظري عن اللوحة إذ ما كنت مستعدًا لتعليق مضاف، ففي وضع مثل وضعه، قد يؤدي التقريظ الزائد إلى جنونه. وضعها حيث يجلس؛ قريبًا من كرسيه. إنها هي قال مرة أخرى، ويومًا أريتها إياها وسالتْ عن عنوانها قلتُ؛ امرأة وانتظرت تعليقها. يثيرني صمتها ويستفز أسئلتي، وأنا صاحب أسئلة كما تعلم، ولعل أكثر أسئلتي انزياحًا حينما تكون

أمامي، كان ينبغي أن أتكلم كثيرًا، ولكن هل وجدتَ فنانًا يتكلم وهو يرسم لوحته أو يتأملها؟ نعم هنالك ذبذبات، قد يتخاطر بها الفنان مع لوحته كما في شأني، ولكن هل هي تسمع شيئًا مني؟ أشك في ذلك، أو لا أعلم حتى الآن. أنا أحبها يا رجل، هي فنانة جميلة وراقية الخلق ولا اظن أحدًا تعرف إليها إلا وانقاد نحوها. يقول كلامه، الذي في الحالين صحوه وثمالته، هامسًا مشبعًا هذه المرة بأنفاسه الخمرية.

إن كنتُ لم أفاجأ بذلك، فلقد بدأت أشعر أنه كمن يريد استباق صديق إلى هدف محدد، ليضطره إلى أن يتخلى عنه أو يخون صداقته. أدعوها دائمًا لمرسمي، تستجيب لمامًا وأعرض عليها رسم لوحة مشتركة فتأبى. هي امرأة فريدة والفرادة في هذا الزمن السهل نادرة. فكرت أن أعرض عليها الزواج فتلكأتُ؛ فأن يكون فنانان على سرير واحد ولغة مشتركة، فإنه لشيء يجعل العقل جنونًا، أهناك شيء أجمل من هذه النتيجة العظيمة؟ الرجل يقول ما في داخلي حيث ما لم يتحقق لي. مرة كتبتُ لها في ذروة حاجتي إليها وكنت أنجزت لوحة مفرحة؛ "التشكيل فن جميل، أنتِ وحدكِ الأجمل منه". ردت؛ "أنت تقول الحقيقة في جزء من رسالتك، وأشكرك إذ تعدّني كذلك في جزئها الثاني، أنت فنان كبير وأخ نبيل". ومهما كان نوع رسالتها التي يمكن أن تقتل بها عاطفة رجل يحبها ويعشقها إذ تعدّه أخًا، فلم أتوقف عندها.

دنا مني إذ حنى قامته كرة أخرى نحوي ؛ كل ما تقوله بصدد علاقتي بها مجرد كلام، حبها يدفعني للجنون بها. كدت مرة في لقاء آخر

أصارحها برغبتي في الزواج بها، لكنني برغم وجدي بها توقفت، اللحظة التي أحاول أن أتقدم فيها تجمد، تعقم، يصيبها الذهول، تتلاشى. لحظاتي إنسانية؛ تحس بالألم والحرج والحياء، والحياء في حياتي كثير، والشيء الوحيد الذي لم أستحِ منه حداثتي.

أسقط يده إلى الأسفل، رفع اللوحة كرر عرضها عليّ، بحثت عن عينيها، أنفها، سلاسة شفتيها، لم أفلح. قلت، ما دام يريد ذلك، أنت فنان بارع، وهو كذلك، وتغوي على النظر مليًّا إلى لوحتك. وهذا شأن من لا عابر في فنه. شكرني وطفرت دموعه وتوهجت حمرة خديه، نهض من مجلسه يقبلني. أدركت أن هذه هي اللحظة المناسبة للإنفراد بنفسه، فنشوته الآن في كمالها ولئلا أفسدها عليه في جلسة أطول، تركته لما يحقق له المزيد منها. كنت أنا الآخر نشوان بيقيني بأنّ ما يحصل هنا هو خارج الدائرة ولن يدخلها بأي حال.

البعد موت

قادتنا سيارات أجرة مؤشرة إلى قلب مطار بغداد الدولي. عند النقطة المحددة تجمعنا، نحن الوفد الصحفي إلى أربيل. وصلت العاشرة بعد أن أصبت فطوري الثامنة في صباح الكرادة. استيقظت هذا اليوم الأربعاء السادسة. كنت هيأت معظم متعلقات عملي الصحفي منذ أمس الثلاثاء. لن يستغرق المؤتمر الصحفي الذي سيعقد في أربيل غير يومين. بذا سيكون غيابي عن عملي أربعة أيام من ضمنها يوما الذهاب والإياب.

عرفت، هناك، أنّ الطائرة تطير عند الثانية عشرة ظهرًا. إذًا لدينا الوقت الكافي لفعل أشياء قد نحتاج إليها قبل الطيران. تناولت قدح قهوة في دار الإستراحة، كان لذيذًا جدًا وممتعًا. أرسلتُ

إليها: "من مطار بغداد أُحييكِ تحية المتوحد رغم الحشود".

وفعلاً كنت وحيدًا تقودني نفسي إلى وضعي هذا، أو أقودها إليه. ردتْ مباشرة:

"أيها المتوحد بين الحشود، ماذا تقول عن متوحدة وسطَ حشودِ وحدتِها، أنت رعايتي الربانية وحظ حظوظي، هل وجدت نفسك في كرستالتي النقية؟ دعائي معك"

وكانت كتبتْ قصة بعنوان "كرستال" إستلهمتها من لوحة لها بالعنوان نفسه، وقد ظللت صفحتها الاولى بتخطيط بقلم رصاص خفيف لوجهي كنتُ فيها، بحسب عينيها، أجمل من حقيقتي.

ولأنني غادرت البيت الصباح نفسه مألومًا من جفوةٍ لمستها في سلوك زوجتي، ترددتُ أن أرد على رسالتها؛ "إن كان حبك ذنبًا دعني أحمل الذنوب".

"إذًا لماذا تلك الجفوة إذا كان الأمر كذلك"؟ ثم وجدت أنّ من المناسب أن أقول شيئًا آخر بعد قليل سنغادر. تحياتي".

دخلت الطائرة وحال تحركتْ ودخلتْ الأجواء المرتفعة، تعطلت المراسلات. جعلت أسرب نظري من وراء زجاج نافذتي الصغيرة، تحاصرني من كل موقع تجمعات غيوم دانية، كنت مألومًا، لأنني لم أكن شفيفًا مع زوجتي. كنت أراها، حالما أستيقظ مبكرًا، تصلي؛ عباءتها البيضاء تغطي رأسها حتى أسفل قدميها، وحين تجلس تتمتم بالدعاء المبهم غالبًا، تتراءى أمامي كحورية من حوريات الجنة، تتوسل الله أن

يعيدها إلى جنتها بعد أن هبط بها الأرض، فأغض بصري عنها، لأتمتم أنا الآخر بكلام مبهم غالبًا ما يكون خانقًا، وبي رغبة عظيمة في البكاء. ثلاثة أيام قضيتها في أربيل كانت ممتعة جدًا، لاسيما اليوم الثالث الذي اغتصبناه من المعنيين حياءً، وتجاوزنا فيه الحدود الزمنية المرسومة وتوجهنا خلاله إلى كلي علي بيك وبيخال وراوندوز. هناك ترجلنا من السيارة التي كُرست لخدمتنا ويقودها سائق كوردي طيب المزاج. تحللنا من أثقالنا وارتقينا بعض المرتفعات، ودخلنا تحت رشاش شلال علي بيك وبيخال ولم نعد إلا مساء.

خلال تلك الأيام وفي الليلة الأولى، حضرنا دعوة رسمية، في فندق خانزاد القابع على رابية وحيدًا في عزلة عما سواه، بعيدًا عن مدينة أربيل بما يقرب من نصف ساعة.. حضرنا في الليلة الثانية دعوة أخرى وكانت أمتع من سابقتها لما تخللها من شراب تقدم وجبة العشاء، وما ساد الجلسة من أحاديث طلية مع بعض الرسميين وممثلي الصحافة والثقافة هناك. عمومًا كانت تانك الأمسيتان مما لا ينسى.

في أربيل فرض الصمت سطوته على مراسلاتنا وانقطعت عني المعلومة عن سفرها، ولعلها كانت تفكر بما كنت أفكر فيه حين تبتلع الساعات الصمّ، أصوات المحبين.

وحتى كتابة هذه الحروف في الساعة الواحدة الّا عشرين دقيقة بعد منتصف ليلة الأحد، فإن أحدًا منا لا يدري بوضع الآخر برغم

أنني أرسلت رسالتين قصيرتين لا أعلم إن كانتا وصلتا وردت عليهما أم لا.

الآن كأنني أعيش في هيولى غير محدودة، في سديم رمادي يرتد نظري اليّ كلما حاولت أن انفذ به نحو معالم عالم آخر، قد أرى صورتها فيه، كلا. البعد موت. موت كلما حاولنا أن نتخطاه ظلت محاولاتنا فاشلة ومجهضة وقد لا تكون صائبة كذلك.

إمتداح الخالة

بما أنني لم أعثر، من جانبي، على فن فؤاد التكرلي في روايته "اللاسؤال.. اللاجواب" بل وجدتها قصة طويلة في أكثر من مئة صفحة لم تستوقفني فيها صفحة واحدة، ويبدو أنّ التكرلي كتبها بسرعة تتناسب مع اطّراد سنيّ عمره الجميل الذي على خلافِ كثيرٍ من أعمار مجايليه، ركنتها جانبًا وتحولت عنها سريعًا إلى رواية ماريو فرغاس يوسا "إمتداح الخالة"، التي سبق أن قرأتها قبل عشر سنوات تقريبًا، تحت عنوان "في مديح زوجة الأب" في ترجمة أخرى، أهدانيها بائع كتب في المتنبي؛ يتعاطى وزملاء له بيع الكتب المستنسخة الممنوعة أو النادرة سرًا، بعيدًا عن عيون رقباء السلطة السابقة.

و"امتداح الخالة" أثر روائي جريء ومثير كذلك لا أظن كاتبًا عراقيًا أو حتى عربيًا، تناول موضوعها أو قدر على تقديمه بهذه الصيغة

المبهرة، سوى ما كانت عليه بعض صور التكرلي في "المسرات والأوجاع"

وفي الحق فان فؤاد بروايته القصيرة " اللاسؤال.. اللاجواب"، أراد أن يقول كلمته في الواقع العراقي قبل أن يحصل له ما يجهضها أو يحول دونها، فقالها ولكن ليس كما ينبغي أن يقولها فنه الذي عرفناه، في "الرجع البعيد" و"المسرات والأوجاع " أو حتى خاتم الرمل. ومهما يكن من أمرها فإنها في حصيلتها النهائية تنتمي لأدب التكرلي الذي من النادر أن تجد أدبًا يشبه صاحبه كما تجده أو أجده أنا في أدبه هو، وكما تجده كذلك في أدب محمود عبد الوهاب النظيف!

وبقدر تعلق الأمر بهذه الرواية، رواية "في مديح زوجة الأب" أو "إمتداح الخالة " فان ما يميزها هو طابعها اللاعقلاني بل الأسطوري، الذي ارتفع بالصورة الواقعية إلى ذلك المستوى المدهش والغريب.

حتى الآن ومنذ أيام لا رسالة منها ولا علامة أو إشارة. سأنهي هذه الكلمات برسالة الطفل، "الفونسو" بطل الرواية إلى زوجة أبيه:

"عيد ميلاد سعيد يا خالتي: لست أملك نقودًا لكي أُهدي إليك أي شيء، ولكنني سأدرس كثيرًا، وسأنال المرتبة الأولى، (وتكون هنا هي) هديتي اليك. أنت الأطيب والأجمل وأنا أحلم بك كل ليلة. عيد ميلاد سعيد مرة أخرى". وكان الروائي بدأ روايته قبل هذه الرسالة بتمهيد كتب فيه:

"في اليوم الذي أكملتْ فيه أربعين سنة من عمرها وجدت دونيا لوكريثا على وسادتها رسالة ذات خط طفولي مكتوب بكثير من المحبة".

لقد صبّ الروائي جهده العظيم على العلاقة بين الصبي وزوجة أبيه، والطابع النفسي والجنسي اللذين سادا ثيمة الرواية وعالجها في بعض فصول الرواية باقتدار تام، فالطفل الذي يرى امرأة غير أمه تحتل قلب أبيه لم يجد أن يمارس معها، للإنتقام منها، غير حب محرم كان يراه جديرًا بها.

المكالمة الفاشلة

لما تعذر عليّ الحصول على تأشيرة دخول مصر، بحسب الإتصالات التي جرت في حينها وأنا في بغداد، قررت إلغاء السفر والتوجه نحو البصرة لحضور مهرجان المربد الشعري. أرسلت رسالة الى زوجتي، مصدر سعادتي وشقائي معًا. مساء الخير، لم أتناول عشائي بعد، سأنهض لتناوله، أرجو لك السعادة والصحة. ردت بلهجة طفلة أتتها "هدية العيد" هي الاخرى " شكرًا لمسائك وطب نفسًا أنا بخير ولو كنت بجانبي لكان أفضل"! في كل مهاتفة مع زوجتي، ومهما كان فرحها بي، تضعني في ميزان دقيق كنت أجده ثقيلاً ومؤلمًا أحيانًا. تولّد مزاحها أو قل مزاجها هذا منذ زواجنا، جراء طبيعة عملي مع نساء، وهي في الأغلب، لا تتعدى الطبيعة العامة للعلاقة بين الرجال والنساء في المدارس والشارع ودوائر الدولة الاخرى، إلاّ ما كان من ملابس أختارها أو عطور أقتنيها كانت تدقق النظر فيها أو تتفحصها. حصل

ذلك في الساعة نفسها ولوعتي إلى سماع أخبار بلقيس قائمة لم تنحنِ لحظة لعاصفة أو ريح. هاتفت زميلتنا لمعرفة شيء من أخبارها. لم أحظ بجواب. القلق محطة مجاورة للحب، فكرت، واليوم هو الخميس وغدًا السفر إلى البصرة محطة الشعر والنخيل. لم تكن البصرة يومًا غريبة عليّ، فقد عرفتها مطلع شبابي؛ شط العرب والكورنيش عليه، سوق الهنود بحاجاته الكثيرة وعطوره النادرة، الشوارع النظيفة والأغنية البصرية على بعض مقاهي العشار وحلقات رقص "العبيد" في الأماكن الخاصة وفي بيوت الموسرين، ولا أراني سأستكنّ إلى راحة ما من دون معرفة شيء عنها. وبعيدًا عن كون البصرة وبغداد محافظتين عراقيتين إلا أن السفر بينهما بساعاته التي قد تمتد الى سبع أو ثمان، والأيام التي سأقضيها هناك، يعني البعد عنها بأي صورة تنظر إليه.

– حب عجيب! لعلها من المرات النادرة التي أقرأ فيها شيئًا عن حب فيه هذه العلاقة المتشابكة بين ثلاثة أطراف، لا تستطيعين أن تلقي باللوم على أحد فيها. هنا أجد نفسي متساوقًا مع فكرة أن الحب لا يخضع لمنطق أو ميزان، بل إنه قوة عليا تهبط من فوق لتضرب هامة الإنسان، فتغلق عليه منافذ الوعي تحت طبقات من الجذل والهيمان، إذّاك سيكون الوعي بما أصابنا متأخرًا على قبضتنا التي نقبض بها على أشيائنا..ماذا تقولين؟

– أوه، لا شيء أقول، لعل ذلك صورة من صور حبك، أتظن رسائلك القديمة خافية عليّ إن لم تكن لك رسائل أخرى جديدة، لعلها هذه التي نقرؤها الآن؟

– أتظنين ذلك؟

– ولمَ لا وهو قوة عليا تضرب الرأس، كما تفكر الآن؟ دعنا نقرأ فأنا سعيدة بهذا، بالدرجة التي يكون فيها بعيدًا عني ولو على مستوى الظن.

– أنتِ بارعة في الرد عليّ وتذكرينني بماض خفتت جذوته، ماذا لو كنتُ أحد هذين؟

– ومن يدري إن كنتَ أحدهم أو لا، وكذلك إن كنتُ أنا، فذاكرتي المثقوبة سربت كثيرًا من مخزونها وظلت تتمسك بالقليل من القديم، ربما ما كان سعيدًا منه، أو ما يبدو لنا كذلك، مثلما هو الأمر مع نوم السطوح!

– في الحقيقة أنت تقدمين نكتة يستذكرها الناس دائمًا؛ النوم فوق السطوح، ليس بمقدوري أن أخمن إن كان الأمر متعلقًا بوتيرة الكهرباء المضطربة هذه الأيام. على أي حال كان ذلك يوم كانت الحياة بسيطة، وقناعة الناس أبسط، فهي كنز لا يفنى، ولم يكن في الإمكان أفضل مما كان.

– ماذا تقول عن الكثرة الكاثرة التي تتمنى اليوم تلك الحياة؟

– نعم، وهم على حق فحين تعود الحياة القهقرى يتمنون ان تتوقف العجلة عند النقطة الأجمل التي سكنت عليها حياتهم يومًا.

سكتت. من طبيعتها الجميلة أنها تسكت لا تنافح ولا تجادل الا عند

النقطة التي تكون فيها محقة تمامًا، بل وكثيرًا ما وجدتها تستجيب لقناعة الآخر لأنه شريكها في الحقيقة كلها، ولا سيما معي وتحديدًا عندما كبرنا، فقد كانت بعض مناكداتها في أيامنا الأولى تقودنا إلى الفراش!

العاشرة والنصف جاءتني مكالمة وكانت من زميلتنا التي اتصلت بها آنفًا. سلمت عليها وأسفت إذ هاتفتها في وقت ربما لم يكن مناسبًا، هي الأخرى أسفت لأنها لم ترد، إذ كانت تشارك أقرباء لها عزاءهم على شاب لهم، ذهب، مع من ذهب، ضحية انفجار في ساحة الطيران التي كثرت فيها الإنفجارات. ولما سمعت بدويّ هذا الإنفجار وتوقعت ما توقعت العدد الذي يقتل أو يتضرر فيه، لم أجرؤ على الإعلان عن السؤال عنها، ولا عن الصحة والتدريس، فلربما كان الحزن أثقل المجردات على النفس، لا أدري إن كانت له قرينة مع الموت أو هو صورة منه أو هو من بعض الطرق إليه، أو هو هذا ما تسرب إلى نفسي لحظتي، فتركت السؤال إلى حين آخر قد لا يأتي قريبًا، ثم أنهيت المكالمة التي عددتها محزنة وفاشلة من جميع الوجوه.

رفقة حسنة بوجه ما

إنطلقت بنا السيارة إلى البصرة بعد التاسعة صباحاً، لحضور مهرجان المربد الشعري. ضمتني مع صديق شاعر غرفة واحدة في فندق متواضع على أكثر من وجه. كنت أحاذر، مع مضي ساعاتنا، أن يستعرف رأيي وهو مخمور، في ما قد يقرأ أمامي من قصائد يشارك فيها في المهرجان، وأحرص كثيرًا بتصميم مسبق على أن تكون رفقتنا جميلة. بل لقد تحاملت على نفسي من أجل أن تكون كذلك، فتجاربي الكثيرة في السفر والرفقة إلى المكان القريب أو البعيد معًا، علمتني أن يكون اللطف في المعاشرة والسلوك، شيئًا جذريًا لا رهان على غيره، إذ بمقدورك أن تلغي سعادتك أو تحققها، أنت بنفسك قبل غيرك. هذا الصديق الذي جمعتني به غرفة الفندق، يكن لي احترامًا خاصًا كما ينّوه لي بذلك كثيرًا، لذلك حرصت على صورتي التي في عينيه، متغاضيًا عن

خصوصياتي وعن مزاجه الخاص الثقيل أحيانًا. كنت أغالب نفسي فألتقط منه ما يريحها وهو ليس بالقليل حقاً، فأنشره على كامل المساحة الزمنية التي نكون فيها، بيد أن ما أثاره من قلق في نفسي ذكره إسم بلقيس دونما مناسبة، حين أشار إلى امرأة مستطرقة قائلاً "بلقيس"! في قصدية صبيانية مباشرة وغير بريئة. نقلت نظري عن تمثال السياب وشط العرب خلفه، نحو امرأة غريبة تمامًا من حيث الصورة والمظهر، ولم أعلق بكلمة لأنني كنت أعرف أنه يريد أن يسحبني إلى موضوع قد يستل منه حقيقة ما، تثير فيه حسده بل شغبه. إنما كنت أخشى أن يدخل مباشرة على حياة بلقيس بما يعكر نفسها، وتحمَلني من بعد مسؤولية ما. كان الشط الأسمر الظليل يمتص كلماته ويطويها، وما يتبقى منها تذروه الريح في مهب عنيف، ولم أكن راغبًا في شيء سوى هذا. كنت أريد لهذه اللحظات التي وجدتها قاسية أن تذهب سدى، فما تقبضه من رجل تحسه مرتحلاً لا ثبات لديه ليس سوى الفراغ، سوى اللاشيء، سوى العدم. كانت الريح تهب والشط صامتًا كأنه جبل عميق، أو كأنه صدر مكلوم وكنت مطمئنًا إلى يقيني بأن صديقي المخمور هذا يضرب في تيه من وهم كبير. تجاوزنا المرأة وتجاوز صمتي فرصتَه إلى الحديث عن موضوع محدد، وبدأت أطرق معه موضوعات أخر، منها حرية النوادي الإجتماعية المقيدة في البصرة ميناء العراق الوحيد مثلاً، وسيادة الطابع الديني على المسموعات والمرئيات في أجهزة التلفاز والتسجيلات، بما لم تعرفه، المدينة المفتوحة على ثقافات متعددة من قبل. من جانبه ومع

مرور الساعات، لم يعد إلى ذكر إسم بلقيس الذي أعرف أنه يتمنى صداقتها. لقد هالني وضعه بين هواجسه بوجود علاقة لي مع بلقيس ورجمه بالغيب، أو إن كان لساني نطق باسمها أمامه يومًا. حقًا لقد لعب بمهارة على مشاعري، من دون أن أتبين منه إحساسًا بالفخر أو الذنب، فله في ذلك مثلما أعرف باع طويل، ولا أحسب أنه راجع كلامه يومًا مثلما يفعل بعض الناس.

لقد مرت التجربة بسلام، ثم إذا افترقنا بعد عودتنا الى بغداد هو إلى غرب وأنا إلى شرق، عبّر كل منا للآخر عن اعترافه بحسن رفقة صاحبه، وهو على العموم إعتراف صحيح بنسبة ما، ولا أشك في أنه كان في هذا أصدق مني أول مرة! في طريقنا، ضمن فعاليات المهرجان، إلى بيت السياب، كنا نتلمس الآثار التي أسطرها السياب في قصائده "قرية جيكور" "نهر بويب" "شباك وفيقة" وما إلى ذلك من شواهد صغيرة و"قذف بها إلى التخوم الخرافية المحاذية للوهم" كما يعلق شاعر عربي زار المكان قبل هذه المرة. وللأسف فقد عبرنا بويب دون أن نشعر به، ولا أدري إن بقي شباك وفيقة من دون أن ينبهنا أحد إليه أم أنه اندرس بفعل القدم والإهمال. في الذهاب من البصرة إلى "أبو الخصيب" وبالعكس، كان يدمي بصري ونفسي معًا، التمر المتساقط من ذرى النخيل من دون أن يعبأ به أحد، فأتأسى على الثروة المهدورة وأخاطب دخيلتي؛ إن نخيلنا برغم ما تعرض له من تدمير أثناء الحروب، يكفي لإشباع نصف جياع العالم. من هناك كنت أرسل لها

الرسائل أخبرها بشعوري وأنا أرى ما حولي يزحف عليه الإهمال بعدما زحفت عليه أكثر من حرب ضروس قطعت رؤوس النخيل مثلما قطعت رؤوس البشر.

سعادة مائدة الشاي

الأيام تترى، اللهفة تتزايد والعطش إلى أخبارها يشتد، والجواب على كل ذلك هو الصمت. يا إلهي ماذا يحمل مخ الانسان وعلى ماذا ينطوي؟ لقد تتالت الصور والتداعيات حتى قرفتُ من مخي هذا الذي لم يكن يومًا على مثل هذا الإختلاط الذي عليه الآن.

قد يكون البعد بين البشر، لعنة تنصب على طرف واحد أكثر من غيره من الأطراف الأخر، وهذا ما يحصل معي الآن، فأنا مفرّغ لها لا أفكر إلا فيها، لذلك كان الصمت عذابًا متصلاً وكانت رسالة منها ولو على هيئة كلمة واحدة، تكفي لسد هذا الفراغ الثقيل !

كلا المسألة فيها أكثر من وجهة نظر، إحتمالات كثيرة، واعتمالات متنوعة ومتجددة، ولا سبيل إلى طردها أو التخلص منها. لقد حضر دور المخ ليلعب معي ألعابه الشيطانية، في الشد والجذب والإرخاء

والتعديل والتقريع، حتى إذا كان يوم الخميس وعلى توجس غير قليل أرسلتُ:

"مساء الخير.. الحمد لله على سلامتك".

لا ردّ، بل لم يكن هناك إلا إطباق الصمت، فأصبحتُ إزاء ذلك أحس تمام الإحساس معنى هذا الشيء الفاحم الذي تتمنى أن يتفجر ولو بكلمة واحدة.

كل مرة أرتعش ويفز قلبي على رسائل متكررة من صديق، أغفر له ساعة وأذنّبه ساعة حتى جاء يوم السبت، وهو اليوم الشبيه ببعض الأيام التي متّ فيها وحييت.

كانت الخيبة مُرّة وصارمة. إذًا لماذا لا أتصل وأفجّر دملة قلبي، الهاتف يرن دون جدوى حتى أغلق. لأعدْ إلى قصتها لأضفر من كلماتها أرجوحة أنام عليها. وضعتها مذ قرأتها أول مرة في محفظة خاصة، تمامًا كما وضعتُها هي في قفصِ صدري، متحاشيًا قراءتها أكثر من مرة. طويت عليها جناحي محفظتي، وأدرجتها ضمن محتويات خزانتي. لا أقرأ الشيء الثمين ولا أستعرضه أكثر من مرة، لا أريد أن أتشبع بثرائه وجماله فيفقد بريقه، من يعثر على لقية ثمينة يخشى عليها من نظره، بله أصابعه.

القصة أكبر مني، ولكنها ليست أكبر أو أصدق منها، ففنانة ملهمة بحجمها لا يعوزها القلم الرشيق لتكتب قصتها، مثلما لا تفتقر إلى

الفرشاة اللدنة لترسم لوحتها. كرستالتي أثمن ما وردني منها ومن غيرها، حملتني المسؤولية وأنا صغير معها، إذًا كيف لا أصونها أو لا أمنع الغبار من السقوط عليها؟

كرستال

قلامة ظفر شاحبة اقتربت من شباك غرفتي المتوحد، وهي في زحفها الوئيد، صارت تكنس ظلمة السماء القدرية في محاولة منها لإزاحة وحشتها المتراكمة، ولكن لتلقيها في خزانات روحي المجدبة. هي وحدها من دوّن تاريخ الحكاية ووقف على أسرارها، في تماس حانٍ وتكتم مقدس يليق بهذا النوع العالي من الأسرار، حيث فتحت ذراعيها وضمت اليها زخرفها ومنمنماتها ولألائها وأطبقت على ماسها الاسود النادر بانبهار عظيم.

أنا من دخلت نارها ونوارها، كنت مسمرة بشكل لا إرادي متطلعة صوب تخومها الشاهقة، بيد اني لم أكن منجمة أو عالمة فلك، تتقصى مواقع النجوم وتستقرىء الطوالع عبر حركة الكواكب، أو تتتبع الشهب في هبوطها الضوئي الساحر في فضاء أزلي، بل كنت في حالة

انتظار موغل في القدم، انتظار البداية المروية على لسان النار لأسقط بعد ذلك في براثن الصمت الطويل، متوسلة بالذكرى من اللاذكرى المتوطنة في أعماق الروح المتصحرة، فالأشياء التي تحيط تصبح شواهد وأجزاء من أفراحنا واحزاننا وترتبط بمصائرنا، بتناغم يعي معاني القرب والبعد، والشد والجذب.

لقد بدا لي أن ما تفعله تلك القلامة السعيدة في سمائها، إذ تدنو في اقتراب رفيق، منطقيًا جدًا، ذلك أننا ابتدأنا عند تخومها الشاحبة التي كان من الممكن أن تبدو ذات دلالة إيحائية، وكأنها علامة ذهول محبط أو أفول وشيك، لا تحول باتجاه اكتمال مبهر.

لا تسلسل تراتبيًا هنا يشبه ذلك التحول، أو يماثل صيرورة الهلال بدرًا مكتملاً كرغيف خبز مشتهى. الحكاية ببساطة متناهية من فصل واحد محضون بين قلامتين أو هلالين، أما ما تلا ذلك فليس غير نقطة ثقيلة كصخرة متغربة في مفازة العمر.

آه منها، وآه عليها، لقد شطرت عمري نصفين سعيدًا جدًا وشقيًا جدًا. لا تفاصيل يمكن أن تروى، لا أحاديث لا مواعيد مفضية او غير مفضية الى لقاءات مقتولة بهجتها بخوف رقيق شفاف، وذاهبة إيقاعات الحانها في صفير الوحدة.

إنها حالة خاصة، معاشة في الداخل، في داخل الداخل حتى غدا من الصعب ان أجزم بين إثنين :

أكنا واحدًا في إثنين؟

أكنا إثنين في واحد؟

أحيانًا تبدو لي أحداثها كمشهد إيمائي على مسرح قفر لا شاهد ولا مشهود، ولكن ما يحدث في الحقيقة أن الرواية تدور بروحها المستعرة على أرضية مسرح خفي حيث هناك أعماقي وخفايا أمنياتي.

لا أحد بإمكانه ان يقدم إيضاحات مؤكدة من قبيل متى ابتدأت وكيف، وهل انتهت أو يمكن أن تنتهي حقًا؟ إنها حكاية آلاف السنين.

كان دخوله سريعًا مربكًا كريح عالية الهبوب. لم يكن بجناحين كما توهمت في المرة الأولى التي رأيته فيها، بل أن ما حدث هو ما دفع بالطائر الى قيامة أبدية. سمعت اصطفاق جناحين عقب هذه القيامة ورأيت تلك الظلمة الموشحة بانبعاثات وامضة وأنوار تقاتل من أجل إثبات حقيقتها المرئية لا المتخيلة. أنا وحدي التي رأت ذلك التسريب المتدفق المتداخل تداخل ليل بنهار ونور بنوار. رأيت اقترابه وابتعاده كحامل روح يتطوف بها طوافًا لا سبيل الى بلوغه. كان طيرانه كأثر سرّبه برق خلاب ذاب في أشواق الوجود تاركًا خلفه شريط بروقه الهارب صوب العتمة.

سمعت صوته وسط دوي وعويل الكون كله. لذا فالحكاية أبدعت جانبها الآخر حيث لم تعد محض رؤية سرابية، فما يمكن أن يضلل العين لن يكون بمقدوره إسقاط الأذن في براثن ذلك السراب بالضرورة.

أنا راوية الحكاية لم اكن غير عابرة سبيل تستظل بفيء قصير، وتبحث عن موطىء قدم لا يفضي الى طريق مهما وسع، أما هو فكان متربعًا على سواد المرمر الأخاذ، محاطًا بآلاف المرايا المهووسة باقتناء الصور ومحو الأثر. لا انعكاسات لمراياه، لا مكان غير عينيه قابل لخلق ذلك الأثر وإعادة بثه بالحجم والتأثير ذاته. شيء يفوق قدرتي على التحكم صار يدفع بي تجاه مربع الأنوار النادر. دخلت مستعينة بعصمتي وزهدي وتمنعي وعنادي فوجدت نفسي داخل مراياه الإستحواذية، وصار علي أن أمضي الى حيث الإنعكاس أو صيرورة الأثر لعلي في أوبتي أستعيد أثري أو أن أنشىء ظلي، وهو صاحب المقام العالي.

أمسك بظلي صار يلاعبه، يحاوره، يسرق منه أسراري، وهو إن بدا مثلي متمنعًا متفكرًا إلا أنه راح يبوح ويواصل البوح، ويبرق عبر ممرات التيه رسائله الوامضة. كان نّامًا من طراز رفيع لا يشق له غبار، أسقطني بالضربة الحانية في بحر مراياه.

لم أشأ الإعتراف بحجم الضلال الذي كنت عليه، فالساكن في عليائه ليس غير روح هائمة تبحث عن رديفها، لذا بدا لي استحواذه جميلاً وانعكاسه متطابقًا مع انعكاسي على مرايا الصدق.

كنا ندور في الشوارع والأزقة والأرصفة بين الناس وواجهات المحال دون أن نغادر موقعنا، إلا أن الطرقات كلها لها بداية ومنتصف

ونهاية، فإن كنا في منتصفها هل سنخطو تجاه النهاية أم نعود الى نقطة البدء؟

حيّره السؤال وفي خضم هذه الحيرة أفلتت ثرياه المثقلة بالدموع حبة من كرستالها المتلألىء. بصرت ذلك الهبوط الأثيري ومددت يدي، هذا ما كان ينبغي علي أن أفعله. كنت على ثقة ان ما في مرايا الدمع يشبه ما في كرستالها.

اشتعلت روحي بدفئها المقدس وهي تطبق على جمرة الدمع، وتلاشى جسدي في رفيف روحي وحين أدركت استحالة الفراق صرت أجلي غيوم أمسي بشمس نهاره الروحي.

قال إن ارتحاله يوازي ارتحاله، وإن جلوسه في مربعه العالي جلوس وهمي محكوم بالنسيان، وإنه لم يجد لنفسه موطىء قدم في ذلك المهرجان المترجرج بصخب موسيقى وحشية، وضجيج أجساد لابطة متدافعة كاشفة لعريها وزيف هياكلها الخاوية.

سحبني الى مربعه الروحي النظيف، أطبق مراياه الناصعة كأضلع حانية، صار وجودنا معلبًا

بأناقة مفرطة.

أحسسنا بالأمان.

هل تجيدين الرقص؟ انا لا أجيده ولكنني مأخوذ متفكر بذلك الإختلاط القصدي حيث تتلاشى الأشباه واشباه الاشباه.

هل أنت كذلك؟

أنا لا تجارب لي في حلبات الرقص أو دونها، ولكنني لا املك القوة الكافية للسيطرة على ذلك الإنعتاق الذي صارت عليه حواسي كلها. حركة متلاطمة ترتطم بالعقل صعودًا وتتجه نحو القلب نزولاً، تشاغل نفسي وتسرى بمجرى دمي ومسالك تنفسي.

في داخلي انتشاء ماخوذة بتضاريس وجهه، بعدئذ رأيت مصنع الكرستال النقي في مآقيه حيث يحبس الكلام ويمنع القول.الدمع يواصل الحكي وأنا مطرقة، ذلك أني قارئة عالية الاستيعاب، تجيد الإمساك بالشفرات وتقرأ وصفات السحر.

إقتربت منه، وقفت في مجرى الدمع، إغتسلت بنثار كرستاله الصافي وأكملت طوافي، استدرت أنظر موقعي في الطريق، بدت الإتجاهات كلها مؤدية الى ذلك النبع الذي يواصل إروائي برحيق نادر.

- أقدّر لكِ أن قرأتِ قصة كهذه من قبل؟ قصة تأخذ بالنَفَس وكأنها أنشوطة تلتف حول العنق، كلما تماديتِ في القراءة نحو ما تحسبينه الفرصة نحو حريتك، اشتدت وطغت؟

- حقًا لم يحصل لي مثل هذا. القصة غريبة؛ فيها الألوان متداخلة كضبابٍ هيمانَ في فضاء، لا يُمسَك سوى أنه يُرى، وأحسب أن هذه قدرة الفنان حينما يكتب، هل تقول معي أن هذه القصة هائمة مثل طائر في مملكة سعيدة؟

- نعم. مثل طائر في مملكة سعيدة. مثل نهر في أرض بكر، مثل أغنية مستوحاة من حقل.

- مثل ما سيشتعل فينا على قدحي سائل أشقر كالعسل. أتود ذلك؟

- ومن لا يود، وكنت أفكر في ذلك؟

المحاولات الهاتفية الاخرى كادت تكون القشة الكفيلة بقصم ظهر البعير. إذ ما أن مضى الهاتف يرن حتى جاء صوت غامض يوشوش في أذني حتى انسحبتُ، مخولاً لنفسي أن تشعر، ولو على سبيل التجاوز، بأن ما يجري لي الآن لن يكون إلا واقعًا ممسوسًا وليس وهمًا من الأوهام.

رنين الهاتف منذرًا أو مبشرًا بمكالمة، خلط لدي المجردات إلى أن تبينت رقم هاتفها، ومن الطريف أنني لم أتوجس خيفة أو شكًا، فما دام صوتها هو القادم نحوي، فلن يكون إلا محملاً بجماله الأخاذ وندرته الفائقة. وكان هو كذلك.

قلت لها، بين حديثنا المتصل المتواصل، ها أنني أكاد أبكي. قالت معقول يا رجل، المسألة وكل المسألة، أنني حال وصولي رافقت أختي إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية، كنتَ معي كل لحظة لا سيما لحظة علمي بنجاح العملية وهي عملية ليست صغرى، ثم أنّ مشكلة حلت بنقالي عندما عدت إلى بغداد، وأسبوع كامل من بعد وأنا في جري

لإعادة العمل به، ولم ينجز إلّا هذه الساعة. وفكرتُ أول ما فكرت بكَ. قلت الحمد لله ها أن الحياة تعود اليّ، وهكذا ينجلي الليل عن نهار مشرق تام. دار الحديث بيننا فيما بعد عما تحقق لها إنجازه في دمشق على صعيد مجموعتها الفنية؛ إنني لم أصحبها لأسباب شخصية حالت دون إكمال تنفيذها، أما ما يتعلق بأخي، فهو مستقر الآن ويعيش وسط عائلة قريبة منا وهذا هو الأهم، فالسلامة أولاً. هكذا هو البعد؛ البعد أخرس يا عزيزي، لك أن تتصور عدد المرات التي حاولت الإتصال بك فلم أفلح. هكذا ازددتُ يقينًا بأننا كلما تقدمنا في عالم التقنيات، لازمتنا صعوبات علينا أن نفهم من خلالها أن هنالك عالمًا أكبر منها يقاومها لا ليدمرها، وإنما ليغريها على التقدم، وبذا يواصل العلم مسيرته في التحدي والإستجابة التي لا تنتهي، فليس حجم المخ البشري أكبر من حجم رأس دبوس، يكبر ويكبر كلما تكشفت له الأسرار التي كانت عصية عليه قبل يوم. إن هناك قوى هائلة وغامضة تحركنا نحوها لتزيد من مساعينا لمعرفتها، وإدراك بعض خفاياها التي تمنحنا من بعد قليلاً من نقاط النفاذ إليها، بذا تكون سعادتنا وربما سعادتها. الوديان كثيرة، أعمقها البعد حين لا يكون ثمة رسم ولا صوت ولا نور، كنت أستمع إليها وأصفو، يتسع صدري لمزيد من الهواء النقي.

قبل يوم من هذا وعلى مائدة شاي عصرية شاهدنا، زوجتي وأنا، فيلمًا تناول سيرة معلم موسيقى يقع في غرام امرأة يدرّس ولدها أوليات الموسيقى فيهيم بها. لم تكن المرأة هذه أجمل من زوجته ولا ألطف في

الحديث أو أكثر أناقة في التفكير. كانت القصة بمجرياتها محط تطامننا معها برغم شكوك الزوجة وآلامها، بل أن زوجتي كانت تتواطأ أحيانًا كثيرة مع الرجل أو حبه لأنه كان جارفًا وعظيمًا. كنت أقول ما الذي يحدث لو أنني اعترفت لزوجتي وبلا مواربة، بأن حبي الذي تشك فيه بهذا القدر العظيم، وانه هبط على رأسي كما هبط على رأس هذا الموسيقي، وما الذي سيحدث لرأس يهبط عليه حب بهذا الحجم غير الدوار؟

أعرف أن هذا سيكون مغامرة، بقدر ما أعرف أن حجم هذه المغامرة سيكون عظيمًا، وأن ثمنها سيكون باهظًا. ثم ما الذي سيكونه الموقف اللاحق من حب ما يزال قائمًا ورسائل مضت وأخرى تصدر وتتلاحق أو ما تزال كامنة في الصدور؟

أغلب الظن أن سعادة مائدة الشاي ستنقلب، وإن هذا لن يكون إلا مهادًا لانقلابات صغيرة أو كبيرة قادمة قد تقلب حياة كاملة. وبرغم كل ما كانت عليه سعادة زوجتي على هذا الفيلم، كنت أشك أنها كاملة، إذ ربما فكرتْ في لحظات خاطفة بأن المرأة المخدوعة قد تكونها هي، بالقدر الذي لا تكون فيه سعادتي منقوصة، حين أفكر بأن االرجل العاشق يمكن أن أكونه أنا.

ممتلىء بأغنية غامرة

صباح الأحد وعند السابعة راودتني فكرة أن أحييها تحية الصباح، على ظن بأن أعظم التحيات هي هذه، فجاءت الكلمات كالآتي:

"صباح الخير. الحمد لله على نعمته، على كرمه، عليكِ أنتِ، عليك وعلى صباحكِ النقي. لا

تردي فلقد صبحتني بتحية عذبة بإطلالة فجر هذا اليوم".

لم أرسل الرسالة. حاصرني العمل، اتجهت اليه بكليتي، تداهمني بين لحظة وأختها صورتها الفاتنة وصوتها الرائق، وكل ما يجعل يومي جميلاً طافحًا بالمسرة والبشر.

عصرًا هبطت الكرادة. قلبت أنظاري في ناسها ومحالها وأشيائها. عدت أحبها كما كنت من قبل. انعطفت نحو المقهى التي سبق أن

جلست فيها واطمأنت نفسي إلى ناسها وأصحابها. هناك جلست وطلبت استكانًا من الشاي مع قنينة ماء، كانت هي قرينة خيالي قريبة مني، حتى خلتني أمسك بيدها وأسير وإياها على الرصيف، سعيدين بكل ما يحف بنا أو يدور حولنا. هناك جعل يغشاني حزن خفيف يؤطره صمت تام، كنت أستعذب إيقاعه على نفسي، لما يمتلكه من هدوء جميل، كنت أجدني عبره مترفًا بوحدة متكاملة غير منقوصة، لا يتخللها فراغ ينفذ من خلاله شيء أو أحد سواها، كانت تلوح لي المرة بعد المرة على قرب تارة وعلى مبعدة أخرى، تمامًا كما رأيتها ذات مرة بين الواقع والحلم والخيال، تخترق صفوف الناس غير آبهة بوجودهم ولا حتى بانتظاري، أنا الذي كنت في المشهد نفسه أنتظرها، حتى فاجأتها هذا المرة بيدي تمسك بيدها، عندئذ استيقظ كل جسدها ووعيها، آه هذا أنتَ كنتُ أبحث عنكَ، وأنا كنتُ بانتظاركِ. كنتُ أشعر بذلك لكنه، الحلم، أخذني فعبرتُكَ، وأنا كذلك وإلا لما تركتكِ تعبرين رغبتي فيك. وكنا نمشي فوق حلمنا على أقدام حريرية لها إيقاع الموسيقى التي لا صوت لها إلا في نفسكَ أنتَ، وأنتَ تسترجع نغم الشلال ينهمر قربكَ، أو سقسقة العصافير أول الصباح على سدرتك.

"مساء الخير. أعتقد أنني تأخرت. كنت في المقهى أرتشف الشاي وحدي، وحدتي جميلة لكنها بك، بحلمي فيك أجمل. ما كان جميلاً جدًا أننا تمشينا معًا يدًا بيد، تقصين عليّ وأقص عليك ولا أدري لماذا كنت تشدين

على يـدي؛ أأعجبتـك الكـرادة إلى هـذا الحـد؟ ثـم حـين انعطفتُ لأشتري لك قنينة عطر من دكـان لبيـع العطـور غبتِ. استشعرتُ الغربة فلفنـي الـصمت. سرتُ وحيـدًا يلازمني حزن ما. عدت الى المؤسسة. هل يمكن مكالمتك ومتى؟"

دار بيننا حوار طويل تناول أمورًا شتى، منها وضع الفن في العـراق وحيرة الفنانين إزاء كثرة أعمالهم وكساد السوق، مغادرة بعض الفنـانين العراقيين إلى دمشق وعمان وتحولهم إلى فناني رصيف هنـاك، وانـصراف بعضهم إلى اللوحة الشعبية أو المحلية العراقية كالزوارق السومرية يشق بها الجنوبي المسطحات المائيـة، وأكـواخ القـصب والأهـوار وفـضاءاتها المحتشدة بالقصب والبردي والحيوانات ومختلف الطيـور، تحنـو عليهـا سماء زرقاء كأنها السماء الوحيدة في الكون ولـربما هـي كـذلك للفنـان، وغيرها من اللوحات التي تكـسب الـذوق البـسيط والـثمن الـرخيص وتضمن العيش في الكفاف، ثم عطفتُ الحديث عـلى الأمـور العاطفيـة التي أعدتُ فيها موقفي من علاقتي بها، وكانـت كريمـة الأذن، وجميلـة اللسان، ثمّ أنتِ في حاجة الى إقامة معرض لرسوماتك، ونـشر أخبـارك في الصحف والمجلات، فبهذا ينتشر الكاتـب والفنـان، وهـو حـق مـن حقوقه. أكدتْ على قولي، وأضافت أنها لم تعمـل لنفـسها الـشيء الـذي ينبغي أن يفعله الفنان لنفسه، واتفقنا على أن هذا يعدّ خـسارة يتحملهـا هو نفسه، أخيرًا ودعتها بمحبة فائقة. نمت ليلتـي، نمـت سـعيدًا ممتلئًـا بها، تمامًا مثلما يمتلئ الإنسان بفرح عظيم أو بأغنية غامرة.

أمنية

كثيرًا ما منيت نفسي بزيارتها في بيتها، لكن كيف يتسنى لي ذلك وأنا لا دليل لدي على عنوان يوصلني إليها، من يضمن لي كيف ستكون مفاجأتها، وهل سأنجو إن فعلت ذلك كما نجا صديقي، حينما اعترض طريقه ثلاثة مسلحين نجا منهم بإعجوبة إن لم تكن هي لفتة من الله؛ كان الوقت مساءَ والعتمة تملأ الأرض حينما مدّ أحدهم يده إلى جيبي وسحب هويتي، قرأ إسمي على ضوء مصباح صغير واقتادني بصمت بارد إلى عربة تربض في عطفة زقاق قريب. قبل أن يصل بي إلى هناك قلت له قول اليائس المطمئن الى سكّينة نحره، أنت ستذبحني على هويتي أو على إسمي ليس غير، فليس أمامك إلا هذا، فإن كنت على هذا حقًا فليكن، لكنني أسالك إن كنت تعرف عن رجالك أكثر مني، إن كنت تلقن الناس بفضائلهم أفضل مني، لم يلتفت إلى كلامي وسارع

خطواته بي نحو العطفة الصامتة. اقترب مني الثاني وطوى ذراعه على رقبتي بحركة مفاجئة أسقطتني على الأرض وأسالت دمي، هنا أسلمت نفسي له تمامًا وإن تخلفت خطواتي إذ وهنت ساقاي. كان الأمر صعبًا ولا أظن نفسًا في الأزمنة كلها، ارتضت قدرها فمضت سعيدة لمصيرها النهائي تحت آلة ذبح. كنت استدعي في لحظات برود جسدي وهمود أعصابي صورة السكين ودمي ونهايتي، وكان كل هذا تحصيلاً مقرفًا على إسمي وهويتي. لقد سكتّ وسكنتُ، ولا أظنني كنت سأحس حد السكين على أوردتي وشراييني، سواء كانت السكين ستأتي من أمام أو من خلاف كما حصل مثل هذا الذبح الشنيع في تاريخ الدم القديم. مفاجأة الثالث الذي يقبض حتى الآن على هويتي، أن تقدم على خطوات رفيقيه وقال بصوت غاضب أنْ كلا، وفك يديْ رفيقه عن عنقي وأردف، ليعد من حيث أتى. "عد من حيث أتيت ولا تلتفت إلى الوراء، لقد أنجاك الله، وكن صادقًا مع من ذكرت ولا تنكر فضائلهم" ثم أطلق من يده هويتي، أعطانيها وهو يكرر؛ "إذهب ولا تعد أبدًا". الآن أقول كم من مثلي هنا وهناك لم ينجُ كما نجوت، واقتيد إلى السكين كما يقتاد الخروف.. قلت يا إلهي وتركت قصة صديقي ونجاته الغرائبية، وعدت من حيث أتيت فما عاد ثمة متسع لكثير من الناس سوى الأماني وحدها.

الأمر سيّان

صباحًا أخذتني الرغبة المستديمة للتجوال في بعض مناطق بغداد القديمة، أفطر هناك وأستعيد الصور النظيفة والبريئة التي كانت عليها أجواء بغداد يوم كنت شابًا أصافح وجوه الناس، كل الناس، بتحية صامتة، فيها الكثير من المحبة العفوية والعذوبة الخالصة. ذلك الصباح، سموتُ على همس داخلي طروب، ينبع من دواخل لا تعرف غير الحب وسيلة للإتصال بالآخر الذي هو صورتك، إنما صورتك الأجمل التي تعود اليك كل مرة لتجمل حياتك، لا لتلغيها كما غدا يحصل في هذه اللحظة من الحياة أو تلك. كنت أشعر أنّ في حبوري الصباحي هذا، نوعًا من التحدي الذي تمد قوته براءتي التي لازمتني منذ بواكير حياتي، وكنت أراها أو أعدّها شفيعي إلى ما هو نظيف وممتع وجميل. على هذا الوقع أرسلت:

"صباح المسرة. صباح الورد. صباح دجلة قبل عشرين أو ثلاثين. صباح الكرادة والأعظمية والمنصور، شارع الرشيد وشارع غازي ذلك الزمان، الآن أسألك هل تقدّرين نسبة حضورك معي في المكان؟ تمامًا كنسبة حضورك في قلبي"

أرسلت الرسالة ولم أتوقع ردًا. ذلك أنني أخبرتها الليلة الماضية أنني قد ارسل لها رسالة غير مشروطة برد. فقالت: أفكر، وتقصد بذلك أن الرد سيكون محكومًا بالظرف وبطبيعة الرسالة، ولم أعلق كبير أمل على ذلك. لكنني مساء كررت:

«.....»

وحال شعرت أن زوجتي قدمت تزورني في مكان عملي، مسحتُ. تزورني زوجتي مساءً أحيانًا إذ لا تكتفي بالمهاتفة أولاً، ولرغبتها في أن تقدم لي طعامًا بيتيًا أو فاكهة مبردة ثانيًا، أو للإطمئنان على وجودي في المؤسسة ثالثًا ! وربما هذا هو الغالب على غايات زياراتها.

على أنني إن كنت أعفيتها في حديث البارحة، عن الرد على ما قد أرسله لها، فلقد قلقتُ على صمتها وأخذت بي الظنون، فمن حديثنا البارحة عرفت أنها في بيتها، وهي هناك وحيدة، والإنسان الوحيد "مخطور" في أفضل الظروف، فكيف بظروف بغداد وبعض نواحيها الآن؟ لقد زرع الأمريكان ومن ورائهم المليشيات المسلحة، رعبًا في نفوس الناس الآمنين لم يعرفوه إلا في تاريخ بغداد القديم قبل قرون، حينما كانت تتنازعها الفتن الطائفية ويسودها الشقاة والعتاة وقطاع

الطريق، ويمسي الليل كابوسًا على الضعفاء من الفقراء والأغنياء؛ الأبرياء منهم والمذنبين بلا ذنب على السواء!

قالت من ضمن ما قالت، أنها لم تنم ليلتها حتى الثالثة فجرًا لانقطاع التيار الكهربائي وشدة الحر، ثم أجبرتْ نفسها على النوم بعد أن فتحت الأبواب والشبابيك. يا إلهي، الرجل نفسه لا يفعل ذلك.

أعرف إنها امرأة قوية متماسكة، لكن الأخطار التي تحدق بالوطن جسيمة وعاتية جدًا، ولا تفرق بين مذنب وبريء ورجل وامرأة، بل ما أكثر من ذهب ضحية خطأ أو توهم أو عدوان مقصود، والجميع أبرياء؟ وإلاّ ما ذنب جارتي التي ذهبت ضحية انفجار عبوة ناسفة، وضعت قبالة بيتي إلّا قليلاً، لتقتل هذه المرأة المسكينة التي خرجت عصرًا، تكنس المساحة أمام بيتها فاخترقت شظية منها خاصرتها، ومزقت أفخاذ وبطون من كانوا تلك اللحظة في مدى إصابتها، وحطمت الباب الحديدي لبيتي، وخلخلت متانة الباب الخشب الثقيل لصالة الإستقبال، ثم ليُقتل في اليوم نفسه، وعلى نَفَس طائفي مقيت، مدرس شاب ثم شاب آخر كلاهما من أم عراقية وأب عراقي، وكلاهما يصلي ويقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا إن جرى الأمر على هذا النحو، وإلا فلا هوية الأحوال المدنية تحدد ذلك ولا الشهادة الجنسية، ولا الصورة الشخصية بل ولا الإسم كذلك، وكم من علي أو عمر تجولا قبل هذا في ربوع السهل والجبل بلا حدود أو قيود. لقد ساد الحزن زقاقنا ثلاثة أضعاف، مرة على المرأة الكادحة العاملة في مدرسة بصفة منظفة، ومرة على المدرس الشاب الذي اخترقت ظهره رصاصات

كفأته على وجهه، فخلف زوجة شابة وطفلاً دون سن المدرسة، ثم باع أبوه المؤرخ بيته ورحل الى منطقة أخرى، ومرة على الشاب النداف الذي ظل دمه ملتصقًا بعتبة الشارع الذي يطل دكانه عليه وقد أُغلق من بعد. لم يسأل أحد لماذا قتل هذا أو ذاك مع سبق الإصرار، غير أن أمّ الأول حين طَلَقت به صاحت يا الله يا محمد، بينما صاحت أمّ الثاني يا أله يا محمد يا علي، فتمّ ختم الإثنين كلّ بطائفة صارت وبالاً عليه ! ترى كم ألفًا من هذا وكم ألفًا من ذاك راح ضحية هذا الجهل الأسود، مئات الالوف؟ إنما ما أبشع الصور التي ماتوا بها!

وإذا كانت كل مأساة تحمل في أحشائها ملهاة ما أو جزءًا من ملهاة، فذلك ما حصل لصفاء حين بترت نصف أذنه عبوّة الزقاق. بعد يومين من ذلك التاريخ كان صفاء يزمع التقدم من خطبة حبيبته، وحتى يرتق أذنه عند جرّاح ليظهر أمام خطيبته وأهلها بالمظهر اللائق، الذي كان عليه من قبل، قرر أن يؤجل موعد الخطبة شهرين مقبلين أو حتى شهرين آخرين. كان الحزن سائدًا و"الطرفة" سوداء، سوداء تمامًا.

غادرتني زوجتي على يقين بأنني في مقر عملي، وأن على طاولتي تل من الأوراق وهو ما يدعو إلى راحة البال. في الوقت نفسه وأنا أستدعي رسالتي التي مضت بسرعة الغزال، لأستذكر ماذا كتبت بها وهل ثمة من أهمية لأتذكرها أو أكتب غيرها آثرت الصمت، فمثلما يأخذك الحزن إذ تنهب رسالتك الريح، يأخذك إذ ينهبها الخوف، الأمر سيّان، كلاهما لا تود أن يكون حصل، هذا في أغلب الاحيان.

– أليس من حظنا وحظ ولدينا يوسف ومريم أنهما الآن بعيدان؟

– ولكنْ كلٌّ في مكان، مالمو وستوكهولم، ما أبعد المسافة بينهما، لولا أن مريم تزوجت هناك.

– ليس هذا ما يجب أن يقال، سلامتهما أول القول.

– هذا صحيح، ولكن البعد يبقى بعدًا. إنه القلب، هذا الذي بدأ يخفق على هبة ريح.

– تعالي كرري النظر من النافذة ألا ترين؟

– نعم. الناس في بهجة المساء، السماء صحو، والطقس معتدل، والريح رخاء.

من فتحة النافذة أظهرت زوجتي وجهها، كانت الريح الوانية وهي تلاطف شعرها تلامس قلبي بصورتها أول عهدي بحبها، كانت أشبه بطفلة شقية تعابث مشاعر الناس بجبروت جمالها. قلت، أغلقي الشباك وتعالي نواصل الزحف، في هذه الصحائف شيء من السحر الأبيض ؛ اللون الذي يحتوي على كل الأطياف، حينما عادت وجلست الى جانبي شعرت بحاجة جسدها إلى دفء جسدي، أغلقتُ الشاشة هذه الليلة قبل الأوان، كانت زوجتي بصورتها القديمة في عينيّ الآن، مقرورةً تمامًا! لم تفرد جسدها بتمامه مثلما كانت تفعل ذلك سابقًا، مستبقة لذة الوصال في اشتياق هامس كاحتراق الحرير، بل انداحت بين أحضاني بكامل عريها صبية ملتحفة بجسد حبيبها العاري مثلها، معيدة لخيالي، في

طيف مختلط عابر وسريع، أمنيتي القديمة بـ فاتن يوم كنت أتمناها، أفض ثيابها قطعة تلو قطعة على مهل الحلم أو الخيال، في تأنٍ مستريح قادر على مقاومة أولى لفحات النار، ثم حين تلتهب الرغبة لحظة بعد أخرى ويصبح الأمر مقطوعًا لا رجعة فيه أقارب النار، استسلم لها بامتنان رفيع، ثم ما ألبث، حين تشتد، أن أغالي بكل عنفواني في التوغل فيها حتى أسمع لجسدين يتناوبان الافتتان، حفيفًا كحفيف ذرى الأشجار في الليل، كان الدفء ينبث متداخلاً ومتصاعدًا بين جسدينا، والرغبة النائمة أو المستنيمة تستيقظ أو تبزغ، وعلى ذلك كله كان كل شيء فينا ينمو ويتوهج أو حتى يلتهب، ولا مندوحة للجسد المترع بتمام كرمه، إلا أن ينفتح مشهرًا عن كمال قبوله، مشرقًا لذيذًا كانفتاح نهر على صبح نقي أو كانفتاح زهرة برية على فراشة نادرة. كانت حواسنا ملتهبة وجسدي بأعضائه كلها يلعب أتم ألعابه على جسدها المضاء بفتنة بياضه العميق، فتثار فينا شهقات كانت تند من فوقنا وتحتنا فلا نكاد نلمّ بها لتتسرب إلى خارج محيطنا الصغير. وفي كتمان شديد يعجب كل منا بطاقة الآخر على مثل هذاالعطاء الفريد، ويسعد إن تكرر في مناسبة قادمة، فعطاء خالص اللذة في مثل هذا العمر لا يعدو أن يكون لطفًا من ألطاف الله، وعلى الإنسان أن يستقبل ذلك كلما سنحت الفرصة السعيدة اليه. ثم كانت لي إغفاءة جميلة ومريحة كأنني، لخفتها على نفسي، أسبح في نهر أو على ظهر جواد كريم، حتى إذا استيقظتُ عقب ساعة وجدتها مستغرقة في نومها في استرخاء، شعرها منسرح إلى الخلف ووجهها وضاء، يشف ثغرها عن اكتفاء بسعادة مطلقة، قلت؛ كلاديس في عز نومها، وتركتها على

قبلة على جبينها، كانت حتى هذه اللحظة في أتمّ حيويتها؛ فتاة مكتملة الشباب؛ هي نفسها في الثامنة عشرة من عمرها؛ أو فاتن تلك اللحظة الفاتنة.

سفينة نوح

تحسنت حالة زوجتي بعد أن صار مؤكـدًا لهـا أن أحمـد لـن يقلقنـا بسهراته بعد، وأنه سيعود قبل التاسعة، هذا إن فكر بـسهرة مقبلـة، هنـا نكون أعددنا العشاء واجتمعت العائلة عليه، وعلى سهرة مـن سـهرات التلفاز، كذلك الأمر مع سهاد التي قلبها من قلب أمها بالتمام والكـمال، وعاد الجو العائلي إلى لطف ناعم كنت أتمنى ألّا يصاب بخشونة ما. مـن جانبي كانت ساعاتي العشر أو العشرون أو المئة تمرّ ثقيلة بطيئة، إنما عـلى أشد ما يكون عليه بطء الوقت، وما كنـت لأسـتطيع أن أظـل قابعًـا في داخلي وهو يمور. أترقب السادسة مساءً لأكتب لها. قبـل ذلـك، ومنـذ هذا الصباح، وردتني عدة رسـائل كنـت أهتـز عـلى صـوتها، ثـم ألـوم صاحبها أو أحنق عليه لأن الرسالة، رسالته، ليست منهـا. الـساعة الآن هي السادسة وأحسن الوقت هو هذا:

"مساء الخير. هل وصلت الكتب. أرجو لك السعادة والأمان".

تعمدت في رسالتي هذه أن أكون ملائـمًا للظـرف المجهـول الـذي يحيط بهـا. إنّ تجربتـي معهـا، مـا قلقـتُ عليهـا إلّا وكـان قلقـي صـائبًا وتقديري سليمًا، فالبلد زاخر بالمفاجآت، وعليّ أن أكـرس قلبـي وعقـلي لكـل الإحـتمالات، وألا أؤخـذ بالطـارىء والغريـب في هـذا الـزمن الصعب.

يلعب على ساحتي معها الفرح والحزن معًـا؛ الطفـل "أنـا" يفـرح لحظة ويحزن أخـرى، فـالأم حـين تكـون بعيـدة تنتـاب طفلهـا الهمـوم والظنون، أكنت أدعوها أمي البعيدة عني؟ دقائق طويلة مرت على عيني وفكري وهتفت رسالتها:

> " الشبكة رديئة. أعتذر منك. الوضع حـرج لتهجـير أختي الصغرى. نحن هنا في سـفينة نـوح. سأتـصل بـك عند عودتي إلى بيتي".

إذًا لقد صحت توقعاتي، فلقد لوثـت الـسياسة العواطـف النبيلـة، ودخل ضيق الأفق السياسي والطائفي حياة النـاس فأربكهـا، ودنـست المصالح الضيقة القلوب الهادئة، المتعالية عـلى أهوائهـا المقيتـة، فألهبتهـا بحرارتها الفاسدة." الوضع حرج لتهجير أختي" ما أبأسه مـن عنـوان، وما أشده على النفس، وما أغربه على حياتنا مذ وعينا وجودنا عـلى هـذه الأرض.

ولكن هل ضعفت المرأة ذي. هل شاب خطابَها جفافٌ ما. هل اكترثتْ لحزن أو استسلمتْ لمكروه ألمّ بها أو بعائلتها؟ ما يحصل يدخل في دائرة الوضع العام الحاكم فينا جميعًا، ولا قدرة لنا على مواجهته الآن في الأقل، حتى أصبح لفرط ما تكرر كالجرح الغائر، يصبح عابرًا حين يشح الدواء أو حين يعزّ الطبيب.

قبل أن ينتصف الليل طُرق الباب. من يفتح بابه لطارق في ليل؟ قلت لزوجتي؛ كلاديس إلزمي مكانك على السرير، أما أنا فلن أتحرك عن كتابي، لنصمّ آذاننا فلا اتصال للسلام في مثل هذا الوقت، ولا زيارة الّا إذا كانت ملحة وبعد اتصال مسبق. ثم قلت وهي صامتة ولكن مرتعشة الجسد؛ إن كثيرًا من أحداث نجحت على أيدي سرّاق أو جناة غير محترفين، لما يبثونه في نفوس خصومهم من إرباك، تنفتح لهم جراءه نافذة الدخول. البيت مقفل والسياج عال ولسنا مجبرين على شيء لم نعرف طبيعته الآن، ثم كم كثيرًا ما رحلت مع زمنها نوايا وغايات بعد أن تكون أهملت ولم يُردّ عليها؟

ما أثار شكوكنا في الطارق، طرقاته الخفيضة التي حاولت ألاّ تصل إلى فضاء أبعد من فضاء آذاننا. لم اكن أجهل أن فزعًا تملك قلب زوجتي برغم ما يحيطنا من أبواب مغلقة وجدران، مثلما لم أكن أجهل الفزع الذي يقلق قلب الطارق، إن كان لصًا أو قاتلاً برغم ما قد يكون تسلح به من سلاح. وسواء كان فضاؤنا مغلقًا وفضاؤه مفتوحًا، فالتوقعات المبهمة التي تراودنا ظلت مفتوحة على أكثر من باب، ولن يكون أمر مثل

هذا مبهجًا لأي طرف منا، فنحن في قلق والطارق في خيبة، وما هي إلّا لحظات حتى يقرر عودته من حيث أتى؛ إذ لا شيء يحصل مجانًا وبلا تكاليف، وكان هذا من أسلحتنا إلى صمودنا، حتى أحسسنا أنه ولّى. ليس من شك في أن ما تخلف في نفسينا لم يذهب أدراج الرياح، فلقد أمست تراودنا فكرة أنه سيعود لا حقًا، ما ظل القانون غائبًا بفعل غفوة مسؤولييه على أحلام المال المتاح للسرقة بالاطنان، ولكن ليس في هذه الليلة. هنالك أساليب أصبحت لا تحصى للترويع والإبتزاز والخطف والتهديد بإخلاء السكن والقتل. افكر أحيانًا أننا نسبح في بركة آسنة، لكن قربنا من دجلة العظيم ونحن نصافحه كل مساء يغسل نفوسنا وأجسادنا، فكما ابتلع الكتب والمحابر التي رميت فيه باجتياحات المغول، والجثث التي ألقيت فيه بعد أن رميت بالرصاص أو ذبحت بالسكاكين على شاطئيه بعد الإحتلال وإلى زمن غير معلوم، سيمضي ساخرًا مزودًا بمناعة لا تذوي، ناشرًا ماءه على الضفتين، مغذيًا الحقول المنتشرة على جانبيه، حتى يلتقي الفرات. كنا من هذا وغيره مزودين بمناعة غير قابلة للصدأ، مؤمنين في الآن نفسه بإن لكل حالة من هذا القبيل سلاحًا لا نعدمه.

إلى مدينتي الأم

انطلقت بي السيارة إلى مدينتي الأم الثامنة صباحًا. وفي سفر استغرق ساعات مضنية حتى الثالثة من بعد الظهر وصلت. قبل هذا والكرادة في أول تفتحها أفطرت، محملاً بواجب حضور فاتحة إبن أخت لى هناك.

الطريق مقفر أجرد لا خضرة يانعة على جانبيه، خال من شواهد المسافات والاشارات الدالة وعلامات المرور، من تلك التي نشاهدها على شوارع الدول الأخرى، هنا وهناك ومع امتداد مسافة من الطريق هياكل عربات وشاحنات محروقة تصدم النظر وتؤلم النفس، وتؤكد على اليد العابثة التي ترسم أو تحاول أن ترسم لبلدنا خارطة من دم. كنت أتأمل الساعات المهدورة دونما قراءة في كتاب، أو كتابة في دفتر، دونما عمل مثمر جاد، وأنوء في التفكير في ذلك، وبقَدَرية هذه العلاقات التي

لا فائدة منها ولاجدوى، وكنت هدرت، فضلاً عن ذلك، مبلغًا ليس قليلاً من المال، من أجل حضور فاتحة رجل قضى عمره مغيبًا بل غائبًا، بفعل إرادته عن الوعي بالواقع والتاريخ والناس، بمنادمة متصلة مع متعة الكأس وبلا فتور حتى مات.

على أي حال، رحم الله الرجل، فلقد أخذ ملذاته وعذاباته معه، وحقيقةً، كنت أحبه جدًا وكان قريبًا من نفسي لاعتبارات عدة، كان مؤدبًا غاية الأدب، ورياضيًا في عهد شبابه بارز الكفاءة والأداء، رشيق الحركة، لصوته بحة مميزة جميلة، ومنذ شبابه الذي عرفته فيه يوم كان في حدود العشرين وحتى وفاته في حدود الخمسين، وأنا لم أره برغم زياراتي التي تكررت لأكثر من مناسبة الى هناك. نعم. رحم الله الرجل فلقد غادر الحياة من غير أن يضرّ أحدًا مطلقًا، كما اعترف لي بذلك أخوته والآخرون. كان أشدنا حزنًا عليه أمه التي هي أكثرنا شبهًا بأمي، ليس بالشكل حسب، إنما بالعاطفة كذلك. كانت مواجهتها أصعب المواجهات على نفسي، إذ امتنع عليّ الدمع بإزاء دمعها الذي سال كالحرير صامتًا ونبيلاً.

تُركتْ أمك وحيدة إلا من زوجتك، فلكي ترتاح نفسها المحتضرة وتغمض أجفانها المواربة أن نُقل مجلس النساء إلى الغرفة المجاورة. هناك كفّ العويل، وأسلمت المرأة أجفانها للراحة بعد أن كانت تطالع بعينين متعبتين أطياف النساء المعولات، وشاع في فضاء الغرفة هواء نقي عبقت فيه رائحة كرائحة المسك. ازداد شحوبها حتى غدا لونها شمعيًا، يشع

بخضرته الفاتحة نورًا خافتًا أضفى على وجهها المتماسك الجميل صفة القداسة الملائكية. على حين غرة ومع مشقة عاتية كما لو أن فيها صراخًا مكتومًا، فتحت عينيها على سعتهما؛ تتأمل الوجه الذي قبالتها. حاولت أن تشيح عنه فلم تستطع فاستسلمت لرقدتها وأغمضت مرة أخرى عينيها. كان الموت قد انتزع من قلب زوجتك أي مشاعر محددة إزاء المرأة المحتضرة فكأنه هبط به إلى واد سحيق، فكانت ترقبها بروح فيها من الحيادية القدر الكبير، غير أن ما كان يثير لديها بعض الإحساس في مشاعر متناوبة، هذا التشكيل الرائع القوي الذي يذوي الآن ويفقد كل حريته أمامها. لقد طالما لفت انتباهها جمال وجهها وتناسق ملامحه، ثم هاهو يتألق في تكامل أسطوري مروع، ويشع نورًا ساطعًا يبث في دواخلها الرهبة والفزع، فتتمنى في لوعة طفولية أن تلقي بنفسها على جسدها، وأن تستمر على هيئتها هذه بين الموت والحياة، فتشرف عليها وتعنى بها كما تعنى الطفلة بلعبتها. لقد كرهتْ الموت؛ كرهته بوعي وبلا وعي حتى تراءى لها أنه يحدث أول مرة، وأنه سوف يأتي سريعًا ليأخذها هي الأخرى، فما عادت الحياة تعني لها سوى أنها أيام قصيرة زائلة يعقبها موت طويل خالد. طمحتْ إليها بنظرة جديدة كانت شبه حالمة طافت على وجهها، ولم تفلح في أن تزْورّ عنها، ورددت كلامًا صامتًا جاء على شفتيها أشبه برفرفة عاجزة، فهمتَ منه أنها تطمح إلى الإنفرد بك. وقفتَ أمامها في حين انزاحت زوجتك نحو قدميها المتورمتين. بأصابع مرهفة جعلتَ تلامس وجهها البارد حتى فمها

فارتعشت شفتاها تحتها حتى حسبتَ أنها تقبّلها. كنتَ في ذروة رغبتك لتقبّل عينيها، وترفع يديها الكريمتين لتشم عطرهما القديم، غير أنك سرعان ما استعدت رباطة جأشك تحت نظرات زوجتك، قلت؛ ذريني معها. كنتَ تشعر برغبتها بالبقاء معها حتى نهايتها وربما كانت هذه هي فرصتها معها، إن لم تكن أمنيتها، لكنها وهي تدرك أن هذه هي فرصتك الوحيدة معها وأنها أمنيتك كذلك، انسحبتْ إلى الخارج بهدوء ثقيل.

حدث صخب في الغرفة المجاورة توارى بعد لحظات حين أغلق الباب وأسدلت الستائر، فعاد الصمت مؤشرًا على حجم المواجهة مع الموت. سرحت عينيك على الجسد الهامد إلا من حشرجات خفيفة كان يهتز وئيدًا عليها، أوقفتَه لحظات على وجهها الذي كثيرًا ما عددته من أكرم الوجوه، تابعتَ تفاصيله الغنية وشموخ هيئته حتى لكأنه حتى هذه اللحظة لا يصارع الموت فقط وإنما يتحداه، بينا الجسد في استسلام تام، استسلام كريم مفعم بالطمأنينة والراحة والقبول، فما عادت الحياة الصاخبة تلك إلا أطياف حضور ناعس يرف على عينيها وشفتيها فحسب. سللتَ أصابعك إلى أصابعها تشابكها معها، كان البرد هذه المرة أشد من سواه والصدر بعد أن استيقظ فجأة وشهق للأعلى همد، والجفنان تأبّدا على نظرة واحدة. شاع الخبر وهناك في الغرفة المجاورة، ضجت الحياة مفعمة بعويل جارح إزاء ما التأم عليه قرار الموت. لقد ماتت ضرتكِ، غريمتكِ ثم لعبتك، خاطبتَها بنفسك وأنت تفكر بمجلس العزاء.

ما أحزنني فوق حزني أنني لم أنعم برؤية مدينتي القديمة، لم أستعد خطواتي الطفلة على شوارعها وأزقتها وأنهارها، لم أدخل سوقها المسقوف، لم أعبر على أقرب جسورها إلى نفسي لأنه أقربها إلى الماء لأشم عطره من عليه، لم أمر على مدرستي الإبتدائية ولم أترسم بيوت أصدقائي القدماء، لقد دخلتها غريبًا وخرجت منها كذلك، فكنت أسيفًا بل ما أشدّ ما كان عليه أسفي هذا!

الموت طائر أسود

بينما كنت على وشك إغلاق مدونات هذا اليوم السبت، وقد تجاوزت الساعة العاشرة والنصف ليلاً، داهم أذني خبر محزن آخر، حين تلفن لي أحد أصدقائي، ليخبرني بوفاة زميل يعمل معنا في المؤسسة. لبثت لحظات صامتًا مأسورًا بوقع الخبر الذي كان مفاجئًا لي، بل غير قابل للتصديق، فالزميل هذا سليم الجسد عمومًا، لم يشكُ يومًا علةً كبيرةً، ولم يُشر الى أي شك في سلامة قلبه، صادقني صداقة صافية وكنت في المقابل أوده وأخلص النية له، أتقبل أحاديثه الكثيرة عن ذاته برحابة صدر، وكان كما يبدو يطمع بذلك، ويطمع فيّ كذلك، ويسعد بقبولي كل ما يقوله، وكان لقائي به يمنح نفسي دفئًا خاصًا، لذا عددت رحيله غير المتوقع هذا مفارقة تدعو الى الضحك، وكان علي أن أضحك بدلاً من أن أصمت. لم أضحك حياء من الرجل، لكنني في داخلي

ضحكت كثيرًا، وضحك من هذا النوع، وعلى حدث مثل هذا، لابد أن يحمل في طياته أبلغ صور المرارة والهزء من الحياة وبها، فإن لم أكن قريبًا من إبن أختي على مدى ثلاثين عامًا، وأسفت على رحيله كائنًا ما كان مبلغ هذا الأسف، فها أنا أفقد زميلاً أثيرًا، كنت إلى جانبه قبل يوم أو يومين.

لم ينته الأمر عند هذا الحدث حين أردف، بأنّ المنفذ على الكومبيوتر فقد إبنه في انفجار الكرادة الأخير الذي حدث مساء الأربعاء، وهو انفجار مروع أهار على الأرض، عمارة كاملة وبعض الدور المجاورة، وحطم عددًا من المحال وقتل ما قتل من عشرات الناس. كان بحق عملاً بشعًا بما لايقبل الشك، والطفل هذا هو إبن العاشرة أو الحادية عشرة كما رأيته مرة واحدة، حينما صحبه أبوه الى المؤسسة قبل شهر تقريبًا.

نعم، الحياة تعطي وتأخذ، لكن لو قدر لها أن تعمل على سُنّتها لحصل كل شيء بنظام مقبول. هنا أتذكر قصة قصيرة للكاتب الروسي الأشهر ديستويفسكي، كان موضوعَها طفلٌ يتسكع في شوارع موسكو مشاركًا الناس ابتهاجهم في احتفالات أعياد رأس السنة الميلادية، فما يلبث البرد الروسي أن يأخذ به ويشتد عليه، حتى يرتكن زاوية يلتمس فيها الدفء، لكن البرد الشديد يلتفّ على جسده، كما تلتف على الفريسة أطراف الأخطبوط، وحين يصبح الصباح يجد الناس الطفل المثلوج مقرفصًا في زاويته فاقدًا الحياة. هنا يصيح ديستويفسكي صيحة ما تزال

تدوي في أُذني منذ أن قرأت هذه القصة قبل أكثر من خمسين عامًا: "هل ثمة معنى لأن يموت الأطفال"؟ ومع ذلك، فموتٌ مثل هذا قد يبدو مألوفًا، بقياس ما، ولكنه على طرفي نقيض مع موت "علي"، الذي قطّعه إلى أشلاء مبعثرة حديدُ الأشياء المتطايرة، جراء الإنفجار. نعم، هو الموت، لكننا نستطيع أن نقتنع بصورة ذاك ونرفض صورة هذا. ثم إنْ كان بعضه لائقًا بعض اللياقة لأنه من الله مثلاً، فإن بعضه الآخر لايناسب ولا يليق لأنه من البشر، شرّ البشر.

– إسمعي الدوي ينداح في كل مكان. أشرتُ إلى زوجتي:

– أسمع، وسيستمر ولا أظنه سيتوقف يومًا قريبًا، الخطط متينة وهي مبنية على دعائم وطيدة لا يقاومها مثل هذا البناء الجديد الهش.

– أكنت تعتقدين، قبلاً، أن مثل هذا سيحصل يومًا؟

– ليس في يقيني حدس واضح تمامًا، لكنني كنت أحسه في تفاصيل صغيرة. نحن في عالم مختلف أفشى المكنونات كلها ومع ذلك فإننا نعيشه. هل في نيتكَ مغادرة البيت إلى جهة ما؟

– كلا.

– إلى متى وأنت ترى ما ترى؟

–حتى يحترق. هم يعيشون وهمًا بمقاومة التاريخ، وهذا لن يحصل. لقد بنيتُ هذا البيت بيدي، وحقًا لن ابيعه ولن أخليه لأحد. أنت تعلمين كم قاومنا دعوات الهجرة والتهجير، ألم تكوني أصلب مني؟

لبثت صامتة، توازن بين كلامي وما كنت أتبينه لائحًا على شفتيها، عطفتْ رقبتها عني لأسمع نشيجًا خافتًا يصدر منها، التفتّ إليها أحتضنها وأقبلها، أشعر بحرارة جسدي تدب في أوصالها الباردة ليتعادل دفء جسدينا، حتى لنعود إلى رسائلنا في اتفاق صامت ومقنع ومقبول.

واكبنا القراءة فأجمل أوقات قراءة رسائل الحب هو المساء وحتى آخر الليل، حيث تخلو النفس من صغائرها وتتوهج استجاباتها السعيدة لشيء مثل هذا، وقد تضفي على الصورة ألوانًا من أطيافها هي ذاتها. عمّ الصمت عالمنا، إذ لا قبيح ولا ضار إلاّ وهو محدود العمر قصير المسافات. ومهما أخذ أو يأخذ منا نجدنا أو يجدنا مأخوذين بدوامة الحياة، متسارعين معها كما لو في طراد، هل كان هذا ما يزعجه؟ هل هو هذا الذي يفتنه بالغضب واللؤم والشر؟ أنظر الآن الى تلك العربة التي تجرها خيول تحمل عائلة في طريق غابي، ما تلبث أن تتوقف عند نقطة محددة وتهبط منها عائلة، في قرار مفاجيء يبدأ الرجل، رب العائلة، بقطع سيقان بضع أشجار نشرها ليصنع منها كوخًا. آخر عمل قام به أن دخل كوخه هذا مقيمًا فيه لحظات، يعاين بفخر منجزه متأملاً آخر لمساته عليه، ثم عاد وخرج متطلّعًا إلى الفضاء العظيم الممتد أمامه متنفسًا أنفاسًا عميقة منه، هل كنت محتبس النفس لتستدعي ذلك، مبررًا اتخاذ موقع الحرية حتى إن كان في غابة؟ في اللحظة اللاحقة ظهرت الزوجة والاولاد وانتشروا في الفضاء الفسيح، مبتهجين بوضعهم الجديد، ثم

حين رشقت السماء الأرض رشقة مباغتة، دخل الجميع كوخهم من جديد؛ من هناك كان يُسمع ضحك رجل وامرأة وكركرة أطفال، ونار تضيء فتحة الكوخ. ربما كان الجميع يقول يا لفتنة السلام، ويا لعبقرية مثل هذا المكان!

جاء الليل هذه المرة مبرءًا من أخبار الإنفجارات والإغتيالات، والكر والفر بين القوات الأمريكية والمقاتلين العراقيين في الغرب العراقي، ومن دخل معهم من قوى معارضة للإحتلال ونظام الحكم الجديد معًا. وتحسبًا صار مطلوبًا أغلقنا أبواب البيت جيدًا، استشعرنا الأمان المحدود عينه الذي تستشعره العائلة العراقية في مثل حال كهذا، قلت وقد طابت نفسي للقاء عشاء لذيذ:

- ألا تعدّين العشاء، فأفضله ما كان مصحوبًا براحة النفس؟

أجابت في استجابة سريعة:

- ليس لك إلاّ هذا.

- ولن يكون إلا وآخره الشاي.

- إذًا دعنا نقرأ قليلاً قبل ذلك، أو لتقرأ أنت حتى أعدّه وأعود، ولا ضير عليّ إن أعدتُ قراءة ما فاتني بمفردي.

- ليكن، فللفأر قدرة التحكم في التقديم أو التأخير.

- لا شك في هذا ويا له من مثال صغير، له هذا العقل الكبير.

وعدي

أقرأ الآن في كتاب عنوانه "في الرواية العربية المعاصرة" لفاروق عبدالقادر. ناقد قرأت له قليلاً من قبل وهو من اليسار المصري. الكتاب من إصدارات "كتاب الهلال" في طبعة جيب. يتصدى بالنقد لأعمال نجيب محفوظ، جمال الغيطاني، مؤنس الرزاز، سحر خليفة، وحجاج أدول، وهذا الأخير روائي نوبي تناول في معظم أعماله، حياة الناس في النوبة بمصر، وهو كاتب غزير الإنتاج كما بينت صفحات الكتاب، وله واحدة من روايات كثيرة تدعى "معتوق الخير" بألف ومائتي صفحة. ولا علم لي إن كان أحد من أصدقائي المقربين قرأ له أو طرح إسمه في محفل خاص أو عام، أو إن كان ناقد من نقادنا بشر بإسمه أو عرض لعمل من أعماله. لا بأس فلأعمالنا مع النقد والنقاد حظوظ كحظوظ النساء؛ فكم من فاتنة كان حظها رجلاً دميمًا، وكم من دميمة كان حظها

أجمل الأزواج! كما يتصدى سريعًا لأعمال أخرى من بينها عمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني. كنت اخذت طريقي إلى ما يطلق عليه الآن "الكوفي شوب" وبصحبتي هذا الكتاب وهو مما تسهل قراءته على عادتي كلما ذهبت وحيدًا إلى مقهى. أفسر حبي المقهى بأنه نابع من نوع أصدقائي منذ نشأتي الناضجة، ولربما كان الكتاب المرتفق التعويض المكافيء عن غيابهم، فإن ليس معي صديق فمعي كتاب. هناك أشرب شايًا لذيذًا على عكس ما يحصل في مقاه من هذا النوع.

الكتاب لا يخلو من فائدة مهما كان حجمها، ولا إظنني خرجت منه صفر اليدين، فقد عرفني هنا على كاتب غزير، كرس فنه على أهله وجماعته وقد تكون له أسبقية في نوبته على نجيب محفوظ! ولا بأس إذا كانت القراءة في المقهى تزجية لفراغ أو بديلاً عن تقليب النظر في وجوه الآخرين، وإن كنت أرى في هذا الأخير قراءة أولى، فهي دليلنا الذي لا محيد عنه إلى كتاباتنا وكتبنا. هناك يمكنك الإستماع بدرجة منخفضة إلى أغاني عراقية من قبيل أغاني عفيفة اسكندر التي أحبها، سليمة مراد، مائدة نزهت، ومن قبيل أغاني يحيى حمدي، رضاعلي، وهي الأغاني التي استطعت أن أحصرها أثناء عدد قليل من جلسات لي هناك، وهي،كذلك، الأغاني التي يطيب لي أن أسمعها لمطربين عراقيين على العموم، فضلاً عن غيرهم ممن جاء بعدهم ولا سيما في السبعينيات. ليس من شك في أن ما استمعت اليه من أغان لعفيفة، هنا نقلني الى الحفلة التي حضرتها لها ولسليمة باشا، وأحلام وهبي قبل أكثر من أربعين عامًا. وبمقدار ما بثت الأغاني من طلاقة في نفسي المخمورة

آنذاك، خرجت بحصيلة أنك وأنت تواجه المغني وجهًا لوجه، غير أن تسمعه في مذياع، انطبق هذا على أحلام وهبي التي كانت تقدم كل شيء حتى ترضيك، بدءًا من نظرتها الواهة ورقص جسدها الجميل ومكابدتها بين عملاقتين في الغناء العراقي. ولربما منذ ذلك الوقت جعلت لا أغير مؤشر الراديو وأنا أعثر على أغنية لأحلام ذات الثوب الطاووسي الذي ظهرت به في الحفلة تلك. برغم ما استمعت إليه وأحدثته القراءة في نفسي من امتلاء، عدت الى المؤسسة هذه المرة عكر الفؤاد. لم أرسل لها، كما لم ترسل لي. إن الرسائل بيننا تلهب نفسي ليس بحبها فقط وانما بالحياة، أستشعر الكون يتسع لي ويمتد وتسنح فرصه الجميلة وتكثر، بل وينبغي أن يحدثَ ذلك، فالحياة ليست الاّ هذا؛ الممكن والسهل والجميل. كنت أنتظر شيئًا يعيد إلى نفسي غناها الداخلي الذي قاوم كثيرًا من الأحزان والملمات التي واجهت طريقي، كان بعضها أسود بكل ما تحمله الكلمة من معنى، هل يمكن العودة الى تلك الذكريات؟ لم أشك لحظة في أن للحياة تقلبات كثيرة كما يحددها بهذه الصيغة ما نعيشه الآن بصورة أدق وأعمق وأشمل، وإن كنتُ عدتُ أو سأعود في لحظة ما الى ذلك عرضًا، فكل ما بميسوري قوله هنا؛ أنني واجهت صنوفًا عديدة من الموت قاومتها بعزم حديد، ثم إذا كنت تجاوزتُ كل ذلك بقلب سليم فبمعنى أن ذلك بعناية ما، وسواء كانت من الله أو مني أو من البشر فالأمر سواء، ربما لأنني كنت موعودًا بحب عظيم.

عادت زوجتي بطعام العشاء، كان مكونًا من حساء متبل بمطيبات ضاع نفحها في الفضاء، وقطع من صمون دافئ وجبن وزيتون أسود وسلاطة غنية بخليط الطماطم والخس وعصير الليمون، أما الشاي فينتظرني على النار على أحر من النار، فهو يعرف لهفتي إليه بعد كل طعام. برغم الجوع الذي فاجأني هذا المساء فقد أيقظ مشاعري هذا اللون من الطعام إلى حديث نبي المسلمين ؛ "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع" وما يزخر به من قيم تربوية وصحية شديدة الغنى والثراء، وإلى ما كان عليه طعام المسيح وتلامذته قبل ذلك بستة قرون، وكذلك إلى ما كانت عليه جماعات من تلك الأزمنة أو قبلها، من جوع وحرمان وشظف في العيش، ليرتكن الرصيف منهم أفراد إنتظارًا غير قصير للموت. لم تكن هذه المرة الأولى التي فكرت فيها هذا التفكير، بل كثيرًا ما لامست قلبي صور تقشف الزهاد والصوفيين واخرى من هذا القبيل قريبة وبعيدة وآلمته. كنا نأكل طعامنا بتؤدة وزهد، وكأننا تعارفنا على أن يكون أكلنا تحت فضاء تلك الشواهد العظيمة، كان يشاركنا هذا العشاء يوسف ومريم وهما في صقعيهما البعيدين؛ ربما أعدت أمهما ذلك لأنهما سيكونان معنا! أماه؛ ما ألذ طعامك، إعجاب سرمدي تصاعد مع عمريهما إفطارًا وغداءً وعشاءً حتى غابا في لجة الصقيع والأكل السريع. بين لحظة وأخرى طفقت زوجتي تحرك المؤشر، تتابع ما لم تقرأ، تتفتح أسارير وجهها او تنقبض في ما يشبه الغيبوبة الحلمية، حتى اتفقنا على أن نؤجل القراءة معًا، حال ينشغل أحد منا

بشأن من شؤوننا الأخرى. كنا تلك اللحظات سعيدين ليس في ما نقرأ وحده، وإنما في ما كان يتاح لنا من خيال نطوّف فيه أرجاء شتى، حتى بتنا نستقبل رسائل مريم ويوسف بسعادة غنّاء. ففي هذا العالم المليء بالأخطاء، ليس عليك إلا أن تتسلح بالمحبة، إذ لم يعد ثمة متسع في القلب لشيءغيرها. كنا نقول أن العالم لا محالة يتغير نحو الشيء الأفضل، وأنه لا بد أن يكون بعد الهوة المظلمة رابية منيرة. تمامًا كما هو حال الأرض في كل مكان.

تفرد جميل

قلبي يكاد يصرخ؛ أن لا عذر في هذا الوجود، وعلى العالم أن يبتكر الوسيلة الناجعة لمعرفة الشخص قرينه الآخر، حتى لو سكنا القطبين المتباعدين. لا فاصل في الحب، لا مسافة بين المحبين. حتى هذه اللحظة التي تقترب من العاشرة ليلاً، لم يردني شيء من بلقيس أو عنها. ما كان يؤلمني أن الرسائل التي أرسلها بتّ ألغيها مباشرةً، أن تقع في يدي زوجتي. بعض الرسائل كان يعزّ عليّ مسحها من سجل هاتفي، سواء تلك التي أرسلها أم التي أتلقاها، كنت أريدها معي في غرفتي، في السيارة، في المقهى وحتى في البيت؛ أقرؤها شغفًا وأعيد قراءتها ولهًا فإن ألغيتها شعرت أنني فقدت شيئًا جسيمًا، صورةً من صور حضورها. عدت إلى العمل صباح هذا اليوم السبت، بعد استراحة شملت مساء الاربعاء ويومي الخميس والجمعة. كانت أيامًا شاقة بسبب انفطاع التيار

الكهربائي. الآن يحق لي أن أبوح بسعادتي، ففي ساعة قانطة، لهيبها يمزق الجلد جاءني نسيم حنانها وعذوبة أنفاسها:

"تحية الشوق. هل لي أن أعرف شيئًا من أخبار كنزي الثمين"؟

تلألأ إسمها القرمزي وبدأت معه الحياة. مأخوذًا بالمفاجأة السارة والمدهشة، أرسلتُ: "أشكرك، واعلمي أن الغياب يقوّلني ما لا أريد التفكير فيه. هل لي الإتصال على الهاتف الأرضي"؟

انصرمت ساعات نهاري اليوم في عمل دائب لا فواصل فيه، شدّهُ وصولي المتأخر لمحطة عملي، بسبب صعوبة المرور وغلق الكثير من ممرات الطريق، لأسباب أمنية واحترازية. والساعة تشير إلى السادسة مساءً طرحت جسدي على سريري في غرفتي، أخذتني غفوة عميقة إمتدت إلى أكثر من نصف ساعة، نهضت بعدها ووضعت رأسي تحت حنفية ماء الخزان وكان حارًا ملفوحًا بالشمس، ومع ذلك فقد أنعشني الهواء الذي ضرب رأسي بعض الإنعاش، توفر لي إثره إستقرار في الأنفاس.

والساعة تتجاوز العاشرة والنصف بدقائق معدودة جاءت الإشارة على استعدادها لمكالمة أوسع. "أنا الآن بانتظار إتصال منك".

أنا الآن وحيد في غرفتي التي أصبحت أثيرة على نفسي بدرجة ما، لما توفره لي عادة من وقت وفرص كافية، للقراءة والكتابة والتراسل بعد أن يغادر بعض العاملين معي المؤسسة، وأي حديث حرّ معها يمنحني

طاقة إضافيه للحياة أو العمل، ويعيدني إلى مسؤليتي الأولى كاتبًا على عاتقه مهمات نبيلة وجميلة معًا، بل أن طلاوته وطلاوتها معًا يعيداننى إلى طفل يسرد على مسامع أمه الرؤوم؛ أمه الجميلة التي يحبها، إنما التي يعشقها، كل ما يعنّ له وهي مصغية بشفافية لا أشف منها ولا تعترض عليه. قلت لها؛ أنا مدين لك بأشياء كثيرة؛ أنت تحفزينني على الحب يسود العالم كله بما فيها الطيور والحيوانات. مثلاً؟ مثلاً أفكر في كتابة قصة للاطفال عن حب عظيم يقع بين دجاجة وديك ينتميان لقريتين يفصل بينهما نهر. سأجعل من هذا الحب أسطورة يلتقي عليها عاشقان عظيمان، ولأجعل من زواجهما أمنية كل فتاة وفتى. سأنقل عالم الريف الجنوبي بأجوائه ومزاياه الخاصة والجميلة، إلى إبن المدينة، بغداد تحديدًا حيث صدور مجلات الأطفال من هنا، سأهيىء للدجاج قدرة خيالية لصنع زورق من قصب مضفور للعبور إلى القرية في الجانب الآخر لخطبة أجمل الدجاجات هناك، وجسر على النهر من المادة عينها لإقامة حفل الزفاف عليه. سيكون الإحتفال هنا مهرجانًا للفرح السعيد ومن ثم سيكون واسطة للتزاور والسلام بين دجاج القريتين، ماذا تقولين؟ سأترك تسمية القصة، الرواية لك وحبذا لو كانت الرسوم كذلك. غردت ضحكتها، إفعل ما يحلو لك أنا أحب أدبك وسأفكر فعلاً في كل ما يسعدك. شكرتها، أشكرك وأتمنى، مثلي كل مرة ومرة، تقبيلك.

سأنصرف الى العمل في فصل جديد من روايتي شبه الميتة، أو القراءة في رواية (ماريو فارغاس يوسا) "شيطنات الطفلة الخبيثة"، وفي

الحقيقة فلقد امتدت يدي الى الرواية فقرأت قليلاً فيها ثم توقفت. كدت أنعطف عنها فحجمها الكبير لا يغري، بيد أنها أخذت بي مرة أخرى، ثم بعد أن توغلت طويلاً فيها صار لزامًا علي أن أكملها، وهكذا توالت قراءتي فيها.

الرواية طويلة، وماريو هنا مهتم بالتفاصيل، تفاصيل كثيرة وأسماء لاتينية لا حصر لها، بحيث لا يستطيع قارئها متابعتها، حتى إن كانت أسماءً جميلة وذات موسيقى عالية. وبرغم كل ذلك تميزت قراءتي بانسجام تام مع أحداث الرواية.. لقد قرأت لهذا الكاتب الفذ أكثر من عمل روائي، وقبل ذلك بسنوات قرات مقالاً عن روايته "المدينة والكلاب" التي لم تصدر ترجمة عربية لها في أكثر تقدير. كان يوم ذاك منتميًا لقوى اليسار، وطابعها كان يشير إلى ذلك، غير أنّ ما أثارني منه بشكل حاد روايته القصيرة آنفة الذكر "في مديح زوجة الأب" التي جاءت بترجمتين متقاربتين جودة وإتقانًا.

بمضي ساعتين أو يزيد من قراءة ممتعة عدت الى مدوناتي أقرأ فيها. وهكذا في حال من التفرد الجميل أخذ النوم سبيله الى عيني والكون على مشارف الفجر.

ألقيت نظرة سريعة من النافذة إلى الشارع العام وهتفت بزوجتي، أن تعالي شاركيني النظر إلى هناك، وأشرت حيث تمركز جنود أمريكان. وضعت رأسها إلى جانب رأسي كما يفعل متحابان صغيران، وجعلت

تنظر معي. لقد امتلأت رقعة من الشارع بدبابات الجنود التي منعت حركة السير، وصوبت الأسلحة نحو الناس، وكان ثمة جنود هبطوا الرصيف يبتاعون من الحوانيت بعض الخضر والفاكهة والمعلبات، حتى غدا الصمت سائدًا على وجه المكان، إنما حتى السيارات في الشارع المرادف تراخت في سيرها ولم تطلق أبواقها. كانت حركة الشارع العام عائمة في السكون، سوى أن أطفالاً ظهروا حديثًا من مدارسهم، أربكوا الشارع بضفتيه بحركاتهم وصياحهم، ثم إذا انتبهوا لوجود الجنود دهشوا وخفّت حركتهم رويدًا رويدًا، بيد أنهم حينما وقع نظرهم بشكل خاص على جندي أسود غاص نصف وجهه خلف نظارة عريضة سوداء، غاصوا بالضحك متجاوزين الرعب الذي يبثه عادة سلاح أسود مصوب نحو الرؤوس. من هناك، من حيث أخذوا كفايتهم من ضحك لا تبدو مبرراته كافيه ليكون بهذا الصخب، خفتت أصواتهم وتسربوا في الأزقة والشوارع الفرعية حيث بيوت أهاليهم.

حتى غادرت الدبابات التي تجاوز عددها السبع أو الثماني، عادت الحياة فدبت في الشارع والناس، ما جعل بعض النسوة ممن لم يرَ أحد صورة لهن في المشهد ذاك، أن يظهرن يتبضعن برغم مرور ساعة أو يزيد على انتصاف النهار. سيتكرر هذا المشهد على هذا الشارع ورصيفيه حتى يأتي يوم قريب يطلق فيه شاب مجهول رصاصة على ظهر جندي من هؤلاء ويهرب.

الزحف

أمضيت وقتًا مناسبًا في قيلولة هادئة هانئة استيقظت إثرها مشبعًا بالراحة وغنى الجسد. عصرًا وقبيل المساء طرقت شارع الكرادة متطامنًا مع جموع الناس وسعيدًا بمعروضات المحال والمطاعم والمقاهي والنساء الجميلات، وكانت الساعات الأول من هذا اليوم ما تزال متصادية ومنفعلة مع نفسي، فهنالك في الشوارع بوادر زحف طقوسي نحو ضريح الامام الحسين في كربلاء بدأ منذ الأمس. وبالرغم من اعتزازي بتجربة الإمام الحسين التاريخية العالية، واستشعاري القيمة العظيمة لمأثرته الفدائية، ومبدأ الحق والشجاعة المطلقة فيها، وكذلك حجم التضحية التي تكبدها خلالها، واللون النفسي الذي يأخذني به الزحف الجماعي نحو مرقده الشريف، فلقد كنت أهفو الى صور أكثر عقلانية ونظافة، تكسب الزحف طهرانيته وفرادته وتوقه الى العالم غير الحسي

المباشر، لأنوار شخصية الحسين الخالدة. كانت هذه الشخصية الفذة تتصاعد في نفسي، كلما طمحتُ الى الشجاعة وقول الحق، وكانت المأثرة قد تجسدت في بواكير نفسي منذ عقود يوم كنت أتابع، في مدينتي الجنوبية النائية، الإحتفالات المتوهجة، بعيني صبي أو طفل يتماهى مع البطولة والشجاعة، ويرق بل ويحزن أشد الحزن على مصير الإنسان العظيم، لحظة يقهر أو يغلب على الصورة التي قهر فيها الجسد الشريف. كانت الدراما المتصاعدة في نفسي بفعل التشابيه، ومن ثم المواكب الليلية المتوهجة بأضواء المصابيح وهي تطوف الشوارع والطرقات، قد رسمت لعيني صورة المأساة بشكل عام، وأكاد أقول صورة المأساة المبهجة، لأنها حازت على هذا الاحتفال البشري العظيم، وربما من هنا كان جمال الخلود، هذا الخلود.

كاد الشارع يأخذني وأنا أشعر ألّا عقبة أمامي الآن، سوى ما يجرني إلى التفكير فيها والحنان إليها. أخيرًا عدت الى غرفتي لا ألوم نفسي على شيء، لقد صرفت عن جسدي طاقة مخبوءة، وعن خواطري بعض ما علق فيها من مشاغل عملي. أغلب ما أحسه في الشارع مهما كان همي؛ أنني أملك شيئًا وأنني مملوء به بدرجة ما. قد أجد ذلك في الوجوه أو الاحاديث، في الطابع الذي عليه الشارع بوجه عام، في صخب المقاهى وحركة السيارات، في الضحكة بين البائع والمشتري، والطرفة بين الصديق والصديق، في انتشار التلاميذ عند انصرافهم من مدارسهم وهم يعبرون الشارع بلا انتظام. إنما في حركة الحياة وهي تموج تحت

الشمس وفي الزمن الذي يدور. وكان حسبي من كل ذلك أنني في صلبه وعلى صلة به ولست غريبًا عليه.

عدت هانئًا ممتلئًا بسعادة وقتي وثراء ما ينضم عليه قلبي وخفة نفسي، فأنا بصدد الذهاب غدًا الى السفارة الايرانية، للحصول على تأشيرة دخول لي ولزوجتي، التي لا أعرف بأي أنف شمت رغبتي في زيارة إيران. لقد فكرتُ أولاً بالذهاب بمفردي والتمتع بخفة نفسي وجسدي، في التجوال والإطلاع على أكبر قدر مما يتيسر لي مشاهدته، من آثار وجبال، حدائق ونساء، مسافات وشوارع، مدن وأنهار. ولعل من اللافت المثير، أنني زرت بلدانًا مجاورة ليست قليلة ولم أفكر في زيارة إيران، التي كان يطلق على عاصمتها طهران باريس الشرق. هذا ما أدعوه بـ "تبويب المخ"، فإن يبوب مخُك سبيلَك إلى موضوع ما، يقطع عليك التعامل مع موضوع أو موضوعات أخر، حتى لو كانت أقرب إليك من ذاك. الآن وبعد هذا الزمن البعيد عن زمن الشباب تحرك المؤشر اللغز، نحو إيران وليته يفعل حسنًا فالبلد كبير وجميل كما يصفون، وله إسهاماته العريقة في الفن والأدب والشعر، شأنه شأن الأمم الكبرى التي وضعت بصمتها على ناصية التاريخ القديم.

منذ ذلك الوقت وأنا أتمنى أن أسمع صوتها، أو أسمع جرس رسالة منها، وحتى كتابة هذه الحروف الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق من ليل هذا اليوم الأربعاء، ولا شيء من هذا القبيل. في الوقت عينه كنت أنتظر موعدًا للقائها على آخر لمساتها، على لوحة غلاف

مجموعتي القصصية "النداء". إنّ إسهامها في رسم لوحة الغلاف سيكون غاية فنية ووجدانية معًا، وستكون من أجمل الدلالات الظاهرة على تواشج العلاقة السامية بين فنانين عاشقين.

توقفت الدبابة الأمريكية، هبط من طاقمها ثلاثة جنود أمريكان انتشروا أمام دكان بائع الفاكهة التي صفها في منظر يبهج النفس، توزع إثنان منهم على نطاق جغرافية الدكان التي لم تكن واسعة جدًا، وجعلا يشيران إلى البائع أنْ هذه وهذه من فاكهته الملونة، بينما وقف ثالثهم في مواجهة الشارع وسابلة الرصيف، طاوِيًا رشاشه بين ذراعيه متأهبًا لإطلاق النار. ويبدو أن لهفة الجندي ذاك إلى الفاكهة كانت شديدة ولا سيما وهو يسمع تضارب كفتي الميزان، وتتراءى لعينيه صور براقة لفاكهة عرف البائع كيف يغري بها جنودًا أمريكان، عرفوا فيه درجة اهتمامه بنظافة فاكهته ومظهرها المقبول، فجعلوا يقبلون عليه. التفت الى الخلف ليرى شيئًا من ذاك الذي يضرب أذنيه ويثير شهيته، حتى فعل ذلك سريعًا أو بطيئًا عاجلته الرصاصة المتربصة وأسقطته. بين ذعر الناس وهربهم وإطلاق الجنود الأمريكان الرصاص في الهواء، خلا الرصيف من المارة وتوقفت حركة السيارات في الشارع العام، واختفى القاتل، الذي قيل فيما بعد أنه كان صبيًا ليس غير، في الأزقة الملتوية. انفرطت الفاكهة التي كانت في الأكياس وسقطت على الرصيف وتدحرجت الى الشارع من هناك، وظلت على كفة ميزانها فاكهة أخرى توارى عنها الامريكان برفيقهم الصريع.

زيارة إيران

كانت زيارتي إيران، من امتع الزيارات التي قمت بها لدولة حتى هذا الوقت، وهي في متسعاتها تعيد لنفسي متسعات بلغاريا، وليس تركيا أو اليونان مما سبق أن رأيت مثلاً. فهي هادئة جدًا وارفة الظلال، وذات مساحات خضر كثيرة ومغرية، ويمكن أن تعيد للانسان الكثير من هدوء أعصابه وسلامة نفسه ونقاء دمه. وهي دولة كثيرةُ أماكنِ العبادة والمقدسات والمزارات، ما يمنح الإنسان فسحة لاسترداد نظرته إلى الحياة، التي لا يمكن أن تكون جميعها سعيًا إلى المادة، أو العمل أو اللذة أو الإبتذال. إنّ الحياة جمع بين أشياء قد تكون متناقضة، ولكن أشرفها ما يسعد الإنسان، ويحقق صفاء نفسه وخلوه من عقد الشر والدونية والإنحطاط، وهو ما تسعى إليه جميع النظريات القديمة والحديثة، التي تضع الإنسان في موضع الأساس من الحياة.

أعتقد أن الشعب الإيراني شعب جدير بالحياة، وإيران بلد يستحق أن يبقى رمزًا لشرق متطور يسحب البساط، من دول تحاول أن تستخف بتجربته الخاصة في بناء دولته الحديثة. مع هذا الإعتقاد أعترف، أنّ السياسة قد تلغي عليك أحلامك الرومانسية بدولة لا مصالح لها، سوى تحقيق أحلامك التي فشلت دول محيطك القريب في تحقيقها. إنّ هذا شيء مختلف. فأنت هنا تتحدث عن واقع ثابت قائم رسخته سنوات طوال من التراكم والرصّ والتشكيل، وهو صورة قد لا تتفق مع الصورة المتغيرة التي يمليها واقع ما، وتحركها مصالح ما. نعم. إن ما يجمل أن نتفق عليه هو المعالم الحضارية لشعب من الشعوب، وما تعكسه من صورة أو صور بعين الرائي أو المشاهد، كل ذلك ليس بعيدًا عن البناء الداخلي للانسان، والنظرة اليه كأعظم منجز من منجزات هذه الحضارة أو تلك. على العموم لقد أزاحت زيارة إيران، بما وفرته لنا سياحاتنا الكثيرة في المزارات والمتاحف والحدائق وقصور الملوك، ركامًا من الصدأ النفسي، الذي جعل الوطن فرضًا مجردًا من الطفولة الحالمة، والخيال والتوق والحب والإمتنان. إنّ أطرف ما رأيته هناك، ولا يخلو من الدلالة العميقة على روح العمل عند شعب، هو منظر الإيراني صباحًا وخلفه،على دراجته، أخته أو زوجته أو حبيبته الى العمل. لن أنسى رحلة القطار من طهران إلى مشهد التي استغرقت ساعات طويلة، بدأت في الثانية من بعد الظهر وانتهت في الخامسة فجرًا، وما تخللها من مشاهد جميلة كنا نتابعها أنا وزوجتي من خلال شباك مقصورتنا

ساعات العصر. كان الشهر شهر رمضان، وكان محطتنا أولاً الضريح العظيم، ضريح الإمام الرضا في ساعة فريدة، كانت مصادفةً هي ساعة السحور هناك، كانت أصوات الصلاة والأدعية والإبتهالات تثير الخشوع، وما تنفك الجموع تتوافد لإقامة فروض الصلاة والزيارة والتبرك، ومن بعد التسحر استقبالاً لصيام يوم جديد، كانت قدور الحساء الإيراني اللذيذ قائمة، يتزود منها الناس بالمجان، غمامات حسائها الحار، كلما رفعت الأغطية، تدّوم في رقع فضائية غير محدودة، بينما كان الضريح المهيب متألقًا بأنوار تكفي لإضاءة حي بأكمله، أو هكذا خيّل إلي قياسًا على نسبة النور في أحياء مدينة بغداد.

ليس عبثًا، كما ليس بالمجان أن يحظى رجل بحفاوة عظيمة، وقد مضى على وفاته أطنان من الأيام، إن لم يكن يحمل سر ديمومته في نفوس الناس، قلت لزوجتي؛ ربما كنت أقول وأنا شبه غائب في حضرة الجلال، إن اعظم ما يمكن أن تقدمه الجموع لفرد محبوب، هو هذا الذي نشاهده الآن، ومهما كانت النظرة الأخرى اليه، فإنه في الحقيقة يثير الفضول لمعرفة طبائع الناس.

سهمي الذي لم أخطىء فيه

كان كل شيء يمضي في الساحة هادئًا بتعبيرٍ قصصيّ. وكنت حتى الساعة العاشرة سعيدًا مفرغًا من أي هم حقيقي بمقدوره أن يعكر ساعاتي، كنت نمت القيلولة جيدًا، تناولت عشائي بعد الثامنة ليلاً، وشربت الشاي في المقهى. عدت الى غرفتي، شرعت أكتب وأشرب الشاي من ترمسي المملوء وأدخن.

استيقظت بعد العاشرة ليلاً من غفوة الكتابة على رنين هاتفي. كانت وراء ذلك بلقيس. سلّمتْ بأنفاس مترفة، ثم اختصرتْ حديثها على ضرورة اللقاء في المدرسة، لتجاوز بعض صعوبات تتعلق بوضع اللمسات الأخيرة، على تصميم غلاف مجموعتي. قلت، أشكرك شكرًا جمًا، ولكن هل تستحق هذه المجموعة هذا الجهد وهذا العناء؟

كل ما يصدر منك يستحق هذا، قالت ذلك بلسان ملاك. ولم أتركها تسترسل في كلامها إذ قاطعتها لكيلا يكون كلامها حكمًا قاطعًا،

على قصص ربما لم تقرأها كلها وقد يكون لها رأي آخر فيها لاحقًا. إذًا سأحضر الأحد القادم، وعددت ذلك فرصة مناسبة لرؤيتها.

قلت، ما رأيك أن نسافر معًا إلى طهران؟ ردت في سرعة خاطفة وكما لو أنها سئلت عن هذا قبلاً وجهزت الجواب: طبعًا لا، قلت لماذا؟ قالت: لا يجوز هذا، ثم أردفت فأنا مشغولة هذه الأيام ولديّ ارتباطات كثيرة.. الخ، ولكي لا أترك الحديث سائبًا، ومن أجل أن لا تضيع هوية سؤالي في تلافيف جوابها قلت: سنزورها زميلين أمينين. قالت، بسرعة: أفكر في هذا وخلطت جوابها هذا بالحديث عن انشغالاتها، قلت مرة ثانية، ستكون رفقتنا أمينة، غاية الأمانة لا تشوبها شائبة، ستجدينني فارسًا لم يدخل لوحاتك من قبل. ضحكت قليلاً، ولهوجت الموضوع بلغتها الطلية الشائقة، ثم انتهينا إلى ضرورة حضوري يوم الأحد وانتهى حديثنا بوداع جميل.

كنت في بعض مكالماتنا السابقة أطعّم رسمية أحاديثي بكلمة أحبكِ، أهواكِ، وفي تأجج عاطفي، يقترب من تأجج عاطفة الشاب المراهق في أعتى أدوار مراهقته. اليوم تخاطبت معها بروح لا حراك فيها، سوى ما طرحته عليها من سفر مشترك إلى أيران، لأنني كنت أريد أن أهديها شيئًا من هذا النوع، أو شيئًا سبق أن أهديته زوجتي من قبل.

أعتقد أنني بحاجة إلى حركية في الحوار وفاعلية في إدارة الأحاديث، وقدرة ممتازة على التحول من الجد إلى صيغة من صيغ الخفّة،

التي يطل الانسان عبرها على الزوايا الكامنة التي تنتظر الإثارة أو التنوير. إن السكونية الشخصية غالبًا ما تضيّع على المرء أجمل فرصه في الحياة، وإنْ كنت لمت نفسي على سؤالها بالسفر معًا الى ايران، وأخذت على نفسي مصارحتها بهذا الشكل، فإنني أعتقد أن الحب يبيح لنا أن نقول ما لا ترتضيه أحيانًا (بعض) عقولنا. ولربما كان هذا هو الموقف الصواب. وأعتقد مرة أخرى بأن عرضي هذا لن يمر على نفسها بسلام، بل قد يلقي بها في دوامة من التفكير بين الرفض والقبول. بين صورتي المثلى في عينيها، وبيني انا الذي قد يتجسد لها الآن في صورة شيطان. في هذا لا أشك في أنني صوبت سهمًا لم أُخطىء هدفي فيه.

إتفاق على لوحة الغلاف

منذ أيام وأنا أنتظر ما يحقق لي متعتين؛ لقائي بها والإتفاق على الصورة النهائية للغلاف. على أي حال مضت الساعات على آخر مكالمة لنا طويلة، كنت فيها "أَهَوُجُ" وأتقلب وأتمنى وأرسم خيالات قد لا تمت إلى المنطق بصلة. لا أشك في أن الطفل أو المراهق الذي كنت عليه يومًا، ما يزال ينبض ليس في قلبي وجسدي حسب بل في عقلي كذلك، لذلك كانت تراودني بين لحظة وأخرى مهاتفتها أو إرسال رسالة لها، من ذلك ما جاشت به نفسي يوم الجمعة مساء، حينما خلا البيت من وجود أفراد عائلتي وصفا الجو لي، كنت أود أن أقول لها إنني وحيد. هاتان الكلمتان لا غير. لا أشك في أنها هي الأخرى وحيدة. حين هممت بالكتابة فكرتُ في الوقت الذي قد يأتيني فيه جواب منها. لقد وطنت نفسي على أن لا أسبب ألمًا لزوجتي يؤلمني أنا الآخر أكثر منها،

لذلك ألغيت التفكير في الموضوع. سأحمل لها معي ساعتها التي مرّ على وجودها في خزانتي بضعة شهور، جلبتها لها من سفر سابق إلى الشمال. فوجئت بالساعة، التي أطلقت سراحها من محجرها، عاطلة. كانت ساعة جميلة، تظهر عليها المتانة والجودة، راسخة ثقيلة ما يوحي بأنها من طراز ممتاز، وإن لم تكن من علامة لونجين مثلاً. سأعرضها على مصلح للساعات فلربما كانت البطارية هي السبب المباشر في عطلها. لقد عملت المسكينة شهورًا في فراغ معتم وموحش، منذ أيام رحيلها من مصدرها حتى وصولها إلى شمال العراق، ثم بغداد.

في الرابعة فجرًا استيقظت، كنت دونت في ورقة مستقلة خطوطًا لفصل من روايتي، سأترك مراجعة ذلك لساعة قادمة من الصباح، أكون فيها استعدت كامل وعيي. رميت قلمي وأغلقت جهازي. نعم سأترك كل شيء للصباح، الصباح أجمل الأسماء التي تمر على سمعي. الصباح الموعد مع الحياة والوعد مع النور، تفتح الورد وانفتاح النفس، العقد مع العمل وطلب العلم، الأمل في الرزق الجديد ونافذة القلب على الحب السعيد.

الساعة الآن هي الثامنة. ذهبت إلى الحمام، حلقت وجهي وفرشت أسناني واغتسلت. أفطرت في المطعم، ثم صعدت في واحدة من السيارات التي تأخذ الركاب إلى الباب الشرقي. من هناك

استأجرت سيارة أجرة إلى المدرسة. وصلت متأخرًا قياسًا على الدوام الرسمي.

كان لحضوري صدى أجمل مما توقعت. لقد استقبلني المدير والمدرسات بحفاوة كريمة، ثم بعد أن جلست تناولنا أحاديث شتى وشربنا الشاي معطرًا بالهيل، وبحلاوة اللقاء الخاص. خلال تبادل الأحاديث، طلبت منها أن أطلع على اللوحة التي رسمتها بأناملها. كنت شاهدت بعض رسوماتها التي كانت تطلعني عليها أثناء ما كنا معًا في المدرسة، وكنا نتفق ونختلف على هذا الرسم أو ذاك، ولا سيما إذا كانت اللوحة هلامية التعبير، بحيث لا يقف المتلقي منهاعلى دلالة ما، سوى تشوش ذهني ولا شيء غير. كنت أدعوها الى بعض الوضوح الذي لا يقف أمام التداعيات المختلفة، التي يمكن أن تولدها لوحة تعتمد الإيهام إسلوبًا وليس الإبهام، مثلما يحصل في عالم الأدب، الرواية منه تحديدًا، كان جوابها دائمًا إن المتلقي هنا غير المتلقي هناك، ولما كنت أستشهد بلوحات لفنانين كبار خلدتهم لوحاتهم العظيمة مثل دافنشي في "الموناليزا"، سيزان في "والد الفنان"، موريو في "فتاة ومربيتها"، بيار بونار في "الرسالة"، كارافاجيو في "قارئة الأخبار الجميلة"، مانيه في "صورة أميل زولا"، رمبرانت في "السيدة حاملة الريشة" وغير ذلك من لوحات لهؤلاء أو لغيرهم، مثل لوحات فان كوخ، بيكاسو، فرانسوا بوشيه، كان جوابها الآخر أن الفن كلما توغل في الغموض كان مثارًا لإعمال العقل، وحافزًا على تربية الفهم، على عكس اللوحات الطبيعية التي تفصح عن نفسها من أول وهلة. في لوحتها التي بين أيدينا، تناثرت الألوان وتنافرت واتجهت ملامح غير محددة لما يتهيأ أنها لوجوه بشرية،

نحو أبعاد مختلفة، يفصل بينها اللون الأسود، يحيط بها من الأعلى اللون البرتقالي، ومن الجانبين اللون الأخضر المخربش بخطوط كأنها أسطر رقيم، ثمة ذراعان متعامدتان تقبض كف الأولى على كتلة بيضاء، بينما تسطحت كف الثانية إلّا من أصابع انعكفت نحو الداخل ومالت الى جهة اليمين. وبقدر ما كنت أرى الملامح الأولى للّوحة على أنها عتبة من عتبات النص أسوة بالعنوان في القصة والرواية، كما جرى الحديث عن ذلك من قبل، فلقد جاءت قناعتي أخيرًا بأنّ هذه اللوحة، هي أنسب ما يكون لتتصدر غلاف مجموعتي القصصية. وبينما كنت أفكر في أي السبيلين أسلك في عودتي؛ البيت أم المؤسسة، عادتني غشاوة لحظة التخاطر بيني وبين الله ليشير عليّ، بما أحسبه نهيًا عن، أو تأجيل ذهابي إلى البيت، إذ انفجرت سيارة مفخخة كانت مركونة إلى جانب مركز للشرطة ليس قريبًا منا، قتلت وجرحت من قتلت وجرحت، وهدمت ما هدمت من بيوت ودكاكين، ووصلت شظاياها إلى أسطح منازلنا ! قد يبدو موضوع التخاطر مع الله مبالغًا فيه على رجل يؤمن بالعلم، لكن التجارب العديدة لهذه الصورة المثالية تكررت معي بالعشرات، كنت ألمس نتائجها بالأصابع، فأقول ما يزال كل شيء لغزًا، وإياك أن تقطع بشيء ما يفتأ يحيّر أعظم العقول! كان الله يحس سعادتي وليجعلها دائمة أشار علي. كان وجهها هو الآخر يتابعني.

- كلي.. كلي.

قبيل القيلولة سمعت، ومن ثمّ رأيت عبر شرفتي، جاري حميد ملا

عبود يناجي "قطتنا" التي تأوي إلى بيوتنا جميعًا، ولا نعرف بيتًا مفردًا تاوي اليه.

القطة تتشمم الطعام الذي وضعه لها حميد في إناء لهذا الغرض، ترفع رأسها قبل أن تتناول منه قسطًا وتموء.

– كلي.. كلي.. وادعو لي عند ربك والأئمة المطهرين، أن يشفيني من أمراضي ويعيد لي صحة صدري ومفاصلي.

تلحق به زوجته صبرية وتقول؛ ولماذا لا تدعوها للدعاء لي معك، فالطعام الذي تأكله من صنع يدي.

– ولكن الذي يقدمه إليها هو أنا، ولو توقف الأمر عليك لدفنته في كيس أسود وأغلقته عليه.

حميد جار قديم فاجأه السكري وبدرجة عاليه منذ عشر سنين واخترم جسده، ثم تزايد عليه يوم اختفى إبنه المتبنى فلاح، فبكى الناس هذه المرة بكائين، الأول على الإبن المفقود الذي اكتمل عوده وأضحى مشروع نجدة واتكال والديه، والثاني على الرجل المهيض والمرأة شبه المجنونة. كنت على اطلاع على شبابه وفتوته، عرف السفر والخمرة والنساء ونسي الزواج، إلا بعد الخمسين وعندما ترك كل شيء من ماضيه، وصار يصلي ويصوم. خلّف له أبواه البيت بعد أن غادراه بتتابع مثير؛ في يومين متتالين لتمتد الفاتحة إلى أكثر من ثلاثة أيام، كان حميد فيها واقفًا ليل نهار. لم ينجب حميد من زوجته صبرية التي كان تزوجها

وعمرها فوق الأربعين. لذلك لجأا إلى تبني فلاح. كان يلذ لي أن أسمع منه كلما زرته أو زارني، بعض أساطيره لأصدقها من بعد حينما يقسم ب "الإمام" . عرفت المدن البعيدة والبحار والشواطىء الجميلة ونساءها المسترخيات، وذات مرة في ثلاث ليال متصلة لم أذق فيها طعم النوم عرفت ثلاث نساء، أذقتهن ما لم يذقنه من أعتى الرجال حتى سال الدم مني. وإذ يأتيني كلامه مع يمينه " والله يا سليم و" علي الفحل"" أجدني أبحث له عن منفذ للتصديق فقدرات الناس ليست سواء، وكما أن في المخ الواحد العقل والجنون، فكذلك في الجسد الواحد قدرة الرجل وقدرة الحصان. ويبدو ان القطة هذه الساعة جائعة جدًا ليتصل عندها الأكل والمواء؛ إسمعي إنها تدعو لي، وهي وحدها تعرف من يرأف بها.

– الله أرحم الراحمين. ترد زوجته.

– آمنت بالله. لكن هذه القطة هي أيضًا روح تفرح وتحزن وتشبع وتجوع، وتدعو كذلك لمن يعطف عليها.

يُضعف خاطرَ المرأة منظرُ القطة مكبة على طعامها، تعود إليها من المطبخ بقطعة لحم مدّثرة بطبقة من الشحم، تلقيها في نقطة مجاورة فتغريها على التحول إليها، تتشممها وترفع نظرها نحو المرأة هذه المرة وتموء كذلك، تقول المراة ها نحن متشاركان. يردّ مناكدًا:

– لا بأس ولكن منذ اليوم وكل دعاء سابق لي!

تلقي صبرية نظرة حالمة على حميد وتقول حتى في هذا؟ يضحك

حميد ويربت على كتفها، متى كنتُ حتى في هذا؟ ألم نكن شريكين في كل شيء؟ تتركه كمن لم يسمع، وتختفي دون أن ترد.

تقول كلاديس؛ منذ أن تزوجا في هذا البيت قبل عشرين عاما، وهما يتناقران. أقول؛ ولكن ألا ترين أن في هذه المناقرة المحمومة حميمية خالصة آلفت بينهما، وألغت حساسية العلاقة الملغومة عند بعض الأزواج؟ ومع هذا فلا أظنكِ سمعتِ يومًا صوتيهما يعلوان على سياج بيتهما ليذهب إلى بيوت الجيران. تقول كلاديس؛ عجوزان متقاربان في الصورة في حدود ما حتى لكأنهما أخوان. على فكرة، أقول، أترين أن بعض الأزواج يبدأون بالتشابه كلما امتد بهم العمر؟ أتفكرين معي في أننا قد نذهب بحميد عصرًا إلى مستشفى رافائيل، فهناك أعرف طبيبًا ممتازًا إسمه عوني صبيح أعرضه عليه؟ تتوارى القطة بعد أن تكون لا بد شبعت لتترك بعض طعامها، يتوارى حميد وصبرية، وندخل؛ كلاديس وأنا في غياب قيلولة هانئة، على موعد مع عصر اليوم الذي يمتد إلى صبيحة يوم آخر نهرع فيه بحميد إلى الطبيب لنعود به سليمًا إلا من السكري على موعد غداء في بيته الذي يكنيه ببيتنا.

عودتي بعقد

"مساء الخير. غدًا سأكون قريبًا منك، أشم عطرك، وأسلم على عينك كلما أشرقت. لك امنياتي". لم أعجب، لم يأخذني دهش ما، حينما عدت بنظام العقد إلى موقعي مديرًا في المدرسة نفسها، ويُنقل مديرها مدرسًا إلى مدرسة أخرى. قرار من هذا النوع وأبلغ منه يصدر يوميًا بالعشرات أو بالمئات، العجلة الملغومة بالمصالح والخلافات والتآمر الصغير والكبير، تدور وتدور بصخب وهدير تارة، وبصمت ودسيسة تارة أخرى مخلفة وراءها آلاف الأسئلة المقطوعة والمغلقة، ولا أدري إن كانت تلتفت الى الوراء لحظة لترى ما خلفت من رزايا، في الوقت ذاته كان فرحي بعودتي شديدًا وسعادتي كبيرة لأنني سأكون قريبًا منها.

"قد أرسل الرسالة وقد ألغي التفكير فيها تمامًا فكرت. قد أرسلها بكلمات أخر غيرها. لقد تناولت عشائي. وها هي النزلة الصدرية في

طريقها الصعب إلى مغادرتي، بعد أن دكت جسدي كله دكًا عنيفًا ومخيفًا. لقد توغلت اللعينة في صدري. وبرغم نظافته مثلما بيّن لي الطبيب غير مرة، فانّ ما راح يبدو لي جليًا أنه، قد لا يكون سليمًا جدًا لكي لا يتخلص سريعًا من نزلة تمكث شهرًا بينما تبارح صدور الآخرين في أقل من ثلاثة أو أربعة أيام، أم انه العمر؟ إنني أرغب في أن أعيش عمرًا أطول مما هو مقدر على رجل في مثل سني. أمتلك من الصحة ما يؤهلني للشعور السعيد بذاتي. وإن يكن ذلك كذلك فإنه لامتياز لذيذ. أكره المرض والقبح والعادات السيئة. أحب النظافة والجمال والصفات الحميدة. أحب المرأة الجميلة. اليوم شاهدت امرأة جميلة في الشارع تسير مع أخرى أعرفها معرفة ليست عميقة. سلمتُ عليهما واتجهت ببصري نحو الأخرى، فأكدتُ السلام عليها كما لو أنها هي التي أعرفها لأنها الأجمل، لقد ضحكت من نفسي لكنني، في الأخير، كنت أشعر بسعادة ما. إنه لشيء طبيعي أن يحب المرء شيئًا ليس لذاته دائمًا ولكن لما يمنحه من راحة وسلام، وهل كانت اللوحة الجميلة إلا سلامًا؟. أحيانًا أنظر للأصابع وهي تمسك بالقلم. لو لم تكن الأصابع جميلة لما كان الخط كذلك، أقول ثم أردف إن ذلك ليس بقاعدة. ولكنني كثيرًا ما أعجبت بمشاهد التمام الأصابع على القلم. إنه لمنظر مرهف الجمال وفي غاية الحساسية ويقترب من الخيال. ها إنني أكتب حروفًا جميلة بنسبة ما. أشعر أن التمام الأصابع على القلم بحاجة الى صورة فوتوغرافية، غفل عنها المصورون ليظهروا جمال هذا الشي الفريد. رؤية إحاطة الأصابع

بالقلم برشاقة، شيء يشبه رؤية رقصة جميلة أو منظر طبيعي أخاذ، أو أي شيء من هذا القبيل: الريشة الدقيقة تتحرك يسيل من تحت سنها سائل أزرق أو أحمر أو أخضر يطرز ورقًا أبيض.. بعد ساعة أو بعد يوم حين تسقط العين على ما خلفت تبتهج الروح حتى ليكاد صاحبها يطير. أو تحزن حتى ليكاد صاحبها يموت. كل ذلك من فرط ما خلفت أصابع طوقت القلم. طوقته برقة وبتشكيل يكاد يصل الى الكمال. مسافة القلم الأمامية مسافة مناسبة والأصابع؛ الإبهام والسبّابة والوسطى تلتم بحنو بالغ على نقطة من الثلث الأعلى منه، أما البنصر والخنصر فتتآزران معهن ولكن في انسجام شكلي يثير الحسد. كنت أراقب أناملها وهي تمسك بالقلم، تخطط أو تكتب وأرى انضمامهن على القلم بألفة فائقة وأسأل نفسي؛ وكيف هي أنامل الفنانين الكبار وهي تحيط بالفرشاة وترسم أعظم اللوحات؟ دونت الرسالة التالية: "مساء المسرات وتحقيق الأمنيات.غدًا سأمثل بين يديك، ألثم أصابعك، وأبايعك حبي" لم تصل الرسالة لأسباب تتعلق بشبكة الاتصالات. غدًا سأقابلها، ومضيت أحلم.

حضرت صلاة على روح أحد الذين سقطوا في تفجير ساحة الطيران. وهو طالب جامعي ترك دراسته ليعيل عائلة من أم وأب عاجزين، ليمسي عاملاً يقف في ما يدعونه " بالمسطر" ينتظر هناك، مع غيره من عشرات العمال أمثاله، من يستأجره إلى عمل ما حتى لو كان نقل الطابوق على ظهره، من على الأرض حتى طابق أو طابقين. اليوم

أحد وكنيسة سيدة النجاة مكتظة بالمحزونين من لابسي السواد، وبرغم ذلك كانت الوجوه، وجوه النساء والصبايا والأطفال تضخم الحزن، ليس لجمالها الساكن البريء حسب، بل لما تعتقده وأنت هناك بأنها لا تستحق الحزن قط، فماذا لو كان على أخ أو أب أو حبيب؟ شعور ينتابك وأنت لا تملك تدارك نفسك، أنت المكلوم بقريب مهما كانت قرابته منك، بل حتى أنت المكلوم ببعيد، فالتهام الناس في العزاء على دم بريء مسفوح في الشارع بلا ذنب، لا مدعاة للحزن أكثر منه، ولا إثارة للأسى أعظم منه. القس بملابسه المهيبة الزاهية ونحن معه نصلي على الروح الطاهرة التي صعدت إلى السماء وندعو لها بالغفران، يعطر القس بمبخرته فضاء الجثمان إذ يدور حوله ونعزي من بعد أهل الفقيد، ويُرفع الجثمان. أن تذهب إلى العمل وتعود إلى البيت بجيب مليء بالمال، غير أن تخرج منه لهذه الغاية وتعود اليه بجسد خال من الحياة، لم يدْر بخلدي أن أخبر يوسف بالخبر فقد ينزل عليه كالصاعقة، رامي صديق يوسف منذ دراستهما الإبتدائية في كلية بغداد، ولظروفه القاسية يترك الدراسة الجامعية ويتحول إلى عامل لكل انواع العمل، فجسده الفتي يصلح لكل شيء! كان يلعب مع يوسف حتى قبيل أن يرحل لعبة الشطرنج كل ليلة أحد. فضلنا أيضًا ألّا تسمع مريم، فلقد كانت تروق له زوجة لو كان ذا وظيفة، قبل أن يخطفها ديلون المهندس في شركة فولفو لصناعة السيارات في السويد، ولعل من العجيب أن ينتج جسدان هشان شاخا مبكرًا، هذا الفتى القوي الذي كان من حلمه ونجابته أن ما يكفل عيشًا

شريفًا لأبويه، هو رسالته المثلى في الحياة. خرجت من الكنيسة بشعور أن ما يحيط بنا شيء خارق للغاية لا يمكن تصديقه بل ولا يمكن احتماله، حتى أنني كررت ذلك على مسامع زوجتي التي تخلفتْ عن مرافقتي لزكام أصابها منذ ليلة الجمعة الماضية. ما لاحظته على وجه نزار من وجوم كان يتداركه وهو يتلو الصلاة، أنه وحده يعلم مع ثلة آخرين من أصدقاء رامي، أن الجثة التي تقام الصلوات من أجل روحها، كانت خليطًا من رامي وعمر وعلي، وعلى من يريد الاستسلام للراحة، بعض الراحة عليه أن يكتفي بذلك. نزار كان على يقين من أن الذين جمعوا جثة رامي لم يجمعوا إلا جثة له كانت موزعة بين أولئك الضحايا مثله. في الموت يتساوى الجميع، هكذا خرج هؤلاء الذين يعلمون الحقيقة، ومن يحصل على طرف خير ممن لا يحصل على شيء، فقد حصل الأول على دليل وسينقطع حزنه مع انقطاع أمله، أما الآخر فسيظل معذبًا تراوده فكرة أن يعود إليه ولده فلا يعود. لا حزن على موت كهذا إلا مطبق كسماء مكفهرة، كنت أقول وقد تساوى في ذلك؛ أولئك النفر القليل وأولاء الكثرة الكاثرة.

المضي في الحلم

حضرتْ مغمورة بسعادة طافحة وتم اللقاء. لقد باركتْ حضوري وعودتي إلى مكاني، إنما باركني الجميع وكأنهم كانوا في لهفة لعودتي، من جانبي كنت مسرورًا تمامًا. سلمت عليّ. صافحتني وجلست قبالتي. كانت مريضة وصائمة. أجبرت نفسها على الحضور إكرامًا لي، وكان ذلك كله يثلج قلبي، يا إلهي، لو كنت شابًا لحملتها بين ذراعيّ وطرت بها الى المجهول. قلتُ: إذًا ما حجم الوفاء الذي يعمر قلبكِ. إنني لأغبطكِ عليه.

بيني وبينها تدور أحاديث كثيرة، متنوعة صريحة وجريئة ولاسيما السياسية، العامة منها. وكل ما يدور بيني وبينها يعزز قناعتي بكبر حجمها. إمرأة فريدة تمامًا. ولا أظن أنها تشبه في العديد من مواصفاتها بقية النساء.

حاورتها عن لوحاتها وعن ضرورة إرسالها إلى دمشق واتفقنا على ذلك بصيغة ما، ارتأينا بعدئذ أن تزورني مرة أخرى بعد ساعة مثلاً للتطارح في هذا الأمر. ما يحصل أننا ونحن نتفق على شيء، نتحول عنه الى آخر لكثرة ما يراودنا من أفكار ومطارحات وأحاديث، ما وجدتها يومًا الاّ لذيذة ودافئة ومشتهاة، لذا ما أن عادت حتى وجدنا أنفسنا قد انشغلنا عن ذلك بأحاديث أخرى، كانت تتراءى لي فيها امرأة أعذب من الخيال، فكنت أؤجل ما اتفقنا عليه أو أغيب عنه، حتى قررنا مغادرة المدرسة عند الثانية عشرة والربع.

في اللحظة التي كنت فيها جاهزًا لذلك، حصل ما أجبرني على أن ألغي مغادرتي المدرسة معها. كان علي أن أنتظر انصراف الجميع مدرسات وطلابًا وأنظر في شكوى طالبة ملّت تحرش أحد زملائها في الصف. حصرنا الإجتاع بين ثلاثة أشخاص الطالب والمعاونة وأنا، ولكي لا ننشر الموضوع على مساحة أكبر من حجمه، وبناء على سلوك الطالب العام وتحصيله الممتاز، أنهيناه بتعهد خطي من التلميذ بعدم تكرار ذلك وإلا فالمسألة ترحل إلى القانون، وهناك فضائح وشرطة وأهل وفصل عن الدراسة وأشياء أخر إن لم تعرفها نعرفك إياها إن شئت. بين ارتجاف جسده ودموعه وتعهده بألا يكرر ذلك، كانت معاونتي تذرف الدموع معه. لا أدري إن كانت تتمنى أن تكون تلك الطالبة، فقد مضى على عمرها أربعون عامًا لم تتزوج فيها، ولا أظنها عرفت رعشة الحب خلالها، وعبر ذلك ولكفاءتها الإدارية الفائقة كنت

أرقُّ في تعاملي معها. وأنا في السيارة آخذًا طريقي إلى المؤسسة، سعيدًا بسعادة الصبي بإطلاق سراحه دونما فضيحة أو عقاب، وكأنما غنيمته اليوم أفضل من غنيمته أمس أرسلت:

"أشعر بالألم لأنني تخلفت عنك. الموضوع الذي وردني مستعجل وتطلّب الإجابة عليه فورًا، الوقت لم يسعفني للحاق بك، فمعذرة وغفرانك". ظللت حزينًا. ثم إذا أتتني رسالتها تأكد لي نوع الملائكية التي عليها امرأة مثلها:

"أدركت كم كانت الدنيا محبوبة وكم صارت الآن جميلة.. شكرًا لكل ما قدمته لي" توقفت على عبارة " ما قدمته لي"، ولما كنت أعرف أن النفس الكريمة تطفح سعادةً على ما يردها وإن كان صغيراَ، جعلت أؤمّن على كلامها هذا وأعده محسوبًا لها وليس لي. فأن تكون سعيدة بكلمة طيبة أو استقبال حار، أو بتعبير عن البهجة بها، فهذا هو شأن نفسها وليس شأن أي نفس، ولعل ما يثير السؤال أن تكون نفس كنفسها هي، الملتاعة بما يحيط بها، صامتة هذا الصمت العجيب، فهي على سبيل المثال لم تسأل عن الموضوع الذي خلفني عن الإنصراف معها بعد نهاية الدوام، ما أهميته، ما اضطراري إلى النظر فيه اليوم وليس غدًا، من شاركني فيه، هل هو داخلي أم خارجي، صغير أم كبير، مع الطلاب أم مع المدرسات، أسئلة كثيرة غير ذلك يمكن أن تحوم حول رأس أي أحد، فكيف هي الأقرب إلى خصوصياتي قبل عمومياتي؟ أنا الآخر تجاوزت الموضوع معها وجعلته محصورًا، فلا أظنه إلا صغيرًا نام في

مهده وانتهى الأمر، وسيكون كذلك للجميع. الصبي غادر مترعًا بخفة نفسه بعد وشك انهيارها، والطالبة ستبلغ بالعهد وتلزم الصمت، ولا أجد المعاونة ميالة إلى الإفصاح عن شيء ذي سمة رسمية وأخلاقية، وإن كانت كثيرة الكلام وصوتها حار.

من جانب آخر تلفنت لزوجتي؛ أسألها عن حالها ووضعها. قالت؛ أنا مريضة، أشعر بانتفاخ في رأسي وضوجان في روحي. خذي الأمور بهدوء وحسّني من نفسكِ ومزاجك، قلت. بكَ وليس بغيركَ، ردّت. إنتابني ألم على وضع زوجتي الذي كان دائمًا يطيح بسعادتي، ويعود بي إلى سنوات زواجنا الأولى، حيث كانت بهيئة ملاك لكنه لا يكتمل تمامًا إلّا بي. وهكذا كان عليّ أن أعود إلى البيت أواسيها بحضوري، وأغسل نفسها مما قد يكون لحق بها من ضيق إثر عودتي إلى مركز عملي في المدرسة. دخلت عليها كالحلم الجميل وكان استقبالها مشفوعًا بقبلات عميقة وأحضان دافئة. كان وجهها متألقًا بفرحِ طفل، رغم ما كانت تعصب رأسها به من عصبة ملونة تتدارك به الصداع. لم أر يومًا حضورًا سابقًا لي أشد احتفالاً به من حضور اليوم، كانت تتصاعد مخلفة آلامها في حفرة كنت أراها لا تريد العودة إليها، وكنت في الوقت نفسه حذرًا محتسبًا ولكن عاشقًا صريعًا ولا ذنب لي! فأنا في حلم، في حلم تمامًا وعليّ أن أمضي به، ولا أفيق منه.

بين بلقيس وأحلام

في لقاء منفرد جمع بين بلقيس وأحلام مدرسة اللغة الإنكليزية، نفثت أحلام ما كان يفور في صدرها حينما امتدحتني أمام بلقيس من دون أن يكون لذلك ممهدات علنية سابقة. كنتُ أرى ما ينوس خلف نظراتها من رغبة شرود في شيء قد لا أكون هو، لذلك لم أتوقف كثيرًا عنده، كما، وأنني في تيهي، لم أراجعه! الاستاذ سليم رجل محترم ثم أنه جميل وأديب، وهذه مزية ممتازة لا أظن أحدًا من زملائه جميعًا لم يحسده عليها، وهي تقصد زميلاتكَ أو النساء عمومًا. فهو إن كان رجلاً كهلاً فسيماء الشباب تبدو عليه؛ قامته منتصبة، وشعره لم يزل أشقر لم يخالطه شيب كثير، وعيناه دالتان. حقا لم يكن ذلك مفاجأة لي حين كانت تريدني أن أقول شيئًا بصددكَ، ولما كنت أعرف ما تريد قلت؛ نعم هو كذلك وأعتقد أنكِ تقدرين ذلك فيه، مثلما لا بدّ أنك تعتقدين، أن

الناس الآخرين يقدرون هذا أيضًا. قالت؛ آه. نعم والمدرسات الأخريات؟ أجبتُ؛ لا صلة لي بمشاعر المدرسات فهو زميل وذو خلق كريم، والجميع يحترمونه على ذلك، ولم أشأ أن أسألها عن مساحة معنى الأخريات. صمتتْ لحظات ومضت تلوّح خفيفًا بمجلة الأطفال "المزمار" وما فتئت أن أعلنت، على صمتي أنا الأخرى، أن لها قصة فيها، وما عنوانها، قلت، "الحكاية" قالت. عنوان جميل ودلالاته كثيرة وهو على هذا مغر لقراءة ما يقوله سواء للكبار أم للصغار، قلت وتناولت المجلة ريثما أجد فرصة لاحقة لقراءة قصتها فيها. كنا نقطع طريقنا إلى غرفتنا. قالت؛ شيء عظيم أن ينفّس الإنسان عن مشاعره ولو كانت حيادية، فأن نمنعها فأشبه بمن يمنع زفيره. آه نعم، أنت تقولين ذلك وأنا أوافقك، ولكن الأمر مرتهن بقدرة الصدر على الصبر. أوافقك ولكن كلما صبر الإنسان كان زفيره عظيمًا، وأن أمنع نفسي من الزفير يعني أن أموت، وحقًا لا أريد ذلك، حياتي عزيزة عليّ وأنا في شرخ شبابي وظرفي خاص ولا أطفال لدي، وفي أي مكان هناك لي متسع للزفير. رددتُ بمناكدة بريئة، لا ليس في أي مكان. كانت الأزهار تميل مع الريح نحونا وعطرها يملأ أنفاسنا، أضفتُ؛ الآن أطلقي صدرك للشهيق وللزفير، الصحة لك. وتقدمتُها. هي تريد أن أقول لها كلامًا آخر تعرف أنه موجود لدي، وإنني ضنينة به حدّ عذابها، وعلى هذا كدت أعترف رأفة بها، لكنني جعلت أشعر أن هذا قد يقتلها، فأن تعيش على حافة الوهم، خير من أن تسقط في هوّته، إنني أخشى على عقلها

فلقد تكشفت لي عن مجنونة بك يا سليم. ترى أتستطيع امـرأة بـلا أولاد أن تكتب قصة للأطفال؟ نعم. الأمومة كائنة في نفس المرأة منـذ نـشأتها الأولى، بل إنها الطبيعة الخالدة فيها منذ تكوّنها خليـةً ثـم امـرأة. كانـت بلقيس تفاجأني بحديثها هذا وأنا بـين متحـدث قلـيلاً أو مـصغ كثـيرًا، فرحًا أو سعيدًا ليس بانطباعات أحلام عني، بل لأن ذلـك كـان يـأتيني بلسان بلقيس. بين آن وآن كنت أتوقع فعل ما لم تجرؤ عليـه أحـلام مـن قبل؛ أن تدخل علينا. لم يحدث شيء من هذا، وكنت أرى قلـب بلقـيس على شاشة طبيب ينبض بنظام رفيع، يتدفق في شراينه وأوردته دم نقي. كانت الصورة ملونة، تـستلقي، عبرهـا،على وجهـي، نظراتهـا الباسـمة المتطامنة، لكي أقول أنت امرأة فائقة الجمال، بلقـيس.. أنـت مـن صـنع الأساطير.

بين الموت والحياة

ما يخطر في بالي دائمًا وأنا في الطريق إلى المدرسة الصورة الوجدانية التي سأجد بلقيس عليها. لم يدهشني يومًا شكلها الذي كنت أراها عليه، لتجددها باستمرار حتى لكأنها تنزع جلدها كل يوم لتكون فاتنة أكثر. كنت أحسب هذا ميزة عندها، ليس وحدها حتمًا ولكن عند قليل مثلها، من أولئك اللواتي لا يتوقف النظر على جمالهن المراوغ لحظة واحدة. لقد استسلمت لهذا وعددته مما يغذي طموحي.

ببدلةً سوداءَ مطرزةَ حافتي الصدر بخط فضي مائل الى سمرة، تداخلت مع الأسود بعقلانية وهدوء يتناسبان مع ما أترغّبه في ملابسي وملابس الناس عمومًا، دخلت عليّ. هنأت بمناسبة العيد وعادت الى غرفة المدرسات. كان يوم أربعاء وهو اليوم الذي أعقب عطلة العيد، لذا كثرت الزيارات والتهنئات، وكانت حميمية جميعًا وتطفح بالأمنيات الصادقة وكنت سعيدًا بها.

قرأت الكتب القادمة إلينا من مديرية التربية مما لم أكن مطلعًا عليه، واستقبلت عددًا من الضيوف، ثم انصرفت إلى التجوال في الصفوف. آلمني غياب عدد ليس قليلاً من الطالبات، ولا سيما الجميلات الخائفات على عفافهن الكريم. دعوت الطلاب عمومًا إلى الإجتماع في الساحة، وألقيت فيهم كلمة تحثهم على ضرورة الإلتزام بالدوام وبانتظام تام، وشدَدت على حضور الطالبات بشكل أخص، وعلى تبليغ الغائبين ذكورًا وإناثًا بضرورة الإلتحاق بالدرس، وهو ما يحتمه الشعور الوطني بل الواجب الوطني، لكي لا تخلو الصفوف من شاغليها، ولكي لا يسودها الفراغ العلمي والتربوي كذلك. مع عزيمتي وأنا ألقي كلمتي، كنت أرى الذهول يسود الوجوه حتى خشيت أن ينبري طالب مشاكس يعارض دعوتي بهذا العذر أو ذاك، كان ذلك ما شاهدته على عيون المدرسات أيضًا. عدت إلى غرفتي حتى لكأنني أريد الفرار منها.

الثانية عشرة ظهرًا وعشر دقائق وكنت حزينًا، حضرت وجلستْ حتى أستكمل مستلزمات مغادرة غرفتي. غادرنا معًا. في الشارع العام الذي ما أن أقف عليه، حتى يتراءى لي أن ثمة خلف فراغ فضائه المقابل، قناص بميسوره أن يلتقط من يشاء من الناس، ولعل ما كان يثير في دخيلتي هاجسًا من هذا النوع، سكون ذلك الفضاء وامتداده الخالي إلا من الأشجار والأحراش وعدد قليل من البيوت، وضياع الوجود القانوني الحميم، وانطلاق صوت رصاصة لم أحدد هدفها عبرت الفضاء مرة بين أذنيّ من قبل. كنت وحيدًا أنتظر سيارة أجرة، لم يكن في

الشارع غيري وسيارات مسرعة كأن هناك من يطاردها. لم أقلق كثيرًا ذلك أن الرصاصة لم تصبني، ولو أراد صاحبها أن يلحقها بأخرى لما منعه مانع ما، كان الموضوع بعيدًا عني أو هكذا جعل يصور لي خيالي، لكن المشهد ظل يعاودني كلما وقفت أو وقفنا، وفي الحقيقة ليس صعبًا على عابث اللحظة أن يردي شخصًا قتيلاً، ولما يمض غير يوم واحد على عطلة العيد. تناولنا أول سيارة أجرة لإيصالها الى البيت ثم لإيصالي إلى المؤسسة. جلسنا في الحوض الخلفي مثل كل مرة. تبادلنا أشياء كثيرة خلال الطريق الطويل إلى بيتها؛ منها إنني انتظرتكِ لتطلي. أجابت ؛ بما كنت أعرفه الجواب الوحيد والمهذب على سؤالي، إنه العيد، ومباشرة التبريكات والتهاني وأعرف أن غرفتكَ لن تخلو من المهنئين؛ المدرسات تحديدًا وبعض أولياء الطلاب من الرجال والنساء. ثم أنك اجتمعت بالطلاب وحسنًا فعلت. لقد تركتك حرًا أما تريد ذلك؟ لم أقل شيئًا مثلما لم تلمّح إلى أن أحلام كانت أكثر المهنئين مكوثًا في غرفتي، وأشدهم تهنئة بهذا اليوم!

حين رفضتْ الزواج مني، وكان رفضًا غاية في الإناقة والرقة واللطف، لم أعد أفكر، بعدُ، في شيء سوى الصورة المطلقة لحب قدّر، وبحروف كبيرة إلا أن يكون هكذا. لم يعد يعنيني ما يمكن أن أقبض منه سوى التلميح تارة والتلويح أخرى بالحب والاعتزاز. لم تأتني مرة واحدة، سواء على لسانها أو في رسائلها، كلمة أحبك، لأنها تعي بفعل عقلها الكبير أن هذه الكلمة، ولكي يبقى التوهج متقدًا، هي آخر ما

يفترض أن يبوح به حبيب لحبيب، وكان هذا بقدر ما يعزز قناعة عقلي، يحرق روحي.

حتى وصلتْ الى بيتها ودعتني ومضت. عاد بي السائق الى المؤسسة. هكذا مضى هذا اليوم من دون أن اشبع منها تمامًا:

"هذا اليوم الذي تمنيت فيه أشياء كثيرة، لن أقول إنني لم أسعد بعينيك الحالمتين، وملابسك الأنيقة، وكمال صورتك. لن أقول إنني حرمت من أشياء كثيرة. أنت وحدك أكثر الأشياء التي أحبها."

حتى هذه الساعة لم أحظ بجواب على مهاتفتي زوجتي قبل أن أرسل رسالتي إلى بلقيس. لكنني عندما اتصلت بسهاد إبنتي أجابت بأن أمها مصدوعة الرأس وهي نائمة. أحزنني ذلك كثيرًا

وطغى على مشاعري وأفكاري، فأنا أحبها حبًا كثيرًا وأقدرها تقديرًا عاليًا وأعرف سبب وجعها. في اليوم الأخير من العيد تلفنتْ لي أحدى المدرسات، مهنئةً بالمناسبة. أجبت على المكالمة بصراحة تامة وصوت مسموع؛ أهلاً وعيدك أجمل الأعياد وأشكرك، وكانت زوجتي قريبة مني، وكنت قد تخففتُ من أي مدعاة للحذر أو التكتم على مكالمة صادقة وبريئة، وليس لها أي علاقة بمشاعر عاطفية على الاطلاق.

فجأة تغيرت ملامح زوجتي وزالت خفة نفسها. حاولتُ أن أتغاضى عن ذلك. ولكن إلى متى وأنا أدرك درجة حساسيتها؟ ظللت أختلس النظر إليها وأصطنع الحديث معها، وكانت محبوسة الأنفاس.

من جانبي وجدت الأمر لا يستحق هذا الحزن أو هذا الشعور الكئيب، وحتى جاءت لحظة، وجدتها مناسبة، اقتربت منها. إحتضنتها وقبلتها فنزت عيناها بالدموع. قلت، لها ما يبكيك؟ أي شيء يروع قلبك؟

لم تفصح عن شيء. لكنني كلما اقتربت منها وجدتها معبأة بحزن أو بكلام كثير. قلت لها، الأمر طبيعي ولكِ أن تهدئي والأمر يتعلق بمناسبة عيد.

في الليل ونحن في طريقنا الى النوم، أصبحت المناسبة لديها قائمة لسؤالي عن هذه التي تهاتفني، وترسل التهنئات في العيد، وتمتلك الحرية في المكالمات، ووضعي الشخصي الذي يسمح بمثل هذه العلاقات، وغرابة أن يحصل هذا خارج نطاق العمل، بل ويمتد إلى داخل البيت، في حين أنّ ما ينبغي أن يكون مثل هذا، وحتى غيره مهما كانت صفته والحاجة إليه، في إطار العمل، المدرسة، أو الدائرة مثلاً:

– أما الإتصال خارج المحيط العملي وإلى حدود البيت، فهو أمر لا يخلو من خروج على إطار علاقات العمل، وإنما يتعداها إلى ما يثير الشكوك والإزعاج! إنني على يقين من أن الأمر مقرف تمامًا.

جعلت أدافع بصدق عن نفسي حتى جف لساني وخشيت على روحي. أقسمت لها أخيرًا بأن الأمر لايعدو أن يكون كما لو أن أختها اتصلت بي وهو كذلك حقًا. إنفرجت أساريرها وتوقعتُ أن الأمر

سيغدو جزءًا من أخبار الماضي، لكن توقعاتي كانت ساذجة، ليست في موقعها الصحيح.

ولما كنت أدرك أن الغضب يقوّل المرء ما لم يعرفه أو يؤمن به من قبل، قررت أن أتصل بابنتي ثانية فأعلنتْ إنها ما تزال نائمة، وفي تقديري أنها تناولت حبوبًا منومة لتخفيف ضغطها، وللهرب ساعات النوم من آلامها، وهو أمر يحز في نفسي، ويؤلمني ويحمّلني ما لا طاقة لي على تحمله لمكانتها الغالية في نفسي.

كررت محاولة الإتصال ولكن دونما جواب. تراودني الأفكار أنها قد تكون نقلت إلى المستشفى، وأن العائلة في حال من ليس مستعدًا للرد. القلق يأكل قلبي، وها أنني أكتشف، وأعتقد أنني فكرت بهذا كثيرًا من قبل وأنه ليس جديدًا، أن الحجاب بين السعادة والحزن أرقّ من أن يمنع بعوضة صغيرة من اختراقه. هكذا هو الحال الآن، فبين دقيقة وأخرى تغير الحال وأصبح لا يطاق. تعذر اتصالي بولدي الكبير بعد أن حاولت. هل يعقل هذا؟ أخيرًا اتصلت بها، زوجتي، ثم سمعت صوتها يجيب. يا إلهي. هل يعود الفرح من جديد؟ سألتها عن صحتها فأجابت بروح طيبة، إنها منذ الصباح تعاني من ألم في الرأس، وإن ضغطها هو السبب على الأرجح، ولسوف تتناول حبة مما تتناول عادة لخفضه، ووجدت نفسها طيبة نحوي وتوددت لها كثيرًا، وكادت عيني تدمع إن لم تكن دمعت فعلاً، وأوصيتها بالإهتمام بصحتها والاغتسال بالماء البارد، وكذلك شرب الماء الزائد، مما قد يساعد على دفع الألم

وتخفيف شدة الضغط. كنت أحس أن عبارة غدًا سأعود مبكرًا للبيت ستزيح جلّ آلامها؛ إذ ما نطقت بها إلا وارتفع صوتها مهللاً؛ أهلاً بك على الدوام، ويا إلهي، كم هو رقيق جدارك الفاصل بين الموت والحياة!

- أحيانًا أفكر في وضع يوسف أو مريم لو أصاب أحدهما مرض مثلاً، فأصاب بالصداع ولا أنام ليلي. البعد يا سليم قاهر. بادرتني أم يوسف ونحن نفطر.

- نعم أفكر مثلك، لكن ما يجعلني أعود للنوم دونما صداع، هو الضمان الصحي القائم ليل نهار للبشر وغير البشر هناك.

- ولكنها الوحدة يا سليم وتذكّر الأهل عند الشدة والألم.

- أوافقك تمامًا، ولكن ما حيلتنا؟ لا يقود إلى المرّ إلّا الأمرّ منه. العراقيون أقل الناس هجرة أيام الإستقرار، لكنهم أكثرهم الآن، أو هكذا فيما أظن. مع كل هذا وذاك إطمئني فإبناك في سلام. البنت متزوجة من مهندس وتتعلم لغة أهل البلد، والولد يعمل طبيبًا في مستشفى، ويتحرك بهدوء على سوزان إبنة عمه نزار كما تعلمين قبلي، أو كما عرفتُ أولاً منكِ، وهذا وحده يكفي، ولا أريد أن أقول؛ قليلُ هناك أفضل من كثيرِ هنا، برغم أنّ الوطن عزيز لا أعز منه. ثم ألا تفكرين مثلي أن الوحدة خير مجال لإكمال المشروع، أي مشروع، وكلما ازدادت العلاقات وهن الشعور في الذات، أكملي فطورك وهاتي لي بشاي ساخن فقد برد هذا. لا تقولي مفاصلي، ما زلنا شبابًا! فإن قلتِ نهضتُ وأعددته

بنفسي. هناك في الصالة أريد أن أنفرد به مع وحدتي، أو مع طيريّ أطعمهما وأراقب حبهما الأمين.

أعرف أن قلق زوجتي مشروع، ثم إن أي قلق سيكون مشروعًا أيضًا إذا توافرت مبرراته، لكنني بدأت أخشى عليها من الهواجس التي تصيب بعض الناس لسبب ما، كغياب حبيب أو توقع ما قد يحصل أو لا يحصل، حتى كنت أشعر أن من مسؤوليتي معها، أن أزيح عن نفسها ما ينشأ من ذلك لفرط حبها ولدينا وبعدهم عنا. كنت أشاركها قلقها لكن بصمت ودونما هواجسها عينها، بل أخفي عنها هذا حتى في أبسط حالاته. ما يدفعني إلى ذلك ليس ضخامة الضيق الذي يتولد في نفسها، أو البؤس الذي يسود الجو العام وانعكاسه على الجو الخاص حسب، لكن لتفكيري كذلك بمنْ سيرفعني لو سقطتُ، مثلما سأفعل لو سقطتْ؟

ها أنا أنعم النظر في الطائرين، ألحظ حريتهما وهما في قفص صغير، وحبهما وهما تحت الأنظار، وهدوئهما الناعم الصقيل وهما يتحركان، أشاهد حزنًا ما على عيونهما، لكنه الحزن عينه الذي على عيون الطيور جميعًا، والحيوانات كذلك، إلاّ الإنسان الذي سعادته وتعاسته في عينيه، والذي هو أسعد الكائنات جميعًا وأتعسها كذلك.

زيارة إلى الكوت

تحيتي، أنا في طريقي إلى الكوت. أمس سهرت مع القمر، وحتى الأحد ستفصلني عنه ساعات، أتحبين القمر؟ إذن كلانا يحبك؛ أنتِ وأنا".

بينما كنت الجمعة هيأت نفسي منذ الصباح لقراءة رواية جديدة تحمل عنوان "تاء الخجل" وهي لروائية جزائرية تنتمي لعائلة بربرية عريقة مثلما يقول التعريف، إسمها "فضيلة الفاروقان" اتصل بي حليم وهو صديق ودود، يعلن عن رغبته في السفر إلى إحدى المحافظات القريبة وترك الخيار لي، وكانت بعض آثار صداع طفيفة ما تزال تؤرقني منذ الإجتماع الصحفي الذي حضرته امس الخميس إذ لم يكن ذا جدوى وكان ينبغي ألا أحضره. كان استقبال زوجتي لي بصورة طيبة أزاح بعضه، ولما عزوت ذلك إلى انخفاض ضغطي إثر تباعد وجبات

طعامي. تناولت مع عشائي لبنًا أضفت إليه كثيرًا من الملح، حتى استرددت بعد ساعة أو ساعتين وضعي الصحي المريح. سهرت ليلتي مع التلفزيون وزوجتي، وقد سار كل شيء على ما يرام، فقد غمرنا الحديث عن التقنيات الحديثة في السينما العالمية، والمداخيل الخيالية لبعض الأفلام، وجاءت على خواطرنا، أنا تحديدًا، أفلام عظيمة من مثل؛ لمن تقرع الأجراس، وداعًا للسلاح، الشيخ والبحر، عطيل، الآن وإلى الأبد، ما كتبته الريح، الرمح، ذهب مع الريح، القطار، ثلوج كليمنجارو، أنا كارنينا، الحرب والسلام بنسختيه الروسية والأمريكية، سيدتي الجميلة، زوربا، زاباتا، زد وغيرها مما جادت به يقظة منا، غير محسوبة، إلى ذلك، إن لم أقل ذهبتْ بعيدًا إلى حيث شعرنا أن أنفاسنا تنقبض وتنفتح على شيء أضعناه. وبحسب ما خولني صديقي اخترت الذهاب الى الكوت فهي ليست بعيدة ويمكننا العودة منها في اليوم عينه، ولدي هناك صديق حميم، يتكفل بكل شيء مما يتعلق بالطعام والشراب والمبيت إن اقتضى الأمر. هكذا في لحظات تتغير مشاريعنا وتنقلب إلى ضدها تمامًا، قلت لزوجتي واستعددت للمشروع. قبل أن يصل صديقي بسيارته الى داري، كنت أفكر بالأمر ويأخذني بعض الأسف، لأنني سأحرم نفسي من قراءة رواية وصلت إلي قبل يوم من صديق كريم، قدم قبل أيام من عمّان وكان قرأها وأشاد بها. لقد وقع الأمر حاسمًا بعد أن وصل صديقي هذا، وهو صديق ظريف وطريف معًا تربطني به صداقة متجاوبة وصريحة، يمارس النقد الأدبي الانطباعي

وذو مزاج حاد أحيانًا، ينسيه أنه صلى قبل لحظات أو أنه يستذكر الآن وقت الصلاة، ليقذف بكلام حاد رجلاً زاحمه بعربته أو أزعجه. بيد أن ما يجب أن يقال فيه، أنه جواد كريم النفس الى درجة عالية، صادق العلاقة غير خؤون. لابأس، لقد أعددنا لمسافتنا غير القصيرة، بعض الفاكهة والسجاير والشاي. من خلال أم كلثوم وصوتها الخالد يسري مع رباعيات الخيام منطلقًا من تسجيلات السيارة، كتبت لها ولم نغادر، بعد، حدود بغداد التي لا تذكر إلا ويلازم ذهني تأريخها المجيد وحاضرها غير السعيد. بمضي ثلاث ساعات تقريبًا، إستقبلنا هذا الصديق القديم إستقبالاً لائقًا تمامًا، فلقد دعانا إلى تناول طعام الغداء في "مطعم السدة" الذي يشرف على سدة الكوت إشرافًا جميلاً، إذ تتناثر مياه دجلة عبر بواباتها الست والخمسين في طريقها نحو الجنوب، في منظر ثر وأخاذ. هناك، في مرات، يتطاير السمك من على سطح الماء، لعبًا أو لغرض آخر، وقد يسقط على سطوح أعمدة السدة الضخمة، فيظل يصارع الإختناق حتى يهلك، في مشهد تمر عليه أنظار المارة من الناس فتجده محيرًا ومحزنًا بل ومغريًا، وإن في حدود المستحيل، أيضًا. ونحن نقف عند نقطة قبل أن نعبر إلى الجانب الآخر، انبرى مضيفنا يقول؛ بدأ العمل في هذا المشروع في العام ١٩٣٤ وهو ذو طبيعة إروائية، أقيم ليسد حاجة بعض المدن إلى ماء دجلة، مثل الحي والموفقية والفجر وقلعة سكر والنصر والشطرة، إذ في حال انخفض منسوب الماء فإن هذه المدن تعتمد العيش على الآبار. ولقد افتتحها الملك غازي عام ١٩٣٩

ولا بد ان يكون ذلك قبيل مقتله التراجيدي في العام نفسه، بعد أن كان اعتمدها أبوه الملك فيصل الأول مشروعًا متقدمًا على ما سواه.

عبرنا السدة نحو الجزء الجنوبي من المدينة، طفنا في أطرافها المحاذية لنهر دجلة، كان ثمة شارع جديد أنجز حديثًا، يمتلك مواصفات تؤهله ليكون محطة لكثير من أسباب الراحة، لو قيّضت للناس هناك فرص مناسبة للعمل والكسب الحلال.

لم نشأ أن نبيت في بيت الصديق فعدنا. حقًا كانت السفرة ممتعة، أشرفنا فيهاعلى فضاءات ممتدة، لم تتوفر لنا مشاهدتها أو معايشتها في أجواء بغداد، التي فقدت حلاوتها الغامرة، منذ أن قفز الى سدة الحكم رجل فقير، فقير تمامًا الى المعرفة السياسية، فكان كذلك البدوي الذي يهز عصاه حتى على الريح لأنها أوقعت على الأرض كوفيته! كانت رحلتنا مبهجة، لكنها، في الوقت عينه، كانت متعبة جسديًا لصديقي. حال وصولي دخلت الحمام، تناولت عشائي واشتركت مع العائلة ساعة بالتفرج على التلفزيون، وثمة أصداء تتناوب الوقع على نفسي هي في بعدها الأخاذ، زوجتي التي كتفها إلى كتفي، جمالية السفرة، الرواية الجديدة والروح المبلبِل الذي ما تزال كلماته تعصف بقلبي؛ "أذاهب أنت للكوت؟ إذًا هنيئًا لك يا كوت".

طريق مشترك

مبكرين على غيرما اتفاق، وعند عتبة باب المدرسة الرئيسي للمدرسة التقينا؛ بلقيس وأنا. أخذنا طريقنا إلى الداخل عبر الممر المشمس والمبهج على نحو عام. مبكرين على غير اتفاق، وهناك ما يحرك النشوة في النفس، لذا فإن عبارات من مثل؛ يا لهذه المصادفة الجميلة، أو يا لصدفة خير من ألف ميعاد، كانت تتردد بصدق وعذوبة بيننا قطعها علينا ذلك الصوت الصادر من خلفنا؛ بلقيس، الست بلقيس، أستاذ، أستاذ. التفتت بلقيس بهدوء بعد أن مالت نحوي ؛ أحلام، أحلام. لقد ثبت لي أن أحلام تعرف شيئًا سطحيًا عن حبنا، وتتماهى معه بالتقرب إلي والدوران حولي، في محاولات كنت لا أعيرها اهتمامًا، أو أصدها باسلوب ناعم تمامًا. صرنا ثلاثة تتقدمهم إثنتان ويتوقف الثالث يشم عطر وردة لم يجرؤ على قطفها، وإن تمنى ذلك.

تركتُ الطريق لهما وحديثهما المشترك، وانتحيت جانبًا متأخرًا عنهما. لم يدم ذلك طويلاً، إذ كنت أرى خطوات أحلام تتأخر عن خطوات بلقيس رجاءَ أن ألحق بها. ولما كانت بلقيس تعرف أن طريقنا هذا إن افترق فسيجمعنا طريق واحد لاحقًا، تركتْ أحلام تتردد بين أن تلحق بها، أو تتباطأ حتى أحثَّ قدميّ لأكون إلى جانبها فتسلم علي سلامًا جميلاً، قبيل أن نطأ الفسحة الصغيرة التي تفصل بين غرفتينا! كانت أحلام لشدة جمالها تبدو لمن يشاهدها أنها محطة لا يمكن تجاوزها، ولربما فكر كثير ممن يدور حولنا أنها محطتي الخفية، بعد أن عرف قليلٌ ممن يحيطون بنا، بهذه الدرجة أو تلك، سموّ قصة حبنا؛ بلقيس وأنا.

طوال الدوام لم تزرني بلقيس، كانت تريد لأحلام أن تكون سعيدة ولو برهة خاطفة. ما كاد الدوام ينتهي ويبدأ الإنصراف الصاخب للطلاب حتى زارتني بخاطرها الحبيب لنبدأ لحظة المغادرة. في الطريق العام. لم تشر بلقيس لانفرادي بأحلام، بل تغافلت عنه حتى على مستوى التلميح، كأنها تستعيد كل لحظة وهي تتسامى بحبنا، عهدنا المشترك منذ أولى أيام علاقتنا على أن لا يكون حبنا إلا مترفعًا غير خؤون، وفي الحقيقة كنت أمامها، أكثر من مرة، رجلاً من لحم ودم يحاول ملاك أن يُملِّكه!

توقفت لنا سيارة عابرة خاصة، تكرم صاحبها علينا بإيصالنا إلى نقطة تكثر فيها سيارات النقل العام والأجرة، فامتثلنا لهذا الكرم الجميل الذي يكثر عندنا، ولا أظنه يحصل بهذه "البراءة" عند غيرنا. قدمنا فائق

شكرنا للرجل قبل أن ينعطف نحو طريقه الخاص، ولبثنا ننتظر لحظات سيارة أجرة قادمة كنا نتراشف فيها عذب الكلام. كان كلامها عسلاً خالصًا كنت أترغب حلاوته، ثم لما أرتني الساعة التي قدمتها اليها من قبلُ هديةً، أمسكت بمعصمها بحجة التدقيق في رؤيتها ولم أفعل غير ذلك. كنت مهذبًا في تصرفي ومثاليًا، ثم ما الذي أفعله أكثر مما يفعله غيري في طريق عام ومع امرأة عظيمة مثلها؟ قلت ساعة جميلة حقًا وأنت تستحقينها.

عند نقطة محددة هبطتْ من سيارة الأجرة متخذة طريقها إلى بيت أهلها، إذ تركت بيتها مع استمرار العمليات القتالية هناك. ما كان يثير عجبي أن صورة أحلام لم تغادرني، إنما طفقت تعابثني حتى دخلتْ عليّ غرفتي وتوسدتْ وسادتي. كنت كل مرة أرتعش وأنا اجلس إلى جانبها أضع يدي على كتفها العاري وأقرب فمي من فمها، بيد أنني وفي الآن نفسه كنت أستدعي صورة إحدى المرأتين أو كلتيهما بلقيس وزوجتي لكي أقوى عليها، كنت أسمع صراخها وهي في بيتها البعيد، فأردد مسكينة يا لوحشتها، يا لوحشة قلبها! ثم انعطف إلينا وأقول ومن منا من لم يعش وحشته مثلها؛ بلقيس أم زوجتي أم أنا؟

الرواية

أخرجت الرواية الجديدة التي وصلتني مؤخرًا من عمان كما نوّهت وبدأت القراءة. وجدت أن قراءة الجملة القصيرة والفصل القصير، أكثر متعة من الجملة الطويلة والفصل الطويل. يبدو أن الروائية "فضيلة الفاروق" كاتبة عرفت كتابة القصة والرواية من قبل، لذلك جاءت روايتها هذه على غاية من جمال العبارة وصدق الموضوع، نمّت عن الوعي الأنثوي والإهتمام بالمرأة، وعرض المظالم التي وقعت أو تقع عليها في مجتمع حرره مليون شهيد. مالت الرواية في صفحاتها الأخيرة نحو ملمح من ملامح الرواية الحديثة حين أشارت إلى ثنائية بطل الرواية بين كونه بطلاً من ورق وبطلاً على أرض الواقع، وهو أسلوب طُرق في روايات عربية.

بدأت الرواية خطابيًا بضمير المخاطب، وهو ضمير امرأة تخاطب حبيبها الذي تفصله عنها عدة سنوات من الغياب، لكنها تنحو في

منتصف صفحاتها نحو الواقعية السياسية، التي عارضت تمامًا ما بثته اولاً في روح القارئ، خطاباتُ الحبِ وسرد الوقائع العاطفية بلغة شعرية تمامًا وإخراج فني مناسب كذلك.

لقد اطلعت من خلال هذه الرواية على أدب جزائري نسوي، امتاز بحرارته وصدقه وجرأته كذلك، كما امتاز بحيوية موضوعه القائم على إدانة الإرهاب الاسلامي، الذي مارسته على شعب الجزائر، منظمة إسلامية تدعى "منظمة الجهاد الإسلامي" كان زعماؤها يغتصبون النساء دون وازع من ضمير، ويقتلون الأبرياء بلا ذنب سوى أنهم يرفضون نظامًا سياسيًا لا يتفقون معه. الرواية جديرة بالقراءة من وجوه عدة وأعتقد أنها تضيف لقارئها شيئًا ربما يظل يتذكره زمنًا، وقد استغرقت قراءتها بضع ساعات ليل الجمعة وساعات ليلة السبت.

قلق

صحبت معي إلى بلقيس وأنا في طريقي إلى المدرسة، الرواية "تاء الخجل" ومجلة "انسان" العراقية التي تصدر في بيروت ومجلة الآداب البيروتية في عددها الأخير، التي استلبها مني صديقي حليم وهو ينقلني بسيارته إلى هناك. وضعت حقيبتي على المنضدة، وكانت غرفتي مفتوحة ومهيأة، وكنت أعرف أن المرأة التي تنظف غرفة الإدارة، قد تعرضت لسقوط في حمام بيتها كَسَر ساقها. لم أكن بحاجة لأعرف أن إحدى المدرسات قامت طواعية بذلك، وكنت أشكرها في سري. لم أصبر طويلاً حتى غادرت غرفتي. دخلت غرفة المدرسات للسلام ولمعرفة وجودها. كان الباب مفتوحًا، لما دخلت وقع نظري أول ما وقع عليها. سلمت سريعًا ثم عدت إلى غرفتي وجميعي ينتظرها.

بطريقه العابر نقلني صديقي حليم إلى المدرسة، وكرر لومي لأني لا أستخدم سيارتي. أجبته بأن ذلك يعود إلى الزحام الذي يشكو هو منه،

وما تعرضتُ له من حادث أول اقتنائي سيارة، وما جعل الناس يفضلون سيارات الأجرة على سياراتهم الخاصة في أغلب الأوقات، متحاشيًا الحديث عن ركاكة سياقتي الآن وحاجة ولدي إليها، مادمت أقضي أغلب وقتي خارج البيت.عطف حديثه أخيرًا نحو سفرتنا وغدائنا اللذيذ على ناصية السدة، وكرم صديقي هناك حتى قذفني عند بوابة المدرسة، قبل أن يلتقط عنوة مجلة الآداب.

كان من ضمن إجراءات عملنا عادة، أن تمر المعاونة على غرفتي أول دقائق دوامي، وبعد إلقاء تحيتي على الجميع. هكذا حضرتْ حال عدت لغرفتي لتطلعني على الكتب الجديدة والأوامر الصادرة حديثًا ولم أطلع عليها، ثم لما انتهت مهمتها واستأذنتْ بالخروج أوصيتها ان تخبرها بحاجتي إليها؛ الست بلقيس من فضلك. ولا بد من قول الحق هنا، هو أنني لم أفكر كثيرًا بما قد يفكر فيه الآخرون حول طبيعة العلاقة بيننا، ولا أعتقد أنها تفكر بذلك، إذ ما أن أدعوها حتى تأتي متهللة الوجه باسمة الثغر مندفعة إلى تحيتي بحرارة صادقة تنعشني. عادت المعاونة قبل أن تخرج لتهمس بأذني على طريقة الواشيات الناصحات في الأفلام العربية؛ أستاذ المدرسات يتهامسن لماذا بلقيس؟ إدعُ غيرها اللحظة. أنا زميلتك المحبة. نعم كان عليّ أن أفكر بذلك، وبما يمكن أن تهمس به أحلام أو حتى غيرها، لكنني رددت بصلابة أعتقد أنها جاءت ترضيني وترضيها بالقدر نفسه؛ إنني أدعوها لتبادل الرأي في الأدب والتشكيل في فسحة لا نملك غيرها؛ هي درسها الشاغر أو المشغول من

مادة أخرى، لعدم إكمال المنهج جراء تعثر الدوام واضطراب سير التدريس ولا شيء غير، فمن يا ترى لديها الوقت وهذا الإهتمام فالباب مفتوح كما هو مع بلقيس. لا أنكر أن أواصر مودة واحترام تربطنا بفعل اهتمامنا المشترك، وبلقيس فوق الشبهات ولا أحد ينكر ذلك. لم أأسف على ردي المفاجيء، ولكنني شعرت أن المعاونة ربما ندمت على وصيتها التي كانت تريد منها" مصلحتي وسمعتي" وكنت أقول" سمعة الحب ولا سمعة الكره والبغض". ضربتْ على الباب إستئذانًا مهذبًا. تفضلي قلت ونهضت. لم أخبرها بما فاهت به المعاونة فأنا أعرف أنها ستجابهه بالإستخفاف، لكن هذا لن يكون بأي حال إلا مصدرًا غير مرغوب في حياة تشعر بدفء مصدرها الوحيد، بل عتبت عليها لأنها تطرق بابي. أنتِ التي تدق الباب مرة ومرتين؟ جلستْ على الكرسي القريب من منضدتي. تناولنا في ظرف نصف ساعة موضوعات عامة كالوضع في البلد، وما تصبه على الناس أحداثه المؤلمة، وما تهيىء من انقسامات قد تؤدي الى تقسيم البلاد. ثم من المستفيد من ذلك غير دول الجوار التي تريد تجزئة العراق، إضعافًا لقوته التي سبق أن عانت من ثقل فجاجتها البغيضة. كنا هي وأنا نتفق ونختلف وفي صراحة تامة لم يكن ينقصها الإعلان عن الرأي تامًا، ولكن في مرونة متبادلة كان يقتضيها دائمًا حب لذيذ. في الأخير كنت أجدها صاحبة قرار، وصعبة في الأمور التي تؤمن بها كلية، ليزداد قدرها في نفسي، فهي إمرأة مبدأ وسعدتُ في أن يكون حبها لي كذلك. إنّ ما يقطع علينا انصرافنا لحوارنا، صخب الطلبة

وكثرة القادمين عليّ منهم لأسباب كثيرة، أهمها طلب الإجازات بعد أن أمسى خطف الناس على الشبهة أمرًا محتملاً وفي كل حين، وكان هناك من الطلبة من يتوقع ذلك، حتى انقطع أو غاب عن الدوام طلبة كثر، ما دفعنا إلى التساهل في منح الإجازات الضرورية لأننا قد نكون بذلك أنقذنا حياة. كان يؤرقني التفكير بفقد طالب أو طالبة من طلابنا، حينما علمنا بترك إحدى طالباتنا الدوام لتخوفات "أمنية" حزنّا شديدًا واغرورقت بالدموع عيون بعض مدرساتنا، ليس لأنها متفوقة جدًا بل لأنها جميلة خالصة الجمال، وكأن حزننا عليها كان يستحضر جمالها منتهبًا بين أنياب وحوش. لقد سادت مدرستنا تهيؤات لبعض من طالباتنا كن فيها يصرخن أو يرتجفن، ما منع قسمًا منهن من مغادرة صفوفهن أثناء الفرص بين الفصول أو الذهاب للحمام، حتى ألزمتُني التجول في الساحة وزيارة بعض الصفوف. وبدلاً من أن تصرخ طالبة تجد في رحلتها صورة فاضحة، نجتمع عليها نتحرى عن الفاعل" الشيطان" ونقوم بالتحقيق، صرنا نجد ثللاً من طلاب تميزوا بالشدة والشجاعة، لزموا أبواب الصفوف حماية لزميلاتهم من المتخوفات القابعات هناك. كانوا صبية صغارًا ولكن على حجم كبير من الشهامة والفروسية، حتى أخذني اليقين بأن ما كان يلوح على وجوههم سابقًا من رغبات خفية في زميلات، قد انطفأ كليًا وهم يحرسون من أصبحن الآن أخوات. قررنا مغادرة المدرسة معًا بعد انتهاء الدوام مع وقت انصراف المدرسات، الذي يتأخر قليلاً عن وقت انصراف الطلاب والطالبات. كنا محاطين

بالجميع قبل أن نصل الى الشارع العام حيث يأخذ كلٌّ طريقه نحو هذا الإتجاه أوذاك، فأصبحنا في الأخير وحيدين. وكنت دائمًا أرغب في ذلك.

كنت اليوم أشعر بالفراغ فلم أمتلء بها! وأحس لهفة حارة نحوها. وصلت المؤسسة وظللت مكرهًا على العمل غائبًا عن المسؤولية، وحتى حلت الساعة الخامسة نمت. عند السادسة والنصف استيقظت. وجدت الوقت مساءً وغرفة الشاي في المؤسسة مغلقة فهبطت الشارع وابتعت حاجاتي وعدت. تناولت عشائي ولكن دونما شاي فكان ناقصًا جدًا. في التاسعة والربع استعرتْ أشواقي إليها ولا سيما أن لقائي بها كان سريعًا أو مجزوءًا.

"مساء الخير.. أقول الحق إنني اليوم لم أرتوِ، لم أشعر أنني كلمتك أو رأيتك. حتى الغد لا أعرف كيف أمنع قلبي الذي يضرب بحبك"

أسفل البيت أو إلى جواره حسب ما ظننا كان ثمة أنين موحش يستقصي أعمق درجات العطف، لكن تقطّعه كان يستدعي التأني في تبين جنس مصدره قبل التفكير في أن الليل المتقدم يتطلب الحذر في أعلى درجاته. لم تكن هناك أضواء كافية، وحركة الشارع خفّت كثيرًا والوحيد في مثل هذه الساعة لن يكون إلا وحيدًا، وقد تكون محاولة إسعاف أحدٍ من شخصين وحيدين كذلك، نوعًا من الطيش، إن لم تكن من الجنون.

- أيروقك أن تطلي من النافذة لتريْ من ينوح هناك حتى لو كان حمارًا؟

- لا أظن ذلك، وإنْ يروقني أن يجد المألوم من يسعفه حتى لو كان لصًا تسلق بيتنا ثم سقط.

إسمعي لا صوت سيارة شرطة تجول في الشارع، لا صافرة حارس ولا نحنحة شرطي، ف" كلانا نائم والمستيقظون عصابة لصوص!* هكذا ظل هذا الأنين الغامض متجاوبًا في الفضاء وفي نفسينا معًا، حتى انجلى آخر الليل. صباحًا وفي أول ساعاته وجدنا مصدر الأنين قد توارى، لم يترك خلفه علامة على أحد كان يرقد هنا أو هناك، لم نقطع بأن هذا كان وهمًا أو حقيقة، كل ما فكرنا فيه أن الألم والوحشة قد تسربا إلى نفسينا، وأن ذلك قد يأتيك طوعًا وأنت تقرأ في رسائل، ولو كانت رسائل حب عظيم. ما شاع أخيرًا أن سائق أجرة تعرض للطعن بالسكاكين اثناء دفاعه عن سيارته، سرق الجناة السيارة وظل الرجل ينزف دماءه حتى الصباح ولم يمت، في الصباح بعد أن جلت الشمس المشهد أمامنا، كنا نرى بركًا صغيرة من دم وقطرات متتابعة منه هنا وهناك. ذكر الرجل الضحية إنه لبث محيرًا بين جروحه والمكان الذي يمكن أن يأوي اليه، وكان من ذلك أن ضاع عليه أي دليل إلى جهة أمان، فكان يزحف قليلاً ثم ما يلبث أن يعود حتى استدرجته فكرة ما إلى اللوذ بهذا المكان، بعيدًا عن مسرح الجريمة خوف أن يعودوا ويقضوا عليه. لقد ظل الرجل ينزف دمه حتى الصباح، لكنه آثر أن يبقى حيًا،

ليكون من بين الضحايا القلائل الذين ينجيهم الله ليقصوا قصص موتهم على أيدي بشر جناة وليس على يديه! ثم لم نعد ندري إن أبقى الرجل على قيد الحياة طويلاً أم توفاه بعد أيام.

** يوسف الخال في رسائل إلى دون كيشوت*

يوم من أسوأ أيامي

أرسلت رسالة إلى بلقيس أخبرها فيها بذهابي إلى البيت، أقطع عليها وعلى نفسي وزوجتي فتنة محتملة. دخلت البيت متعبًا، أشعر نعاسًا ووهنًا يدبان في مفاصلي، تناولت عشائي وكان المزاج العام لعائلتي طيبًا ومريحًا يدعو إلى الإطمئنان، لذا وقد نويت النوم وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، عمدت الى إغلاق الصوت في جهازي رغبة في الاسترسال في نومي، واحتفاظًا بالأسماء التي قد تتصل بي أثناء ذلك. غفوت سريعًا، دخلت العالم البريء الذي لا يعرف النائم فيه ما يدور حوله من أشياء قد تكون مروعة لتبدّلَ أحوالاً أوتغيّر حياة.

نهضت بعد ساعتين أو ثلاث، وجدت زوجتي نقلت منامها إلى الطابق الثاني جالسة إلى جوار

إبنتنا الضيف. سألتها فادعت؛ سلوى مريضة ؛ هي مريضة ألا

ترى؟ قالت لغتها باقتضاب وأشارت اليها.عدت إلى فراشي وإلى نومي الطفلي البريء.

صباحًا وعند السابعة تقريبًا استيقظتُ. لمحت أول ما لمحت صباح زوجتي عكرًا لا يسمح بالود الذي نتبادله عادة كل صباح. لا أعتقد (وهنا لا أدري مقدار صوابي في هذا) أن مزاج امرأة في الصباح يشبه مزاج زوجتي، ولا أعتقد أنّ رجلاً يشبهني في استشفاف ملامح زوجته. ولأن الظنون تجول في داخلي، فقد كانت حساسيتي تؤشر أدق العلامات التي تطرأ على وجهها أو سلوكها.

كان ردها على تحيتي، صباح الخير، فاترًا لا لمسة استقبال فيه. احتضنتها فكانت باردة صامتة منشغلة بما يجري تحت يديها مما تعده لفطور الصباح. سألتها مرة أخرى عن الإنتقال إلى الطابق الثاني للنوم هناك، قالت:

– الجو في الأسفل حار.

– ومزاجك ما به؟

– ولماذا السؤال؟ إنها حالة خاصة.

تركتها وانصرفت إلى الحديقة. لقد ضايقتْ نفسي سيارتنا التي اغتصبت فرصتنا الى تنفس الهواء وزاحمت خطواتنا إلى الحديقة الرمزية والباب الخارجي، بل شغلت معظم المساحة التي بميسور المرء أن

يستغلها للجلوس هناك، إذا طمحت نفسه إلى مجال أرحب مما توفره لـه مجالات البيت. مكثت هناك لحظات أحسب فيها وأستعيد ما قد يكـون حصل أو طرأ أثناء النوم، ولما جهز إفطاري ظلت بعيدة عني، بل رأيتها بعد ذلك تقتعد الأرض وظهرها الى خلفية السيارة وفي حالة مزريـة. يـا إلهي. إن هنالك أمرًا مزعجًا إلى هذه الدرجة ولا أدري؟

ظللت ساكنًا بعد أن تناولت قليلاً من طعامي، ثم تناولـت الـشاي من دون رغبة كذلك. لقد أغلقت شـهيتي إلى الطعـام والـشراب وكـل الأشياء. في طريقنا أنا وهي وولدنا إلى المسرح الـوطني لحـضور اجـتماع هناك، جعلت أقرأ في الأوراق التي أحتفظ بها في حقيبتي، فلربما دونـتُ رسالة أو شيئًا أثار شبهتها. لم أعثـر عـلى شيء. لم يبـق أمـامي إلّا جهـاز الموبايل اللعين الذي جرَّ عليّ ما جرَّ. قلبت في الرسائل التـي قـد أكـون نسيت حذفها، أو التي وردت حـديثًا إليّ اثنـاء نـومي ولم أطلـع عليهـا. نعم، كانت هناك رسالة مدون عليها رقمها، وقبل أن أعـرف إن كانـت هي رسالتي إليها، أو رسالة جديدة منها لم أحسس بها، عمدتُ مبـاشرة إلى مسحها.

كانت من موقعها تراقبني وتشرف على محاولتي إلغـاء الرسـالة. إذًا لقد اكتشفت المرأة أمـرًا جديـدًا يـضاف إلى مـا رسـب في نفـسها، عـن العلاقة التي سبق أن سببت جرحًا كبيرًا لم يندمل حتى الآن في قلبها.

إن حساسية زوجتي، مثل حساسية أي امـرأة في مثـل هـذا الأمـر، مفرطة وشديدة وعميقة لما تجد في نفـسها مـن إخـلاص منقطـع النظـير

لبيتها ولأهل بيتها، كانت تحرص على أن يكون الجميع على هذا المستوى من الشعور والفعل معًا، ولقد أحسستُ حال إلغاء الرسالة حركة سرية منها تُنبهُ فيها ولدنا إلى فعلي هذا، فأبدى اعتراضًا كان واضحًا بنسبة مـا لأحسّ به. وحقًا لقد كبّرت في هذا الإبـن، هـذا الموقـف الكبـير الـذي أغلق عليها أي إجراء قد تكون فكرتْ فيه.

كنت أشعر بثقلٍ نفسي مختلط وشديد، لم أفلح في تجاوزه أو الخروج منه. وحتى وصلنا إلى المسرح الوطني، هبطت مودعًا بصمت خجـول. كانت حرارة بدأت تسري في ساقيّ، هـي الحـرارة المتموجـة الممزوجـة بالبرودة عينها، التي غالبًا ما تحصل لساقيّ كلما اعترضتني مـشكلة مـا، وأظن أن ذلك من مظاهر ارتفاع نسبة السكري في دمي.

حال انقضاء فترة الإجتماع عـدت إلى المؤسـسة مهمومًـا بأشـد مـا يكون عليه الهم. وبين أن أقضي ليلتي هناك أو أعود إلى البيـت. فكـرت سريعًا بأن عودتي أولى لتدارك بعض ما حصل بيني وبـين زوجتـي ولـو بحضور رمزي يشير إلى اهتمامي بأمرهـا وتقـديري مـشاعرها. دخلـت البيت طالعتني أول ما طالعتني صورة زوجة إبني مضطجعة تتفرج على التلفزيون. كان الوقت مساءً. سألتها عن "خالتها" فأجابت؛ إنهـا عنـد سهاد. ولما كانت دارها قريبة اتجهت إلى هنـاك قبـل أن أخلـع ملابـسي. وجدتهما تجلسان متجاورتين. سلمت وجلست بينهما. كانت اسـتجابتها واضحة فيها من الرسـمية الـشيء القليـل. إن مـن صـفات هـذه المـرأة النجيبة قدرتها على كظـم أسرارهـا خـارج بيتهـا، والتكيـف للأوضـاع

الجديدة كما لو أن شيئًا لم يحدث لها كائنًا ما كان حجم هذا الشيء. إنها قدرة الانسان العظيم على كظم آلامه أو تأجيلها، والظهور بالمظهر اللائق الحسن إنسجامًا مع الوضع الجديد وتلافيًا لما قد يحدث خارج مجاله.

قلت لها، هيا لنعد إلى البيت، قالت. نعم، ونهضنا. قلت لها أنا جائع، قالت، سأعد لك العشاء حالما نصل. في الطريق أمسكت بيدها. قالت لنمرّ على بيت "المسيحيين"، فقد تمر الفرصة الملائمة لتعزية زوج العجوز التي توفيت قبل يومين. قلت، نعم. هو كذلك، ومررنا عليهم. عزينا الولد بوفاة أمه وهو شاب في الأربعين، أما الزوج فكان نائمًا وهو عجوز أيضًا يميل إلى الدعابة مع نظافة في السلوك، أعرفه منذ ما يزيد على ربع قرن يوم كنا نشارك العمال في إنشاء بيوتنا، التي لم أفكر يومًا أنني سأطيق العيش فيها، لبعدها عن موطن الصبا؛ الرصافة من بغداد.

أثناء إعداد وجبة العشاء، أعلنت زوجتي عن ألم مفاجئ وانهارت على الأرض، كانت المفاجأة غير سارة طبعًا، إنما مؤسية بأدق تعبير.

رششت الماء على وجهها ودعوتها إلى أن تصحو وتعود إلى وعيها. لقد انهارت تمامًا ولما أزل أرش الماء على وجهها وصدرها حتى فتحت عينيها وقالت؛ إنقلوني إلى مكان آخر.

حملناها على النهوض إلى غرفتنا، هناك بدأت تتحسن لحظة بعد لحظة وأنا أتدارك وضعها بالتلطيف والتشجيع والحث على الحياة،

متغافلاً عن الاشارة المباشرة لما يتعلق بانهيارها حتى استعادت وعيها وبعض نشاطها، فنهضت تواصل إعداد العشاء.

كان العشاء لذيذًا ممتعًا كأن لم يكن قبله زعل أو غضب ما، أكلتُ منه بشهية لما بدأ يلامس نفسي من انفتاح يسير، إثر سلامتها مما ألم بها وحسبته موتها.

دعوتها إلى تناول عشائها فتناولتْ منه قليلاً، ثم شربنا الشاي معًا، ثم أشرت عليها بنوم مبكر فكلانا بحاجة الى ذلك. قلت، ما الذي جرى، ما بالك يا سيدتي؟ ألا تعلمين بحبي لك وهيامي فيك؟ كانت تنظر إليّ بعينين والهتين أرى نورهما الأخضر الفاتح يشع عليّ، يستغور دقائق نفسي ويكذبني. كنت أرى لغتي عاجزة وتعابيري تلتف على نفسها، تتردد تارة في فراغ وأخرى في دائرة مغلقة، كنت أشعر بكذبي وضعف صدقي وخواء وسيلتي. عندما تقع الأمور الكبيرة، كنت أقول، يصبح أمر مواجهتها مؤسيًا والهرب منها بائسًا، وعلى الإنسان في كلا الحالين أن يحمل وزر فعلته أسىً أو بؤسًا، ولا أظن أن بميسور المرء أن يفعل غير ذلك بل ولا منفذ إليه إلى سواه. تركت البحث عن جواب حتى حين آخر، متغافلاً مرة أخرى عما سبب لها هذا الألم والحزن، وما كنت في الحقيقة قادرًا على أن أفعل شيئًا غير هذا أو أفضل منه، فكان جوابها أن اتركْ الأمر حتى يوم أو يومين فصدري لا يستطيع الإفصاح عن شيء الآن. إنه يؤلمني أرجوك.

مرت الساعات مستعرة بلهيب مؤذ وكلما حاولت أن أخفف من شدة أواره، وجدته قائمًا حاضرًا على أهبة الانفجار، ونحو أي أفق أرسلت نظري وجدته مغلقًا بوجهي.

بين أخذ وعطاء أفادت بأنها قرأت رسالتي إليها، وتصورت أنها منها اليّ، وهنا أُخذتُ بشيئين كلاهما لا سبيل إلى معالجته، الأول هو الحقيقة. حقيقة وجود رسالة قرأتْها وها هي تستظهرها بعد أن دونتها في جهازها، أما الشيء الثاني فهو الأكثر إلتباسًا وإيلامًا إذ عدت الرسالة منها، وهي رسالة تفيض بالصراحة والفتنة والحب، وهي مني.

"أقول الحق. لم أشعر اليوم أنني رأيتك أو كلمتك أو ارتويت منك"

أثمة غزل أشفّ من هذا؟ تقرأ الكلمات بصيغة الخطاب الموجه من أنثى إلى رجل، وتتابع استظهارها: "وحتى الأحد القادم لا أدري ماذا أفعل، قلبي يضرب بحبك." تمسرح حركاتها حتى لتظنها ترقص!.

كنت داخل طاحونة تدور بي وتسحق عظامي، وكل ما كنت أقوله كان كذبًا ومداورة وتبريرًا.. المرأة فنانة وربما كان هذا هو خطابها العام مع الناس جميعًا، وأقسم أنها امرأة كبيرة وذات أخلاق عالية ولا يمكن أن تقصد برسالتها غير الود البريء، والإعلان عن حقيقة هي ليست بهذا الحجم، ولكن بأسلوب جاء بهذه الصورة التي أرجو أن لا تؤخذ بمباشرتها. كوني يا امرأة هادئة أنت الكريمة الجبارة ذات العقل الراجح والحكيم.

إن ما كان يؤلمني إنني لم أستطع الاعتراف بأن الرسالة رسالتي. لقد تحملتُ الهجوم على المرأة البريئة تلافيًا للاعتراف بحقيقة الأمر، أنْ يجرّ إلى مواقف أشد وأعتى. لقد مارست الكذب وتماديت فيه غير عالم بما قد يسفر عنه في الوقت القريب أو البعيد.

إهدئي يا امرأة، أنت امرأة عظيمة، وأنا من جانبي لن أفرط بك مهما بلغ موقف هذه المرأة مني، ولا أظن الخطاب إلّا صيغة شخصية ليس غير، وإلا شيئًاعارضًا ولن يسمم حياتي معك مطلقًا، وأنا لا أحسب الرسالة هذه إلّا رسالة مودة بريئة صاغها قلم امرأة فنانة وأديبة. ثم أنها ستترك البلد وتذهب الى حيث يعيش أخوها في دمشق أو القاهرة أو عمان لا علم لي. إنها تروّج الآن معاملة تقاعدها لترحل إلى هناك.

شيئًا فشيئًا كنت أتقدم نحوها، نحو تهدئتها، حتى هدأت بين بحر دموعها ودموعي وكنت أقبلها بين آونة وأخرى، فاطمأنت قليلاً وعادت أخيرًا لتنام معي في الصالة، ولكن منفردين، بعد أن قررت قبل ساعتين النوم في غرفة النوم.

لقد مضت ليلة الخميس بقبلات حارة دافئة وكلماتٍ عاشقةٍ والهةٍ، تقارب عليها أخيرًا فراشانا حتى

أخذنا النوم نحو صباح الجمعة، وكان طبيعيًا وأليفًا، تناولنا على صداه الطيب فطورنا بشهية مقبولة. إن ما ينبغي أن أقوله هنا إنني لم أعرف ولا حتى في أفلام الحب الجنوني، قلبًا يفيض بالحب كقلب

زوجتي؛ طهارة أم تضحية، كانت من بين دموعها تتجلى وتتألق وتشف عن اكتنازات نفسها الزكية والنفيسة، وحبها الغريب لي وجنونها بي، وكان كل ذلك يأخذني الى حالة الإزدواج التي أعيشها.

وما ينبغي قوله هنا كذلك، إنني لم أشعر بالندم على حب بلقيس وما تسبب لي من جرائه. لم أحسد أولئك المسمرين إلى زوجاتهم المسحورين بحياتهم حتى لو كانت لا تستحق شيئًا. إن ما كان يؤلمني هو ما تسبب لزوجتي جراء غفلة عقلية قد لايقع فيها حتى الأغبياء، وما وقعت فيه من حرج بين الصدق والكذب، وما قد يتسبب لبلقيس لاحقًا لو علمت بالأمر، أو لو أدينت على شيء لم تفعله.

كانت الأمانة تقتضيني الإعتراف، بحقيقة رسالتي التي مصدرها أنا ومن ثم بحقيقة حبي، لكن ما سوف يقع على رأس زوجتي قد يفقدها، إن لم يكن حياتها فعقلها. لقد استعادت رسالة كانت عثرت عليها، وما تزال عالقة في حافظتها، فيها من الغزل ما يبوح بعمق العلاقة بيننا، ومع ذلك فلقد بدأت تهدأ رويدًا رويدًا حتى جاءت فترة الغداء وكانت أعدته لنا، كعادتها كل يوم جمعة، بشكل خاص.

كان حبها العظيم لي يهدهد قلبها ويطمئنه من جانب، وكان جرحها فيه يكبر ويهدد أملها من جانب، كانت بفعل طيبتها تنزع نحو السلام، وإن بدت بهيأة من تغامر بحياتها من أجل إنقاذ كرامتها. نعم كانت مستعدة لذلك، وتلك حقيقة لا مراء فيها لولا المسايسة التي اعتمدتُها للحفاظ على بيتي وسمعة المرأة تلك، وصيانة إسمها وتأريخها.

لأن حميد جارنا لم يستطع النهوض يوم قررنا صحبته عصرًا إلى الطبيب، قررنا اليوم صباحًا بعد أن تعافى من حمّى شديدة أثقلت جسده. قلت له على سبيل المزاح؛ أنت تطعم القطة كثيرًا وتدعوها إلى أن تدعو لك عند الله، ترى هل تعتقد بهذا؟ قال لا تتوقف عند هذا فقد يكون الإختلاف كبيرًا عليه عند الناس جميعًا، لكن صدق إنه يريحني ليس غير. أولاً أنا أحب الحيوانات برغم خلو حياتي السابقة منها. فانا وكما تعرفني سواح. لكن الله حينما ينزل رحمته على كائن يجلب له من يرعاه. لو أنك مررت على مكتبة الافراح في منطقة"أبو قلام" لوجدت صاحبها وهو شاب في عنفوان الشباب، يفتت قطع الخبز ثم يغمسها بالماء ويلقيها إلى جوار قاعدة عمود للكهرباء، ثم لشاهدت العصافير والحمائم كيف تكلكل على الثريد، ولرأيت في الوقت نفسه كيف هو سعيد. الله، ليس غير الله جنده لفعل ذلك ولا تظنه غير مؤمن بأن الله يراه وقد يجازيه. عندما تتقدم القطة من الطعام الذي ألقيه امامها، وتموء وترفع عينيها نحوي قبل أن تتناول شيئًا منه، يأخذني اليقين بأنها تشكرني فأفرح لان الله لا بدّ رآني. حسنًا تفعل يا حميد وكلنا يفعل ذلك إذ يرأف بالحيوان ولا يؤذيه. عند مواجهة الطبيب وإجراء فحوصاته عليه، اتضح له أن نسبة السكري لديه مرتفعه ولا شيء غير، فقلبه سليم تقريبًا وكذلك رئتاه، وما عليه إلا الإلتزام بنظام الغذاء، الإمتناع عن الحلويات والإقلال من النشويات والإكثار من الخضروات، أما اللحوم فالبيضاء قبل غيرها.

شع دم الفرح في وجه حميد الكـرادي الأحمـر أصـلا بـرغم جفـاف جسده، وتساوقت خطواته مع خطواتي، ثم ونحـن نقـترب مـن بيتينـا، أصر حميد على أن يكون غداؤنا غدًا في بيته، سمك مسقوف ليس غـيره، شيء لا ألذّ منه شيء، وأقسم بالمسيح هذه المرة " وعيسى الرسـول" ثـم تلاه بالإمام " والإمام علي الفحل" ، فـصارت المقاومـة ضـعيفة واللـزام لزامين.

هشيم قنينة العطر

لقد تواترت خلال إسبوع أحداث صغيرة وكبيرة كانت مثار حزننا المشترك وهمنا الدائم، وحيرتنا في ما نفعل وما لا نفعل، في ما نقدم عليه وما نحجم عنه، وإن كنت أنسى شيئًا أو أشياء كثيرة، فلن أنسى منظرها ليلاً، مقتعدة الأرض قبالة قنينة عطرها وقد تهشمت شظايا على الأرض. كانت تبكي بصمت، وتنظر الى الشظايا المتناثرة والعطر المسفوح من دون أن تحرك ساكنًا، بل كان كل شيء مما يبدو عليها صامتًا حتى جريان دموعها. سألتها، وقد عثرت عليها مصادفة، عن سر جلوسها هنا وفي هذه الحال.

قنينة عطري سقطت وتهشمت. تلك التي جلبتَها لي من الشمال. وقد احتفظت بها طويلاً. وقفتُ أمام بائع العطور الشاب الكوردي ذي النظرة الطموح وقلت؛ أفضل ما لديك من عطر وقد تاهت نظراتي بين

أنواع كثيرة، رفع يده نحو رفّ أعلى وعاد بنظرة مشرقة وعطر من نوع غريب، ولما سألته عن سعره قال مائة دولار. لم أقل لك أغلاها يا صديقي، أغلاها هو أفضلها قاعدة يا عم وهذا هو أزكى عطر لدي، وامتزجت إشراقة بسمته بإشراقة عينيه وهو يتسلم النقود. سآتيكِ بأزكى عطر، وأعرف لأنكِ تحبين العطور ستبتهجين، وقد ينزاح الصداع وتتصدع الظنون، وهذا أقصى ما أتمناه.

سرى الحزن في نفسي بل هالني المنظر كثيرًا، ولعله كان من أبلغ مناظر الحزن في نفسي وسيكون. وكانت كما يلوح قد تناولت القنينة لتتعطر لليلتنا تلك!

دعوتها للصبر فأنا سأعوضها عن عطرها هذا بعطر جديد. لم تقتنع بكلامي، فلقد تهشمت قنينة عطرها الذي استلطفته كثيرًا وهذا نذير شؤم!

بدأتُ ألملم قطع الزجاج الكبيرة بيدي وأضعها في إناء، ثم أجمع إليها القطع الصغيرة حتى بدأت تشاركني العمل في مسح الأرض فانتهينا بصمت، كنت معه كمن ينزف آخر قطرات دمه.

كانت تبدو مسكينة ضعيفة صابرة لا سبيل لها إلى غير هذا. لقد سقطت قنينة عطرها. يا لخسارتها. ويالخسارة الحب الوحيد والرجل الذي ليس (ككل الرجال). يا إلهها الرحيم! وانقادت إلى الفراش. ضممتها إلى صدري وقبلتها ألف قبلة ومنحتها ألف عهد. ولم أكن

كاذبًا، كنت على يقين بأنني صادق معها، ولكن بالحجم الذي أنا فيه صادق مع بلقيس، حتى لكأنهما نفس واحدة حلّت في جسدين، وفي هذا كانت محنتي وسعادتي معًا.

- بدأت أتأسى على هذه المرأة، بدأت أنظر إليها كما لو أنها أنا نفسي، ولربما سيكون من يقيني أن الرجل يدون بعضًا من رسائله هذه على حاسوبه وهو في البيت، تحت أنظارها البريئة أو في الوقت الذي تعد له فيه طعامه اللذيذ أو قهوته السائغة. لا أشك في أنه يتقافز هلعًا على حركات زوجته كلما اقتربت منه، أو وضعت على منضدته قدح مائه أو فنجان قهوته.

- أنا على يقين من هذا؛ أن يدون بعضًا منها في بيته، ولكن في مخالسة لا بدّ أن تكون محسوبة، ثم أنه ينصفها فيها بذكر حقيقتها الناصعة.

- تمامًا، ولكن إنصاف الجائر المستبد.

- على أي حال، نحن نقرأ شيئًا جميلاً، ولا جميل وليس فيه فتنة ما، وما الحب إلا فتنة العقلاء.

- إن كانت هذه المرأة ستقاوم هذا الرجل حتى حياته أو حياتها فإنما هي المعجزة. لا تقل لي أعدي لنا شيئًا للشرب أو الأكل، لقد سُدّت شهيتي.

- إعلمي أن الحب كالشمس فإن أظلمت في جانب أشرقت في الجانب الآخر، وقد تكون مسرات الليل هناك أعظم من مسرات النهار هنا.

كنت أرغب في أن اقول لها ؛ لنأكل شيئًا، فحتى الآن ونحن لم نأكل شيئًا ولم نهبط إلى الكرادة، هنا أمسى علي أن افتح شهية زوجتي ليس إلى الطعام وحده بل إلى الحياة كذلك؛ فزوجان وحيدان ليس عليهما إلا أن يكونا سعيدين وهذه مزية معقولة، تمارسها حتى الحيوانات وربما بنسبة أعظم.

- أبواب الكرادة مفتوحة، فالساعة لم تتعدّ الثامنة، سأدخل بك هذه المرة في كازينو العراق حيث لا أحسب أن امرأة دخلته مرة واحدة من قبل سواء مع زوج أو غيره، أعتقد أن منظرنا سيكون فريدًا ونحن نشق صفوف مئات الشباب، بحثًا عن كرسي شاغر قد لا نجده، هنا سترين مبلغ الإنبهار بمنظرنا، ثم عدد من يتبرع لنا عن كرسيه لنجلس، ولربما سنشيع بوجودنا روح السلام هناك، فقد لا يكون شيء أجمل في نفوس الشباب من صورة زوجين سعيدين.

إرهاصات قلق جديد

خيل إليّ صباحًا أن نفس زوجتي التأمت أو هكذا أظهرت لي آخر لحظات التوديع. طريقي كان سالكًا هذا اليوم إلى المؤسسة التي دخلتها الساعة الواحدة من بعد الظهر. مارست عملي بفتور لتوزع مشاعري. صديقي سعيد أقرب أصدقائي الثلاثة إلى أسراري، بما في ذلك أسرار بيتي. لقد تطارحنا أسرارنا بحمية الصداقة الصادقة، فلا حذر ولا كتمان ما دام الأمر لا يدخل في المسائل المحرجة أو المحرمة، لذا رفع عني متابعة السلامة الفكرية للموضوعات التي سنقدمها ليوم بعد غد. بدأت أحسب أنّ تطامن زوجتي النسبي مع وضعها أو وضعنا في أعمّ تعبير، هو في الدرجة الأولى من أجل نفسها التي باتت معذبة بي، لا من أجلي، فلقد أسقط في يدها ما يمكن أن تفعله امرأة مثلها؛ رهانها الأعلى على مبادئها في رعاية بيتها. كنت أخشى أن تتسرب سموم الشكوك

والظنون إلى دمها فتلوثه، ولعلها هي الأخرى كانت تدرك ذلك أكثر مني، إن لم يكن تسرب شيء منه إلى جسدها.

كنت الساعة ذي، وهي في حدود الخامسة عصرًا، ملتاعًا أبحث عن وسيلةٍ "لهوْيّةٍ" تمتص سمومي. لذا هبطت الكرادة مع الثلة نفسها من أصدقائي العاملين معي في القسم. قطعنا مسافة ليست بالقصيرة تحركت عليها مفاصل أجسادنا وسرى الدم في عروقنا وتمتعت أنظارنا بنسوة جميلات متمنعات ومتواطئات، طربنا على إسم إحداهن "رحاب" وصديقتها تناديها، لنشعر جمالها أكثر هذه المرة ونتابع لمعان نظرتها وهي تتوه في فضاءات قصيرة وبعيدة فإن وقعت علينا شعت بفتنة أصابت وغضّت، كان صديقنا سعيد هذا الذي يتكلم أكثر منا وينفعل أشدّ منا كذلك يقول؛ "الجمال حمّال". وما ظننت أحدًا منا لم يقل غير ذلك، أو لم تحط صورة من صورها المتناوبة على نفسه وعينيه. عطفنا على مقهى. جلسنا هناك، شربنا المعلبات الباردة ثم الشاي بأنفاس تراودها الآمال وهي محفوفة بالخطر. فها هي المدينة الجميلة برغم المحاولات الكثيرة التي استهدفتها ظلت مضيئة؛ محالها ومقاهيها مفتوحة وناسها يتجولون. بعد السابعة عدت إلى غرفتي المعزولة، بدأت أرتّب أوراقي ثم عشائي.

إن ما ينبغي عليّ القيام به، كنت أفكر، هو التدرع بالحلم والصبر. فهما الممكن الوحيد الذي بميسوري الإحتماء به، بل لاسبيل لدي إلى غيرهما لأنني أعرف أن قدري قدر صعب، ولا بد لي من المضي فيه.

غـدًا، هـذه الكينونـة الـصغيرة والكبـيرة، القريبـة والبعيـدة، سـألتقيها وسأحط بأحمالي بين ذراعيها، أتوسم أن تهدهد بيديها الحانيتين كاهلي أو تزيح عنه بعضًا مما يثقله، نعم:

"هل ستبزغ الشمس غدًا؟ مساؤك نور."

كنت أستعجل لفتة تطفىء ما كان يعتمل في داخـلي ولـو بكلمـة نعم، وكم ستكون كبيرة هذه الكينونة الصغيرة هي الأخـرى إذًا، وكـم ستنشر من النشاط في مفاصلي؟

حتى الساعة التي سيكتمل بعد دقائقها الخمـس القادمـة منتـصف الليل، لم توافني بجواب. هل اتصلت بها زوجتي وعكرت مزاجها؟ هل يعقل أن تفعل زوجتي ما لم نتفـق عليـه. إن جـلّ مـا أخـشاه أن تكـون فعلتْ، وأعظم ما أخشاه موقفي من الموضوع. وحتـى الـصباح القـادم المعلق سمْته في الغيب، بقي الأمر معلقًا بين الشك واليقين، بين الموقـف الصحيح والموقف الخطأ، أو بين أمور عدة لا أعتقد أن أحدًا منها أفضل من أحد.

تهديد صغير ولكنه مربك

قلبي يدق دقات خافتة ولكن مؤلمة. ها هو الأحد أخطو فيه أكثر خطواتي وجلاً. سأواجه اليوم أحد أكثر الأشياء صعوبة؛ الحقيقة الناصعة بكل ألوانها، التي لا أعرف كيف سيكون موقفي منها وكيف لي تفسيرها أو علاجها. أطللت على الغرفة المجاورة لتقديم سلامي الصباحي المعهود. لم تكن موجودة. اضطرب قلبي قليلاً. ثم بدأت أراقب حضور المدرسات، ومع خطوة كلّ قادمٍ كان قلبي يخفق ويخفق. استدعيت المعاونة سألتها عن الحضور، فأجابت بصوتها الذي جاء باردًا معتمًا هذه المرة، الحضور غير مكتمل والخطوط غير متيسرة، ألأمريكان يطوقون أحياء الجامعة والغزالية واليرموك والقادسية ومدينة الصدر، السبل مقطوعة والمنافذ قليلة. سألتها عنها فقالت إنها لم تحضر حتى الآن.

عيني على الباب رجاء أن أرى حضورها. ما حدث أن زميلتنا الكبيرة طرقت الباب عليّ واستأذنت الجلوس دقائق للإنفراد بي.

اذًا، لقد قدم الشيء الذي كنت أخشاه. قالت، تلوح على محياها الترف صفرة الرعب والخوف؛ سأسرك سرًا أرجو أن تحتفظ به فأنا زميلتك وأنت أهل للثقة وحفظ السر. بلقيس لا تستطيع الحضور اليوم. فلقد وردتها رسالة تهديد، ولا أكتمك أنها خشيت على نفسها من المجهول الذي لا يطاردها وحدها، بل يطاردنا جميعًا، فما وردها سيردني ويردك، ولا أظن أن هناك من حام يحمينا سوى الله، وإلا فبإمكان ثلاثة أطفال مسلحين استباحة هذه المدرسة لقتل من يقتلون واختطاف من يشاؤون، لقد تركتْ بيت أهلها ولجأت إلى بيتها طلبًا للهدوء هناك، وتصريف بعض شؤونها. إنها غير مرتاحة وقلقة، ولقد زارتني في بيتي وسرتني بتفاصيل الموضوع طلبًا لتشخيص مصدر الرسالة، فبدأنا باستعراض دائرة المدرسات حتى ضاقت فما عدنا نشك بواحدة منهن، إلا أن تكون أحلام وهذا أمر بعيد، إذ لم تصل قناعتنا كليًا إليها، وأعتقد أن الشخص صاحب الرسالة شخص آخر، أرجو أن تساعدنا على معرفته، إن رسالته جاءت مشفوعة بهذا الرقم، وعرضت عليّ الرقم، وكان رقمًا غريبًا وخاصًا أو من ذلك النوع الذي لا يمكن الإستدلال عليه مباشرة، قبل الإستعانة بمركز الإتصالات.

قلت؛ سأعرف الإسم، ويجب أن تعرفي ولتعرف بلقيس أنها لا تستحق ما لحق بها من آلام، وما تعانيه من أحزان وعذابات. هي امرأة

جليلة وذات نفس مرهفة لا تحتمل هذا التجني الذي لا مبرر له، ليست لها علاقة بأحد كما لم تكن يومًا عدوًا لأحد، وأنّ عليها أن تخبرها، بأن ما حصل لها هو زوبعة في فنجان كما يعبرون، وما هو إلا تدبير صبياني يحصل لكثير من الناس، جاري المسيحي الذي يقابل بيته بيتي، فتح عينيه صباح يوم على مظروف بداخله رصاصة وورقة تهديد أرعبته، كاد يغادر بيته فمنعته، ومكثت أزوره وأشجعه على الصمود حتى استعاد ثقته بمن يحيطه ويعلن عن وجوده بثبات، فانتهت الزوبعة فعلاً كما تنتهي بعض الزوابع في الفناجين!

تعال يا أخي هؤلاء هددوني بالرحيل فإلى أين أرحل وبغداد تقتتل، ثم ما لنا وتقاتلكم أنتم وصراعكم على حكمكم ودولتكم. لقد نفضنا أيدينا عن ذلك منذ زمن بعيد، ولا رغبة لنا هنا إلا في العيش الكريم، فلا وزارة ولا وزير كما لا إدارة ولا مدير، وكأننا لم نكن، نحن، أقدم الناس هنا، والوطن وطننا مثل غيرنا ولا نقول قبل غيرنا.

"لا أجرؤ على السلام عليك. حزني عظيم. التهديد أجوف ليتني أعرف من هو وراء ذلك". "سأغيب بضعة أيام لمشاغل خاصة بي. إحرص على نفسك وعلى هاتفك. تذكر إنها، تقصد زوجتي، دافعت عن بيتها وحبها وكرامتها وذلك من حقها، ولكنني لست مَنْ تفتن البيوت. وحيث أن عائلتك تصرفت دون علمك. تظاهر أنت بجهل ما حدث. نحن بحاجة إلى الحكمة".

بمشاعر دافقة من الحب والفرح والإعتزاز:

"بارك الله فيك. حكمتك أيتها الجليلة أزاحت عن صدري ثقل الجبال. سآخذ بها بصبر الأنبياء. لك حبي الذي لا يوصف".

لقد توقعت أن زوجتي هي التي فعلت ذلك، ولكن من أي هاتف والرقم غريب؟ عند الساعة الثالثة إلا ثلثًا بعد منتصف الليل جاءني إتصال هاتفي من زوجتي، وانقطع. تلفنت لها بعد دقائق من صمت، مساء الخير، انتِ اتصلتِ؟ نعم. كنتُ نائمة وفزعت على ألم في قلبي ولم أعرف تأخر الوقت فاتصلت بك، لكنني عندما عرفت ذلك أغلقت الاتصال. لماذا لم تتصل اليوم؟ كنت تعبًا ونمت مبكرًا. لقد أتعبني العمل.

كنت في حقيقة الأمر ترددت بين مكالمتها أو عدم الرد عليها، لكنني آثرت أن أجيبها، ولا أظن أنني أشعرتها بحزني على رسالتها. لقد جرى الحديث بيننا هادئًا بنبرة غير تلك التي تسود صوتي، أنا تحديدًا، عندما يكون الأمر طبيعيًا بيني وبينها. أخبرتها أخيرًا بأنني قد أعود إلى البيت حال توفرت لي الفرصة الملائمة: الأربعاء القادم أو الخميس. وانتهى الحديث بيننا على هذا الشكل.

ليس من شك في أن اتصال زوجتي في مثل هذا الوقت المتأخر كان لأسباب كثيرة، منها معرفة رد فعلي إن كنت أُعلمت برسالتها، ومن ثمّ التنفيس عن الفوران الداخلي الملازم لنفسها ما دام ثمة كتمان على

رسالتها، بما قد يعني إهمالها وهو أمر لا تريد أن تفكر فيه هي الجريحة بأعز من لديها.

إن ما دار بيني وبين زوجتي، ثم إذا ما استمر على هذا المنوال، سيضعها في دوامة مؤلمة بقدر من الأقدار، أعتقد أن خسارتها فيه ستكون أكبر خساراتها. ولكن ما أريد أن أثبته هنا، إنني برسالتي "القديمة" التي تم اكتشافها خسرتُ خسارتي الأكبر؛ خسارة الطائر الذي فقد جناحيه، كنت سعيدًا بحبين، طلق الصدر مملوء الفؤاد، مفتونًا بحظي، زاهدًا بحظوظ الناس، الدنيا كلها لي، أينما ألتفتُ؛ هناك حب وهناك محبة، لا يا صديقي لا. لقد فعلتَ بنفسك، من حيث تدري أو لا تدري، كل ما يفعله بنفسه المغفل الغرّ، فمهما اعتدلت الأمور فلن تعود الى ما كانت عليه قبل أيام. لقد فزّ قلب المرأتين، وصارت المواءمة بينهما ولو على سبيل الخيال أمرًا مستحيلاً، إذن الخسارة عامة ولا أدري أي شمس مضيئة ستشرق، لتبدد هذه الظلمات التي أغرق فيها الآن.

حال دخلنا الكازينو، كازينو العراق، عمّ الهدوء جميع الذين رأونا، توقفت الدومينو وصمت النرد وانقطع اللغط ولبثت العيون تطاردنا، لا كرسي في متناولنا اللحظة، فلقد شغلت الكراسي جميعًا وتراصت المناضد حتى وجدنا حرجًا ونحن نتقدم بينها، ثم إذا لم تنصرم ثوان أُفرغت لنا مناضد لا عدّ لها، ولكي لا تكون " الخسارة كبيرة" اخترنا منضدة مشغولة من شخصين قريبة من دجلة بنسبة ما .هناك تسربت الشجاعة إلى نفس زوجتي لمتعة الجلوس في مقهى كبيرة تجاور دجلة،

ويؤمها هذا العدد الغفير من الشباب، وثمة مطعم للمشويات وألوان من حارّ وبارد المشروبات، والخدمة بسرعة الريح. هناك تعشينا أمام أنظار الرواد، أكلنا بشهية، تنسمنا هواء دجلة، ثرثرنا عن مستقبل البلد لو ساده الأمن والأمان وأخلص في بنائه البنّاء. تأسينا على هذا البلد العظيم الزاخر بالشباب، وازددنا حسرة على هذا الوقت الذي يذهب سدى، بعيدًا عن مؤسسات ترفيهية أخرى كالنوادي الإجتماعية والرياضية، والحدائق العامة والمتنزهات المنتشرة التي تغطي حاجات الناس إلى الراحة التامة واللهو البريء. ما لفت نظرنا أكثر من غيره ليس العدد الغفير من الشباب، إنما انصرافهم إلى هذا اللهو بالمتعة الساذجة الطافحة على وجوههم، كان ألمنا يزداد كلما فكرنا بالمنتوج الحاصل من هذا الوقت أو غيره، لو سُدّدت أوقات مثل هؤلاء الشباب نحو ما هو أنفع وأمتع. إن ما غنمناه من جلستنا هذه ليس الحزن وحده أو كله، فلقد أمضينا وقتًا ممتعًا فيه كثير من التفوق على أحزاننا، إننا نعلم أن قبصة من السعادة أو الرفاهية هنا، تعدل ما تعدل من سعادة ورفاهية غيرنا ممن هم " هناك" ، وكأننا نفكر بأن السعادات هي جغرافيات أو هي كالجغرافيات؛ فيها الكبير وفيها الصغير، وقد يحمد الصغير الله على جغرافيته لأن فيها بعضًا من سعادة الكبير. ما لفتني أن سعادة زوجتي وهي تتطلع إلى هؤلاء كانت غامرة، أي شاب كانت تراه يوسفَ ابنها؛ يرفّ عليه قلبها حتى لكأنها تحكي معه أو تتجاوب مع مسرّاته. لا أظن أن شيئًا فيها أكثر من هذا حمل الجيران على تسميتها بالأم، لتفرح وتزهو

وهي قانعة بأن هذا استحقاق غير عابر ولا عابث، من ناس عقلاء يعرفون معاني الكلام. سدّدنا ثمن الطعام وتنازل صاحب الكازينو عن ثمن الشاي وبإصرار شديد من العامل المصري الذي جلبه لنا بيده، لا أظن ارتيادنا الكازينو هذا سيذهب عبثًا من جانبنا، زوجتي أولاً، وإلا فلماذا طلبت أن نرتادها في مساء آخر ونجد موقف الترحاب نفسه الذي عرفناه اليوم؟

الفوز

قلق يأكل نفسي؛ هكذا أنا الآن صباح هذا اليوم الإثنين. إن مكالمتها وحدها هي القادرة على فك الحزن عن نفسي، والكلام معها وحده الذي يغذي سعادتي. وبرغم أن الحديث معها سيكون اليوم غيره قبل بضعة أيام مثلاً، أصررت على الإتصال بها لأكثر من سبب، منها معرفة وضعها النفسي وذيول الرسالة وما تخلَّف منها في نفسها، كذلك حثها على تجاوز ما حصل وبالسبل والوسائل الممكنة، وما إلى غير ذلك مما يمكن الحديث به والتوسع فيه، ثم أن تكون الرسالة من امرأة ليست سوى أنها غيور على زوجها، لأهون الف مرة من مجهول لا تعرف قدراته ولا تكتنه نواياه. في حدود الثامنة مساء أرسلت:

"مساء الخير.. هل لديك الوقت للسلام عليك؟"

عندما لم ترد مباشرة حزنت. لقد مرت الدقائق وأنا أنتظر صوت الهاتف، حتى إذا لم يأتِ وقد طال الانتظار، اشتد الحزن وانبعثت الوساوس التي تأكل القلب. هل جاءتها رسالة مزعجة ثانية؟ هل يمكن أن يجرؤ أحد من العائلة بعدُ ليقدم على عمل جنوني آخر، وهل بميسورها أن تحتمل همًا آخر وحزنًا جديدًا؟ لا يا إلهي لا، فموقفي سيكون عنيفًا وحاسمًا وقد يتجه إلى نفسي. في خضم هذه الأفكار المدلهمة صدر صوت هاتفي بشيرًا بمكالمة منها. جاء صوتها العذب واهنًا؛ نعم. سلمتُ عليها، قلت لها، لقد تأخر الرد فاشتد بي الحزن وأخذت بي الظنون/ كلا الحمد لله/ اذن لتكوني مرتاحة فلا سبيل لنا إلى غير هذا ولاسيما أنت/ ليس ذلك سهلاً، لقد جرحتُ أبلغ جرح في حياتي، ولقد ذهلتُ بادئ الأمر على رسالة شديدة اللهجة نابية الخطاب فلم أملك غير الصبر، لأنّ ما ورد فيها كان جزءًا من رسالتك، الأمر الذي قيدّ أفكاري وجعلني أركن إلى الصمت، ولو كان الأمر بغير هذه الصورة لكان ردي مفحمًا ولرأيت كيف سيكون/ الذنب ذنبي أنا الذي يتحمل هذا الوزر وهذا الإثم، فاغسلي صدرك مما أصابه/ ليس ذلك ممكنًا الآن في الأقل، إن روحي مجروحة تمامًا / إنقلي آلامك اليّ. أنا الذي يستحق كل ذلك. أنا المسؤول المباشر عن كل ما لحق بك/ هل عرفت الرقم لمن يعود؟ / لم أعرف بعد لأن الأجهزة صارت كثيرة ومتاحة، ويمكن استعارة جهاز عسكري مما لا يمكن الإستدلال عليه بسهولة، من أخ أو قريب للإتصال بالآخرين/ لابد أن تكون محملة

بانطباعات أخرى، أي لابـد أن تكـون عـلى علـم واطـلاع عـلى بعـض الأشياء / قلبي يضيق أحيانًا بما يختزنه فأتحدث عنكِ بصورة عامة، ومن خلال أحاديثي ربما هجست شيئًا وتوجست منه / نعم يحصل مثل هـذا ولكنه غير صحيح أولاً. أنا متعبـة يـا سـليم وبي حاجـة إلى الراحـة ولا أظنني قادرة على تجاوز ذلك قريبًا.

تطلق إسمي صريحًا مبـاشرًا، حـارًا لا أعظـم مـن حميميتـه، كأنهـا اللحظة تدخل بين ضلوعي تحتمي من برد، أو تلوذ من خوف، أسـتقبل صدرها على صدري و أطمئن قلبهـا إذ أربّـتُ عـلى كتفهـا الملقـى عـلى كتفي، أشاور بين اذنيها أن تنعم بالـسلام مـا دمـت في حياتهـا وهـي في حياتي، أسمع خلجاتها، أهمس لها بقسم مغلظ بأنها في أمان ولـن تكـون في غيره، ترفع رأسها نحوي تحدق في عينيّ ثـم لمـا تـرى الـصدق فـيهما يبتسم؛ نضحك معًا ونتغازل، نعترف بحبنا كل عـلى طريقتـه ولكـن في همس ناعم بين الأذنين، أقبلها على فمها وتقبلني عـلى جبينـي، أضـمها وتضمني، أحلق بها إلى هنـاك حيـث البحـر نخوضـه معًـا ونغـوص في عمقه، وهناك في نوره الفياض نعيد القَسَم ونكرره كلما توغلنـا فيـه وفي جسدينا، حتى إذا أصبحنا واحدًا موحدًا عدنا إلى شاطئه، هناك أحمـدها وهناك تحمدني ثم نحمد الله / أنا بحاجة إلى رؤيتكِ فأرجو أن تداومي/ دعني أفكر وتصبح على خـير/ وتـصبحين عـلى خـير..إنّ مـا دار بينـي وبينها كان من قبيل تطييب الخاطر. ولعل الأمر حصل بهذه الـصورة أو تلك، وهو شيء جيد، وأغلب الاعتقاد إننـي إن فكـرت بمكالمـة ثانيـة،

فسأتجاوز الحديث معها عن الموضوع نفسه، بل سأذهب إلى إهماله حتـى يبلى. إننا قد نُبتلى بأشياء فإما تُبلينا أو نُبليها، ولمـا لم يُبلنـا مـا حـصل لنـا حتى الآن في الأقل، فإننا سـنُبليه مـستقبلاً، وفي هـذا كثـير مـن الفـوز، والبرهان ليس على قوتنا حسب وإنما عـلى رجاحـة عقولنـا معًـا وليـت عقلي قبل أيام كان كذلك.

أحلام والمؤتمن المحظوظ

بين فرصة وأخرى مضت أحلام تزورني، تعرض عليّ قصصًا غاية في البساطة الفنية وفي المقابل غاية في الإبهام وعدم الوضوح، كانت بخطها الضعيف ولغتها الملتفة أشبه بكتل هلامية لا يمكن النفاذ اليها إلا بمسبار دقيق يتحرك بآلية ذاتية نحو منفذها الخفي، كانت أشبه بهلوسات بقلم ضعيف لم يدرك سر لعبته، أو كأحلامٍ مزعجة تراها وليس بميسورك حلها. ومهما كانت طبيعة الغرض الذيٍ كانت أحلام تتخفى وراءه بقصصها هذه، فلم أكن مهيًا لتفسيرها أو لإبداء رأي مخالف لقناعتي فيها. كنت أحس الدوران حييًا أو صامتًا بعبارة أصح، ولربما كان لوضعي الشخصي والإداري وعلاقتي الرفيعة ببلقيس، الأثر الكبير في خلق معيار خُلقي في نفس أحلام نحوي لم تستطع تجاوزه بأي فعل صريح، وها أنا أرى المهمة صعبة للغاية لكلينا. ومع كثرة

المحاولات وتلاشي أصدائها مرة بعد مرة، كان الأمر يخفت بيننا حتى انقطعت عن زيارتي وتركت التفكير فيّ أو أجلت الكتابة في قصة جديدة. كانت أحلام تفكر، بحس المرأة التي ترى بأن لا رابطة ودّ بين رجل وامرأة إلا وخلفها حب أو جنس، أنّ ما يسود علاقتنا؛ بلقيس وأنا، حب كانت تريده لها. ولما شعرتْ أن هذا أصعب مما برحت تفكر فيه توارت في إجازات متقطعة خلف أعذار شتى. كنت أراها منطوية فأعطف عليها، أسألها عن قصصها فتصمت، فأعود أحزن من أجلها. وأعترف بأنني خلال اللقاءات التي جمعتني بها كنت أحس أنني لم أكن موضوعها الوحيد، بقدر ما كانت تحس أن بلقيس غريمة لها وعليها أن تقاويها بإسلوبها؛ الفن الذي قرب بيننا أو قربني منها. إن ما يمكن أن يُلقى على أحلام من ذنب أنها لم تفصح بجلاء عن أفكارها، إنما كانت في حقيقتها العميقة تحاول أن تنفذ عبر صنعة الفن إلى العالم الأرحب الذي تحسه فينا، فأجهضتُ أحلامها بتغافل غير نبيل. كنت في تصور دفين للغاية أستبق أحلامَ "أحلام"، فأقول؛ إن كان لديكَ مع زوجتكَ حبيبة، فليس من العدل والذوق أن تكون لديك مع حبيبتكَ حبيبة.

كان توجهي هذا اليوم الثلاثاء إلى المدرسة دونما رغبة مني. كانت رغبتي في الحياة قبل هذا المنعطف الكبير على أشدها، إنما بمستوى رغبة الشباب بحياتهم التي يحبونها ويحيونها. إن ما يطوقني الآن يسحبني إلى مواقع مجردة، إلّا من هذه الحقيقة الصارخة التي باتت تعصف بخيالي، وتجرده من سحره الشاعري، و إيقاعه الجميل وتهوياته الغزيرة، لذلك

ما أن وصلتُ وجلستُ إلى منضدتي حتى فكرتُ في ما ينبغي عليّ فعله، إذ لم تعد نفسي تمتلك طاقتها المنعشة القديمة. وإزاء مجموعة الكتب والمراسلات المكومة على منضدتي، كان علي أن أعاين ما يصلح منها للعمل السريع ردًا أم إجراءً، وهي معي أستشعر ترف ظلالها، أقارن وأدقق الفكر في الفارق بين حضورها وغيابها، حتى لم يعد ثمة من مجال لنكران أن ما يؤلمني الآن ويبهظ روحي هو غيابها:

"نعم. المكان بالمكين، هكذا تقول وحشة غرفتي".

مع اليأس من الحضور الجميل، تضخم الشعور بالوقت وأصبح العالم رماديًا. وها أنا أُنعم البصر في الكتب، وأدقق النظر في الأفق من خلف جدران غرفتي، متجاوزًا حقيقة أنها لن تأتي، متصالحًا مع أوهامي وأحلام يقظتي. لا شيء عجيب في هذا العالم، وما لم تتوقعه يحصل في أي لحظة غير منتظرة، لكن وهمي كان وهمًا خالصًا حتى تلاشى الوقت وكان كئيبًا تمامًا. كنت قبل ساعة التقيت زميلتنا المقربة في غرفتي واستدعينا بعض مفردات الموضوع، واتفقنا مثلما هو المطلوب منا أو من أيٍّ غيرنا حصل له ما حصل لنا، أن نصمت وأن نداري كل شيء بالحكمة والتحرك السليم. وكنت وددت لو صارحتُ زوجتي برسالتي موضوع المشكلة، ورفعت عن حبيبتي المسؤولية التي عُلقت على كاهلها وهي البريئة منها، لكانت رسالتها التهديدية في غير محلها. هنا حسبت أنّ المشكلة ستكون صريحة وحادة وفي الصميم، وسيكون الحاجز بيني وبين زوجتي منيعًا، وأن عودة علاقتنا السابقة ستصبح مستحيلة إن لم

تكن أصبحت، الأمر الذي لا أفكر فيه الآن، هذا إذا وضعت في الحسبان علاقتي مع بلقيس وحجم ربحي فيها. إن ما يثير هيامي فيها مثلاً، أنها حتى اللحظة لم تسألني عن عمري والفارق بين عمرينا، هي التي تصغرني بعشرين، عن ظروفي الصحية، بل لم ترسل لي ولو إشارة طفيفة عما ستؤول اليه علاقتنا وما قد تجنيه منها، لقد كانت أشبه بالمبحر في الخيال لا يشعر بما يزدحم به الواقع الأرضي. وأعتقد أن السحر الذي يلف كيانها؛ شكلها وقلبها هو الذي يمنعها من السؤال وهو الذي يأخذ بها الى حيث سعادتها وسعادة الآخرين. لقد انصرفت كليًا عن الدنايا والمباشرات، وازدرت بها وبأصحابها وبمحيطها المؤلم المدنس، وارتفعت بخيالها الثر إلى حيث محطات الرفعة والعلا والجلال، فلا تجد في لسانها ما يلوث الأذن ويغلظ القلب ويؤذي الضمير، إمرأة كأنها خلقت من عسل. عسل لا يقربه ولا يحظى به غير المؤتمن المحظوظ.

سكّر خفيف وسكْر ثقيل

لا أظن شوقًا يأتى عنوة؛ فهو كماء النهر يُرسل من أعلى منحدر. وخزيني في ذلك جبار ينحدر من ذراي فتكاد لا تمنعه سدودي، فها أنا مشفوف بالشوق إليها حتى فكرت بمراسلتها، لكن سرًّا ما حولني إلى زوجتي التي فأجابتني باكية بأنها مريضة جدًا. وما مرضك؟ لقد ظهر أنني مصابة بالسكر. وكم درجة السكر في دمك؟ ١٦٥. هذه درجة متواضعة وغير مخيفة، ثم أنكِ فحصت دمكِ بعد تناولك الطعام بساعتين أو ثلاث وهذا غير أن تفحصي صباحًا وقبل الطعام، فلا تكترثي. لقد رفع الأطباء نسبة السكر في العراق من ٦٠ إلى ٩٠ أو ١٠٠ إلى من ٧٠ إلى ١٣٠ فسكرك خفيف أو لا سكر لديك قياسًا على "وضعك" هذا. كنت بجوابي الماثل هنا أدافع عن حقيقتين؛ أن الأحوال السيئة في العراق أصابت الجميع، وهي من الضخامة بحيث ألغت

المعيار العالمي للتحقق من الإصابة بمرض ما في العراق، كالسكري تحديدًا، ثم لكي أخفف من شعورها وشعوري بأن ما حصل لها هو بسببي أنا. كنت شديد الأسف على حالتها الصحية والنفسية، مثلما أنا شديد الحزن على المرأة الأخرى التي أجهل الآن وضعها النفسي والجسدي. غادرت المنتدى الذي عرفني عليه مصادفة صديقي القاص الخمسيني، ذي الجسد النحيف والقلب المرهق ببساطته. في الشارع العام ولم أعد أملك نقودًا، اتصلت بولدي أحمد أن يعود بي إلى البيت، وصفت له الشارع والمكان الذي اخترت انتظاره عليه. كنت وأنا مقبل إلى البيت أداري موقفًا صعبًا إذ ما زلت محزونًا جراء الرسالة التهديدية التي أرسلتها زوجتي إلى بلقيس، وبرغم من الصورة الجميلة التي واجهتني فيها زوجتي وكانت برفقة ولدي الآن، لم أغتصب إلا ابتسامة مبتسرة ربما أحزنتها فانقلب مزاجها، وخلدت إلى الصمت أو إلى الإجابات المقتضبة. ولما كنت أعرف أن نفسها بيدي، وأن كل شيء قصير إلا الآلام، حاولت أن أتراجع قليلاً وأستدرجها إلى الحالة التي تتمناها، وهي الأسلم لجميع الأطراف. بادرتها بالسؤال عن صحتها، ثم التفت إليها أسألها عن أخيها الذي تزوج للمرة الثالثة، ونوع الهدية التي يجمل أن نقدمها إليه، وسؤال من هنا وآخر من هناك حتى وجدتها تربّت على كتفي؛ أن اطمئن ولا تبال بالهدية ونوعها، فالهدية التي أفكر فيها الآن هي التي بين يدي، فإذا دخلنا البيت كانت استجابتها كلية للوضع الجديد، وكانت نفسي طمحت إلى ارتياد ذلك المنتدى الذي

تعمل على الخدمة فيه نساء، وكنت زرته مرة من قبل مع صديقي ذاك، وفتنت غريزتي المخمورة إذّاك نادلة فيه، تلبس ضيق اللباس وتغري بكلام هامس تغنجًا مصنوعًا ومغريًا. هناك تناولت من المشروب ما لم أتناول من قبل، كنت وحيدًا مسكونًا بهما، زوجتي وبلقيس، وتتكرر على عينيّ هذه النادلة التي بتّ لا أكاد أتبين صورتها وأهبها على خدماتها المفتعلة نقودًا لا أعدها، تتسلمها وتفرّ، فأراها في عيني المشوشة تعدها وتلتفت إلي من بعدها؛ تلّوح لي بيدها وتقبّلني، ثم حين تعود ثانية لتقف على طلباتي، ولم تكن لدي طلبات، أنقدها نقودًا أخرى، ولا أدري إن كانت هي التي تنصرف أم أنا الذي يصرفها. كان كل شيء يجري في خيالي وواقعي سهلاً رخيصًا لا أعدّه ولا أندم عليه، حتى إن خرجت من النادي لا أملك فلسًا! كنت في الحقيقة جذلانَ حتى دخولي البيت، أقول في سروح وهيمان ؛ قوتك يا رب فما أنا إلاّ بشر وما هو إلا الحب النبوي الذي أنزلته بيديك الجليلتين عليّ.

- هذا الرجل يغرينا، بل يغوينا، ألا تصبين لنا كأسين من نبيذ هذه المرة، حتى أقص عليك لعبة ذلك النبيذ ومشهد ذلك المساء؟

مع أول رشفة صعدت نشوة خفيفة إلى نفسي، كيف إذًا مع الثانية؟ هاتي قليلاً من الثلج، هي لا تشربه مثلجًا مثلي، الرشفة الثانية كانت أبرد، أكثر ملامسة للقلب العطشان، ومع الثالثة بدأت تتشكل الغيوم، شارع أبو نواس يتألق مع أول المساء ووفود الشاربين تتوافد على بار

"المشرق" العريق، نحلّ أنا وصديق على مائدة منفردة، نوصي على قنينة نبيذ لندحرها، بتعبير أحد الأدباء، سريعًا فتصعد النشوة حتى أعلاها وأعلانا، ثم إذا نهضنا متثاقلينِ حتى الباب الخارجي لم نعرف طريق عودتنا، وبدلاً من أن ينصحنا الصبي الصباغ الرابض في مقدمة البار الى الطريق الصحيح، أشار لنا نحو الطريق المعاكس. صُبّي لي بعد، بدأت أتألق كما يقولون، نعم أحسنتِ. في مسيرة لم تكن قصيرة ولا طويلة ولم نتبين أضواء الباب الشرقي، أحسسنا أننا خُدعنا؛ فما قطعناه نحو البار من الباب الشرقي أقصر مما قطعناه عنه، فعدنا أدراجنا الى الصبي الصباغ لنعاقبه على خديعته أولاً . لم يكن هنالك صبي صباغ، فلقد أدرك هذا عواقب لعبته وفرّ. اليست هذه على بساطتها هو ما تتوق اليه النفس الآن أو تتحسر عليه وتعده من أمانيها الراحلة أو خساراتهاالمبينة؟ بيد أن ذلك كان طريفًا وجميلاً ربما، ولم نكن لا أنا ولا صديقي قادرينِ على معاقبة ذلك الصبي ذي المزحة البريئة! كنا في الحقيقة غير مباليين بالخطأ الذي قادنا إليه ذلك الصباغ، ذلك أن من إغراءات دجلة وقد عبرنا الشارع إلى الرصيف الذي يحاذيه، أنه كان يستحثنا على المضي معه لنغني له، كان صديقي ذاك بصوته العذب يقطع بي المفازات من دون أن أملّ منه، بل كنت ميالاً إلى ذلك باستمرار. كان صوته يأخذني إلى أدق عواطفي أنا الشاب الذي يحس الحياة موهوبة له وحده! شارع أبو نواس منور، تحف به أشجار اليوكالبتوس بعطرها الحيي، ونسيم أول الليل يملأ الأنفاس، وتعال يا صديقي ندخل المعهد الثقافي السوفيتي، لنشاهد بالألوان

الصبيعية الحرب والسلام بنسخته الروسية غير المعربة بعد، يترجمها لنا صديق عاد توًا من الاتحاد السوفيتي "طيب الذكر"، لنؤخذ بالعرض العظيم للفلم وبمجريات أحداثه الضخام الى جانب جمال الأميرة هيلين التي كانت "تبدو مشفقة من سلطان جمالها المفرط الخارق، وكأنها تبحث عبثًا عن وسيلة تخفف من بغْيهِ وطغيانه" مثلما يكتب تولستوي. أعرف أنكِ لم تكملي كأسك الأولى ومع ذلك ففي نفسك من الخفة ما لا في نفسي! ها أنت تتجلين بثوبك الرقيق المنساب بترف لين على جسدك الجميل وشعرك المعقوص إلى الخلف كأنك سيدة رفيعة من سيدات بلاط.

- وماذا كان من عودتكما؟

- سالمين غانمين. وما تظنين يحدث لنا يا ترى غير أن نعود نغني مسحورين؟

- إذًا يا لتلك الأيام حقًا.

- أعتقد أنني أميل إلى ذلك، أجبت عن سؤالها عن كأس أخرى.

- انتبه الساعة الثانية عشرة ليلاً، لنتوقف عن القراءة.

- وماذا تريدينا نفعل؟

- أغلق الشاشة.

- كنت اعتقد أنك تريدين شيئًا آخر!

- دعها تسترح ودعنا ننم. أتظن الرجل هذا صادقًا في ما يقول؟

- أعتقد ذلك إذ لا أظنه مكرهًا على الكذب.

- على أي حال بدأت اشعر ظلمة في نفسي أرجو ألّا تستمر معي حتى الصباح.

- الأشياء من حولنا هي التي تملؤنا بالظلمة، الحب هو الوحيد الذي يملأ الحياة بالنور، هو الوحيد الذي يرى الإنسان فيه قرينه مثل نفسه، متجليًا بالأناشيد.

- أغلق الضوء من فضلك، بدأت أنام، أصبح النوم حريتنا الوحيدة إلى الأحلام.

- الحب هو الصورة المثلى للحلم، والحلم هو الغاية المثلى للوجود، والوجود هو الغاية التي لا يمكن تحقيقها إلا بالحب، هيا إلى النوم ما دمت ترغبين في ذلك، وإن شئت فهيا الى الحلم.

- نعم إليه إن كان ذلك ممكنًا الآن.

الحق

ها أنت ذا تصل إلى المدرسة متأخرًا لظروف الطريق، عقب صراع بالأسلحة الخفيفة حصل بين حيين متجاورين من أحياء رصافة بغداد، عمّت آثاره وأصداؤه عموم حركة السيارات ذلك الصوب، قتل فيه فضلاً عن عدد من المتحاربين شاب مستطرق صديق لولدك الكبير، لم تكن له علاقة عملية بمذهب هذا أو مذهب ذاك. جلستَ إلى مكتبك يشلّ نفسك حزن وقنوط، فقبل قليل سقط شاب في ربيع شبابه وكنتَ تتمنى ألّا تكون عرفته لما حزّ في نفسك من ألم عليه، كما أنها غير موجودة وها أنت تتمنى أن تكون أمامك. اضطرب خافقك، هنالك بلبلة تصيب ذهنك بين أن ترغب ولا ترغب وتتمنى ولا تتمنى فلا يتحقق لك شيء من هذا ولا من ذاك. تشاغلتَ بقراءة بعض الكتب الجديدة التي وردت إليك، تابعتَ سير التدريس ودوام الطلاب، إكتشفتَ كما

من قبل كثرة الغيابات، أحزنك ذلك بل جرح فؤادك، عددتَ ذلك هدرًا ليس في مستقبل الطلاب حسب بل في مستقبل البلاد كذلك، فما ينجم عن ذلك من خراب عام سواء في المسؤولية الشخصية أم في الإقتصاد الوطني وحتى في الأخلاق، شيء ليس بالقليل. كلمتك قبل أيام ذهبت بلا صدى، لم تطق صبرًا، ولربما انعكس حال المدرسة على نفسكَ فما لبثتَ أن سألت إحدى المدرسات عن سر غيابها، ودعوتَها للإتصال بها لمعرفة السبب فجاء الجواب أنها مشغولة الآن وستداوم الثلاثاء القادم، وليوقع الأستاذ على استمارتي طلبًا لإجازة.

عند الثالثة من بعد الظهر تناولت غداءك في مطعم شعبي في الكرادة، تتوفر فيه على الواقف شتى الأكلات السريعة، إلى جانبه صانع ماهر للشاي يضع بعض المقاعد الخشب الصغيرة لمن يحبذ الجلوس دقائق ويرحل. غادر زملاؤك المؤسسة بعد ساعة من وصولك فأمسيت وحيدًا. نمت. استيقظت في السادسة والنصف ودقائق. تناولت الشاي من الترمس الذي ملأه لك عامل الشاي. قرأت في البريد الثقيل، شعرت أن مسؤوليتك تزداد وتزيدك إجهادًا، وطفقت تكتب رسالة إلى زوجتك: "مساء الخير. أرجو أن تكوني بصحة جيدة. كيف حال الجميع."

ولكي تتفرغ لما يقلق قلبك جراء غياب بلقيس، تلفنت لزوجتك التي لم ترد على رسالتك، قالت؛ هاتفك مشغول. قلت: كنت أتصل بصديق، ردًا على مكالمة سابقة لم أجب عليها. انتهى الإتصال بينكما على

ما يرام وكان هذا يفرحك تمامًا، إذ تشعر أن أي حالة طبيعية في مزاجها، إنما هو ترميم لنفسها ولعلاقتكما معًا كذلك، وسبيل الى طلاقة عاطفية تطفو في رحابها بين شاطئين كلاهما جميل، ثم ها أنك تنعطف إليها:

"مساء السلام. غيابك آلمني. أنا الآن في المؤسسة. لك راحة البال".

ها هي الساعة تشير إلى منتصف الليل فانقطع الأمل. ستقرأ في رسائل كنفاني إلى غادة السمان، لتعطيه الحق في كل ما صدر منه إليها هو المناضل الأديب، ذلك أن منزلة الحب لديه هي المنزلة الوحيدة التي تسمو بقامة الإنسان، ليحنيَها، من بعد، لمن يقدس أو يحب؛ (ولكنني متأكد من شيء واحد على الأقل، هو قيمتكِ عندي. أنا لم أفقد صوابي بك بعد، ولذلك فأنا الذي أعرف كم أنتِ أذكى وأنبل وأجمل. لقد كنتِ في بدني طوال الوقت. في شفتي، في عيني وفي رأسي. كنتِ عذابي وشوقي، الشيء الرائع الذي يتذكره الإنسان كي يعيش ويعود. إن لي قدرة لم أعرف مثلها في حياتي على تصوركِ ورؤيتكِ، وحين أرى منظرًا أو أسمع كلمة أو أعلق عليها بيني وبين نفسي، أسمع جوابكِ في أذني كأنكِ واقفة إلى جواري ويدكِ في يدي)

- الحب يتوالى بين الناس، البسطاء وغير البسطاء، هذا غسان. أنظري، ولكن أي حب هذا الذي يثري لغته هذا الثراء الجميل؟ إنني أعتقد أن وراء أي لغة جميلة حب، دون ذلك تأتي كالقشور.

- أنا لم أقرأ لغسان غير " رجال تحت الشمس" وفي ظني أن زمن غسان، وإن هو ليس بالبعيد، زمن مختلف.

- أبدًا، الأعجب أن غسان كان يكتب لغة الحب وفي يده بندقيته، ولا أظن غسان نام ليلته من دون أن يتحسس بندقيته وقلبه في آن. بيروت، لغم، بل لغز، ولكن قولي هو الحب الذي يهزم الأزمان.

المراودة تعود

بعد أن أصبح موضوع أحلام في عداد المنسيات، انتهزتْ اليوم شاغرًا بين دروسها لتزورني. سلمتْ واستأذنت الجلوس فرحبتُ لتجلس على الكرسي الذي دأبت بلقيس تجلس عليه. أحسست منذ اللحظة الأولى أن بركانًا صغيرًا يُضرم داخلها لكنها لا تقوى على إطلاقه، إما لأن كوابحه منيعة أو أنها تريد من يزيح غطاءه، أو لأننا في مدرسة. ولعل من حسنات الوضع البشري، أنك تستطيع معالجة بعض براكينه بأكثر من طريقة أو إسلوب؛ هكذا كنت أفكر لحظتها لأستقبلها بود غامر، وأتمهل معها بالحديث عن صحتها التي عرفت من يومين أنها ليست حسنة، ثم أنتقل إلى الحديث عن مشاكل التدريس التي من أسبابها مشاكل البلد وما تعصف به من تيارات متباينة، وأسألها عن مشاكل الطلاب التي هي جزء من كل لا ينفصل عنه، ولكي أسمع منها

أجابات قدرت أنها ستكون إحدى المنافذ إلى الإلتفاف حول موضوعها وتسريب ما يمكن التسريب منه، كنت أسكت وأنتظر حديثها.

لم أشأ تعذيبها بتأجيل الدخول مباشرة في ما توقعتُ أنها جاءت من أجله، بل كنت أسعى إلى تجزئة ذلك بالدوران حول موضوعات شتى، لذا أضحيت أمعن في تمهلي فأقطر حديثي معها تقطيرًا، ولم تكن إلا قليلة الكلام قياسًا على لغة جسدها المضطرب، لأحسب كل مرة أنها تنهض الآن لإلقاء نفسها عليّ أو مغادرتي.

كنت أريد أن أعلن عن بهجتي بزيارتها ووجودها معي بعد أن خذلتُها من قبل، لكنني خشيت سؤالها؛ ولماذا لم تدْعُني؟ وقد تضيف؛ مثلما تدعو غيري. حقًا كنت أخشى ذلك بل حسبت أنه سيكون المفتاح المنتظر لفتح بوابة البركان. على تُؤدة مريحة دخلت معها على قصصها وآخر ما كتبته أو فكرتْ فيه، مما ظننتُ أنها طلقته نهائيًا ولن تعود إليه. قالت أنها أجلت الموضوع وقد تعاود الإنصراف إليه لاحقًا؛ وسأكون سعيدة إن عاودتَ معاونتي على تقويم ضعفي، بل ما أشد رغبتي في ذلك. توقفتُ عند بعض كلماتها من مثل "تقويم ضعفي"، و "أشد رغبتي" لكنني مضيت سريعًا، فلست بعالم نفس يبحث في الرموز، فرحًا بأنني قد أكون أنجزت معها شيئًا مفرحًا، بدأت أشعر معه بأنني أطهر ذاتي مما عددته واحدًا من ذنوبي، فبين ما كانت تريده حقًا ولا تسفر عنه تمامًا كان عليّ أن أنجز ما أستطيع إنجازه، فلربما خفف هذا من غلواء عذابها. شكرتها ثانية على زيارتها قبل أن يعلن الجرسُ عن بداية الفرصة، لتصافحني هذه المرة وتسرع إلى غرفة المدرسات.

كل شيء ممتنع

يمكن أن يكون هذا عنوانًا حقيقيًا وصادقًا وبحدود مطلقة، لما يسودنا من صمت تام حتى صباح هذا اليوم الثلاثاء. ها أنا أفكر في الموقف ووقع الأحداث، على قلبها الرقيق ونفسها المحبة، فيأخذني اللوم والتعنيف والتوبيخ في صور محتدمة تنصب على زوجتي وعلى نفسي، ثم ما ألبث في المحصلة النهائية أن أدين غفلتي وسوء عقلي وتفكيري.

إن الذنب الذي أشعر به الآن، أطاح بالكثير من طموحاتي وأحلامي، وأحالني الى رجل آثم محبط تلاحقه خيباته وانكساراته، لتدفع به إلى اليأس والأسف والمرارة. هل ماتت الأحلام، وأصبح الشيء الجميل الذي كنت عليه قبل أيام، خبرًا قديمًا جارحًا يحز في النفس ويتعداها إلى الجسد؟ هل ستكون لحظات اللقاء القادمة، لحظات

فاصلة بين حدين؛ حد الأمل وحد اليأس؟ لقد آلمتُ نفسها وكبرياءها ومن حقها أن تأخذ عليّ ما تأخذ، ولها العذر في ما ستكون عليه اليوم أو غدًا. إنّ ما أخشاه هو أن تحيل نفسها إلى التقاعد، أو تأخذ إجازة طويلة قد تسافر فيها. إحتمالات كثيرة كل منها مؤلم ولا طاقة لي على تحمله. كل ما كنت أعرفه مسبقًا أن المواجهة لن تكون سهلة بأي حال. جلست إلى مكتبي مشدود الأعصاب، مأخوذ النفس. لم أُطق البقاء في غرفتي. دخلت غرفة المدرسات بوجل أول الأمر، ثم حين لم أجدها سلمتُ وجلست.

كنت أجلس أحيانًا في غرفة المدرسات تعزيزًا لروح الصداقة والمودة بيني وبينهن، وللتقرب إلى روح العمل كذلك، فمن حسن أخلاق المسؤول يستمد الموظف عزمًا إضافيًا على العمل، وهو الأمر الذي يسود العلاقة هنا.

عدت إلى غرفتي. بعد مضي زمن ليس بالطويل، مرت على غرفتي زميلتنا المقربة، سلمت عليّ وانصرفت سريعًا. لم أمهلها ونفسي وقتًا طويلاً فتلفنت إليها أستدعيها. جاءت على الفور باشة الوجه. سلمت عليّ وجلست، قلت كيف هي؟ قالت جيدة والحمد لله، الآن أفضل. ألم تحضر؟ بلى وصلت قبل لحظات. الحمد لله، قلت في سري وعطفت؛ لا بأس من أن أراها، هي امرأة كريمة. أنت كفيلة باختيار الوقت لكي أراها. نعم. وغادرت.

لم أستطع الصبر، إذ ما أن جلبت المعاونة كتابًا تطلب التوقيع عليه حتى أصبح أمر استدعائها مقبولاً. قبل أن تدخل غرفتي نهضتُ من مقعدي، سلمتْ ومدت يدها لمصافحتي، قائلة، كيف الحال.

حين رفعت نظري إلى وجهها رأيت الحزن الكريم يلوح على محياها، فقلت أهلاً وسهلاً. ثم أردفتُ، كيف الأمور؟ لقد أصبح الدخول في الموضوع بأي صورة من الصور أمرًا لابد منه/ وماذا تتصور/ نعم/ شيء غير معقول/ صبركِ الجميل وصدركِ الواسع العظيم كفيلان بجعل الموضوع نسيًا منسيًا/ على العكس، كلما مرت الأيام ازداد شدّة وثقلاً، وكلما نظرتُ في الأمر وجدت شيئًا دخل صدري وفصل بيني وبين.../ وأشارت بيدها إلى قلبها. وكانت تريد القول، إن الشيء الذي حصل لها قد وقف حاجزًا بينها وبين الذي في قلبها/ كلا.. أنت امرأة عظيمة، والخطأ خطأي أنا أولاً/ لقد جُرحتُ وغضبتُ منها "تقصد زوجتي" ومنك، كان يجب ألّا تترك أمورك على هذه الصورة. كنت أحسب ألف حساب لكل رسالة أبعثها إليك/ نعم،أنتِ حكيمة لقد عضضتُ على إصبعي، ولكن الندم فات وعلينا اليوم أن نتجاوز ما حصل،أنتِ لفتة الله إليّ، إحفظي هذا عني أنتِ لفتة الله اليّ، أنا أحبكِ حبًا جنونيًا، أفي نفسكِ شيء يسرّي عنكِ؟ شيء أقدمه لكِ؟/ لا تفكر بهذا أبدًا/ أنا الآن سعيد، لقد عدتُ سعيدًا/ وكانت جميلة. لبست بدلتها السوداء بخطوط فضية طويلة ووضعت على رأسها شالاً أبيض كان في حركاتها ينزاح قليلاً ليبين خيط خمري من لحم أعلى صدرها. لأول مرة أرى صدرها. كان قميصها الأبيض منخفض

الصدر يتيح لخيط من صدرها ان يستقبل النظر حال يتحرك شالها أو تنحل لفّته. لقد قلت ما كان بوسعي أن أقوله. وهي مطرقة تستقبل كلماتي بقبول صامت، ولكن راسخ، جميل وباسم كذلك. دعوتها لكي نغادر المدرسة معًا، فضجيج الطلاب والطالبات يؤلم الرأس. لا، طريقي مختلف. قلت؛ هو طريقي كذلك. قالت؛ لا. أرجوك. سأغادر قبل الثانية عشرة فهناك من طلبت مني حصتي. ودعتني حال خرجت إلى غرفتها، ثم عادت وودعتني وهي في طريقها إلى خارج المدرسة. كنت أفكر في بحر من العواطف الخالصة بأنني أعيش حبًا بلا غد معلوم، مهما يوفر لي هذا الحب من سعادة كبيرة وفائقة، فقد كنت أرجو أن لا يصدمني بنهاية غير سعيدة. ولا أدري إن كان غريبًا أم لا إن قلت إنني أعيش الآن حالتين متصادمتين، يمكن أن أدعوهما بحالتي الحضور والغياب. في حضورها، وبرغم ما تؤججه صورتها بين عيني وفي خيالي، يتملكني جلالها فتغيب رغبتي فيها أو تصمت لوعتي، فأصير كالقديس في محراب عبادته. أما في غيابها وفي وحدتي بشكل أخص، فتتوهج عواطفي وتثار كوامني. أتحرر من كوابحي وأغلالي، فأتمناها وأترغبها، أستدعي أجمل صورها ولا أمنع نفسي من تملّكها. كنت اشعر يومًا بعد آخر بأنني أمضي بثبات مرغمًا أو راغبًا نحو الحالة الأولى حيث كل شيء ممتنع على أن لا يكون إلا زاهيًا وخلابًا.

فجأة نهضت زوجتي من مكانها وسرحت نظرها عبر زجاج الشباك وتأففت قائلة:

– أتعرف أننا ربطنا نفسينا إلى هذه الشاشة كما لم نفعل مثل هذا من قبل؟ نسينا أو كدنا جولاتنا العصرية أو المسائية اليومية، المتعة التي نكتسبها ونحن نتابع مسيرة ساعة أو حتى ساعتين، متطلعين تارة في الوجوه الجميلة السمر متريحينِ في كوفيه، أو شاقينِ زقاقًا قصيرًا الى دجلة نصافح بأنظار منفعلة صمته المسائي، وكأنه كائن غريب مرتحل الى المجهول يجر أنفاسنا معه، لا أشك في أنكَ ستشاركني الرأي في أننا نجد غذاءنا الروحي كل مساء هناك قبل أن تستبد بنا وحشة وحدتنا آخر الليل، والأسى الذي يغمرنا كلما تذكرنا ولدينا البعيدين.

– لا تُذْكي ناري كل ساعة بهذا. لسنا وحدنا. دعي نظرك يتجاوز أنفك، قلت بشيء من نفور.

– ما الشيء الذي لا يذكيها، ثم ما الشيء الذي لا يذكي ناري أنا الأخرى، والنار فوق وتحت؟

– عليك ان تنتبهي إلى أن لديك ولدين بعيدين عن هذه النار.

– نعم. ولكنهما متباعدان كلٌ في مكان ؛ مالمو وستوكهولم.

– أكرر؛ مريم تزوجت والحمد لله، ويوسف يمارس الطب هناك وكل ذلك يبرر سعادتنا بوضعيهما، إشكري الله، ولا تكرري ذلك.

– قلبي يرف عليهما والمشكلة أنه يخفق على كل دوي وكأنهما في صلبه. لا أعرف لماذا.

– لأنك مسيحية الجميع أولادك. هذا شعور عظيم.

– .....

– هيا غيري ملابسك، قلت وقد وجدتها سرحت عني، سنتعشى السمك على شاطىء دجله، وليكن يوسف ومريم معنا.

– بل كل الناس، هكذا أطيب وألذّ.

– أتسمعين؟ جهازك يرن. هناك رسالة لك.

أسرعتْ إلى الهاتف بوجه غامض ملموم على هلع مجهول، بيد أنها جاءت مستبشرة الوجه، طليقة الروح:

– الحمد لله، مريم حامل، يا له من خبر سعيد.

– الحمد لله والشكر له. قلت، ودعوتها أن اسرعي في ارتداء ملابسك. حلاوة الفرح أن يأتي بلا موعد معلوم، فيهز أعطافك كموجة برد.

– هيا أنا جاهزة. قالت ذلك وعلى خديها تحرك دم خفيف. تقدمتني. لم تلتفت إلى صورة لنا أول أيام الزواج، كانت باللونين الأبيض والأسود، الشعر الفاحم القصير المفروق على الجانبين والنظرة الوادعة والبسمة الهادئة. على أصداء ما خلفته الصورة في نفسي تناولت يدها، وتابعتها الى الشارع بأشجاره المنداة ووجوه ناسه السمر، وحتى قطعنا مسافة ليست بالقصيرة كانت يدانا متصلتين. خطواتها هادئة

تمامًا، وتسبقني قليلاً وأمسى عليّ أن أسايرها في هذا، كنت سعيدًا، ولم يكن شيء يستدعيني إلى غير ذلك. لقد بدأ الليل يعلن عن نفسه بجلاء، تُبدد بعض عتمته أضويةٌ "منتقاة" تتوزع باضطراب على مسافة الشارع العام، لم تكن أضوية أبو نواس هو الآخر بأفضل منه، كان المطعم المقصود بعيدًا نسبيًا، لم نعبأ، منذ اختلفنا إليه أول مرة، وكما سنفعل لاحقًا في كازينو العراق، بخلّوه من النساء، لم نفكر بأن هناك مشكلة أن يدخله زوجان، كان تصميمنا على العشاء يزداد كلما مضى الوقت، وثمة سلام يطفو على قلب دجلة الكبير، زوجتي بنظراتها المتطامنة تدعو من يسقط نظره علينا أن تعال شاركنا، ولا أظنها إلّا أن تفعل ذلك لو تقدم هذا منا، ففضلاً عن طبيعتها الكريمة كانت منفتحة الروح على أخبار مريم، وذاك الذي يتحرك في أحشائها الآن.

ونحن نعود تراءى لي أن سعادة زوجتي بلغت أشدها، لم نأكل كثيرًا وإن مشينا طويلاً، لكن رغبتنا في شاي البيت كانت عظيمة، لذا بادرتْ زوجتي، ما أن دخلنا البيت، إلى المطبخ تعده على نار خافتة ليطبخ جيدًا فيصبح لذيذًا. لقد ظل الشاي ميزة مائدتنا عقب أي طعام.

بمرتبة الأم هي الأخرى

لأن بيته قريب، رغبت اليوم ظهيرة الجمعة في زيارة صديق، أقضي معه هناك، وقتًا لذيذًا مع القهوة المرة الألذ، وغالبًا ما قطع معي في طريق توديعي شوطًا ليس قصيرًا، حتى أمنعه من الإستمرار. كنت أعود منه خفيفًا لمقدار ما نتبادل من آراء في الأدب والسياسة، وكثيرًا ما كان يستمع إلي بتقدير خاص، ولربما أولاني منزلة أكبر مني. منذ أمس وأنا أخطط لزيارته اليوم مراعيًا درجة حساسيته في قبول الزيارات. كنت في الوقت نفسه أعدّ لمفاجأة زوجتي بعودة مبكرة تتجاوز توقعاتها كل خميس، حتى أنها ما أن ظهرت لها إلا وأمسكت بيدي وقادتني إلى الحمام، هناك طلبت منها أن تدلك جسدي فلا طاقة لي على ذلك. يجري الأمر بشفافية عالية لتطبع قبلة على شفتيّ، وكامل جسدي مغلف بالصابون وتغلق الباب علي. لأنني كذلك اليوم، هيأت لي عشاء مبكرًا

ظللت أماطل بعده الكسل والنعاس، لنوم مشترك، حتى الثانية عشرة ليلاً.

وأنا أشغل عصري بارسال رسائل عبر الانترنيت الى مجلات وأصدقاء، ألاحظ زوجتي تهبط من الطابق الأعلى، تحمل بيديها صينية فيها بقية طعام. توقعتْ أنّ هناك إبن أخت لها يزورنا كل جمعة حتى كرهتُ زياراته، ودرءًا لما قد يصدر مني نحوه فهي تحاول جاهدة الصعود به للأعلى ضيفًا على ولدينا، وقد يقضي ليله عندنا دون أن يهبط فأراه. كان يمكنني كل مرة، أن أرتقي درجنا الأملس الذي كنت أتحاشى صعوده وأدخل الغرفة لأجده، أو لإعلمه بمعرفتي بوجوده وإنني غير مرتاح لهذا وقد أطرده، بيد أنني والحق كنت أحبه وما يُكرهني منه اطّراد زياراته، وغير هذا لا يزعجني شيء منه. كانت حساسيتي وأنا أقرأ أو أكتب عالية ونتائجها علي كانت مزرية، من ذلك ارتفاع نسبة السكري في الدم وضيق في التنفس وكراهية العمل الذي أجريه. أسألها عن صعودها الى الطابق الأعلى وعما بين يديها. تجيبني؛ إبن أختي وكلمة إبن أختي هنا تشير إليه كما يشير إسم ما إلى علم، لأن أحدًا من أبناء أخواتها لم يجرؤ على المبيت في بيتنا غيره. قلت لا أعلم بوجوده متى جاء؟ منذ ساعة أو ساعتين، قالت، ووجدتها تحبذ إنهاء "التحقيق" وكنت أود ذلك ففعلتُ. حساسيتها إزاء مشاعري نحو هذا الفتى تحرجها وتعذبها، أعرف ذلك وأدركه، في الوقت عينه أجد مشاعرها إزاءه قد تفوق مشاعرها نحوي، وأن لديها الإستعداد لقتالي

إن وجهتُ إهانة مباشرة له، فهو إبن أختها لا يفعل شيئًا سوى أنه يقضي بعض أيام إجازته العسكرية مع "أخويه"، فلا فرق بينه وبين أيٍّ من ولدينا أحمد وعلي، ومهما يكن من أمر فلقد كانت في العموم تتجرع بغصة تمتص لونها، كثيرًا من "خفيف" تلميحاتي! وغالبًا ما كنت أراها تمسح بصمت عينيها فيزداد لوم نفسي، ولربما أغلقتُ ما بين يدي لأن أسفًا طويلاً سادني. بمضي الساعات كنت أراها تتحاشى نظراتي، وتصم أذنيها عما قد يبدر مني من دون أن تتجاوز رغباتي في الطعام أو الماء أو الشاي، كنت أشاهد ساعات يومي تذهب كريح الصحراء؛ في زيارة صديق، وغداء خاص هو غداء الجمعة كما اتفقنا عليه، وقيلولة ساعة ونصف أو ساعتين، ومراسلات، ثم عشاء خفيف وليس في يدي شيء نديّ، وها هي الساعة تعلن عن منتصف الليل، ولا صوت فوق يشير إلى أن ثمة حياة هناك. جاءت بعد أن أغلقتْ التلفزيون وقالت، أنا ذاهبة للنوم وابتسامة شحيحة تطفو بعسر على شفتيها. كانت منذ لحظات تشاهد لقاءً مع أحد الفنانين العرب الكبار، وهي مغرمة بمثل هذه اللقاءات ولا سيما مع الرجال منهم، وأولئك الذين تظهر زوجاتهم معهم وتحديدًا أكثر، أولئك الذين يولونهن اهتمامًا أكبر. كانت تعيد إنتاجي في تلك اللقاءات منفردًا بنفسي بعيدًا عنها فتحزن، ثم إذا قصّتها عليّ، قصّتها بحرارة منقطعة النظير وببراءة طفل ولكن جميعها يقول إلّا أنا، فأحزن وأتأسى لأنها جديرة بأن تكون معي ولو مرة واحدة في لقاءاتي التي صارت كثيرة، بفعل اطّراد نجاحي في عملي؛ لماذا في الغرفة

وليس في الصالة؟ أفضل، ترد، وحسبتُ أنها ستنفرد بغرفتنا وتعد لي فراشي في الصالة، ولم يحدث هذا فاشتركنا في فراش وثير واحد، وقد استرجعنا مزاجًا كأن لم يحصل أن مرّ عليه شيء مُر. كانت وهي توليني حنانها الصامت العميق، كبيرة وحبيبة وبمرتبة الأم هي الأخرى.

مباشرة

ليس من الصعب أن تعرف أحلام أن بلقيس تطلب إجازة بالهاتف، وأنها لن تحضر اليوم، وأن عليّ أن أوقع على طلبها.

منذ اللقاء الماضي طفقت أحلام تزورني عند حدود عتبة غرفتي لسلام عابر وتمضي، أرى على سطح وجهها لمعة طفيفة من لون وردي تلاشى بافتنان مع لونه الأبيض الثلجي، وفي عمق عينيها لألأة فرح قريب.

تنتهز أحلام ساعة انصراف بلقيس إلى درسها أو إجازتها وتحضر إلى غرفتي؛ تدق الباب وتسلم وحين أدعوها للدخول تنصرف. كنت أتمنى أن يحصل هذا بوجود بلقيس لترى الإندفاع الجديد نحوي. ولما كنت أعرف بلقيس ومناعتها العالية كنت أتأسى على أحلام في سري لأنها ستكون في آخر المطاف ضحية وهمها معي.

كل مرة وهي تطل وتذهب أتقرى في عينيها دعوة كأنها تقول لي فيها، إن رغبت فتقدم فلن أنتظر طويلاً، فأكذب نفسي.

أعرف أنها تذهب، من بعد، إلى غرفة المدرسات تغمر نفسها بينهن؛ قليلة الكلام منطوية الجسد برغم ما يكتنز من ثراء.

أحسها مع توالي الأيام تتدرج نحوي وتحاول رويدًا رويدًا التعلق بمبادرة جديدة لم أعرف كنهها، تخيلتها حملت من زوجها مجددًا، وكم سيكون ذلك مُسرًا لي ولغيري، حتى جاءتني بقصة كتبتها حديثًا. ولما كنت أعرف خطوطًا عامة عن حياتها، أدركت منذ نظرتي الأولى أنها تكتب قصتها؛ قصة حياتها. فقدت أحلام طفلاً بعد أشهر من ولادته، وعقب سنة من زواجها، وظلت تنتظر مجيء طفل آخر طوال خمس عشرة سنة من ذلك.

ما لم أعرفه، ولم أفكر في أنه من شأني، معرفة سبب هذا الحرمان، ومن مسببه، هي أم زوجها، وما الذي طرأ حديثًا أو لم يطرأ، وقد أنجبا طفلاً من قبل.

أنعمت النظر في الأوراق وعنوان القصة الغريب "من أجلِ قدومِهِ" ووعدتها بقراءتها في البيت، حالما تتاح لي فرصة إلى ذلك.

كنت صادقًا حقًا بعد ما لفتني عنوانها. لم تبتهج أحلام بكلامي، إنما رغبت في أن اقرأها الآن. ولما لم أكن جاهزًا لذلك، إذ غالبني اللحظة التفكير ببلقيس وسبب إجازتها وما يكون ألمّ بها، قلت في البيت أفضل، فهنا لا يمكن التوغل في خفايا القصة وفنها ومن بعد الحكم عليها.

نهضتْ تسحب أوراقها. منعتها من ذلك بنعومة ولطف، وأن ذلك من مصلحتك ومن فائدة عملك، وأن هذا هو ما يهمني معك. جلست مكتظة الجسد منفعلة النفس كمن أحبط في شيء آخر جاء من أجله أولاً. دقائق مرت حتى هدأتْ ونهضتْ ثانية وتدانت مني، تحني جسدها على أوراقها التي بين يدي كما لو تدقق فيها لأشم خفيّ عطرها، وفمها الأحمر يقترب من فمي. رفعت نظري إلى عينيها لأجدها تنظر إلي نظرة ولهى تدعوني فيها لاحتوائها.

على العكس من بلقيس التي تترك الباب مفتوحًا حينما تزورني، أغلقت أحلام الباب خلفها فمن المعذور لمن يدخل غرفتي غلق بابها لأكثر من سبب وجيه، منها الضوضاء التي تدخل علينا أثناء انصراف الطلاب إلى الساحة بعد كل فصل.

مع اتصال كتفينا وفمها يكاد يلتصق بفمي وثمة من قد يفتح الباب، أسقطتُ الأوراق أو هي سقطت إلى أسفلي، فانحنيت ألتقطها من هناك متشاغلاً بلمها بعض الوقت، لأجد لونها الوردي قد شحب وانكفأت جذوة النار والنظرة الواهة، لتترك الأوراق مبعثرة على منضدتي وتنصرف من دون وداع.

كنت أحزن مثلما كل مرة، فلا أدري أي حلم يتحقق لأحلام عبري، سوى ما أقوله من حُكم على قصصها، قصصها ذاتها، وهو ما بمقدوري أن أفعله لها ليس غير.

– تتذكرين الرسائل التي كنت أكتبها اليك، أسقطها في طريقك أو أبعثها بيد ماريا العجوز قريبتي لقاء دريهمات، كانت على ورق، شهادات وثائقية كانت لها رائحة الورد بل رائحة الحب نفسه.

– وكم كنا نضمها إلى صدورنا، بل ونضمها فيها حذر أن يراها أحد من أهلنا.

– أوراق ملونة، مطرزة زواياها بورود أو فراشات.

– كان عمي الطبيب فيليب، يريدني لابنه يعقوب المنقب بالآثار والمهووس بتاريخ العراق القديم، حتى أنه كان يفتخر بالتراب العالق على ملابسه حين يعود من عمله كل شهرين أو ثلاثة؛ هذا تراب أجدادي السومريين،هذا تراب أكد وبابل وآشور، وكان الحاجز أنتَ برسائلك وحبنا الجارف، وهو بعمره الذي يفوق عمري بأكثر من عشر سنين.

– أعرفه يعقوب، كنت أدعوه عمي.

– ما يزال حيًا، يتجاوز عمره السبعين، عوده قوي، وله من الأبناء سبعة أولاد ذكور لم يترك أحد منهم العراق. أكبرهم بولص طبيب في القوش وآخر، افرام، في قراقوش، والآخرون موزعون في مركز الموصل وفي بغداد في وظائف ومهن أخرى.

– كان يعقوب منتميًا لليسار العراقي، وعرف ما عرف من أشكال البؤس والتعذيب والحرمان بعد ردة شباط ٦٣ ومقتل الزعيم عبد

الكريم، ويمكن أن يكون لعوده قبل إيمانه تلك الصلابة التي عرفها عنه جلادوه. لقد كان أشبه بسنديانة عتيقة لا تأبه للأعاصير.

- لكنه خرج بجسد مثخن بالجراح.

- كان هذا شأن الجميع، أو لنقل من خرج حياً، وإلا فالموت كان هو الشيء الأكثر احتمالاً. كان خاطبًا وقد انتظرته خطيبته ثلاث سنين. وفاء كانت أسمًا على مسمى، والآن هي أم أولاده السبعة النجباء.

- أعرفها فهي قريبتي أيضًا ولكنني أقول؛ كم أود لو عاش الناس في أمان.

- لا أمنية لي تفوق ذلك.

آثرنا الصمت، فلربما كان الصمت على الأمنية من قبيل الإصرار عليها، فيحققها الرب قبل أن تفسدها أمنية أو أمانٍ أخرى.

إنفراج

إن أفضل ما ابتكره الإنسان أو أكتشفه أو حظي بـه هـو قـدرة الله، فلم تكد تمضي عشر دقائق أمهلتُ قلقي عليها حتى شخصت بين عيني. لقد سرني اليوم أن كان طريقي سالكًا إلى المدرسة عقباته قليلـة، بحيـث وصلت مبكرًا. سلمت على المدرسات ولم تكن حضرت بعد. إن صمتها على رسائلي وتأخر حضورها، يولد في نفسي اضـطرابًا لـه قـوام الهـلام السام، ثم إذا سألتُ عنها المدرسة التي دخلت غرفتي وأجابـت بأنهـا لم تحضر بعد، منحت القلق الممض دقـائق أخـرى، حـضرت بعـدها مثـل شجرة صفاف يانعة.

بابتسامتها الرقيقة الحالمة دخلي غرفتي وسلمتْ. مدت يـدها التـي صافحتها بشدة حتى قبلتها، ودعوتها للجلوس. سـألتها عـن صـحتها، فأجابت الحمد لله. حين مضى بنا الحديث، قالـت إنّ ضـغطها مـا يـزال مرتفعًا وأنها اضطرت خلال هذه الأيام للنوم في المشفى. أبديت أسفي،

فما كان بمقدوري أن أقول أو أفعل غير هذا. ثـم قالـت إن الأمـر أكثـر خطورة إذ قد يهبط إلى الأسوأ، فحزنت وقلت كلا، يا امـرأة كـلا. قلـلي من القلق وتناولي غذاءً ممنهجًا، أسرعت بالتإكيد على أنها لا تأكل أصلاً إلّا القليل وتعتمد في مجمل غذائها على الفاكهة والخـضروات. وتأملـت وجهها الذي لم يجرؤ الزمن ولا الأحزان على خط حروفـه عليـه فقلـت لها، أحبكِ. قالت. لقد آلمتني الرسالة كثيرًا. لقد جاءت قاسية تمامًـا ثـم أنها بلبلتني في كيفية تناولها وفي معرفة مصدرها. هل هي من واحدة من المدرسات، فاستبعدت ذلك، إذ لا واحدة مـنهن "تحبـك" أكثـر منـي. وتوقف ذهني عند هذه الكلمة ونز فرح داخلي عميق في قلبي. إنها المـرة الأولى التي تعلن فيها صراحة حبهـا لي. لقـد طفـرت الكلمـة مـن بـين شفتيها بجميع حروفها وبكل جلائها. وفيما كنت تعلقت بها مضت هي في حديثها، حتى انتهينا أخيرًا إلى أن موقفي من زوجتي حتـى الآن هـو الموقف السليم إذ "لا يجمل بك أن تكون قاسـيًا مـع امـرأة تحـب بيتهـا وتحبك".

لا أشك في أنها كانت وما تـزال مجروحـة منهـا، نعـم. لقـد أدمـت كرامتها، وجرحت مشاعرها، في فجاءة لم تتوقع أن يحصل فيها مـا وقـع لهـا، بيـد أن قلبهـا الـذي كـان يـدعوني لتقبـل فعلهـا بالتـسامح معهـا ومعاملتها بالمعروف، كان يفصح عن فرادته أولاً وعـن حجمـه الكبـير ثانيًا. ولكي لا نسترسل في أسباب ومـسببات مـا يـنغص جلـستنا وقـد امتدت زمنًا طويلاً، عطفتُ الكلام على أشياء خاصة، من مثل ملابـسها وجمالها، فكانت متواضعة عالمـة بتعـدد الأذواق والأشـكال والألـوان،

وأنها لا تعدو أن تكون كغيرها، ثم نهضت وقالت لأذهب. قبل أن تفعل ذلك هتف هاتفها على رسالة ما، حدقتْ فيها وأرتني إياها: "بلقيس حبيبتي، أمي، كياني في غربتي، أنا بخير أحلف بالله فلا تقلقي، إياك أن تقلقي، أسمع صوتك حينما تبكين وحينما تضحكين، أضحكي ليكون إبنك مسرورًا". هل كانت بلقيس بعرضها هذا تجيبني على ما كان يخامر ذهني من سؤال عن سرّ عدم إنجابها؟ إن لم يكن هذا جوابًا مباشرًا على سؤال في الصميم فهو تطمين على أن للمرأة رجلاً بمثابة الإبن أو هو إبن لا خلاف، يسد بعض وحشتها مهما كان قرب أو بعد نسبه منها، وإن أي سؤال عن ذلك فائض لا جدوى منه. كنت صادقًا وعاطفيًا وأنا أشاركها بهجتها، لنتفق على موعد الثانية عشرة والنصف، وهنالك طيف من سعادة حمراء يلون خديها.

ونحن نغادر المدرسة عطفت طريقي على مكتبة دأبتُ على ارتيادها، سألت صاحبها عما صدر حديثًا لباولو كويلو. ردّ بأن لم يصل شيء منه حتى الآن، لا بد من سنة أو سنتين أو حتى أكثر لنعرف ما يصدر لهذا الروائي أو لذاك. نحن ننتظر مثلما أنتم تنتظرون، وما لدي له غير الخيميائي وساحرة بورتوبيللو. ذكرني كلامه هذا ببائع قروي دكانه أشبه بالمعطل ينتظر ما يأتيه من بضاعة المدينة فلا يأتيه. أسفت، فالروائي هذا موهوب ومقتدر وممتع ولا مندوحة من قراءة ما يصدر من جديده، وكنت أود أن أطلعها على أدبه هي التي لم تكن قرأت له غير روايته ساحرة بورتوبيللو سالفة الذكر، وقد عبرت عن رغبتها

في ذلك بعد أن تحدثت لها عن روايته ذائعة الصيت (الخيميائي) فابتعتها لها.

إن أفضل ما أنعم به الآن راحة النفس ولكن المشوبة بحزن ما، ذلك إنني كنت قبل ساعة من هذا الوقت، اتصلت بزوجتي فعلمت منها أنها مريضة معذبة. لم تنم ليلها البارحة حتى الرابعة فجرًا، فدعوتها للراحة والإطمئنان، وأنْ لا شيء يستوجب القلق والألم، وكان من أسئلتها لي، هل داومت اليوم؟ تقصد عملي المدرسي. قلت، نعم، ثم لأتخطي قلقها وسؤالها عن طبيعة يومي، أعلنتُ لها عن ضعف جسدي وارتجاف أعصابي وهو صحيح، فاتفقتْ على أنّ الأمر يحدث لها كذلك، ثم دعتني للاهتمام بصحتي والعناية بنفسي. أخيرًا ودعتها وتمنيت لها ليلة طيبة وبأنني سأعود إلى البيت يوم الخميس، أهلاً بك ردّت ثم أضافت؛ إذًا سأهيء لك فاكهة لا ترفع سكرك؛ الكمثرى كما قرأت. في التاسعة والنصف، أي بعد ساعة من الشروع بكتابة كلماتي هذه، وجدتني منساقًا الى مراجعة كلماتها. كنت سعيدًا بما فاهت به شفتاها هذا اليوم "لا واحدة تحبك أكثر مني". إنه إعلان صريح وفردوسي جاء عبر ألم وجرح. إذًا ما أصدقه، وما أعمقه وما أحبه.

حلمي غير المتوقع

المكان غائم، كأننا في قاعة عرس، أو كازينو، أو مجلس عام أو خاص، الجميع بين جالس وقائم وثمة ضوضاء مبهجة تسود المكان، كؤوس سائلها ساخن وبارد تلوح على الأيدي بين الثبات وحركة الأخذ والعطاء، وثمة حركة ممن يبحث ضمن الزحام عن مكان فلا يجد فما يلبث أن يعود، ليجد في طريقه باحثًا آخر يحذو حذوه، وهكذا في عالم كان في كل الأحوال جميلاً ومسرًّا. يجلس كل منا على مقعد وثير، محاط بمقاعد متجاورة لا سبيل لعابر من بينها، مقعدها يتقدم قليلاً على مقعدي، ليمسي ظهرها المكشوف لوحة ذهبية يطبع قبلة عليه كل آن فمي، ذراعاي ملتفتان على رقبتها تشدهما إليها بيديها ولا تكف، أو تمسد أصابعي كما لو تريد التأكيد على رغبتها بي. كان الجمع في سعادة جميلة ولكن هائمة، تمامًا مثل صورهم، مثل عيونهم التي ما كانت تحط على شيء، أنا الوحيد الذي كانت سعادته موعاة مدرَكة وقريبة العيان،

جميلتي التي أحبها وأهواها أمامي؛ ظهرها سافر تحت فمي؛ أقبله كل لحظة، وكل لحظة أشعر سعادتي خالصة وأنها لي وحدي، ملكي الذي لا ينازعني عليه منازع، أنا به متفرد الغنى، طويل القوام. ثمة في مكان ما نساء شعورهن شقر وسود وحمر، وكؤوس زجاج شفاف يتماوج الشراب فيها بحسب حركة أيديهن، ونظرهن منصب على أشياء غير محددة لي، لعل ذلك ناتج من كثرة الوجوه القائمة أمامي، وما انصرفت إليه بكليتي في فرصةٍ ما لم أحسبه حلمًا وإن كان أجمل أحلامي. كان المشهد المكتظ بالوجوه السعيدة والجميلة معًا، والعيون المنفتحة بانبهار وكما لو في هيمان، يذكي إحساسي بلحظتي فأنساق في طبع قبلاتي دونما قلق أو تردد، بل كنت أدفع جسدي نحو جسدها لولا حواجز المقاعد التي نجلس عليها. ولعل من حسن حظي في حلمي هذا، أنه امتد بي إلى أن تعطف رقبتها نحوي وتطبع على فمي قبلة امرأة أكملت رغبتها بي، ثم ها هي تشكرني. كانت قبلتها شديدة الحرارة أفرجتْ عقبها عن ذراعيّ وأغلقتْ حلمي! في الصباح وجدت جسدي متوترًا في ذروة رغبة عاتية بينما نفسي هائمة؛ لقد امتلكت شيئًا منيعًا تمامًا أحطته بذراعي، وقبلته قبلات سعيدة أظن أنها ستلازمني هي والحقيقة سواء. هكذا انا أسير هائمًا في حديقة مريعة، إلى جانبي شجرة تفاح يانعة، أقبّل تفاحتها ولا أقضمها. لربما كنت أسعد بذلك، وأحظى برضا غايتي، كانت تحدثني وأنا أفيق أخيرًا من حلمي، أنه أمس زارها؛ أمس منتصف الليل زارني، أبى بإشارة من يده أن يجلس على سريري، في عينيه عتب

وعلى شفتيه طيف غضب، قلت ما بك ياغفور؟ تقدم خطوة، يحدق مليًا في عينيّ، ثم تقدم أكثر وقال، مع من أنت الآن؟ قلت ماذا تقصد بـ مع من؟ أقصد مع من تعيشين بخيالك الآن. لم أكذب ولم أناور إذ ما عادت مساحة نظرته الضيقة تسمح للكذب أو المناورة، قلت مع سليم. اليس هذا نقضًا للعهد؟ قال. حقًا لقد أدمى بكلامه هذا قلبي، لكنني أنا التي لا تجيد الكلام إلا نادرًا قلت، ألم يكن صديقك مثلما عرفت في الأخير، جاء يسدّ بسحره الأخاذ فراغك يا غفور؟ لقد كان مثلما كنت لفتة كريمة حلقت بي نحو المجاهيل، ولو كنت حدثتني عنه لأشبعت خاطري به ولكان مثل عديد إصدقائك النادرين، كنتَ مع القدر خبأتماه لي وكان الوحيد القادر على ملء فراغك الأليم. لقد ظل وجودك شاغرًا حتى خشيت إن ظل على حاله، أن تتساقط فيه السنون فيهرم أو يموت. لم يحصل بيني وبينه أي شيء تأسف أو تلومني عليه يا غفور، لقد مضى غفور وحل وجهه الآخر سليم، لم يعد في الامر إلا مَن يسد فراغ المتوحد الوحيد، ولم يكن غيره هو الذي يشبهك إن لم يكن هو ذاتك أنت ليس غير.

لا أعرف يا سليم إن كانت بسمة هزء تلك التي رماني بها وغادر غرفتي. ظللت أتابعه وهو يغادر الدار، ويطيل النظر في الأبواب حتى خلته مرة يدق باب سابع جار ويترك موقعه بعد أن ملّ الإنتظار. كانت خطاه الراحلة بطيئة ثقيلة، خطا من يرحل إلى مكان لا يرغب فيه، وكان

ذلك يبعث على الأسى، كان شيئًا يفوق الخيال. كان الفجر قد

أطل، وهذا الشيء الذي كم أحبه غشيته دموعي. أغلقت ستارة شباكي وعدت إليك، مشكلة الإنسان أن الحياة لديه أقوى من الموت؛ هذا الذي نسير نحوه باطمئنان بليد. كنت أريد لجسدها أن ينهار على جسدي، أن تطلب عوني، كانت قوية لتمسح دمعة واحدة وتحدق في وجهي؛ تبتسم وتقول ؛ الحياة حلوة يا سليم ألا تشاركني الرأي بأنها تستحق الفناء؟

بشرى صدور كتابي

السبت، وبعد قضاء مساء الخميس ويوم الجمعة في عش عائلي يحيط بي في عناية بالغة، وصلت عملي من دون عوائق مرورية كالتي تحصل غالبًا. قمت بأعمالي وواجباتي. كان العمل سهلاً إذ وجدت مَنْ أعدَّ الأخبار قبلي، وهو الأمر الذي يحصل كل سبت تقريبًا. كنت مع زملائي في وئام دائم، وأغفر لنا جميعًا ما قد نقع فيه برغم الرقابة الذاتية التي تدعونا ألاّ نقع في خطأ. كنا نعمل على وفق وصية مدرب سيرك إلى لاعبه "في عالم مملوء بالأخطاء عليك وحدك أن لا تُخطىء". أو على وفق قولة رجل دين "أُصلّي الليل على وضوء النهار". كانت جوارحي تدفع بي للكتابة اليها :

"صباحك الأنعم. سعادتي تسبقني إلى الغد، وسلامتك الأهم". لم أتوقع أنها سترد على رسالتي:

"صباحك الأتم. أعتذر لانشغالي بشؤون أخي، أرجو أن توقع على ورقة إجازتي. أبارك صدور مجموعتك، لقد اخبرتني بذلك زميلتي التي تعمل هناك". غمرني فرح جميل:

"باركي يدك أولاً. وها أنني أشكرك. لك اشواقي".

في تعادلية لم يسبق لي أن عرفتها كنت محبطًا وسعيدًا، ألّا أراها غدًا وأتسلم كتابي الذي مضت عليه سنتان تحت الطبع. ثم كنت أرى ذلك يحصل في مناح عديدة في الحياة لا مجال لذكرها، فقد يقودنا مثل عليها إلى أخرى لا تحصى، ولربما بتحديد دقيق مكثف وموجز ما يحصل في جسم الإنسان عينه، وفي جسم الإنسان ونفسه معًا كذلك. كنت أريد أن أحظى بسعادتي كاملة، أن أرتبط بطرفي السعادة، لكن أن لا يكون الأمر كذلك، فما عليك إلّا أن تقدم وتؤخر، كنت في الأخير أمضي في سعادة غالبة؛ فأن أتسلم كتابي غدًا فسأراها بعده، ثم ألا تكون غدًا، فهناك صورة من صور حضورها؛ لوحتها على غلاف كتابي. طاقة الإنسان وحدها التي تفعّل ذلك، وهي في الوقت ذاته أفضليته وحده على الكائنات الأخرى.

– هذا الرجل يحفزني من حيث لا يعلم على الإسراع بإنجاز روايتي، قلت ذلك لزوجتي التي عادت توًا من بيت الجيران الذين دعوها لتناول شاي العصر، وبيدها قرصة "خبز العباس" مضمومة على شيء من الخضروات. تقاسمنا الخبزة معًا. شعرناها لذيذة بل لذيذة جدًا، وأعلنت لها عن ذلك. ولا أدري إن كانت كذلك لأنها بهذا الإسم،

أم لأنها كانت ما تزال دافئة. لم تردّ على ما يتعلق بروايتي، بل علقت على "طقوسية" خبز العباس:

– إنه المعتقد، واغلب الظن أن كثيرًا من هؤلاء الناس الطيبين لا يعرفون أصل معتقدهم هذا، وما علاقة العباس بن علي به، أو كيف نشأ سوى أنهم نذروا وقد تحقق النذر، ولن يسألوا سوى أنّ هذا تحقق بمكرمة من الإمام، وليس بالمصادفة أم بفعل عوامل أخرى.

– هذه معتقدات جماعات وطوائف وشعوب وأديان وهي متعددة بتعدد هذه الجماعات وملونة بألوانها، وأنا أعتقد أن لبعض الصالحين كرامات كما هي للرسل والانبياء. من بميسوره تعداد كرامات المسيح؟

غمرنا الصمت لحظات كنت أتأمل فيها ما طفق يبدو على سمات زوجتي من الإرتياح، كلما ذهبت إلى هؤلاء الجيران، برغم خفة هذه الزيارات هذه الأيام. أخبرتها كذلك عن ارتياحي لقراءة اسماعيل كاداريه ثانية في روايته الجسر، فما قرأت هذا الكاتب المأخوذ بالتاريخ، إلا وأثارني بنضال شعبه الألباني العنيد ضد مستعبديه وطقوسه وحكاياته. تركت الحديث عن روايتي، فالرواية شأن خاص، وقد يكون خاصًا جدًا برغم تبادلي الآراء معها في كثير من الشؤون. علقتُ على صمتها بعدم التحدث معي حول روايتي، إنه صمتها الخاص الجميل والملغز معًا، لكنها عادت تحن إلى مهاتفة أختها في الموصل؛ ألو سناء كيف أنتم؟ وكذلك نحن مثلكم بخير حتى الآن كما يقول العارفون.

الحمد لله أقولها معكِ وبلغي الزوج والأبناء تحياتنا معًا. أول أمس هاتفتها، التفتت تحدثني، كان صوتها مشروخًا ولما سألتها عن ذلك صمتت. اللحظة أحسست الشرخ قد ازداد، والحمد لله ونحن بخير يقولها الفقير والغني والسعيد والشقي، وبين بغداد والموصل شقة واسعة يا يسوع! جعلت في الأخير تحدّث نفسها.

عودة غير متوقعة

صباح الأحد استيقظنا زوجتي وأنا مبكرين. أخذت طريقي الى المدرسة مفردًا منفردًا خفيف الروح على صباح جميل، وهنالك مسح من فرح تأخذ طريقها إلى قلبي. ان مسرة زوجتي لا تعدلها مسرة وهي تلقاني أعود مبكرًا إلى البيت. كنت رأيتها كذلك منذ يوم أمس السبت حينما عدت عصرًا على غير المتوقع منها. كان فرحها يتوهج عند كل عودة مبكرة لي. قالت وهي تستقبلني بلهفة "هذا أفضل ما فعلت" بدوري، وحفاظًا على سعادتها أصمتُّ جهازي النقال إصماتًا قاهرًا لئلا يستثير قلبها المرهف أي صوت يأتيني عبره. لقد اطمأنت لوجودي فنامت نومًا عميقًا لم تذق، باعترافها، مثله منذ أيام. حين وضعتها على قلبي أمسكت به وقالت، هو ذا وليس غيره ما أريد. وكان كلامها عميقًا وواقعيًا وحالمًا معًا. إن التجرد من زوجتي أو الهرب من حبها، هي

الأخرى، أمر لا قدرة لي عليه. صحبتي هذا الصباح إلى المدرسة موضوع الناقد الفلسطيني فيصل دراج في مجلة الآداب "الشيوعية والشيوعية العربية" وكنت قرأته قراءة ثانية، ورواية "الشطّار" لمحمد شكري. وكتاب "امرأة وحيدة/ فروغ فرخزاد "من تأليف مايكل هلمان ترجمة د. بولس سرّوح، مراجعة أ.د. فكتور الكك، وهو كتاب يتناول السيرة المتحررة لهذه الشاعرة الايرانية وحياتها المضطربة وشعرها العظيم. عندما التفت إلى جهازي الصامت قبل يوم وفتحته، ألفيت رسالة وردتني حسبتها من صديق كنت أرسلت له رسالة أدعو فيها بالشفاء لصديق آخر، أصيب بذبحة صدرية. كلا، الرقم رقمها؛ أجمل أرقام الدنيا. والرسالة التي وردت منذ يوم أمس رفّ فؤادي لمعرفة حروفها:

"مساء الأنوار، وحتى ألتقيك غدًا، كن بخير"

"صباح الخيرات، ها أنا قادم اليك معطرًا يدي لتصافح اليد التي سأُقبّلها".

لما كنت بللت توًا من نزلة برد شديدة، توغلت في صدري وعظامي، ولأنني سأقابلها، وجدتني مرغمًا على أن لا أكتفي بغسل وجهي ويديّ فقط، كما يحصل في بعض الأيام التي أعيشها جنديًا في معركة، بل سأستحم كاملاً وألبس بدلتي الزرقاء تلك التي اشتريتها من أربيل أثناء زيارة وفدنا الصحفي إلى هناك. وسأتعطر بعطر (إفشان)

مؤاخيًا بينه وعطر (سيجار) أستخدمهُ أحيانًا للتلوين. وأفضل ما سوف أقدمه لها كتاب؛ "إمرأة وحيدة/ فروغ فرخزاد".

منذ ملاحظة معاونة المدرسة بدأ شيء ما يتسلل إلى دواخلك. تحسه ينمو قاهرًا برغم مقاومته والإستهانة به أو حتى بعواقبه؛ فما "بيننا ليس سوى زمالة أولاً، وهي رابطة مقدسة تضاف إليها رابطة أخرى أجمل وألذ هي رابطة الفكر والفن"، فلماذا هذا الذي مضي يثقل نفسكَ عن لحظات، هي أجمل ما في حياتكَ أو وجودك؟ أنت تدرك رهافة أحاسيسك وكثافة ندمك إن أقدمتَ على شيء تلام عليه، مهما هزلت أهمية هذا الشيء وزهدتْ درجة هذا اللوم. أنسيتَ موقفكَ السابق من "نصيحة" معاونتك، و"الدرس" الذي ألقيتَه على مسمعها، لتتردد في طلبها؟

أعتقد أن ثمة بلبلة داخل كل إنسان، لكنه لا يعرف مصدرها تحديدًا ولا كيفية حدوثها ولماذا. وإن كنتُ أستعيد فرح زوجتي واحتفاءها بي أثناء عوداتي المتوقعة وغير المتوقعة إلى البيت، وإشاراتها إلى أن ما تريد مني ليس سوى قلبي، وجمال حبي ومساءات الأنوار التي تحييني بها حبيبتي، أتوصل إلى نقطة على الطريق، ولربما هي النقطة الأهم من نقاط كثيرة من بينها همس المدرسات. لقد تجاوزت عقبات كثيرة واجهتني على هذا المنحى الجديد في حياتي وعلى حياتي معًا، فما ينبغي أن أقف عنده ومهما بلغت تكاليف تقدمي فيه، هذا الذي لم يكن وحدي الذي يتقدم عليه، بل ثمة شريك عنيد جمعني به عهد وقَسَم ووعد.

- "ألا ترى أن هذه المخطوطة تحفل بكثرة العنوانات؟

- بلى، لتعدد الدلالات.

- وأكرر سؤالي ؛ هل يمكن أن ينشأ حب بهذا العنفوان في هذا العصر؟

- ليس هذا وحده، بل بصورته التي يتصاعد فيها، لو كنت أحدهما لما احتملت أو لمتّ.

- أو لحلقت. التحليق أعظم صورة للدهش من الموت، قبل الزواج منكَ، وفي اشتداد ضراوة الحب بيننا قصدت العرّافة التي تقرأ الكف. في خيمتها التي من شعر الإبل مسحة من طقوس الخرافة العتيقة؛ خرق خضر معلقة على أعمدة الخيمة، تمائم، رقى، جدائل مقتطعة من رؤوس صاحباتها، مباخر تفح بعطور البخور الهندي، حصى ملون وغير ملون عليه خطوط وحزوز، عيون من صلصال، أكف نحاس مبتورة، حبال قصيرة وطويلة، أعواد حديد متباينة الأطوال ذات أطراف محروقة ربما استخدمت للكي، طوس نحاس، طوس ألمنيوم، طسوت بسعات مختلفة، أباريق صِفر، لا مقاعد سوى فرش من سجاد يدوي مما يدعى بالسجاد اللامي، تعامد طولاً وعرضًا على مساحة أرض الخيمة، وكلما سللت نظري نحو مربضها شاهدت الكلاب والأغنام والبقرة الوحيدة وثلاثة الأبل التي سبق أن مرّ نظري عليها، أما الفَرَسَان الأنثى والذكر فكانا جامحين؛ كلما تحاكّا بجسديهما وتشامّا غارا بعيدًا ثم عادا هادئين

بعد صهيل شديد، هناك كذلك مما لا يستدعي النظر الشديد أطفال شبه عراة، دجاج منتشر يبحث في الأرض ورجال بلحى قصيرة غير مدببة ولا مرسلة، وكوفيات مرقطة بالأبيض والأسود وحمر، ودشاديش سمر وبيض وصفر يظهرون ويغيبون في دوامة الفضاء الذي أمامي، لم أشاهد في الوقت عينه من النساء إلا امرأة ملفوفة الرأس، دخلت خلسة وألقت ذؤابات مجهولة شقر في وسط الخيمة واختفت. بوجه متهلل استقبلتني، نظرتْ مليًّا في عينيّ ثم أفردت كفي وجعلت تبسطه برقة متناهية وتتفرس في باطنه، تركته لحظة وعادت إلى عينيّ تنظر فيهما، كما لو تمتحن الشيء الكامن هناك وقالت، أنتِ يا الأميرة فيك من الحب الشيء الكثير، لا أعلم لماذا دعتني بالأميرة، لعلّ مرد ذلك إلى جمالي أو لأن أحدًا منا لم يدخل خيمتها قبلاً، أجبتها ومن منا من ليس فيه هذا الشيء؟ انسابت يدها نحو كفي مرة أخرى تلامس خطوطه وتقول، ما أعجب حياتكِ، في حياتكِ عجبان ؛ حبكِ وصبركِ عليه، لله درك لو كنت مكانك لفررت أو لحلّقت، إذهبي إلى حيث تنتظرك سعادتك. سكنتْ وسكنتْ معها الريح التي كانت تهز جسدي ونفسي، استتلتْ؛ ثمة ندبة صغيرة، تحركت الريح، أي ندبة تقصدين؟ لم تسمعني، كانت غافية على ما خلف جلدة كفي، السطح صاف كأنه المرآة، خطوطه مرنة كأن لم يمر عليها صيف أو شتاء، في الداخل البعيد ثمة ندبة موتورة تنتظر يومًا قادمًا لتكون. على مهلك لا تحزني فهو يوم بعيد، ثم أنها ما أن تظهر حتى تتلاشى أو يصبح أثرها على قلبك هزيلاً إن لم يكن مصدرًا من مصادر

سعادتك وإن بدرجة ما، فخارج كفك ستمور أحداث شتى تضيع في تلافيفها ندبتك، وإن كنت سترين فيها غربة روحك، فقد يأتيك من يؤكد قراءتي ويسعدك. الحب الفريد لن ينتج إلا الشيء الفريد. عندما تعودين أجري نُقطًا من دمك ليومك القادم السعيد. أغلقتْ كفي على آخر نظراتها فيه وتركتني، هناك وقد عدت مغمورة بالفرح الكبير، فتحت كفي لأرى كيف تراءى لهذه المرأة معرفة مصيري من خلال خطوط وحزوز متعامدة ومتوازية ومتقاطعة، خطوط تبدو لنظرةٍ مثل عيدان نحيلة مهملة، ولأخرى مثل رماح ألقتها في ساحة المعركة أيد خاسرة، جئتكَ في كل الأحوال أزفُّ لك يقيني بحبي، فكنتَ بالمقابل تسخر من عملي هذا وتُخرج مبضعًا تشرط به كفينا لينزا دمًا يمتزج عليهما، بين أصابعي وأصابعك، ميثاق حبنا. كان ذلك في الزمن البعيد حين كان شابًا وحين كنا مثله كذلك.

– آه، أنتِ تعيدينني إلى لحظة سعيدة من لحظات ذلك الزمن البعيد، الذي هذا الحب من صوره. لنخلّد ذلك مجددًا بقدحي قهوة أو استكاني شاي وبعض البسكويت، وليس بدم كما فعلنا ضمن نبوءة العرافة تلك، الشاي لنفسي والبسكويت للساني فللسان رغبته هو الآخر في الطعام.

كلكامش

نمت بعد الثانية عشرة والنصف وكنت تابعت قراءتي في كتاب "الصراع في ملحمة كلكامش"، وقد توقفت عند تعليق المؤلف على مسيرة كلكامش الملحمية إذ عزاها الى وقائع إقتصادية منها احتطاب أشجار الأرز من لبنان التي كانت أوروك تحتاجها للبناء أعمدةً وسقوفًا وما الى غير ذلك من احتياجات، ولذا فإنه، أي كلكامش، قد صحب معه في رحلته هذه خمسين مقاتلاً شابًا روعي في اختيارهم عدم إعالتهم أمًا أرملةً، أو زوجةً، أو أطفالاً، وفي تقديري أن هذا الهدف هو أول الأهداف الكبرى التي تحركت عليها مسيرة البطل السومري، والتي انطوت عليها الملحمة في تضافر أحداثها التي صار من موضوعاتها اللاحقة البحث عن عشبة الخلود. ولعل ما يجدر بي قوله هنا، إنني لم أنجذب تمامًا لشخصية هذا البطل الذي أنتمي تأريخيًا إليه، قبل أن يعود

لرشده بعد أن يموت أنكيدو، لكرهي الفطري والعقلاني معًا لسطوة الحاكم المستبد، وطيشه في التعامل مع الناس ولا سيما النساء، والأخص نساء مدينته؛"فهو لم يترك عذراء لعاشق ولا خطيبة لبطل ولا زوجة لسري" إلا وواقعها و" صولة سلاحه لا شيء يضاهيها"! ما يعدّ تضخيمًا لنرجسية الذات وتزيينًا للفعل المهين وإذلالاً للآخر القرين، ومع ذلك " فهو والينا الحكيم، البطل الجميل، راعي أوروك، السور والحمى"، في طقس غريب لا بد أن نسبة الخيال فيه فائقة اقتضتها زاوية النظر القديمة تلك، إلى صفات البطل العظيم التي تجمع الى سطوة الحكم، قوة الجسد وفحولة السلاح! ومهما يكن من أمر كل ذلك، فلعل أحدًا لا يدري إلا على مستوى التقدير كم مكث كلكامش على وضعه ذاك، قبل ان ترسل له السماء أنكيدو من السهوب أو الجبال يصارعه ثم يؤاخيه، ومن ثم يشاغله بموته ليقضي عمره يبحث عن عشبة الخلود. مع كل هذا كانت تلك السماء عادلة مع كلكامش بوجه ما، وكانت عادلة أيضًا بوجوه ما هنا وهناك مع آخرين من أمثاله، ولكن ما يفرق بين وجوه عدالتها؛ السنين التي أبقت فيها حكامًا جائرين قبل أن يتوبوا، أو قبل أن يأخذوا نصيبهم من العقاب، أو ماتوا دونما عقاب، وكانوا يظنون أنهم آلهة أو أنصاف آلهة؛ السماء معهم لعدالتهم، والبشر الخنع كذلك! ما يدخل الروع في الملحمة- فضلاً عن كثير جاء فيها، من تفاصيل وأحداث وأساطير وصراعات وأجواء ليس أقلها عناء البحث عن عشبة الخلود ودلالتها العظيمة ؛ في أنّ لا خلود إلا مع العمل

الـصالح لـيس غـير- روح لغتهـا وعنفـوان العواطـف فيهـا وبـساطة تصويرها، وتكرار بعض مقاطعها؛ تأكيدًا على الـصورة أو إصرارًا عـلى وتر الإيقاع.

"انطلقا

وبعد أن سارا مدى

عشرين ساعة مضاعفه

تبلغا بلقمة من زاد

وانطلقا

وبعد أن سارا مدى

عشرين ساعة مضاعفه

وعشر ساعات

مضاعفه

تلبثا ليقضيا الليله

وفي طريق الرحله

إذا بقلقاش يشاهدو

بئرًا نميرٌ ماؤها باردو

فهبط البئر بلا إبطاء

مغتسلاً في ذلك الماء

فشمّت الحيةُ

ريحةَ الريحاني

مجدد الحياتي

فانبعثت

واختطفت

ذيّالك النباتي

وانصرفت

وإذ بها تنزع عنها جلدها!...

مقطع "أسد التراب" من ملحمة "هو الذي رأى" وبعنوان صـغير أسفل"ملحمة قلقميش" عنوان وتقديم ونظم الملحمة شعرًا، عبد الحق فاضل.

ترى هل رحلتي مع هذه المرأة النادرة كرحلة كلكـامش عينهـا؟ في يقيني لا، فإنني لن أترك لكائن يسرق مني هذه العشبة التي لا ثمن لهـا، غنيمتي ومجددة حياتي، لا الأفعى ولا حتى صديقي أنكيدو إن عاد ثانية إلى الوجود!

صباحًا بادرتُ إلى النهوض من فراشي قبل أن تنهض زوجتي، قررت مع نفسي أن أبتاع من الدكان القريب، علبة جبن غير مالح ومغلف زيتون وعلبة حليب سائل مما تصدّره السعودية الينا، وكيس أرغفة خبز أسمر، يقال إنه خبز شعير يفيد مرضى السكري. قبل أن أصل إلى الباب الخارجي، لمحت مظروفًا صغيرًا أسمر مرميًا قريبًا من خلفية السيارة التي تركها ولدنا يوسف بعدما رحل ولم نستخدمها بعده مرة واحدة. ولما كانت أمثال هذه المظروفات قد شاعت في الآونة الأخيرة، أصبح منظرها يدل عليها من أول نظرة. لقد دخل هذا المظروف نفسي على أبشع صورة. ليس من شك في أنه ينطوي على تهديد، ولكن ما صيغة هذا التهديد وما طبيعته، كنت أسأل نفسي، حتى رفعته من على الأرض ووضعته في جيبي وأغلقته عليه. قلت مرة أخرى وكأنني أساوم نفسي على كيفية التحكم فيه، لن أفتحه، سأهمل التفكير فيه برغم ما يولده في دواخلي وجوده معي. إن لم يكن ذلك قاعدةً؛ أن تهمل شيئًا يعني أن تبطله، فقد تفعل فعلها في حالات، كما حصل ذلك في حالة أخينا المسيحي، هذا الذي ذكره صاحب هذه المخطوطة أو المدونة الرقمية "سليم ناصر" هنا وقبل صفحات. سأغيظه بالصمت، ومنع الهواء عنه، فمهما كانت أو ستكون مغامرتي معه، فليس أشق عليّ من مغادرة بيتي وكتبي ولوحاتي، وإذا كان لا ينطوي إلا على تهديدٍ نفسي، فليس بيتي وكتبي غير نفسي، وأظن أن صمتي سيوفر له هذه الحقيقة ؛ البيت والحياة شيء واحد ولا خيار بين إثنين؛ فراقُ كليهما موت.

تهاديت إلى الدكان، أخذت ما كنت أريد، لمح صاحب الدكان صمتي، وحقًا كنت مرغمًا عليه إذ كانت أعصابي مستفزة غير مستقرة، فلم أكن أحمل في جيبي وردة أو رسالة حب، كان موتًا يترصدني أو هكذا يريد أن يلمّح لي. لم أخبر زوجتي، الحديث قائم بين إثنين؛ هو وأنا وكل حديث جاوز اثنين شائع، وأنا بطبعي لست ميالاً للترويج لشيء، لقد غلبني الصمت حتى على أشيائي الجميلة منذ زمن بعيد، وها أنا أعاهده على ذلك.

إتصال

ولم أكن تحللت من ملابس العمل بعد، وكنت بعيدًا عن هاتفي ولم يكن ذلك إلا نادرًا، جاءتني به زوجتي على اتصال. إتصال من أحمد، قالت ووقفت تنتظر المكالمة فلربما كانت من أحمد إبن أخي الذي تحبه كثيرًا، وتسرها معرفة أخباره. أثار قطعي الإتصال مباشرةً حفيظة زوجتي؛ لماذا أغلقتَ الخط؟ إنه من صديق غير مرغوب التحدث معه الآن، أضفت؛ إنه ليس من أحمد إبن أخي إن كنت ظننتِ، ثم ألا تريننني أكتب، لقد سئمتُ أحاديث مثل هؤلاء الأصدقاء، بل إنني بدأت أمل علاقتي بهم. سكتتْ على مضض وملامح الريبة والإنفعال بادية على صفحة وجهها؛ إذ لم يحصل أن قطعتُ اتصالاً من أحد، ولا بد إذًا أن يكون وراء ذلك علة ما. ولما كانت المدرسات وزميلات العمل استشعرن، أن المكالمة معي في بيتي غير مرحب بها من زوجتي على وجه

الخصوص، فقد كنت مطمئنًا إلى أن ايًّا منهن لن تفعل ذلك، إلا على سبيل مغامرة ما.

كنت أرى علامات الشك تنبعث من عينيها، ولن تهدأ حتى أجد حلاً لهذا الموضوع، فهي بالفطرة تود معرفة من يكلمني وحتى ماذا يريد. لم أعارض يومًا توجهها هذا، برغم أنه يلجؤني إلى الكذب معها، لأنني أحبها وأكره الخلاف المجاني الذي يثقل علاقتي بها.

وبرغم أنها لا تعرف أنني وضعت أسماء رجال؛ مصطفى،، نزار، خالد إزاء أسماء مدرسات منهن أحلام التي أسميتها أحمد وبعض زميلات عملٍ في المؤسسة وغيرها؛ نوري، سلام، عباس، عمر، فقد ظلت معلقة بهذا الإسم شاخصة أمامي.

– أهلاً أحمد كيف أنت، أشكرك على اتصالاتك المستمرة، أتمنى أن أطيل الحديث معك لكنني منشغل الآن بالقراءة، وإعادة كتابة قصة كنت نشرتها منذ أكثر من عشر سنوات، نعم؟ إسمها مذبح الديك.

وبقدر ما ارتبك أحمد، فلم يستطع أن يقول شيئًا لأنني كما يبدو عصفت بعقله، ارتبكت زوجتي لأن قصة مذبح الديك قامت على حلم رأت نفسها فيه تذبح ديكًا من رجليه، وسبق أن قرأتها معي على صفحة إحدى الصحف العراقية. ولما كانت تعرف أن لي صديقًا أديبًا بهذا الإسم تراجعت قليلاً، قبل أن يرد أحمد عليّ بصوته العالي، لقد فاجأتني يا صديقي بمكالمتك هذه فأشكرك. هدأتْ قليلاً، وعددتُ ما جرى من

قبيل الأحلام المزعجة التي قد تمكث طويلاً لأنها غير طارئة ولأن لها علاقة بواقع ما؛ هكذا تفعل بعض الأحلام، قلت وزوجتي تبتعد، والتفت مغضبًا إلى قصة أحلام لأنجز شيئًا جعلتُ أشعر أنني مجبر عليه.

تلفنت لها عند الثانية، بعد ظهر اليوم الإثنين لأحضر الثالثة والنصف، أطرّي مزاجها بالسؤال عنها وعن الأولاد عمومًا. سألتني إن كنت سأعود مبكرًا، قلت؛ حتمًا ولن أتأخر إلى ما بعد الرابعة. كنت مشتاقًا إليها، إلى روحها وقلبها، وراغبًا في أن أقوّم انكسارها وأمسح وجع نفسها. إن الله وضعني بين امرأتين متشابهتين في كثير من الصفات، وكان يمكن أن تكونا صديقتين رائعتين لو سارت الأمور على كتمان الحقيقة التي أمست سافرة ومؤلمة. كان بميسورهما لو اجتمعتا على مناسبة عامة أن تعجب الواحدة بالأخرى، ليكون حبي لكليهما مشروعًا بوجه من الوجوه، وخاليًا من الآلام، وبعبارة أخرى لتوفرت القناعة في أن زوجتي مناسبة وهي امرأة كاملة، وأن حبيبتي زميلة محترمة وهي امرأة عظيمة، هنا تكون الرابطة من ذلك النوع من الروابط التي تولّد القناعات حتى في "الخصوم" لأنهم من درجات ممتازة.

القصة ذات العنوان الطريف والغريب" من أجل قدومهِ" تقوم على موضوع أشد غرابة من عنوانه، فهي تدور عن امرأة تجول في الشوارع مستورة الوجه بارزة تقاسيم الجسد؛ ترفع لافتة مثيرة من ورق مقوى أصفر تحمل على وجهها الأول عبارة؛ أريد طفلاً، وعلى وجهها الآخر عبارة؛ أريد حلاً! وبين لحظة وأخرى تقلّب اللوحة مرة على هذا

الوجه ومرة على الآخر لتزداد حركتها حرارة وانفعالاً كلما عبرها العابرون صامتين مطرقين، ثم إذ لم تجد من يستمع إليها أو يتوقف على رغبتها، تمزق لوحتها وتنثر في وجه الريح مزقها، ومن بعد تمزق خرقة قناعها، وتمد في الأخير يديها إلى زيقها تشقه حتى يندلق للأنظار أحد نهديها.

عند هذا الحد تتوقف القصة وقفتها المثيرة، لتظل الصورة الأخيرة، امرأة جميلة يندلق نهدها الأبيض متوفزًا للأمام، ماثلةً كما لو أنها صورة إعلان غريب.

وبقدر ما فاجأني موضوع القصة ومراميها التي تكاد تكون واضحة وصريحة وجريئة إلى حدود بعيدة، من امرأة لم تكتب قصة ناجحة من قبل، أثارني إسلوبها وطريقة إدارتها. ليس من شك في أن ظنونًا حامت هنا وهناك، لكن الحكم على القصة مجردة من الظنون ينبغي أن يكون مجردًا من الغبن كذلك. ما أغضبني هنا أن أحلام بدأت تعمل معي في المناطق " المحرمة"، لتتصل بي في وقت قد لا أكونه إلّا في بيتي ولو في أقل تقدير، وعلي أن أحسم أمري معها بأي إسلوب. ما سرني أن المكالمة التي كادت تطوح بعلاقتي بزوجتي مرت بسلام، وأنني قرأت قصة تنتمي إلى الفن كثيرًا وهذا شيء جميل.

رد إعتبار

حدثت نفسي قائلاً؛ هو ذا احتفال، لا أشك في طبيعته الودية المسالمة، وعليّ أن أحفظ هذا لزوجتي ما دامت على هذا الود الصافي المعهود الذي لا ثمن له غير بسمتي وطلاقة روحي. كان هو الخميس والبيت هادئ طبيعي، وكنت فيه أليفًا جدًا، إذ طلّقت، كما جرت العادة، القراءة والكتابة في مثل هذا اليوم وكرست وقتي للعائلة، وها أنا في طريقي إلى قيلولة أحسها ستكون سعيدة. تناولت قبل ذلك غداءً لذيذًا فاخرًا مع العائلة تصدرته سمكة متبلة بتوابل هائجة، ومحاطة بإكليل من الزيتون وألواح رقيقة من الطماطم والليمون فضلاً عما احتوته المائدة من أطعمة أخرى كالرز المطّعم باللوز ومتوج بقطع كبيرة من اللحم. نمت حتى الخامسة. تمتعت بشراب الشاي بالنومي بصرة. في الليل استحوذت بعض فقرات التلفاز على جلستنا. طربت تمامًا على

أغنية عبدالحليم حافظ "يامالكًا قلبي" من ألحان محمد الموجي، لقد تكررت هذه الأغنية على مسامعي مرتين هذا الأسبوع، وكنت سمعت الأغنية ذاتها من قبل بصوت نجاح سلام الجميل، وهي في الأصل من إرشيف عبد الحليم. مع الأغنية كنت بينهما زوجتي القريبة التي طوقتها بذراعي، وحبيبتي التي أحطتها بخيالي، لقد نسيت عهدي مع نفسي فعلى أجنحة الفن تتهاوى العقول وتتأجج أقدم نوازع الإنسان نحو مطلق السرور! كنت محلقًا مع الأغنية، كلماتٍ ولحنًا. وكنت في الحقيقة مع صوفية عبدالحليم، مع ذوبانه وتفانيه، حتى بت أقول معه ونجاح حاضرة بصوتها الساحر اللذيذ، لكي تكون عظيمًا في فنك عليك أن تذوب فيه ولا تُشرك معه شيئًا آخر.

مع هذا الاسترخاء اللذيذ كنت حسيرًا في الوقت ذاته، على ضياع بعض الوقت مما راح هدرًا منه. لكنه الخميس قلت؛ ووطنت نفسي على أن يكون نزولي كل خميس سهلاً وعائليًا، وأنّ عليّ أن أسترق بعض الوقت للقراءة، أما الكتابة فسيكون حظها ضعيفًا، وما كنت أود ذلك حقًا، وكنت أتساءل هل ضريبة المبدع أن تكون له عائلة؟ كنت أحتفظ في حقيبتي بقصة من الأدب السوفيتي الغابر! بعنوان "رسالة غير مرسلة" للكاتب "ف. أسيبوف"، وهي قصة عظيمة ذات نفس ملحمي تسطر بطولة شبان سوفيت يشكلون فريقًا من الباحثين، في مهمة إستكشافية في موقع قريب من الدائرة القطبية الشمالية، يُفقَدون في غابة التايكا الكثيفة بسبب الأمطار والسيول التي تجرفهم وتقضي عليهم، ولم

تخلف منهم سوى رسالة رقيقة ومعبرة كتبها أحدهم إلى زوجته لم تصل إليها. منذ زمن وأنا أريد أن أكتب مقدمة لها، أتساءل فيها عن مصير الأدب الإشتراكي الذي قرأنا عشرات بل مئات الأعمال العظيمة منه، ومصير أبطاله- الذين قدموا نماذج راقية لكفاح الإنسان من أجل أن يحقق أهدافه الإنسانية - بعد الإخفاق الذي منيت فيه التجربة الإشتراكية. لقد عشنا أجمل العيش مع أماني وأفعال أولئك الأبطال الإنسانيين، متماهين معهم في تضحياتهم الفريدة وتجاربهم الخالصة وكأنها هي عينها تضحياتنا وتجاربنا في الأهوار والصحارى والقرى النائية، يوم كنا نخوض الوحل، ونستعذب هطول المطر لنصل ونبلّغ ونحن سعداء ونغني. نعم كثيرًا ما أرقني ذلك، إذ ليس من العدل أن تهمل تلك الأعمال البطولية العظيمة أو تذهب سدى. لقد حفظ لنا التاريخ أعمالاً فردية منها ما كان غاشمًا، ومرًا وغير ذي أثر مريح ضمتها كتب وتواريخ ومصورات، فكيف بشبان في مقتبل العمر يخوضون مغامرة الإكتشاف الصعب لتعم نتائجه على الوطن السعيد بهم ذلك الوقت، وأي وقت! خلال فسحة من ليل الخميس وصباح الجمعة كتبت مقدمة وافية صدّرت القصة بها، وفي تقديري أنها ستنشر في واحدة من صحف بغداد، كنت فخورًا بأنني أعدتُ مجد قصة من ذلك الأدب العظيم، وأعدت الإعتبار لأبطال تلك الملحمة التي لا تنسى.

انطلقت أصوات رصاص، عقب انفجار تراءى لنا حجمه الكبير من خلال ما وصلنا من أصدائه، حتى خشينا تحطم زجاج نوافذ بيوتنا،

سمعنا أصوات سيارات إسعاف وإطفاء أثارت في قلبينا هلعًا ثقيلاً، أغلقنا اللابتوب، بتنا نترصد بأسماع قلقة ما قد نتعرف عليه عبر التلفاز، لأننا قلقانِ لم نستقر على محطة واحدة، وبرغم ترصد بعض المحطات للأخبار المثيرة لم نحظ بشيء حتى خلنا أن تواطؤًا ما يسري عبر المحطات. لم نتعش تلك الليلة، غادرتنا شهيتنا مثلما غادرتنا الرغبة في القراءة أو الكتابة، ولما كنا وحيدين، آثرت أن أبدد شعورنا الكابي بفنجاني قهوة أعدهما بنفسي.

عدت بفنجاني القهوة، المرة لي والمحلاة لزوجتي واتصلت بنزار، مساء الخير نزار/ مساء الخير سليم/ كيف أنتم/ بحال جيد والحمد لله/ الاولاد والبنات جميعًا؟/ نعم ما الأمر سليم؟/ لا شيء فقط للإطمئنان فقد شفّني الشوق/ أنت أخ كريم سليم، أتكتب في روايتك؟/ لقد عطلت العمل فيها مؤقتًا. لم أشأ ان أدخل نزار في موضوع لا يبدو أنه قريب منه ليسمعه، أو أنه كان في شاغل عنه فلم يسمعه. كنت أبتغي الإطمئنان عليه فتحقق ذلك.

أُطفئت الأضواء، أمسيت المرئيات لا مرئيات، غابت البنايات وامّحت حركة الناس، الأشجار وحدها التي تنوس وتتراءى لنا بما تعكسه أوراقها من لصفة معتمة، لا حزن مثل حزنك ولا خسارة مثل خسارتك، لا جرح أكبر من جرحك ولا ألم أعمق من ألمك، لا موت أظلم من موتك ولا عدوان أشنع من العدوان عليك، أنت عابر السبيل،

البريء من " الذنوب" المستهدف لكي تعطّل أو تموت. أنت الذي لا وطن لك غير وطنك، الممزوج بمائه وطينه والمفخور بناره، أنت الذي إن غنيت غنيت له، وإن سعدت سعدت بحلاوته، أنت الذي تفيأت ظلال نخيله وشربت من ماء دجلته وفراته. أنت ملهمه والملهم به، لا فراق بين إسمك وإسمه ولا تأريخ لك إلاّ على ترابه. أنت عابر السبيل، العامل في المسطر، بناء البيوت، حمّال الطابوق، مبلّط السطوح، تلميذ المدرسة، مدرس الجغرافيا والتأريخ واللغة والرياضيات والعلوم، المهندس والطبيب وموظف الدائرة والمستشفى، كل في موقعه أو في طريقه إلى نطاق عمله، الرجل والمرأة، الطفل والصبي والشاب والكهل والعجوز. أي السيارات تنقل الآن وأي المشافي تستقبل وأي الأمهات تبكي، أي الأطفال يصرخون وأي البنات أو الزوجات أو الأخوات يشققن ثيابهن؟ ها نحن الآن نشرب قهوتنا محزونين مقهورين دونما حركة، دونما صوت، فالصور تترى والأشكال تتداعى، وبالمقابل كنا مطمئنينِ على نفسينا إذ أغلقنا الأبواب الخارجية والداخلية على طريقتنا كل مساء، لقد أضفنا الى كل رتاج رتاجًا آخر، وهذا أهون أشكال دفع الشرور حتى الآن!

سعدي

على غير العادة إستغرقني العمل اليوم السبت، ولم أنصرف إلى نفسي إلا بعد السادسة. بعد هذا الوقت تناولت طعامي جامعًا فيه غدائي وعشائي. كان إلى جانبي كتاب" كلستان" " روضة الورد" لسعدي الشيرازي، بتعريب محمد الفراتي وهو الكتاب الأول من سلسلة "روائع الأدب الشرقي" التي تصدر عن وزارة الثقافة السورية، وقد توقفت عند هذا البيت الوصفي الجميل: " الورق الأخضر فوق الغصون / كحلّة العيد على الموسرين " الذي أعاد إلي ما كنت أراها فيه بلباسها الأنيق على جسدها الجميل. ما النوم؟ قلت، لتقرأ حتى الصباح فمن هبات الله على الناس بعض الشعراء مثلما من هباته عليهم بعض النساء. و:

من بات في ظل العناية حوله / فخَطاه هَدْيٌ والعدوُّ صديق

ولا نوم مع ديوان سعدي، ولا عدوّ معي وخواطري معها صديقةً أصدقَ، حتى حلّ الصباح. كنت أعد الدقائق حتى أصل إلى المدرسة لألتقيها. لكي أراها وأحدثها وأتملاها ثم لأهبها سعدي. الطريق إلى المدرسة طويل ويصبح أحيانًا مضنيًا، ومع ذلك فإنه غالبًا ما ينتهي بما يجعل مني سعيدًا مبتهجًا، ناسيًا عقباته ومزعجاته لأنني سأراها.

أخذت موقعي حال دخولي غرفتي مستفيدًا، من الوقت لتمشية بعض الأعمال التي تتطلب إجراءً سريعًا، وقلبي يخفق لكل خطوة تشير إليها.

مضى الوقت المقرر لمجيئها. تجاوزت الساعة العاشرة والنصف ولم تحضر. عندما استدعيت زميلتها، وعلمت أنها لن تأتي وأنها منشغلة الآن ببعض شؤونها حزنت. هل يعقل أن لا تتصل بي وهي تعلم مدى حاجتي إليها؟ قررت أن لا أتصل بها، فالبعيد لا يعرف البعيد، وقد لا تفي الرسائل إلّا بما يرهق النفس في غابة السؤال واللاجواب كما يحصل مثل هذا بعض الوقت. كما الشعور بأنني مكره على شيء وقعت على إجازتها. كنت أريد مغالبة حزني بالإجتماع بالمدرسات لمناقشة سير التدريس وعدم انتظام دوام الطلاب، وما يمكن أن نبادر إليه في خضم بحر هائج الإضطرابات. قالت إحدى المدرسات؛ الأمر مستحيل، التدريس نظام وآذان، فكيف إذا نظامنا فوضى وطلابنا جدران؟ لقد أسقطت هذه الدمية السوداء آمالي بالخروج بنتيجة ستكون لا محالة

بعيدة عن المنطق السليم، أمس اختطفوا صبيًّا من بين يدي أمه، قبل أن يفرغوا يديها منه سقطت على الأرض وماتت، والفتاة التي اختطفت من مدرستها الثانوية وبث اختطافها رعب الطالبات والمدرسات، والشاب الذي قتل أمام باب مدرسته وتحت أسماع وأنظار الناس والشرطة على السواء، والمدرس الذي جندل في مدرسته وبين طلابه، والمفتش التربوي العام ومدير التربية وغير هؤلاء وهؤلاء، قلت، متجاوزًا وقع هذه الغابة من الحقائق التي علمي بها يفوق علم هؤلاء المتحدثات، لكننا يجب أن نعمل، أن نفعل شيئًا ولو على نطاق ما، ردت مدرسة أخرى، نعم أستاذ ولكن ينبغي أن يكون هذا في ورشة عمل، يشاركنا فيها الطلاب على صغرهم لا بين هذه الحيطان. وردت أخرى ؛ ألا ترى أستاذ أنّ الموضوع خارج في الأساس عن مدار المدرسة، وأنه ينبغي أن يعود من جديد إلى البيت، قبل أن يحال إلى المدرسة أو الشرطة والجيش. المسؤولية هناك. حينما يضطرب البيت يجرف معه إلى الدمار كل شيء. لكن مسؤولية المدرسة لا تقل عن مسؤلية البيت، المدرسة هي الحاضنة الأساس ومسؤوليتها التربوية قبل ما عداها أجبتُ، وأنا أعلم أن الجواب سيكون، أين هي المدرسة، وأين هم الطلاب؟ ثم أين هو الأمن وهو الأساس في كل ما يحدث، والمسؤول عن كل ما يعصف بالبلاد، ثم أردفتُ علينا أن لا نكون متشائمين إلى هذا الحد. قلت ذلك بلا إيمان ولكن لأثبت أن كلمة المدير هي الكلمة الأخيرة، وكذلك

الأقوى، ثم إذا انفض الإجتماع وألقيت نظرة حزينة على فراغ الصفوف خاطبت نفسي؛ لن يعود البلد إلى اكتماله حتى يعود الإكتمال لهذه الصفوف ويسودها نظام تدريسي سليم! عدت وحيدًا بعد أن تركت لها على منضدتي سعدي.

الحسم

ربما أول مرة أذهب فيها إلى المدرسة كالمجبر على عمل يكرهه. أول مرة لا ألتفت إلى الورد ولا أفكر في شم عطره، وأقترب من غرفتي بلا رفة نفس أو انفتاح صدر. لقد أصبح من اللازم عليّ أن أحسم أمري بأن لا ثالثة في حياتي، ثم من أنا لكي أكون كذلك؟ هذا هو قراري الأخير الذي لا قرار غيره. وأنا اقترب من عتبة غرفة المدرسات مضيت أسلم كالعادة وأعود إلى غرفتي. تمر الآن في ذهني وقد مرت من قبل، مواقف وقرارات كثيرة، فضيلتها أنها كانت حاسمة وبلا تردد فكانت حصيلتها النهائية من ذهب. وبعيدًا عن أي تأريخ شخصي لأحد، قررت أن أكون هذا الذي له قرار من ذهب. لم يكن الأمر سهلاً لاعتبارات شتى ربما كان منها الإعتبار الشخصي أو الإعتبار العاطفي، لذا ترددت في طلب أحلام، قبل أن أهدأ تمامًا وأنظر إلى لوحة جدول الدروس المعلقة أمامي

لأطلب من بعدُ حضورها.

حضرت أحلام بكاملها هذه المرة، تزينت أجمل زينتها ولبست جديد ملابسها، ضربت على الباب المفتوح أصلاً ودخلت. انتظرتْ أن اقول لها تفضلي بالجلوس. القيت نظرة متأملة عليها فتبدت لي أغرب من قصتها بل أغرب من أي قصة أخرى كتبتها، فغياباتها الفجائية وادعاءاتها المختلفة، وأحزانها المستمرة وصمتها شبه المطبق بين المدرسات، كان هذا كله يثير فضولي وكنت أتردد في مطارحتها فيها لأسباب كنت أعرف بعض مسبباتها منها علاقتها السيئة بزوجها. كانت تجلس شامخة بجسدها الفارع ونظرتها المغرية وسكونها الثقيل، نظرت إليها نظرة حاولت فيها أن أتجاوز جسدها، بيد أنني وجدت أن خسارتي ستكون باهضة لما اشتبكت نظراتنا، ولما كان عليّ أن أبدأ بدأتُ بقصتها؛ قصتك جيدة يا أحلام، أزف لك تهنئتي كما تزف تهاني العيد. أقول ذلك أمامك ولن أتردد في قوله في غيابك، ولكنّ لي سؤالاً إسمحي به ؛ هل هناك من عاونك؟ أقول ذلك مترددًا حقًا، فنحن على مستوياتنا حينما نكتب نحتاج إلى الآخرين، أنا مثلاً تكون زوجتي أحيانًا، آخر من يلقي نظرة على عملي، وليس في هذا من عيب، سوى أنّ له فائدة كبيرة. أنت تعرف أستاذ صغر محيطي وبساطة من هم حولي، إن كان لي من ذلك شيء، فأقرب الناس إليّ زوجي المشغول أبدًا بتجارته، يأخذه النهار ويعود به الليل؛ آخر الليل في أغلب الأوقات، ويكره الكتاب غير نادم

على ذلك. ترى من في بالك يساعدني، أنت مثلاً، البعيد البعيد؟ قالت ذلك عبر بسمة لبثت مفتوحة وفي ظنها أنها قالت طرفة فيها مماحكة تغويني. لم أستجب خوف أن تتمادى في ذلك، وتغرق الموضوع الرئيس الذي كنت أحاول تأجيله، إلى الدقائق القليلة القادمة التي تسبق الإعلان عن انتهاء زمن الدرس. أنتِ الآن كاتبة قصة بحق فاستمري على ذلك ولا تستشيري أحدًا، وإن أردت النشر فالصحف والمجلات الآن كثيرة وتنشر الغث إلى جانب السمين ولا فخر، إذ لدينا الآن اكثر من مائة مصدر للنشر بل يزيد، وفرصتك الآن متيسرة، بل هناك صحف تتسابق إلى القصة ولا سيما القصص العجائبية التي على غرار قصتك، و... فجأة نهضت أحلام؛ أشكرك أستاذ، أفكر في حديثك، تركت الأوراق بين يدي، انحنت لي وانسلّت. لقد آلمها كلامي لا شك " لا تستشيري أحدًا" أو هذا ما حسبتُه الكلام الوحيد حصرًا، الذي يمكن أن يؤلمها فلم يصدر مني ما يزعجها غير ذلك. لقد آليت بقصدية شديدة ألّا أتوسع معها في أشياء شخصية وخاصة جدًا، ولا سيما بعد أن كشفتْ سلوك زوجها وارتباك علاقتها، ما شجعني على تسريب نظرات ربما كانت فاحشة إلى جسدها. لقد ضيقت صدر فستانها وتركت لصدرها الأبيض حرية أن ينهد من خلال فتحة شبه سائبة، ليثير فتنة لا أظنها ستكون إلا عاتية. أخيرًا وجدتني أتصرف معها بحكمة وإحكام ليس من خلال مبادئي فحسب، وإنما من خلال عرفي

مع بلقيس ووثيقة عهدنا على حب خالد، ثم أن أحلام كانت ذكية لتنصرف برقة ولطف وتترك لي حديثي عن خطورة مهاتفتي وأنا في بيتي، فلا أظنها ستكتب قصة أخرى تهاتفني حولها في بيتي، وكل هذا في الحقيقة كان مريحًا ومؤلمًا معًا.

حزن شديد..وآخر أشد

لانّ لا فواصل في حياتنا بين أفراحنا وأحزاننا، فلا غرابة أن يأتيك نبأ الموت من أقرب المسافات إليك أو أبعدها، لا فرق. وسواء كنت تمشي في سهل أو ترتفع على جبل أو تقطع بك السيارة شارعًا كشارع حيفا مثلاً نحو الجسر الحديدي، أحد أقدم الجسور التي تربط الكرخ بالرصافة، حيث إن كنت مثلي تختلف إلى مقهى يجلس فيها بعض الموسيقيين ممن تعرف من عازفي القانون. منذ بدايته تغلق كتابك الذي كنت تقرأ فيه، تمتع نظرك بكل ما تقع عيناك عليه، وليحمك الله من أي رصاصة تستهدفك، لا لشيء سوى أنك بشر تنتمي إلى هذا الشعب كما حصل لكثيرين صرعوا على أرض هذا الشارع الدامي، ثم بعدئذ تجمّل بصرك كثيرًا بصورة دجلة الخالد وأنت تحاذيه، ثم وأنت تعبر الجسر تحت ملكوت سماء خالصة الجمال، تكتب قصيدتك الكبيرة إن كنت

شاعرًا فذًا، أو ترسم لوحتك الباذخة إن كنت رسامًا عظيمًا. لكنّ أن ياتيك نبأ سيئ للغاية يحاصرك ولم تكمل مشوارك الخيالي بعد، فهذا ما لم يخطر لك على بال أو هكذا تظن، وهو ما حصل لي أنا قرينك أو صورتك الاخرى. وردني الخبر قبل أن أعبر الجسر الحديدي الذي أحب تشكيله الرائع إلى الرصافة نحو مقهى الفنانين، أن إبن أخت أخرى لي مات حرقًا أو انتحارًا، إذ وجد محصورًا في دائرة صغيرة من النار الخافتة، وجسده منضم الى بعضه بالصورة التي عليها الجنين في رحم أمه. لم تمتد النار الى خارج الدائرة المحدودة، كانت مثل هالة سوداء تحيط بجسد منكمش غاف. تلاشى كل شيء خلا الحزن. الحزن على هذا الشاب الذي مات هذه الميتة المجهولة. حال سماعي النبأ مكثت ساهمًا مطرقًا الى الأرض ساكتًا لا أنبس بكلام، وأعماقي تمور بأكثر من لون من ألوان الحزن والأسى، ولن تفعل أنت غير ذلك. فلقد احببت هذا الشاب حبًا جمًا، وكنت أحببت أمه القديسة التي توفيت وهو طفل منذ أكثر من ثلاثين عامًا، حبًا جمًا كذلك. كانت تلك الأخت ذكرى عذبة وستظل كذلك ما حييت، لذا كان حبه نابعًا من خلال حبي أمه العذبة الصافية ولأنه يشبهها. كانت زوجتي تحبه لأخلاقه، فقد عاش معنا سنة أو تزيد وقد حزنتْ عليه حزنًا شديدًا. كان في شكله ومزاياه يشبه قديسًا أو إمامًا. لا أدري إن كانت ميتته بهذه الصورة الطفلية عودة منه إلى أم لم يشبع من دفئها تمامًا. ولعل من الغريب تمامًا كذلك، أن ندخل في حزن هذا الموت، ثم قبل أن نخرج منه ندخل في حزن آخر ربما أشد وأمر،

حينما باغتنا كالمباغتة السابقة موت ذلك الصبي إبـن أخـت زوجتـي في حادثة غرق. الصدمة مؤلمة قلت في سري، وأنا أرى دموع زوجتي تسحّ بصمت وعيناها لا ترتفعان نحوي، ولـو كنـت أعلـم أن هـذا الجنـدي الصبي سيقتل غرقًا، لما فعلت شـيئًا مزعجًـا لـه، ولمـا آلمـت نفـسي مـن وجوده في بيتي، ولما أخـذني النـدم كـما الآن. كـان جنـديًا صـغيرًا عـلى عنوانه، أبيض بشعر أصفر معقود الخصلات، ضـئيل الجـسد في انحنـاء يسير يتراءى لمن يدقق النظر فيه أنه ينطوي على سرّ أكبر من حجمـه. مـا كنا نعرفه أن هذا "الطفل" لا يعرف السباحة ليلقي بنفسه في نهر ديـالى، ولكن مـا لم نـصدقه أن يـدًا سـتمتد اليـه ليمـوت هنـاك. لقـد انطـوت الصفحة البيضاء بسرعة فائقة، ومن يدري إلى أي مدى ستظل سرًا يخيم الظلام على انطوائها، فلا تصلح في خضمّ قـصص كـبرى إلّا أن تكـون قصة صغيرة، صغيرة قد لا تُروى! مثلها مثل مئـات القـصص المـشابهة الأخرى، قصصك أنت مثلاً.

أيدينا

مثل سماء لم تزرها شمس في النهار أو نجوم في الليل مضى الأربعاء. بيد أن الخميس كان يومًا آخر حينما وصلتُ إلى البيت. لقد وصلته متأخرًا بعض الشيء، لارتباطي بموعد تم فيه لقاء مع أصدقاء في أحد الأندية الإجتماعية. لقد ادركتْ زوجتي حالتي حين اقتربت مني وقبلتني على فمي، إذ مدت يدها إلى شفتي السفلى وقرصتها قائلة بتساؤل مريب.. ها؟ لم أنكر، لكنني ادعيت حالة أخرى أنكرت فيها اللقاء في النادي وقضاء وقت طويل نسبيًا فيه، تجنبًا للّوم الذي كثيرًا ما نغّص علينا لحظات صفائنا. "لقد حصل الأمر عابرًا"، وألقيت باللوم على موكب أحد المسؤولين الذي عطل حركة المرور وهو ما جرى فعلاً، مع إحاطة الموضوع بكثير من تفاصيل الروي التي أجيدها مثلما يجيدها غيري من الرواة. لم أندم على إدعائي. إذ لم أعدّه كذبًا موجعًا أو مؤلمًا أو

مذنبًا. كل ما في الأمر أنني جنبت نفسي وزوجتي مشادة تحصل غالبًا، إذا اكتشفت الزوجة أن تأخر زوجها كان بسبب لقاء أنس، في وقت أصبح التأخر فيه مدعاة قلق وريب. على أي حال كنت زوجًا "جميلاً" حتى ساعة متأخرة من هذا اليوم، قبل أن تبرز لذاكرتي مجموعة الوثائق التي جلبها إبني قبل أيام، من قريب لنا كان حاز عليها بعد التغييرات عام ٢٠٠٣ وانهيار المؤسسات، وكنت اطلعت على معلومات فيها، لا يمكن العثور عليها إلاّ في الوثائق السرية عادة.

لقد أوصى هذا الشخص بأن الأوراق شبه تالفة، وأن المساس بها دونما حذر قد يعرضها للتلف فتضيع الفائدة منها. لكن توجه زوجتي إلى الأوراق بعفوية تامة لتنفض غبارها، دفعني إلى تنبيهها بعفوية كذلك، ولكن بانفعال الحرص على الشيء الثمين، أغلظ قلبها عليّ ليلة كاملة بشكل صامت، تفجر عليّ لومًا عند الصباح الباكر حينما سمعنا خربشة في الأوراق، عددناها فأرًا يقرضها أو صرصارًا يتحرك داخلها، ولم يكن الأمر كذلك. كانت الأوراق العتيقة والمتخشبة تلك، ملفات شخصية عن أفراد أصدقاء وأعداء للدولة، فيهم من كان يشغل درجة وزير في النظام السياسي السابق نفسه، ومن هو قائد سياسي لحزب عريق معارض، ومن هو هارب مطلوب، وآخرون وآخرون، كتبها مخبرون سرّيون كانوا يسجلون عن هؤلاء الإسم والهوية وأفراد العائلة والأصل والمنشأ، والموقف من السلطة والإتجاه السياسي ونسبة الحراك في مداره عينه أو في مدارات أخر. الشيء الغريب الذي اكتشفته على صيغة هذه

التقارير، أنها، ولا ادري إن كانت وحدها، موضوعية تمامًا، إذ مهما كان الفكر الذي يحمله صاحب الملف، فلم يكن المخبر يتجرأ على سمعته الأخلاقية أوشرف عائلته. لقد توقفت طويلاً عند التقرير المكتوب عن رجل هارب ومجهول الإقامة، لانتمائه إلى حزب وطني معارض، أجاب عن الطبيعة الإجتماعية لعائلته، بأنها عائلة "طيبة"، ما دعاني لأن أفكر مليًّا، في أن من الحقائق ما لا يغمط مهما بلغ سوء الحياة أو سوء الإنسان. لقد أسعدتني الشهادة الأمينة على سمعة هذه العائلة، ليس لأنني أنتمي بوجداني إليها، بل لحبي أن تكون الحياة هكذا؛ الصحيح هو الصحيح فهو الغالب إذًا أو الذي لا يقهر أبدًا. سيظل الندم يلازمني طويلاً لأنني أتلفت قسمًا كبيرًا من هذه الملفات، التي منها ملف عن حياة وزير من وزراء السلطة السابقة مهمته ملاحقة النساء، وآخر عن قائد من قادة الحزب الوطني العريق آنف الذكر اكتظ بتفاصيل عن حياته ونضاله " نشاطه" وتنقلاته وأسماء أفراد عائلته وبعض المقربين منه ومن فكره، وسأحتاج الى سنوات لأمسح من نفسي ذلك.

ظل يومي معتمًا لما وقع بيني وبين زوجتي من خلاف، على قيمة الأوراق والأوساخ التي جلبتها لنا، وما يحتمل أن يكون في داخلها من فأر أو فئران! والأسلوب الذي تعاملتُ به معها، وهكذا دبّ خلاف مجاني كان يمكن تجاوزه.

كنت مغضبًا وأسيفًا معًا، مغضبًا لأن المرأة قادتنا الى معركة غير متوقعة ومزعجة ومجانية تمامًا، وكنا قبل ساعات من أجمل الأزواج،

وأسيفًا لأننا أتلفنا في لحظة غضب سريع وثائق سرية لا تخلو من فائدة، ولا يمكن الحصول عليها مرة أخرى. كنت أقول إن كلاً من البؤس والنعيم على مقربة واحدة منا، بيد أن أيدينا هي التي تقرب هذا وتبعد ذاك.

مساءً زارني أخي نزار فجأة، في عينيه قلق ما. قبل أن أعرف شيئًا عن سبب زيارته، عملت لنا كلاديس زوجتي، ثلاثة فناجين قهوة مرة بناء على ما يفضله هو في هذا المشروب عمومًا، غير أن زوجتي التي لا تشربها إلا حلوة، شاركتنا الرأي في أن القهوة مرةً ألذّ منها حلوةً، ولربما ينطبق هذا على القهوة وحدها، قياسًا على الشاي مثلاً ومشروبات ساخنة أخرى. بعد أن اختلينا عقب رفع الفناجين، سرني أخي؛ أقول لك وحدك، أرجو ألّا تسمع أم يوسف كلمة واحدة؛ صباح اليوم وأنا ألقي نظرة جانبية على حديقة البيت، لفت نظري مظروف أسمر ملقى هناك، وكما هو معروف أو أصبح معروفًا، فإن أول ما تبادر إلى ذهني، الشيء الذي ينطوي عليه هذا المظروف والمضمون الذي يشخص خلفه. كان لا بد من أن أتقدم منه وأرفعه. لم امنع نفسي من فتحه ورؤية الرصاصة بداخله، والورقة الصغيرة المكتوب عليها بخط رديء؛ "إرحل" . أنا محير الآن لا أعرف كيف أتصرف. البيت مكتظ بي وزوجتي وعادل إبننا وزوجته وولده وابنتنا سوزان، لا أدري ما العمل إذ لا قدرة لنا على ترك البيت أولاً، مثلما ليس لدينا القدرة على استئجار بيت آخر، ثم أين وكل من سيكون من حولك بعيدًا وغريبًا. إبق في

بيتك ولا تغادره، قلت له، ثم عطفت؛ إسمح لي أقل لك إنّ ما حصل لك اليوم حصل لي قبلك بأيام، وقد آليت أن أضع المظروف وما يستبطن خلف ظهري، فما يقيمه الله لا يحطمه البشر. بل لقد حطموا أشياء كثيرة مما خلق الله أو صنع، أنسيت ما فعلوه في شارع المتنبي أي الناس وأي الكتب أحرقوا، ثم أنك تعيش وزوجك بمفردكما ولا ثالث بينكما، أنا لدي أولاد وأحفاد في عمر الورود. الوردة في بيتك حين يقطفها حفيدك تبكي عليها، كيف إذًا لو قطف معتوه من هؤلاء إبنك أو حفيدك؟ كيف لو خطفوا إبنتك أو زوجة إبنك؟ لا أريد أن أقزز نفسك؛ لقد رأيت جثثًا تلحس دمها القطط وتحوم حولها الكلاب. اليوم كان دهرًا عليّ، بحثت دونما طائل عن رقم هاتف ألقاه جندي أمريكي أمامي مطبوع في ورقة صغيرة، يوم داهموا بيتي كما تعرف، فقط لأقول له تعال وشاهد هذه الحال. لأنني لم أمتثل لرغبته في الاحتفاظ بالرقم، أو أتصل به لأدَوّن في سجله الخاص مخبرًا سرًّيا أو عميلاً لهم، ضاعت الورقة، كانت ساعة ألقاها تحت عيني أشبه بوصمة عار تدخل بيتي وحياتي، وكان علي أن أزيحها عن ناظري ففعلت. كنت أريد أن ألعن ما جاء به وأقول له إنني مهدد، ولكن كيف يمكنني ترك داري وحانتي القريبة ومقهاي الأقرب، وفيها أعز أصدقائي والرائحة التي لا أظن أنني قد أشمها في مكان آخر؟ ثم هم يعرفون، أؤلاء القتلة، أم ينكرون أننا أول من طرقت أقدامهم هذه الأرض؟ ثلثا الشعب المسيحي العراقي في بلاد المهاجر الآن والبقية في طريقين لا ثالث لهما الهجرة أو الهلاك، سأقول لك ما يلي وعليك أن

تسمع؛ سيعودون وسيتمنون العودة، مثلما يتمنى حتى الآن يهود ٤٨ من القرن الماضي. لا ترحل كما لم أرحل أنا. ففضلاً على ما تفضلت به فقد صار من إجراءات بعض الناس أن يفعلوا ذلك لمصالح خاصة، واطئة في كل الأحوال. قبل أيام ألقي القبض على دلّال بيوت، يفعل ذلك على أكثر من بيت بإلقاء مظروف في الحديقة أو يكتب على الجدار " مطلوب عشائريًا" ، لكي يرحل أصحابها خوفًا مما وراء التهديد، ليستأثر ببيع أملاكهم بأسعار بخسة وقد يكون هو الطرف الأول والثاني في البيع والشراء، حينما يعهد الناس أمورهم بين يديه. إصمد. لا نصيحة لدي سوى هذه الكلمة، قلتُ له، وهو يغادرني، وظللت إصغي لوقع خطوات زوجتي العائدة بعد أن شيعته وأغلقت الباب. لا أكتم أحدًا إن قلت؛ إنني قلت ذلك بحماسة منفعلة، جعلت زوجتي تسمع من خلالها كلمتي " لا ترحل" لتسألني عن معناها ودلالتها مع قدوم نزار، نزار هو أخي الوحيد، يصغرني بأربعة اعوام الذي سأضطر لقبول انتقاله إلى منطقة أخرى بعد أن يكون وضع بيته، في ذمة جار له حفاظًا عليه وحمايةً له من الأغراب. وكما يبدو فإنه ألغى فكرة إيجار بيته آملاً أن يعود إليه في أيما وقت يراه مناسبًا لذلك! لقد فعل ذلك من دون علمي؛ الضرورات تبيح المحظورات، هكذا أغلق الحديث معي حينما اتصلت به يومًا لأعرف آخر ما قام به، وقد حصل ذلك سريعًا.

ما أحب

"ما أحبُّ في الحياة قليل. هذا الجو مثلاً. لكن ما يحبطني أكثر بكثير. حاولت الحضور وتقاسم هذا الجمال معك. الدنيا عاندتني وطوحت بسهري وترتيباتي، هل أخبرك بقليلي النادر؟ أنت والخريف ومطر الليل وشمس خلف حجاب وأشياء من هذا القبيل. أعذب أمنياتي".

بهرتني الرسالة. نقلتني إلى الصواب إذ يكون وحيدًا بين الأخطاء، وامتدت أجنحتي، وخرجت بي من نوافذ غرفتي حيث وجدت الشمس تضحك لي.

لأنني بكرت في النهوض صباحًا، لم يستغرق الطريق إلى المدرسة زمنًا طويلاً، إذ تقدمت على زمن الإزدحام الذي يحصل بعد السادسة من هذا الوقت. كنت سعيدًا بذلك، إذ لا بد من أنها في طريقها إليّ.

لأن رسالتها بهذ الرقة والعذوبة ولأنها لن تحضر، أصبحت سعيدًا وحزينًا معًا. ولا أدري بهما أو بأي منهما اكتظت غرفتي التي أحبها لأسباب كثيرة خارجة عن إطار العاطفة، فمن أحاديثٍ وإن كانت عابرة مع أصدقائي الثلاثة أقول لهم؛ هي غرفة صغيرة ولكنها بمسؤولياتها كبيرة، لا تضم أحدًا سواي، مكيفة صيفًا وشتاءً، نظيفة على الدوام، خالية من روح الأرستقراطية ومظاهر الترف الوظيفي الذي قد يدعو إلى عبادة الكرسي، إنها في الحقيقة أشبه بغرفة رب أسرة مهيب لا يجالسه فيها من عائلته أحد، ولا يدخل عليه منهم آخر، إلا في مناسبات وعند الحاجة، لكنها لا تخلو من زيارات خاصة، وزيارات أخر كزيارات أولياء أمور الطلاب والطالبات وزائرين آخرين ليسوا كثرًا على العموم. كنت أتوقع قدومها وقلبي يهفو لكل خطوة تسمعها أذناي، ثم هاهو يخفق على صوت رسالة.

مساء لم أرسل لها رسالة لاحقة على رسالتي الجوابية: " ما أحب في الحياة قليل. هذا الجو مثلاً، وفي الخيال نهر وبحر، نعم لكن أنتِ أكثر بكثير لأن كل هذا متضمن فيكِ، أشكرك". التي تلت رسالتها مباشرة. المرأة التي زارتني عند الظهيرة شغلت تفكيري بهويتها. وعلى عكس حلمي السابق السهل ذاك، كان حلمي المتمنع الصعب هذا. ثم إن كان ذاك حلم ليل فهذا حلم نهار، ولا ادري مقدار ما يتدخل به الليل والنهار في أحلام الناس. وبين أن تكون امرأة حلمي هذا أحلام أو بطلة قصتها " من أجل قدومه" أو شخصية أخرى، ضاع يقيني بهوية ما.

كانت لافتة للخيال بطولها الفارع وملابسها الهفهافة على ريح ملتفة الإتجاهات، وحركتها المتماوجة التي كما لو على موسيقى أو غناء، تدور على نفسها في دائرة سُلط الضوء عليها من كل مكان، امرأة تهفو بعينيها إليك ولا تريد أن تلقاك، فكلما تاملتها انعطفت أو بادرت إلى وجهها الصارخ البياض وغطته بخمار أسود لا يكاد يغطيه، ثم ما تلبث مهما فعلت أن تزيحه الريح، تترادف مع ذلك قهقهات ساخرة وباردة تتردد في الفضاء، ثم تعود تتصادى بين أذنيّ حتى لكأنها من أجل أن تسخر مني، وأنا مسلوب الإرادة، خفيف دقات القلب، لا قرار لي على حركاتي التي أجدها بعيدة عن رغبتي. كانت الريح والموسيقى التي يلتف عليها جسدها المتناغم، تمسح ذاكرتي وتزرأ بوزن جسدي فأخف، أخف وأستسلم لها فترفعني. كنت كمن على بساط محلق فوق، أو كطفل مشلول مشدود إلى سرير، ألقت به يد مجهولة من منحدر لا يملك إلا عينين مبهورتين بالأشياء التي تتداعى إلى خلفه. فإذا استيقظت على خليط نفسي وعرق جسدي، طمحتُ إلى فرز أخلاط حلمي الذي بدا كالمستحيل. كنت متعبًا وعاجزًا ثم لكي أتحرر مما بثه في دواخلي من تهيؤات وجدتها في الأخير عبئًا وعبثًا لا جدوى منهما سرّحت قدمي. لا أجمل من أول المساء على نفس أمست متوحدة مثل نفسي الآن، حتى بتّ لا أفكر إلا فيها، هي مركز ذاتي التي أوحشها حلمي. لا رسالة الليلةَ ولا معرفة بمتى يأتي النوم، وهل ثمة من حلم قادم مرادف لحلم ظهيرة هذا اليوم. كل ما أشاهده في طريقي ومجلسي هو كالحلم كذلك، إنما

كالسراب، الوجوه، السيارات، المحال، الأضوية، الصور، اللافتات، الإعلانات، أشياء أخر، ثم كان صديقي عبد النور، وكان آخر لقاء به قبل عام، وهو على حاله من قبل؛ متوتر الأعصاب منذ وفاة زوجته قبل سنتين، إثر إصابتها بانفصام الشخصية قبل أكثر من ثلاثين عامًا، ولدته طائرة مغيرة أسرع من الصوت وعلى ارتفاع قريب، أسقطتها ارتعابًا على الأرض والملابس المبلولة، التي كانت في طريقها إلى نشرها على حبل الغسيل على السطح. عبد النور الذي سحبته إلى مقهى على الرصيف، صديقي القديم، كدت أسأله، وانا اعرف ألّا تفسير لهذا سوى تأثيرات حلم غريب، ما علاقة حلمي بحضورك غير المتوقع الآن، قبل أن يسألني عن أحلام. قلت أحلام، ما صلتك بها، وما الذى أتى بها إليك؟ هي قريبتي وقد زارتني قبل أربعة أشهر وذكرت إسمك عرضًا، بعد أن سألتها عن وضعها مع زوجها والجو العام لعملها ومديرها الجديد، وكان مديرها السابق صديقي قبل أن يسقط النظام، قلت هو صديقي وصديق قديم ولي دالة عليه فإن رغبتِ في شيء حققته لكِ منه، فقط هاتي عنوانه. لم تعطني عنوانك ولكنها المصادفة، ولعلك لن تصدق إنني كثيرًا ما التقيت أصدقاء قدماء على أرض هذا الشارع الموعود بالمفخخات. سكتُّ. لم أجب، فليس أمامي ما هو منطقي لأجيب عنه، حتى غادرني على أمل أن نلتقي ثانية على هذا المكان. وكائنًا ما كان أمر حلمي وحضور عبد النور من مكانه البعيد الذي حلّ فيه تحت وطأة الطائفية والتهجير، فقد كان اللغز يمسح حلولي. عدت إلى غرفتي

غريبًا، أول مرة أكون كذلك، ثم كان الليـل فكانـت وحـدها تـشخص أمام عيني، تكرر على مسامعي؛ "ما أحبّ في الحياة قليـل....." لأقـضي ليلي على رنين هذا النداء الوثيق، قريبًا من الحياة، بعيدًا عن أصداء ذلـك الحلم العقيم.

قلق مشترك

قبل أن أغادر البيت وجدت زوجتي تضع رأسها بين كفيها على وجع فيه. تأسيت كثيرًا لها ورققت لحالها، وأخذت على نفسي إنْ تركتها على حزنها فقد تموت. كلمتها وقبلتها وقدمت لها مبلغًا ليس قليلاً إن لم يكن كبيرًا قائلاً: حاولي أن تشتري لك بذلة جيدة حتى إن كان ثمنها أعلى مما بين يديك فأنا على استعداد لدفع ما تحتاجين بعدُ، كوني رفيقة بنفسك فهي عزيزة عليّ. بهذا الموقف وليس بالمبلغ طيبت خاطرها بنسبة ما، ثم لما قبلتها طابت نفسها أكثر وتألق اللون الزاهي على خديها. لم أكد استقرّ على منضدتي، وجعلت أفكر مرة تلو أخرى في ذهاب زوجتي الى كربلاء لزيارة الأماكن المقدسة "فهي تشعر بالضيق". وإنّ التقرب من الإمام قد يفرج الغم عن صدر المغموم. في حدود الثالثة جاءتني رسالتها تسأل إن كنتُ في المؤسسة قلت نعم، ما الأمر، قالت: لقد

حصل انفجار في الكرادة راح ضحيته وحسب الإحصاءات الأولية خمسة قتلى وأربعة عشر جريحًا. إلزم مكانك ولا تتحرك كثيرًا. لقد سمعت بالإنفجار فلم يعد قليل أو كثير من

هذا يخفى علينا. رسالة جديدة فاجأتني، هزت خفيف غفوتي:

"العزيز. طمئني. أنت بخير. إذا أمكن أجبني على هاتفي."

عجبت من الرقم المجهول الذي جاءت الرسالة عليه. إستعرضت في خيالي وفي قائمة الهاتف بعض الأرقام القريبة مني. لم أعثر على رقم يفيدني. ثم أن السؤال عن صحتي أثار الكثير من تساؤلاتي فأجبت مباشرة:

" شكرًا وللأسف لم أتوصل إلى الإسم الكريم.."

وكنت في سري أخاطب رجلاً. لحظات سريعة مرت وجاءتني الرسالة الثانية التي تقول بقلب خالص الطيبة والنبل: "الآن اطمأن قلبي وهدأ بالي".

إكتشفتُ الأمر، إذًا أنا حي، على قيد الوجود ما دمتُ رُددتُ على الرسالة. عرفتُ المرسل وكيف ولماذا. الأمر يتعلق بانفجار الكرادة الذي ازداد عدد ضحاياه، وما حصل للناس من كارثة دموية. لقد استخدمت بلقيس جهازًا غير جهازها للتحوط وتحاشي إثارة الشكوك إن كنتُ في البيت، فالصياغة عامة والرقم غير رقمها. كان قلبها، لا بد اضطرب على أخبار الإنفجار ولكي تطمئن عمدت إلى هذا الأسلوب،

لا أشك في أن كثيرات من قبيل الأم، والأخت، والزوجة، والعمة، والخالة، هاتفن أبناءهن، وأزواجهن وأقرباءهن، بأرقامهن ولا ضير، لكن مَنْ تلك التي اتصلت بأحد برقم غير رقمها وبقلب مثل قلبها؟ "أيتها الحكيمة، يا خيار عمري، ما أبلغ حكمتك، وما أنبلك. إطمئني، ليكن قلبك باردًا. عناية الله تحميك أولاً. رسالتك هذه وثيقة حب خالد. أشكرك عليها ولن أنساها"، أجبتها وعزمت على التوجه إلى البيت، مستشعرًا طاقة متجددة وأمانًا نسبيًا وثمة طعام لذيذ وتخفف من عناء عمل ثقيل. لم يعد يخالجني أي شك في أن عودتي إلى البيت، ترفع عن قلب زوجتي أطنانًا من الشكوك والظنون، وهو الشيء الذي كنت أتمناه تمامًا. ثم لكي أرسخ سعادتها بي جعلت انصرف بكليتي إليها، أتناول معها شؤون البيت والسياسة، وأتلقى منها الأخبار التي أعرفها والتي قد لا أعرفها، وكانت تقترب مني لأحس سعادتها، وليسودني من بعد شعور بالفتنة النادرة، متجاوبًا وصيغة التفرد التي خصني بها الله. أولادي هم الآخرون أطمأنوا لذلك، إنما عدوه من اللفتات العائلية الجميلة التي ينبغي أن تدوم، أو هكذا هي العائلة على وجه العموم؛ الرجل حينما يعود من عمله ينصرف لسعادة عائلته، بل لإسعادها بشتى الاساليب؛ فهي أولاً وما عداها فملحقات. كنت أتطامن مع ذلك فهو شيء عام ولذيذ ويدعو إلى الإسترواح، ومجمل العائلات تسير عليه، لكنه في الوقت نفسه يحرمني من مهمات تمت إلى حياتي بصلة جوهرية، فوق أنها لذيذة هي الأخرى!

نظرًا لانتقال أخي نزار من بيته وسكنه في منطقة أخرى لا معرفة له بأي من أهلها، قررت زيارته لأسدّ فراغ قلبه فلقد ترك وراءه حياته. استقبلني وزوجته وفي عيونهما دموع. قلت لا تبكيا فما عادت الدموع تجدي. البيت صغير على شجرة العائلة، ربما يعود تأسيسه الى خمسينيات أو ستينيات القرن العشرين، رمم ترميمًا جيدًا ليكون مقبولاً من المستأجر الجديد، العائلة مغتربة إلّا من لفتة قَدِمت من جار مسلم على هيئة صينية كبيرة حفلت بوجبة طعام فاخر للغداء، ترحيبًا بالقادمين الجدد على طريقة أهل العراق. تصدرت جدار غرفة الإستقبال المواجه للزائر أول دخوله لوحة مقلدة عن لوحة" رقاد السيدة العذراء والدة الإله" تبدو السيدة فيها متعالية عمن في الأرض في صعودها إلى السماء، وعلى عمود إطارها الأفقي الأسفل ما يزال خط جدنا قائمًا في هذا المقتطف من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس" كما لبسنا صورة الترابي سنلبس صورة السماوي إذ نحن أيضًا سنتغير"! لم أسأل عمن بحث في الصناديق القديمة يستخرج، ثم يعلق على الجدران صور آبائنا وأجدادنا بوجوههم الجميلة المسترخية، ونحن، هو وأنا وأخوات لنا نستوطن مقدمة صورهم. أطلقت على الصورة الأكبر والأكثر وضوحًا التي هي بالأسود والأبيض، بالصورة الجامعة؛ نزار وأنا وأخت لنا ديانا الأقرب إلى عين الكامرا، ارتمى نزار ببنطاله القصير حتى بان معظم فخذيه على الأرض المفروشة بسجادة عريضة، مستندًا على كوعه الأيمن، تاركًا لي المساحة عينها التي شغلها لأحاذيه ولكن بشكل معكوس، وجهانا أبيضان فاقعا البياض وعيوننا واسعة فاتحة اللون لم تفلح كاميرا تلك

الأيام في نقل لونها الأخضر، خلفنا مباشرة ديانا في الفراغ المناسب بين سيقاننا، تلبس ثوبًا مزركش الصدر أغلب الظن أنه كان أحمر بلون شعرها ذي الحلقات، ربما كانت ابتسامتها أعرض ابتسامة في الصورة تلبية لطلب المصور أنْ ابتسموا، وفي الحق كانت ابتسامة جميلة لأن فمها لم يكن كبيرًا، أجمل الرجال كان جدي بطرس بعينيه كالساعتين وامتلاء وجهه الأحمر، ولحيته الطويلة وذوائبه الشقر مثلما يوحي لونها الباهت، أجمل النساء كانت أمنا مادلين التي جلست في الصف الثاني مع أبي وعمي اسحق وعمتي نورا، التي سترمل بعد خمس عشرة سنة من زواجها عام ١٩٦٠، إثر رصاصة لم يعرف مصدرها أردت زوجها اللبناني أثناء الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥، وهو يعبر الشارع متخفيًا بين السيارات العاطلة، نحو المخبز في الجانب الآخر منه. نزار نقل صورته من أمنا فكان جميلاً جدًا، ولعل من الغريب ألّا يجلس جدنا الى جوار جدتنا حنّة التي جلست على مقعد عال، ربما جاء ذلك من طول قامته التي ظهرت كخيمة علينا. قلت هم يتدفأون على الذكريات، وهذا من حيل النفس الضيقة، فإذن لنجعل من الفسحة الصغيرة عالمًا كبيرًا، نشغله ليس بالذكريات الجميلة وحدها، وإنما بما يمكن استخلاصه من هذا الواقع الذي هو ليس بالقبيح كليًا. هناك مساء دجلة الغافي، وأبو نواس يقرع الكاس تلو الكاس ويغني خمرياته التي لا تنتهي، شهرزاد وهي تقص على شهريار حكاياتها المدورة؛ تلتف بها على عقله الموبوء بالجريمة بأغرب ما اقترحه عقل أنثى من إسلوب للحماية والإقتصاص. كنت أشاهد انكسارات العيون الملتفة حول شيء لم يعد

مرئيًا لها، فأقول يا للمساكين، لقد نشأوا على شيء لا يحتملون مغادرته. دعوت نزار وعائلته للتفسح كل مساء على كورنيش أبو نواس، أو زوروا إن شئتم كنيسة سيدة النجاة ففي ذلك فسحة للنفس وهي قريبة ولكم فيها أقرباء وأصدقاء، ومن يؤكد لك يا أخ نجاة الكنيسة ذاتها من عمل تدميري قابل؟ هذا إفتراض لا تتشاءم ولا تتسابق إليه، الدين المسيحي لا يؤمن بذلك، لا تغادر بيتك ولا تهجره هو ما أقول، ولكن أن تفعل ذلك مؤقتًا لسبب أو لآخر، لا يعني أنك استسلمت لموتك، أنت بحماية قانون، وحماية الله هي الأعظم. كنت أريد بذلك أن أحيي روح الحياة في قلوب هؤلاء الذين لا ذنب لهم ولا يد، في كل هذا الذي يعكر الحياة، وكنت أفكر في أنه سيعود قريبًا لبيته، ثم لكي أضيف لمسة إلى ذلك، أخرجت قرصًا هو نسخة جديدة من المدونة سلمته لنزار قائلاً؛ لفسحتكما الليلة والليالي القابلة إبدأا بقراءة ما يتضمنه هذا القرص، ولكما أن تفكرا ما شاء لكما التفكير لأن إسمي يرد فيه. الأسماء والتجارب تتماثل أكثر من الصور، وحسبي منكما أن تعلما ذلك، أضفت وغادرت. كنت أفكر في من سيقرؤه بعدهما؛ في عدد الدوائر التي ستتسع له وتقاوم به فسحها الضيقة. من جانبي أحسست بأن ما قمت به لأخي نزار هو أفضل ما بميسوري تقديمه، لذلك عدت الى بيتي بأسرع مما توقعت زوجتي التي عادت سريعًا بقدحيْ عصير برتقال طبيعي، وتتنبأ بانّ نزار سيعود إلى بيته سريعًا بعد أن ذكرت لها غربته في بيته الجديد.

إختلاط

سعيدًا، هكذا كنت حتى صباح السبت حيث أوصلني ولدي إلى المؤسسة، زوجتي بصحبتنا عذبة الحديث منفتحة الروح، تتحدث بفيض سعادتها أمس وأول أمس، وتلتفت باسمة إليّ إذ طفقتُ منذ زمن أترك لها المقعد الأمامي الذي يجاور ولدي، وأجلس إلى الخلف تعزيزًا لشخصيتها وتقديرًا لمكانتها. لا أنكر أنني أسعد بذلك، وأعده من نجاحات أيامي التي لا أعرف متى تتغير أو حتى تنقلب. كنت كمن يسير على سراط محفوف بترقب ماثلٍ كل لحظة، حاكمٍ بإطلاق، وسعادته في هذا وليس في غيره. كنت أراني أقطع شوطي وئيدًا، حذرًا أن تخفق ريح تغير توازني؛ يداي ممدودتان إلى الجانبين تترجحان في تناوب دقيق بين الأعلى والأسفل، وعيناي إلى الأمام تارة وعلى طريقي أخرى، وكل مرة أنجح في خطوة تستتبعني الأخرى. كنت أقول لقد

مشيت السراط ودخلت الجنة، وجنتي جنتان كلاهما على سراط مستقيم.

هناك باشرت عملي كما يباشره الفلاح في حقله. لم أفرغ منه ولم أتفرغ لغيره حتى الرابعة عصرًا. كانت كتابة التقارير الإخبارية والإشراف على ما يرد من أخبار وتقارير ترهقني، ما يرهقني أكثر هو التحوط من الغلط اللغوي الذي بدأ يشيع في حياتنا الثقافية العامة ولا سيما في نشرات الأخبار وفي قصصنا ورواياتنا. هبطت الكرادة مساء. جلست في المقهى مع الثلاثة زملائي، ثرثرنا كثيرًا عن الوضع القائم وخيانة السياسي ندّه أو صنوه الثقافي، ووضعه في زاوية محددة تحصره بجمهور منتخب، لا ينفذ عبره الى الجمهور العام وقضايا هذا الجمهور، انتهينا إلى أن عقول الوافدين الجدد الذين أمسكوا برسن السلطة لم تفهم هذا الأسلوب، ولم تستوعب ولو على أبسط المستويات شيئًا من تجارب البلدان التي هاجروا أو التجأوا اليها، فظلوا بمنأى عن التفكير بإجراءات كفيلة بتحسين حياة الناس وقهر دعوات المتطرفين، ظلت شوارعنا محفورة وأرصفتها موبوءة، ولبثت الفراغات جافة مترية وكالحة، وافتقرت عيوننا إلى مساحات الخضرة التي تملأ العين هناك، ناهيك عن العطالة المتفاقمة، وموت المشاريع الوطنية والأجنبية، والحروب الصغيرة والكبيرة، ونهب الثروات والسرقات، وغير ذلك كثير. سعيد الذي ذُبحت هذه المرة مجموعة من عائلة قريبة منه على طريق بغداد النجف، كان أكثرنا انفعالاً وأرفعنا صوتًا، بفعل حساسيته

وخيبته في وضع، كان يؤجل النظر فيه إلى مبادئه العلمانية، في تفسير الظاهرة السياسية الحالية، وينظر إليه نظرة استبشار. ولكي لا تنتشر عدوى حوارنا الفاحم إلى المتطلعين إلينا، قررنا فض لقائنا. وأنا أعود وحيدًا بعد ساعة إلى مكان عملي. بعد أن تفرقنا وذهب كلٌّ منا إلى محطته، يتبعني شخص ما، يقترب مني، يقترب كثيرًا حتى النقطة المظلمة ولأكاد أسمع تجاوب أنفاسه ويهمس بأذني؛ أنتم أل... بدأتم تتكلمون بصوت عال.. هذا جيد وحسنًا تفعلون إذ تتركون لغة السجون والسراديب، وينعطف إلى إتجاه آخر. يفز قلبي على كلامه وتتداعى طرق التأويل. في الأخير أفرح لهمسه، فهو لم يقل غير الحقيقة في جزئه الأول في الأقل، ومهما يكن ما بعد كلامه هذا، فلن يكون إلا شهادة مضافة إلى شهادات. قررت ألّا أنقل شيئًا مما جرى لأحد من زملائي، ذلك أننا باجتماعنا هناك نتخفف من عناء العمل ليس غير، ولا أظن أن شيئًا سيتغير قريبًا.

"أشعر أن غيومًا ستنجاب عن ربيع وغابات من موسيقى وأنهار وينابيع، أشعر كأنني أراكِ غدًا بهذا كله؛ موسيقى وربيع وفراشات، ترى من يمنحني، بل من منح عمري هذا كله"؟

حتى الثامنة والنصف لم أسمع نداء هاتفها، هي الآن صامتة لا أعرف بماذا تفكر، ماذا تخطط أو ماذا تفعل. الجدران والمسافات تحدد البصر والبصيرة، هكذا هو العالم؛ عوالم صغيرة وكبيرة، منفصلة ومتصلة، مفتوحة ومنغلقة، أسرار وخفايا، ألغاز وخصوصيات، تدابير

ومؤامرات، أوامر ومشاورات، تبادل هدايا وإغراءات، حب وكره، جنس وعلاقات، ولكل منحى من هذا أسباب ونتائج، كذلك هي الآن؛ عالم مغلق صامت بعيد لا أعرف حجم مسراته وكم هي أحزانه، وتضحك لما أقول لها يقولون؛ إنه عالم صغير، جزيرة، قرية صغيرة، وتقول دعهم ولا تبال بما يقولون، وأكاد أمسح على ظاهر يدها تأمينًا على كلامها أو أتمنى أن أقبلها لأننا حتى في هذا معًا. أسمع سيارات الإسعاف والشرطة تشق بأبواقها صمت الكرادة الجليل، الحصيلة النهائية لهذا الإنفجار أكثر من خمسة عشر قتيلاً عدا الجرحى، لا بأس نحن نعيش السلام والحرب، الحياة والموت منذ سومر وأكد وبابل وآشور، ولا يبدو أنّ لنا مفرًا من ذلك حتى وقت بعيد، قبل أن يسودنا الحب. كدت أغادر غرفتي عندما سمعت صوت رسالة قادمة. وصدق ظني إذ أنها منها.

"مساء الأنوار على عينيكَ النبيلتين، أملي أن تكون أيامكَ أحلى، صحة وإبداعًا وتألقًا، نعم سنلتقي غدًا".

إذًا ما أوسع سعادتي، ولكن ما أضيق ليلي!

مقتضى الحرص

أنا الآن في عزّ حاجتي إليها، ولا بد أنها تعرف ذلك وكنت اطمأننت على وجودها، فلم يزل لأحد على طراوته التي تثبتتْ في نفسينا منذ طفولة علاقتنا. لم أفاجأ بحضورها المبكر لننعم بلقاء أطول، وليتسع حديثنا إلى مجالات أرحب، حينما زارتني بعد دقائق لتأخذ مكانها على الكرسي الذي ختم باسمها. لبست هذه المرة أجمل ملابسها وصبغت شفتيها بطلاء قرمزي خفيف لا تتبينه إلا النظرة الفاحصة. سلمتني تخطيطًا للوحة قادمة، ولكي أنفس عما في صدري طلبت تقبيل يدها التي انتجت هذا التخطيط، ثم لما مانعت أشرت إلى أن هذا أمر مألوف؛ فتقبيل يد المرأة في أي محفل أمر شائع ولا يثير الظنون، بل هو عرف مقبول ومطلوب في بعض المجتمعات. أنا أحذر يا عزيزي، وأي إشارة إلى أن شيئًا من هذا يحصل بيننا، يجرح نفسي ويعرض سمعتي للتقاويل.

بدوري دافعت عن كبريائها وحرصي على كرامتها، برغم قناعتي بـ أن الحب، وهذا الحب نفسه، لا يشكل ذنبًا. أطرقتْ واستنامت لكلمات لم تستطع أن تعلن عنها سوى، واعلم أن الفن وكتابة القصة إلا محاولات لجعل القرابة بيننا قائمة في أعين الآخرين.

كان صخب الطلاب يتقاطع معنا ونظرتها تحلم بشيء كالمستحيل، المستحيل الهلامي غير المرئي، ولكنه اللذيذ، وكنت بدوري أؤطره بفضاء خلف شباكي يترع العين بسحر غابته، ما أجمل هذا المنظر أنظري، وكتفي يلامس كتفها ونحن نغادر المدرسة فيتأجج عطر يملأ فضاء السيارة التي تتهادى بنا، ومنذ أمس وما تزال طلاوة بعض القصص، قصة مصير هكتور مثلاً، المترجمة من نهاد التكرلي، وأنا أعيد قراءتها لم تبرح ذائقتي، أعقبتها أخبار الـ B.B.C في أحدثها وتعليقاتها عليها، كانت متعتي في سماع الأخبار تفوق متعتي في أي شيء آخر، لأنني مذ عرفت الراديو،وكان ذلك في شبابي، لم تشبع روحي بخبر عميق سار إلا في حالات نادرة، لذلك ظلت لهفتي إليه قائمة حتى الآن، وكأنني بانتظار خبر عظيم يغير العالم كله. لم أُسر بأخبار مريحة. الوضع في العراق قاتم ومؤلم ومثير، وساعات الليل أشد من ساعات النهار، إن روحي وجسدي لا يتآلفان مع هذا المد الجنوني من أعمال العنف، ولا يتصالحان والتوتر الذي يسود الحياة العامة في بغداد ومدن غرب العراق، ولولا وجودها في حياتي، لما عرفتُ السكينة ولما بقيتُ على قيد العقل. كان يؤلمني أن أسمع أخبار الشوارع المدماة بأجساد

الأبرياء، والثروات التي تسرق وتهدر دونما رقيب، والصمت غير الشجاع على استباحات النساء، والضباب الأسود الذي يغلف فضاء عموم العراق، كنت أحزن وأتخلى عن مسؤوليتي المفترضة عن نظام العالم هذا، ألوذ بحبها وأقول هي ذي غنيمتي، ومن حظوظ بعض الناس وأنا منهم، أن في حياتهم شواهد سامية ما تزال ماثلة؛ يقاومون بها يباب هذا العالم الموحش الذي تفشت فيه غنائم الثعالب والذئاب. كانت الأخبار المحزنة تترى عن الجثث المجهولة، المعثور عليها في تلال القمامة وسواحل الأنهار، والخرائب المظلمة وخلف التلال والسدود، وعلى جوانب الساحات وبين الأزقة والدرابين، كان ذلك يفزع قلبي ويروع مخيلتي، ويفرض على روحي قلقًا مظلمًا أمسى عليّ أن أسربه، عبر هذه الكوة المضيئة في حياتي، التي ينبغي أن أحرص عليها الحرص جميعه.

كان السائق يعرفني، إذ سبق له أن شاهدني في التلفاز، أتحدث عن موضوع من تلك التي تتعلق فيها الفضائيات بأذيال الناس ليخوض العالم والجاهل فيها، ويبدو أن حديثي راق له فحفظ صورتي وربما إسمي، إلى الدرجة التي تبرع فيها بالتنازل عن أجرته فرفضت كان الرجل في كرمه شديدًا، وكنت في رفضي منصفًا حتى نقدته كامل أجرته.

تكريم

في اتصال سريع وخاطف اتصل بي صديق فنان، يدعوني لإبلاغ السيدة بلقيس أن تحضر بعد غد إلى وزارة الثقافة لحضور حفل تكريم بعض الفنانين هي من ضمنهم. أخي لقد اتصلت بالسيدة بلقيس كثيرًا، ويبدو أن هاتفها عاطل أو مغلق وأنا مسافر غدًا إلى عمان أفتتح معرضي الشخصي هناك. أنت زميلها وبحكم قربك منها أحملك مسؤولية الإتصال بها. لم يكن القلق الذي سادني ناتج عن نجاحي في إبلاغ بلقيس حضورها من عدمه إلى وزارة الثقافة، فذلك من مسؤولية الوزارة أولاً ولا بد أنها أُعلمت بذلك، ولكنه انصب على ما قد يترشح من حديثه إلى سمع زوجتي التي إلى جانبي، لتسألني عن شيء إسمه التكريم وأولئك الذين سيكرمون. نقل الرجل المهمة على عاتقي من دون أن يعلم ما الذي خلف وراءه وهو معذور، فليس العالم صغيرًا إلى

هذا الحد. قلت؛ استيقظت وزارة الثقافة وها هي تُقدِم على تكريم بعض الأدباء من الذين تجاوزوا السن القانونية في الثقافة والأدب! ولا بأس من أن يُجرى هذا في الحياة وليس بعدها، فالجاري أن الجهة المسؤولة لا تتذكر مبدعيها إلا بعد الموت. قالت؛ والفنانين والفنانات؟ أليس تكريمهن أولى، تقول ذلك غامزة، فالسيدات أولاً مثلما علمتني دائمًا، وهذه غمزة أخرى، كنت كمن يشرب شيئًا مرًا أو هو يتطامن على أشياء تعذبه، ويعرف حجم عذابه لو عارضها. والله لا أعلم ولا أظن الوزارة بميزانيتها الشحيحة قادرة على مثل ذلك، هل تصدقين أن ميزانية وزارة الثقافة من أضعف الميزانيات، قياسًا على ميزانية العراق هذا العام، إن لم تكن أضعفها على الإطلاق!. إنني أشبّه هذا بصحوة موت! قلت وركنتُ إلى الصمت، وكنت أتمنى أن أركض إلى مسافات بعيدة لا تصلها عين زوجتي ولا خيالها. نظرتْ في عينيّ نظرتها الثاقبة التي أجدها مخيفة أحيانًا، ومَن هذا الذي كُلفتَ بإخباره، لقد سمعتُ محدثك يدعوك بلهفة لتخبره؟ زهير أحمد القيسي وهو أديب كبير في أدبه وعمره. قلت ذلك ولا أدرى كيف حضر إسم الرجل، أو كيف تجرأتُ على ذكر إسمه، هو الغائب البعيد، النائم، أو الذي يفكر أو يكتب الآن. وتنفستُ بعمق، إذ لما كانت تعرف الرجل، من خلال صورة جمعتني به وآخرين، نشرتها بالألوان على غلافها الأول مجلة رسمية، ونحن نقابل شخصية سياسية مسؤولة، لم تسأل بعد. جعلت أشعر أن سماء عظيمة تستجيب لخلجاتي لتموه على زوجتي أولاً، ثم لتمنحني هذا القدر من

النقاء الذي يملأ صدري. هل تغافلتُ عن امتدادات نظرتها تلك ليطمئن قلبي الطيني سريعًا، أم أنني أختلقت ذلك وهمًا؟ هل كان صديقي الوفي ذاك يجهل محنتي الآن؟ أم العالم صغير جدًا ليعيش لحظاتي السعيدة في بيتي ومع عائلتي، وأنا أقوم بنقل الخبر السعيد إلى الفنانة الملهمة! حدثتُ نفسي وأنا أسمعها تنفث حسرة كظيمة وتغادرني. أعظم ما كان يبلبل خاطري ذلك؛ حينما تقطع الحديث بيننا وتطبق شفتيها على سر، لا منفذ إليه وتغادر مجلسنا. بإمكانها أن تسكت على أي موضوع سنينًا لتعمل في بيتها بنظام تحسد عليه، وهو معلق على رأسي بأشد مما هو على رأسها. ومهما تبدى لي من جمال في ذلك لأنها جميلة، والصمت يليق بالجميل! فلم أعرف السمَ في الصمت إلا من خلال صمتها.

حتى في الكتاب

مضت ساعات نهار الأربعاء وها هي إطلالة ليل طويل بدأته بالقراءة أولاً، ثم حين تنبهت لعشائي هبطت الكرادة. هذا الليل ذهبت سريعًا وعدت سريعًا إما لأن الكرادة مستهدفة ضمنًا أو لأن كتابي يستحثني، ولا علاقة برغبتي في عشائي الذي كان في نهايته ثقيلاً مقرفًا لكثرة ما تضمن من دهون. ولعل ماضخم ذلك إفتقاره إلى الفاكهة والحمضيات هذا اليوم، وهي بحسب قناعتي مانع ناجع لكل غثيان.

شربت شايًا مركزًا عدة مرات واشتقت لمهاتفة زوجتي التي استقبلت ندائي بحسن استقبالها المعهود. سألتني إن كنت تعشيت فقلت نعم، وإن تناولت شيئًا من الفاكهة والخضروات فنفيتُ، فتأسفتْ كثيرًا. لم تمض نصف ساعة حتى اتصلت بي تسأل عن وضعي النفسي والصحي وعما أقرأ فيه. قلت انا الآن بصحة جيدة عمومًا فلقد خف

قليلاً ما كنت أعانيه، إذ تمشيت في الغرفة وهبطت وارتقيت بعض الدرجات، بل هرولت هرولة قصيرة ولكن شديدة حتى نزّ عرقي واطّرحتْ سمومي وراقت بعض نفسي. أنا الآن سعيد فكوني كذلك. وما كتابك الذي تقرأ فيه، قلت إنه كتاب فكري تحليلي ميزته أنه ينضم على معلومات كثيرة وفائدته لا تغمط. ما اسمه؟ في مكالمة تتطلب حديثًا طويلاً وعلى هاتف جوال يصبح الأمر مرهقًا ومع ذلك قلت" الإتجاه العقلي في التفسير" لنصر حامد أبو زيد. قالت أمامي الآن كتاب " السوبر حداثة" لكاتب إسمه حسن عجمي وجدته دفينًا تحت ركام كتبك على المنضدة بينما كنت أنظفها. كاد الإرتباك يبدو على مخارج حروفي لولا أنني تماسكت. نعم وضعته هناك وقد أعود إليه لأقرأه ثانية. وفي داخله تخطيطات على قصاصات بقلم الرصاص هي غير تخطيطاتكَ. التخطيطات لا تتشابه حتى لو صدرت من قلم واحد، فأنا كما تعلمين، أقرأ أو أكتب أو أخطط وأنا ماش، أو وأنا في السيارة أو على مقعد في غرفتي أو على سرير نومي. ضحكتْ ضحكة جميلة كانت في الوقت عينه هازئة، فجاءت مثل ريح عذبة ولكن مشوبة بغبار، تلوثت عليها بعض أركان نفسي إذ تداخلت مع رداءة عشائي. حين رقت حاشيتها فجأة شعرت أنها عطفت علي لتوعّك صحتي. تغاضت عن الحديث عن الكتاب وصمتت، صمتَها على تكريم الأدباء أو الفنانين كما حصل قبل ذلك، حتى لو كانت الخطوط هذه المرة بيد امرأة فنانة، إمرأة معلومة وغير مجهولة؛ تتضرع إلى زوجها هي في كل شيء بما في ذلك

التخطيط على أوراق بين دفتي كتاب. سألتني إن كنت سأعود إلى البيت غدًا مبكرًا، فأجبتها أن نعم. أضافت بصوت فيه رنة ضحك خفيف؛ مما هو معهود في ملاطفاتها المكينة التي لا تنضب: "تعال لكي نراك جيدًا". قلت " نعم هو كذلك وإنني لأشكرك " وأنا استرجع كيف أن الكتاب، وكنت أعرته لبلقيس، عاد إلي بتخطيطات لها بقلم الرصاص، انتشرت على بعض قصاصات داخله نسيتْ أن تستعيدها، وقد تكون خططتها وهي ساهية على معطياتها المدلهمة فلم تسترجعها؛ بورتريه لفتاة زنجية تشرب الغليون، بورتريه لرجل أشقر يفتح منخريه بكل طاقتهما على رائحة ما، تكوين غائم لصبي على هيكل دراجة طائرة يسابق الريح، التي نزعت قميصه وظل يلاحقه، آخر لضفيرة فاحمة السواد مسافرة وحدها أعلى خطوط باهتة لقطار سريع، طائر مقبل على شجرة على هيئة سهم وآخر يغادرها على الهيئة نفسها، رسالة مطرزة الحواشي مليئة بخطوط أو علامات لا تقرأ، مظروف ارتفع لسانه كما لو أن رسالة استلت منه توًا، صورة خلفية لطفلة عارية تحبو، أضفت على ملامح عريها فلسفة ما، برتقالة وحيدة ساكنة يخترقها منقار، سمكة منتفضة تقذف حمولتها في الفضاء، غزالة ملتهبة معقوفة الذيل، تقاطع خطوط متعامدة على هيئة إطار، يضم مجموعة حروف في خط مستقيم يشطرها خط مائل نحو اليمين، يتكون كل شطر من خمسة عشر حرفًا؛ س أ ي ط د ب ث ي ق ه ا ن م ل ت/ ع ر ي و ز ش ح د ج و ل ن خ ا ك لم أكن حذرًا لأخفي هذه التخطيطات أو لأعيدها إلى بلقيس، ربما لما لاقت في

نفسي من هوى في التخطيط أولاً، أو لأنني لم أتوصل إلى ألغاز الحروف ثانيًا، مهما جمعت بين أولها ورابعها وسابعها وعاشرها من الشطر الأول، وثانيها وخامسها وسادسها وأخيرها من الشطر الثاني مثلاً وهكذا، أو لأنه على هذا المنوال وعلى مثل هذه السهولة تحصل أشدّ المعضلات. كنت في آخر حقيقتي أشبه بمصاب بخيبة غامضة لا يعرف أين أولها وأين آخرها وكيف الخلاص منها، لكنني في الوقت عينه، وجدتني كخارج من مرض عليه أن يفكر في صحته القادمة وليس في مرضه الراحل، وأنّ من حسن حظ الإنسان أن يجد لبعض معضلاته حلولاً حتى لو كانت أوهى الحلول، لا شيء يزول سريعًا، كل ما حولك يحاول أن يظل طويلاً ماثلاً أمامك، أنت وحدك من يقدر سعادتك أو شقاءك.

البحر

إرتديت ملابس البيت بعد ان تركت في الحمام ملابس عملي. جلست مع العائلة أمام التلفاز، الفيلم الأجنبي يعرض قصة حب جارف. الرجل العاشق يحب زوجته وحبيبته في آن، لكن عواطفه المضطرمة تضطرب أحيانًا بين هذه وتلك. الإستقبال الحار المفعم بالود الحقيقي الذي استقبلتني به زوجتي وأنا أدخل البيت، مسح عن قلبي هواجسي. كانت عيني تتصفح أثر حديثنا عن الكتاب ولوحاته على وجهها أو على عينيها، وأتنبأ بما قد تطالعني به من أول لحظة، لكن البحر كان أعمق من كل هذا بحيث أعاد لي الكتاب بلوحاته وأخفى الحديث عنه. بلقيس تقول؛ أن القلب لا يتسع إلا لحب واحد ولا يمكنه بل لا يجوز له أن ينطوي على أكثر من ذلك، كنت أتابع نظرات زوجتي تحت هذا اللهيب، وأرتجف عند أي بادرة قد تصدر منها تعليقًا على تأرجح

الرجل بين المرأتين. ما كان يبرزه الفيلم أن الرجل يصاب بالصداع كلما عاد من لقاء حبيبته، لينعكس الأمر على علاقته بزوجته لا سيما وقت النوم. كانت تأثيرات الإخراج طاغية على مشاهد الفيلم وهو يعرضها مرة بالألوان وأخرى بالأسود والأبيض، ولا سيما تلك المشاهد التي تصور فيها حياة البطل وزوجته أول عهدهما بالزواج. في كل مرة يصاب فيها الرجل بالصداع كانت ثمة إشارة إلى أن علاجه في الخلاص من حبيبته، ليزجنا في الوقت نفسه في الميثاق الذي اتفقا عليه؛ أن لا حياة لأحدهما من دون الآخر، وكانت المرأة هذه جميلة ومغرية بلا حدود.

مرة بعد مرة والفيلم يأخذنا بدوار عميق، جعلت أراقب خلجات زوجتي على مسيرة أبطاله الثلاثة، ولا سيما الزوجة التي راودها بعض الشك بوفاء زوجها لبيته، وقابلته ببرود شديد أو صبرت عليه، لما وجدته في مزايا زوجها الشاب من فتوة وجمال ولا سيما أنه أب محب. كنت كل مرة أريد القول أن هذه المرأة عظيمة، لتصمت هذا الصمت على شكوكها بأمانة زوجها، في الوقت نفسه كنت أرغب في الإنتقال إلى محطة أخرى، لن نجد فيها هذا الذي يشدنا إليه ويعذبنا فيه. لقد أغرانا صمت المرأة من جهة، وقيامها بواجباتها البيتية وهي أم لطفلة في سنتها المدرسية الأولى، ولها عليها واجبات كثيرة، وعنف العلاقة بين الحبيبين. في ليلة ماطرة شديدة البرد يأتي الرجل مخمورًا يمسك برأسه فلا يجد غير أن يغلق الباب عليه وينتحر برصاصة تثقب رأسه. في لقطة تالية تظهر صورة لمشيعين من بينهم الزوجة والمرأة العشيقة، والجميع بملابس سود يقفون على قبر الرجل وهو يوارى التراب. في طريق العودة تلتقي

المرأتان من دون أن تعرف الزوجة هوية الأخرى لتتفقا على أن الرجل عظيم، وأن موته الفاجع خسارة كبيرة للجميع..كانت المرأة العشيق وقد عرفت الزوجة من خلال المراسم، اقتربت منها هذا القرب لتعزيها وتعزي نفسها من دون أن تعرف الأخرى، موقع المرأة هذه من قلب زوجها. بينما كان المشيعون ينفضّون وتتلاشى صورهم، كانت اللقطة الأخيرة تظهر المرأتين المحزونتين بوجوم مغلق وسواد فاحم، تسيران معًا وحيدتين، ثم تنفردان كل باتجاه، تلاحقهما موسيقى خافتة مظلمة تتلاشى مع تلاشى آخر أسماء العاملين في الفيلم. كنت ونفسي مع قرار الرجل بالإنتحار، فهكذا نهايات أغلب صور الحب العظيم في التاريخ. كانت النهاية تأخذني إليها وتشدني شدًا عظيمًا نحوها لأجدها لذيذة وممتعة، وهي الطريق الوحيد للخلاص، كما أنني لم أشك لحظة كذلك، في أن ما كان يمر تحت أنظار زوجتي يضطرم في دواخلها وإن بصورة لا أعرفها، حتى أنني كنت في الأخير أحس ثقل أنفاسها وسهوم نظرتها، وأنتظر أو أتوقع من حيث لا أرغب تعليقًا لها أو ذمًا منها. كنت في الحقيقة برغم رغبتي في ليلة سعيدة متوفز الأعصاب، فما نهضتْ لتعد العشاء، المتأخر هذه المرة، ولم تمرّ على أحداث الفيلم بالتعليق مرة واحدة، حتى كنت سعيدًا حقًا. كنت أرغب هذه الليلة أن أكون عائليًا صرفًا، أما هي فلقد ألقت في بحرها العميق كل ما يعكر صفوها أو صفونا، وقررت هي الأخرى أن تكون ليلتنا ليلة سعيدة، فكانت كذلك بكل المقاييس.

مفاجأة شارع «أبو نواس»

كأي صباح من صباحات الكرادة كان صباح هذا اليوم الاحد؛ مبتدأ حياة الموظفين في احتفالية عمل الأسبوع. كان منفتحًا على سماء زرقاء وشمس طافحة بضياء كأنه البللور. عند السابعة كنت في الشارع العام الذي ثقلت الحركة فيه، بفعل وجود عدد من الآليات الأمريكية التي بكرت في الحضور عليه، فكان على السيارات العراقية أن تتجه إلى شارع "أبو نواس"، لتتخذ طريقها الصاعد إلى الباب الشرقي. اللحظة التي عكرت مزاجي هنا، ذات اللحظة التي عكرته هناك ونحن في طريقنا إلى السماوة، ننتظر حركة الدبابات الأمريكية التي حرنت وسط الطريق كما تحرن حيوانات صماء. يقول صديقي رأيت حيوانات حرنت وسط الشارع، لم تنفع معها الأبواق حتى صار أمر أزاحتها ملزِمًا دفعًا بمقدمات السيارات. يكرر؛ المسألة تتعلق بالعقل، فأرد عليه كيف

وهؤلاء يقودون العلم والعالم بالعقل، فيضحك العلم لا ينسجم مع الدم، هؤلاء أضرى القتلة في التاريخ. إن ما أثار دهشي في الحقيقة، ليس إلغاء السدود والحواجز الكونكريتية التي كانت منعت السيارات من اتخاذ هذا الشارع الجميل فقط، وإنما قيام حياة معافاة عليه من دون أن نفطن إلى ذلك ونحن أقرب الآخرين إليه. المحال والمطاعم على جانب منه، الحدائق الكبيرة المعدة حديثًا، ملاعب الأطفال، مطاعم السمك المسقوف، ساحات الكرة على جانبه الآخر، كل هذه المظاهر العراقية الأصيلة كانت خافية عنا، ولم يكن يفصلنا عنها سوى ما كان منتصبًا أمام أنظارنا ونفوسنا، من حواجز وعراقيل أعدها الإحتلال. لقد فكرت أن دعوتي التي دعوت إليها ضمن مصطلح " الواقعية الوطنية"، تجد مبررها ليس الآن وحده بل منذ قام الإحتلال، فما قيمة فنّك حين يتعالى على واقع مرّ وكثيف ومهين، تعيشه كل ساعة ويصدمك كل يوم! ما قيمة فنك المتعالي الرفيع وأنت لا تمر من طريق خاص أو عام، إلا ويُفتش جسدك وتُفحص هويتك؟ ما مقدار وطنيتك العراقية الخالدة وتاريخيتك المجيدة، ولا بد عليك، لتثبت ذلك، من إبراز "باجك" الذي منحتك إياه دائرتك أو مؤسستك، لتمر في شارع رسمته في الأصل أمانة مدينتك وأقامته لك ولأولادك وعائلتك؟

على أي حال كان للمرور من هنا إثارة لمشاعري نحو الشارع والنهر والحدائق والمقاهي والمطاعم والناس، وكأن هذه المسافة من الشارع هي شارع " أبو نواس" كله، والمقطع من النهر هو دجلة عينه،

والكتلة من الناس هم أهل بغداد بل أهل العراق جميعهم، ولن أعجب من هذا حتى وهو يعيدني إلى سنوات خلت، سبحت فيها بماء هذا النهر حتى كدت أغرق ولعبت الكرة على رمل شاطئه مع أصدقائي إلى أن كللت، وارتميت عليه حتى تلّون جسدي، من هنا كنا نفتتح " أبو نواس" في مسيرات سعيدة لا تنتهي إلا عند كازينو الرفاه أو السلام، كان ذلك قبيل أن ينطفأ ألق ثورة ١٤ تموز١٩٥٨ بحلول كارثة شباط ١٩٦٣ ويمسي الحزن غامقًا ومديدًا. وأين هي من هذا الشارع النقطة التي التقطوني من عليها إن لم تكن أمست خلفي؟ كنت في نزهة عصرية مستمتعًا بحلول الساعة السادسة من نهار تموز المتهاود مع ألطاف نسائم دجلة الخير! ولعل من حسن حظ صديقي الذي تأخر عن موعده معي، فلم يحضر إلا بعد أن غبت. لم أكن سمعت بشخص إسمه حسن سريع، ولا بفشل انتفاضته التي قام بها وثلة من رفاقه من المدنيين والعسكريين في الثالث من تموز ١٩٦٣، إلا بعد أن اتهمت بالمشاركة فيها. في فوران غضب عارم وإلصاق التهم حتى لو كانت مجانية ومجانبة للحقيقة، لا سبيل الى قبول منطق الحق، فانت مذنب. ولكي تنقذ نفسك من الموت بالتعذيب الطويل، عليك أن تعترف، أن تقول نعم كاذبةً وتأخذ جزاءك إما بموت سريع او بسجن لا تعرف مداه. غير أن ما حصل كان قفزة على ذلك الواقع المرعب بل شديد الرعب. هناك في مركز التحقيق في الأمن العام لا نفاذ لك إلا نحو السجن أو محمولاً على تابوت. عندما صففنا؛ أنا ومن التقطوهم مثلي، أمام جدار عريض لم يشفع لستار فرمان وأخيه عدنان تحت العصي المتلاحقة، الإعتراف بأنهما نشالان معروفان

لا علاقة لهما بالسياسة، ولا برجل إسمه حسن سريع؛ فالعصي لا تنفد بينما المقاومة تتفكك. الرجل الذي ارتقى شجرة اليوكالبتوس التي توسطت ساحة من ذلك المكان، يقتطع بمنجل معقوف، الأغصان الغليظة، فتتلاقفها الأيدي العطشانة للتعذيب، فتنهال على الرؤوس وسائر أعضاء الجسد المنتهك المنهوك في وتيرة لا تهاون فيها، أصغرنا سنًا هم الأكثر رعبًا؛ جعلوا يلوذون بنا؛ يؤجلون أدوارهم في سلسلة التعرض للحساب العسير بالإنسحاب من خلفنا حتى آخر الصف.لا رجل إلا وتهاوى على عجيزته متقيًا بذراعين كفتا أو كادتا، الضرب على الرأس مُشْكلة الكائن البشري. برغم حداثة سنك لم تؤجل دورك، فما رأيته كان النار التي إن القيتَ نفسكَ فيها متَّ مرة واحدة وليس عشر مرات. لقد انتظرتَ دورك بيقين لا شك فيه وباستسلام تام؛ خذوه فما عاد يحتمل النظر الى هذه الشاشة المرعبة التي لم يعرف لها صورة مشابهة من قبل. الرجال الخمسة او الستة الذين التموا على جسدك لم يتركوا نقطة منه إلا وأشبعوها ضربًا بعصا أو لكمة بيد أو رفسًا بقدم. لم تعترف فما كان لديك شيء تعترف به، لذا حينما كلوا منك، حتى بعد ان سقطت على الأرض، أوعزوا لمستخدم هناك أن يقودك الى غرفة التعليق بالمروحة. عندما رأى الرجل المروحة منهارة على الأرض بجسد منفوخ ربما مات صاحبه قبل يومين أو ثلاثة أيام، غامر، عطفًا عليك، بإلقائك في الغرفة المجاورة التي هي غرفة من انتهى التحقيق معهم، هناك اندسستَ منهك الجسد عاري الصدر ولكن مطمئن البال، ففي غمرة هيجان البحر لا يعرف البحر الموجة التي استلقت على الساحل منه ولم

تعد إليه. لقد كان مقررًا لهذا العقاب الصارم أن ياخذ مداه إلى حدوده النهائية، لولا ذلك المستخدم الرقيق، الذي غامر بوظيفته ولربما بحياته من أجلك ودسكَ هناك. هناك وفي اللحظات التي يستطيع فيها الجريح سماع دوي جراحه بعد أن تكون العاصفة هدأت، جاء من يخبركم بصدور حكم بالإعدام بحقكم جميعًا، اتركوا كل ما بحوزتكم واتبعوني إلى الساحة لسماع قرار الحكم عليكم بالإعدام. تناثرت أشياؤنا في الغرفة المتروكة، واصطففنا خارجها تحت شمس تموز بانتظار سماع القرار، وقد قُرىء فعلاً ما كنا نسمع على أنه قرار صادر من محكمة بلا محاكمة، أو جهة رسمية تصدر أوامرها وتُنفَذ في الحال. ما أفزعنا لاحقًا وقبيل الإفراج الفجائي عنا بعد شهر من الإنتظار، ذلك الشاب الشاحب لكثرة ما نزف من دماء، كانت ما تزال تسيل من جوانب رأسه وتلطخ قميصه الابيض، يسألنا تائه العقل زائع النظرات عمن كان معه في غرفته، وكان ذاك أسرّه بمعرفة ساعة تنفيذ حركة حسن سريع. أطرقنا جميعًا خوف أن تستقر نظرته على أحد منا، فيقول هو ذا ويفرغ نفسه من عقاب لا رحمة فيه ولا أحد يعرف حجمه. كان وهو في محنته تلك شريفًا إلى الحد الذي غادرنا عليه، وهو يأبى أن ينقذ نفسه ويلقي بالتهمة على بريء. إن خرجتَ بعينين مزرقتين وجسد جريح، لقد انتصرتَ، لقد تضافرت إرادتك وفقراء الناس فأنقذاك، لا جسد أقوى من جسد البشر، لا الثور ولا الحمار ولا الحصان.

أكبر هو أول من غادرنا إلى حريته الغامضة بعد أن التقط بملقط، لا أحد يعرف من أين أتى به، هلبًا أشقر ظهر على لحيته وشاربيه، فبدا

أصغر سنًا من سنه الحقيقي ليطلق سراحه بدعوى أنه دون سن الرشد وهو كذلك. وأكبرُ طالبٌ في نحو الثالثة عشرة من عمره في مرحلة الدراسة المتوسطة، يحمل حقيبة سامسونايت ويلبس أفخر الملابس وعلى جمال لا تخطئه العين. وبرغم عيانية اللحظة التي انسل فيها أكبر من بيننا الى ما حسبناه حريته في لفتة أشبه بالحلم الكاذب، فقد خامرنا شعور مريب، نظرًا لما نمّت عنه هيئة الرجال الذين اقتادوه. حسن إن في الحياة خسارات كثيرة، وفي مثل هذه المواقع المشبوهة يبدو كل شيء حاصلاً ومحتملاً، ولا خسارة أقسى وأبشع من تلك التي تكون فيها تحت رحمة أنياب ذئاب، جعلنا فيما بعد نتناوب ذلك، ونشعر الحزن الدفين. في ذلك الموقف، لا أدري كيف تفتتَ تحت العصيَ والهراوات، ذلك القميص الجديد الذي كان أهدانيه صديقي الأثير ذاك قبل أيام من الإعتقال، ولا فانيلة القطن التي تحته، فصارت جروحي تئن كلما طرحت جسدي على الأرض الإسمنتية الجرداء. ستار فرمان النشال نزع قميصه وأهدانيه لأقي جراحي من لفح الملح حين أعود للنوم. وبقدر ما أضفى قميص ستار من ستر على جسدي، أسبغ طمأنينة على نفسي، فأنا الآن بين رحمة بشر وليس بين أنياب وحوش. منذ ذلك اليوم لم ألتقِ الرجل الذي أنقذني من التحقيق ثانية، ولا ستار الذي غابت صورته عني، وظل قميصه دينًا عليّ الى يوم الدين.

حسن سريع هل كان مقدرًا لحركتك السريعة تلك أن تغير وجه العراق؟ سيظل هذا الوجه يا صديقي الشهيد رماديًا حتى أفق مديد.

حللت في غرفتي قبل الثامنة. جلست. قرأت ودققت في برنامج عملي، وانتظرتها. ألقيت نظرة والسلام على من في غرفة المدرسات. كانت فارغة منها؛ تحققت من ذلك قبلاً إذ لم أسمع صوتها، فصوتها هو "النشاز" الجميل بين الأصوات الأخرى. كتبت لها والساعة تشير إلى العاشرة وأربعين دقيقة:

"هذا يعني أنني لن أراك إلى ما بعد العيد، وتأخذين عليّ حزني! حسن. أسباب السعادة كثيرة، منها أنني قد أكون حيًا حتى ذلك اليوم، لتكون سعادتي عظيمة والجزاء مناسبًا.."

لم تجب، فهل أتريث حتى ساعة بعد؟ نعم ينبغي علي أن أتريث، فمهما جبلتَ على ما يمكن أن تقوله الوقار، كان وقارها الأعظم يلزمك بذلك، لكن هذا وذاك عندما تمضي الساعات تذبل المقاومة كما تذبل أوراق شجرة عطشى، ثم إنْ كان هذا متعبًا أحيانًا، فلقد أمسى وسيلتنا إلى الحياة التي لم تعد أي وسيلة تنفع معها غيره، أو هكذا بات هذا السحر يسحبنا ويمتعنا. نعم أن تسمع جرس صوتها يأتيك مهللاً مرحبًا وأنت مشوق اليه؛ أنا سعيدة بسؤالك وأجمل الأعياد عيدك، فلا أقل من أن يكون بهجة من بهجات يومك. ولعل مما يجمل قوله أنها، وكثير من الأشياء حولي كانت تكبر وتصغر، لم تصغر يومًا أو ساعة، لم تكن لغزًا، ثم حتى إن كانت ذلك يومًا، فإنها كانت تتبدى لي كالحكمة الراسخة، التي بات على نفسي هي الأخرى أن ترسخها وتترسخ فيها.

ذوبان

يومًا فيومًا كنت أرى أحلام تذوب، تقرّعني بنظرات ذابلة ثم تصدّ عني، ومع أنني كنت أتأسى عليها، وأحلم في حل سحري لحالتها، أجدني، بالمسافة نفسها، متباعدًا عنها متقاربًا من بلقيس، وبقدر ما كنت منشدًا إلى حب هذه كنت متراخيًا في النظر إلى جسد تلك. لم يكن ما يلم بي أقل من محنة عنيفة ألقت بعتمتها على نفسي؛. بل لم يكن الأمر يتوقف عند هذا، إنما في انطواء شخصية أحلام، وعزوفها عن مشاركة الأخريات ضحكهن أو تناول إفطارهن والشاي في فرصة الدروس الأولى، ورغبتها عن المرور والسلام عليّ في غرفتي مثلما كانت تفعل أحيانًا. أفكر؛ أن ثمة أقدارًا كبيرة أو صغيرة تسقط على كاهل مَن لا رغبة له فيها، تبهظه أكثر مما تنفعه، وقد تكون أسباب ذلك ناتجة عن صلاحيته أو كفاءته، أو ما يبدو عليه حتى لو لم يكن كذلك حقيقة!

وأغلب ظني أنه يأخذ، مع الوقت الذي قد يلازمه طويلاً، يفكر في ما هو عليه، في نوع ما يرى الناس فيه، في ما بوسعه أن يفعل لو انساق إلى رغبات هؤلاء. كنت أجد ذلك صعبًا للغاية حتى بتُّ، لكي أنعم بسلام، أعود إلى قراري الحسمي الأخير فلا أفكر بأحلام. من جانبها حسمت أحلام أمرها حين جاءت مكالمة من زوجها تفيد بأنها تروج معاملة نقلها، "وإنني سأمرّ على المدير بعد عطلة العيد لتقديم طلب إجازة لها والتوقيع على طلب نقلها، وقد وجدتها مصرة على ذلك من دون توضيح الأسباب". شيء ثقيل لا أعرف إن كان هبط على صدري أو هبط منه، كنت في الاخير مبهوظًا عليه، يستحثني على فعلٍ لم أجده، إلا في سيجارة أعبّ أنفاسها بعمق عميق، وأهرع إلى شباكي، أسرب نظري إلى الإمتدادات اللانهائية أمامي وكأنني جزء من ألغازها التي لا تحلّ.

لا مجال أفضل

"لم أشأ أن أعيّد أحدًا قبلكِ. فعيد سعيد مصحوب بكل ما تتمنى نفسك، وكل عام وأنتِ بخير." كان ذلك باكر صباح العيد لكي أبدأ بها التهاني، لم أتسلم جوابًا. كانت زوجتي نهضت قبلي، وجهها وجه عيد؛ بشوش ومبتسم ومرحب، حتى أنها طبعت قبلة على خدي وهي تبادلني التهاني. توقفت عند هذه اللحظة السعيدة، مشدودًا في الوقت عينه إلى الرسالة القادمة. وبرغم ما هو محيط بي من أجواء تكون أي رسالة تردني منها مصدر قلق لزوجتي، ومع شعوري المختلط إزاء وضع أحلام، وجدت لهفتي شديدة إليها. تكاثر عدد من في البيت، وساعة بعد ساعة تكاثر أكثر، وضج العيد بأفراحه القليلة الصغيرة واصطخاباته الكثيرة الكبيرة حتى نقلتُ حال بيتي إلى بيتها، لأعذرها في حال لم تكتب حرفًا مما ينبغي أن تردّ به عليّ. لا شيء أعظم من إيجاد

المبرر للغائب في فعله، ولا أعظم من أن تتسامح مع من تحب، وهي أكثر الناس في هذا. مساء الخير، تلفنت لها وقد فرغ البيت إلا مني، عيد سعيد. صحة دائمة. أرسلت لك رسالة. هل وصلتك؟ / وصلت، وكانت بحجم مكالمة فأشكرك، كنت محزونة على أحلام / وكذلك أنا ولكن لعل أعذارها أقوى / ربما ودائمًا لأحلام أعذارها، ساعدها الله. أنتَ لا تعرفها أكثر مني / نعم ساعدها الله. قلت ذلك مشاركًا في العبارة، مخالفًا في التأويل، ومهما كان الإتفاق أو الإختلاف فأحلام مشكلةٌ، أشد ما فيها الصمت عليها أو عدم التفريج عنها. سارت أيام العيد رتيبة مملة عمومًا لم يحصل فيها استثناء حتى يوم الاثنين، حين لبيت دعوة وردتني من زميل لي في المؤسسة، لحضور حفل زفافه الثاني وقد تجاوز السبعين على سيدة ربطته بها روابط سياسية، وهو صحفي يمتاز بقلم مقاليّ نافذ كالسكين ونادرًا ما قرأت له مقالاً لم أعجب به إعجابًا شديدًا، كما يمتاز بخفة الدم وحضور البديهة، وسريان النكتة والطرافة على لسانه سريان الدم في جسده. وفي موقف طريف أثار الدهش والتصفيق، دخل قاعة الحفل على دراجة هوائية قديمة يستعملها لنشاطه الصباحي كل يوم وتوزيع الجريدة مجانًاعلى بعض الدور وأصحاب الدكاكين، كانت زوجته هنا ترافقة مسايرة خلال مسافة قاعة الحفل الصغيرة. هي تبتسم للجميع لطرفة منظرهما، بينما يسود محياه ظفر عظيم، فقد حظي بامرأة جميلة ذات تاريخ حفل بأعظم التضحيات. لم يبدأ الحفل، إلا بعد أن هبط من دراجته التي اختفت

سريعًا، وبدأ يتقبل التهاني. اكتظ الحفل على بساطته بالمدعوين تخللته وصلة غناء خفيف، ووجبة عشاء سهلة وبسيطة ولذيذة حقًا. كنت حضرت الدعوة وبرفقتي زوجتي وأحد ولديّ، وقد بدت مشاعر البهجة على الجميع، حتى أن زوجتي شاركت في التصفيق، انسجامًا مع بعض فقرات الغناء الذي وجدتْه ممتعًا ومؤنسًا. في هذه الأجواء وهي أجواء اجتماعية سهلة، استجابت زوجتي لتحيات أصدقائي من الجنسين، وقد غمرني شعور الراحة على هذا الإنفتاح الذي قيض لها سعادة لا غبار عليها. على أي حال كانت المشاركة في الحفل على كل ما تضمنتها من إجراءات بسيطة، أفضل عمومًا من الركون في البيت ونحن في عيد ونملك سيارة، ولا مجال لدينا أفضل من هذا، فبغداد لم تعد بغداد تلك الأعياد الذهبية لجميع الناس، بل اقتصرت على الشباب والأطفال، لتكون مشاركة العائلة في تجمعات مثل هؤلاء، نوعًا من مغامرة لا جدوى منها. هكذا مضت أيام العيد. لاشيء فيها ممتع بما يحملنا على تذكّره باستمرار، وكنت في الحقيقة أتوق لانقضائها رغبة في اللقاء القادم الذي سيصادف يوم أربعاء.

حجر

أخذتُ طريقي إلى المدرسة وصوت ما في داخلي يغني، حتى غادرت غرفتي الموحشة واتجهت إلى غرفة المدرسات لأسلم سلام العيد. هناك مكثت لحظات أكرر التحيات على هذه أو تلك من المدرسات لأراها في هيئة مغايرة تمامًا لأي هيئة سابقة، إذ اكتسى وجهها بمسحة من ألوان خفيفة منحته نضارة طافحة وأكسبته تألقًا وشبابًا، واستبدلت بملابسها السود أو الزرق ملابس هادئة الألوان، وقد رمت على كتفيها وجزء من صدرها، شالاً بنيًّا زادها جمالاً وزادني شغفًا. عقب دقائق وكنت فائر الروح والجسد دخلتْ عليّ، نهضتُ ومددتُ لها يدي فالتقت يدانا ولم أبادر الى تقبيل يدها.

جلستْ، لايفصلنا أو يفصل بيننا سوى منضدة لا أشك في أنها كانت حية تنبض بما كان ينبض به قلبي ووجداني. قلت: عيدك أسعد

الأعياد، ويومك أطيب الأيام، وأنا مشتاق لك بما يفوق الوصف، وإني لأعجب كيف أننا نعيش في هذا العصر وتمنعنا من بعضنا منضدة ليس غير. إذن نحن في عصر جاهلي. أو نحن من قبيلة بني عذرة. ضحكت وسلّمت بقولي دونما إعلان واضح، إنما بهزة رأس أو طرفة عين لكنها ما لبثت أن أعلنت كمن يستفيق من غفوة : كل شيء بقرار من أعلى. كل ما يحصل لنا وما سوف يحصل مقدر ومكتوب، لا نستعجل المكتوب. كانت تقول ذلك في الوقت الذي يطمح فيه بصري إلى ذلك المكتوب، لأراه أفقًا ممتدًا لم يتعين من ورائه شكل محدد أقف عليه، لكنني إزاء إصرارها على إيمانها المترع بالجمال والوقار، أقررت. ولما هي تعرف بعض قناعاتي المغايرة، كانت تشعر بعدم كفايتي من حصيلة هذا اللقاء وتعلم أنها لا تستطيع أن تقدم أكثر.

عندما انصرفتْ إلى دروسها مع بداية الفصل الثاني، انصرفتُ إلى الكتب الواردة إلينا. كان البريد بائسًا تقلصت فيه كتب التعيينات الجديدة لسد الشواغر الكثيرة، وأمسى لكل مدرسة نشاطها الذاتي الذي تقوم به، بناء على الجهود الشخصية للمدرسات والمدرسين. لكثرة الضيوف ومهنئي العيد لم أعيدك جيدًا، وإنني غدًا سأكون أكثر تأهبًا لمعايدتك بما يناسبك ويناسب العيد. خاطبتها وكنت اتصلت بها مساء الثامنة. كل شيء بأوانه، ردّت، وإن العيد حافل بالضيوف فلا مندوحة من تقدير الظروف! أخذت كلامها على أن اليوم القادم سيكون أفضل فرصةً لتقديم تهاني العيد، وإنني سأجدها مرحبة بي أجمل ترحيب.

ومهما يكن من أمر، فإن فراغ غرفة المدرسات من حضور أحـلام، كـان بائنًا على سمت الجو العام الذي يسود عادة لقاء ما بعد عطلة العيد. خبا بريق الفرح في العيون وتحول اليوم الخاص إلى عام، لا يختلف عن الأيام العادية الأخرى، كان لون العيد ضئيلاً وربـما موحـشًا، وتبـادل التهـاني باردًا وحييًا، وربما انصبت نظرات غامضة على بلقيس أو عليَ أنا، عندما تقدمتُ لتهنئة الجميع ؛ أستاذ شـايك بـرد ولم تأكـل كيكتـك، عفـوًا لا شهية لدي أعتذر، ثم أن أيًا منكنّ لم تأكل شيئًا مـن نـصيبها! هيـا كلـن لآكل معكن. أول مرة أحس أثر غياب أحلام بهذه الكثافـة عـلى نفـسي وعلى الجميع على كثرة غياباتها السابقة، وكنـت عـلى صـدى ذلـك كلـه أشعر وخزة في القلب كأنني أنا المسؤول، عما حصل لأحلام، أنـا الـذي لا يعرف، لكي لا يندم كثـيرًا، كيـف يـراوغ ليخـرج هـو و "خـصمه" سالمَيْن. أخيرًا جعلت أردد لقد انسل من الهرم حَجَر لن يعـوض بـآخر، هذه واقعة لا مجال لنكرانها وإذا كان في ذلك ربح لأحد فالخسارة عامة. ثم أن زوبعة أحلام كان يمكن توجيهها نحو مجال آخـر أقـل اصـطخابًا وأهدأ نارًا، بيد أنها كانت في حقيقتها من القوة بحيث لا يمكن التعامـل معها إلا بمسايرتها نحو الهدف الذي انطلقت إليه، ولم يكن ذلك سـهلاً مطلقًا.

ذرى عشق نوري

لا أعتقد أن امرأة تردّ على تحيتي بأفضل من ردها، بلقيس، ذلك أنها تتجسد أمامي بكل ما تملك من كرم ونبل، وإن كانت هي كذلك مع الجميع، فقد كنت أعرف بالمقابل أن الأمر مختلف معي، ليس في الدرجة أو الصورة وحدهما، بل بشيء آخر قد يكون في الإنتماء. إنها لي، لي وحدي وبعيدة عن الآخرين، وإنها إن كانت رقيقة مع غيري، فإن ذلك يسعدني بقدر ما يشعرني بذاتي. وإنني أعظم بها مما أنا بي، وكذلك مما هي بي. إنها الحقيقة الكبيرة، التي عليّ أن أعترف بها وأحافظ عليها لأنها أمست حقيقتي.

بينما كانت إحدى المدرسات تدخل غرفتي وكنت متاهبًا لاستقبالها دخلت، هل كان دخولها معها تفاديًا لموقف كنت أعددت نفسي له، ولم تكن مؤهلة لاستقباله؟ أم ما تزال أصداء غياب أحلام تفعل فعلها،

هكذا قدرّت وهكذا لم أقدر، فما أن انصرفت المدرسة وجلستْ، حتى سلمتُ عليها بصورة أحرّ وأعمق وكأننا لم نتبادل التهاني بالعيد من قبل. كنت أتمنى أن يكون بيننا اللمس الذي يشبه الهمس، اللمس الذي لا يدغدغ سوى لذة قبلة الشفتين للأصابع، للكفّ، للخد، نوعًا من العبادة والرضا والقبول. في الآن نفسه كنت أعد ذلك خرقًا صبيانيًا مني لما كنا تعاهدنا عليه، ويسمو بنا الى ذرى عشق نوريّ لا يقف عند الصورة والشكل، ولا يرى غير الخلجات الملائكية التي كلما توهجت أخذت بالنفس نحو مدارج الكمال وسعادة الذوب. لقد أضحى ما يعنيني منها أنفاسها، أمسى همي أن أحافظ عليها، كنت أجد فيها كلاً جميلاً، محبوبًا ومقدسًا، عليّ أن أحميه وكل ما عليّ لأحقق ذلك هو أن أكبح جماح جسدي. وبرغم صعوبة ذلك أو ما كنت أجده كذلك، فلقد جعلت أدرب نفسي عليه. كل شيء إلا الهبوط على الأرض، وكنت مع جيشاني أجد لذلك محطة خبيئة في نفسي، طفقت تظهر بجلاء. في الوقت ذاته كنت أقدر صمودها، لذلك مع تصاعد الأيام لم أهبط لتحريك نوازعها الخبيئة التي قد تكون تراودها لحظة وتتكتم عليها، لقد خلعتُ منذ لحظة بعيدة لباس الشيطان الذي لم أجد فيه إغراءً يغريها أو غواية تغويها، كانت الأرض الحرام مصطلحنا الذي نردده، ومهادنا الذي نحلق من عليه إلى ما هو أعلى، إلى ما جعل يسعدني سعادة صافية، غامرة.

عند الثانية عشرة والنصف هبطنا معًا. ونحن في الطريق وقبل أن نصل الى الشارع العام، فكرت أن أدعوها إلى "كوفيه" قريب من

المدرسة بقدر ما هو بعيد من بيتينا، إلى جواره أسواق كبيرة تسد الحاجة إلى ما لا يخطر على البال. قلت، بنفسي أن نتوقف في "سوق الكمال العصري" لأرى ما قد يغري على الشراء. هنا يزداد ترحيب المرأة بالرجل المحمل بحاجات البيت. قالت البيت يحتاج إلى كل شيء ويقال عن أشياء البيوت أغراض، ذلك لأنّ لكل نوع منها غرضًا منزليًا لا يُستغنى عنه. قلت؛ صحيح، البيت لا يمتلىء ولا يكتفي. ردت؛ ولهذا قيل ما يحتاجه البيت حرام على الجامع. أمّنت على كلامها ؛ فما يقدم للجامع من طعام مثلاً تسترد الأواني التي حملته لأن حاجة البيت لأغراضه أولى. حكمة قلت. الحكمة في مخافة الله، ومخافة الله في محبة الناس، قالت وقلت. وحاولت أن أمسك بأصابعها على ضحكتها وأركض بها كما يركض الأطفال، لكنني قلت لها ضحكتك وردية فأمسكتْ. لم يتسلم السائق الذي أوصلنا إلى "سوق الكمال العصري" أجرته، لا أدري لماذا، بيد أنني كنت أتابع نظراته إليها في المرآة، قلت ربما تَسلّمَ الرجل أجرته عبر مرآته، وكثير من الرجال يتقاضون أجورهم من رؤية الجمال. على أي حال لم تكن المسافة طويلة لأحزن على سائقٍ على هذا القدر العالي من الذوق، مهما كان سبيله إلى تكريمنا هذا التكريم الخفيف! "كوفيه الخيال" هنا استدعيت أصابعها، لأي شاعر أوربي حفظت هذا البيت منذ خمسين عامًا " الرقة في الأصابع.. في الأصابع"؟ وقدتها نحو الداخل الذي خفتت أضواؤه وانبعث من خلف أعطافها الثرة همس أخضر حيي لم نكن نتبينه لولا بريق العيون. لا دخان قالت.

ثم أضافت هذا من الحسنات. كنتُ في حقيقة الأمر رغبت في سيجارة تعدل ثلاثًا، أسحب أنفاسها معًا ولا أنقطع، إنما اشتدت مع عصير البرتقال. كلا، لا سيجارة، لا طعام، يظهر من خلفه الإنسان كما لو أنه ذئب! لا شيء آخر خارج هذا الإهاب الجميل. عبر نافذة كنت ألوي نظري نحو غابة خلفنا؛ يأتينا هسيسها متماوجًا مع ريح لينة كأنها دثار، ثم أعود أنظر إليها ولا أتكلم، في فمها قصبة يتصعد العصير فيها على مهل شديد، يتحلب عليه أنظف لسان!! ها هو ذا أنا، وها هي ذي أنتِ، لا كذب في هذا الزمان، ها أنا أراكِ في لحظة منفصلةٍ من الزمان وعن الزمان، منصفةٍ بلا رقيب، ها أنا أسمع أغنية ممتدة على المدى الفسيح، يتموج فيها الصوت كما لو في صحوة ونوم. مددت يدي على المنضدة ولمت يدها عنها، ألا تؤمن بحديث العيون، ألا تؤمن بحديث الروح؟ / ها أنني أسمعه ويا له من حديث/ ألا ترى أن في المحبة الخالصة يتحول المحسوس الى المجرد، الجسد إلى الروح، المقهى إلى الخيال، الجمال المنظور إلى السحر، المحدد إلى الأفق، اللمس إلى الهمس، حتى المطلق العظيم/ أتعلمين أنك منذ وهلتكِ الأولى أدخلتني جبة الصوف؟ / أفضل. لكي يكون جسدك سليمًا عليك أن تتعرق/ لقد تعرقت حتى نحل عودي، وبت أجيب على من يسألني عن مرضي؛ صحتي هي العجبُ./ آه.. هكذا تقول وأنت في كامل صحتك، أم هي المراوغة التي تستحث على البوح والاعتراف؟ أنت في كامل صحتك إن كنت تريد، دعنا نترك المكان.. كنت أتمنى أن ألثم فمها بيد أن ما فعلته

هو أن قلت/ ألا نمكث قليلاً بعد، ألا أوصي إليك بطعام، ألا ندخن معًا سيجارة واحدة، دعينا نشرب الماء من كأس واحدة، ونتبادل قصبتي العصير، ثم أما لديكِ الرغبة في تكرار الزيارة غدًا؟ غدًا سنستظل بظلال الغابة، تحت شجرة تين أو زيزفون ونتنفس هواء الله ولا نلتفت إلى أحد حتى لو كانت الفراشات. كانت أشبه بالمسحوره بنشوة غامضة تردد؛ لكي لا تفقد المناسبة، عليك ألا تطيل المكوث في المكان الواحد، ألّا ترتاده أكثر من مرة، ألّا تكون أكثر من نفسك مرة واحدة، كانت قوتها تتجلى ضِعف قوتي وجمالها يحطم الأعصاب.

مر القلق سريعًا، ويبدو أن للعمر علاقة بذلك، فمثلما رُمي المظروف في بيتي رميته بالمقابل في سلة المهملات، كنت أعرف أنه يحتوي على رصاصة ورسالة تهديد، بيد أنني تغاضيت اكثر من مرة عن فتحه أو ملامسة الرصاصة التي تكمن فيه. حقًا كان شيء ما يغريني لتلمسها، كنت أقاومه وأغالي في منع أصابعي عنها، فهذه التي تُسيل الدم حينما تنطلق نحو الجسد، آثرتُ ألّا أدغدغ جسدها أو أفرج عنه. نخرج لنزهتنا شبه اليوميه، نتراسل أو نتخاطب مع ولدينا، وبقدر تعلّق الأمر بي، فقد مضى كل وقتي لنا؛ زوجتي وأنا، لا أفكر بغير ذلك سوى ما كان يتملكني أحيانًا من حزن قاهر؛ أن يصل شطط نفر من الناس إلى هذا الحد من اللامعقول، لم أكن بعيدًا عن الأحداث المؤلمة، فهي تأتي مترادفة تُقعد البنايات على أسسها، وتحت أنقاضها عشرات الناس من الرجال والنساء والاطفال، حتى باتت وكأنها من طقوسنا، لكننا في

الحقيقة كنا نصحو كل يوم والحياة جميلة أو هكذا كنا نصنع أو حتى نفتعل. كيف أنت في بلدك البعيد؟ ممتاز والحمد لله، درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر والوحدة خمسون تحته كذلك، ولا يبدد وحشتي سوى التلفاز الذي إن طرت على بساطه الى بلدي ظهرت الصورة معتمة بلا أي لون! يا صديقي إن كنت تريد أن تجرب تجربتي قف مكانك فالأسوأ يرضيك بالسيىء، ثم أترى الطريق معبدًا؟ .إذًا لماذا تغريك المغامرة غير المحسوبة في عرض بحر هائج وفي "أمانة" زورق مثقوب أو سفينة بالية ولا تمكث حيثما أنت فيه؟ نعم أنا معك، الموت لا يعدله إلا الحياة، هذه معادلة الكون الكبرى، وهذه وغيرها ما جعلني أقوم بما قمت به قبل سنتين، وبرغم أن البرد والثلج هنا أربك صدري الضعيف فها أنا اعيش، وهذا هو ربحي جميعه ليس غير. انقطع الإتصال مع صديقي الذي يعيش في كندا منذ ذلك الوقت، ركب عمره الذي ناف على السبعين وغادر. كان معلول الصدر فضاق أكثر بما يحصل في العراق، وكل ما كان يعتقده؛ أن حربًا ضروسًا قادمة على الطوائف من غير المسلمين. وبقدر ما كنت أعارضه في هذا يغضب ويشتد ويضرب على صدره؛ لأنني لا أشهد شهادتهم أذبح بالسكين؟ السكين خلقت لذبح الدجاج والخرفان. ذكاؤك في أن تنجو على الأرض التي أنت عليها هنا أو هناك. حتى الآن لم أخبر زوجتي بموضوع المظروف، ولا أظنني أفعل ذلك في أي وقت مع أن مقاومة الألم بالصمت شيء لا يطاق.

فشل في وئام خالد

مساء 31/ 12/ 2007 اليوم الذي يحتفل في منتصف ليله الناس؛ توديعًا لعام راحل واستقبالاً لعام جديد، اهتز هاتفي على مكالمة مباشرة من بلقيس. جاءني صوتها تهنؤني على نغمته الساحرة بالمناسبة وتقلق على صحتي،لأنني سبق أن أعربت لها بشيء من الإيجاز عن خلافاتي مع زوجتي، وتدعوني إلى احترام بيتي وتدارك المواقف من هذا القبيل بصبر جميل. بيتك وزوجتك وأولادك هم موئلك وملاذك، وإنهم يحتاجون إليك بما يدعوك لأن تكون إلى جانبهم دائمًا. هم أولاً. أنت عزيز عليّ وهذا يدعوني لمشاركتك أفراحك وأحزانك لذلك لا أكف عن مطالبتك بالوئام مع بيتك. تطامنت وكلامها تطامن سطح البحر وأمواجه الموارة، قائلاً؛ نعم، هذا صحيح وحاولت أن أغير الموضوع، ولكن في غرفتي في المؤسسة شجيرة باسمك، أسقيها الماء، أقبل

أطرافها، وأناديها بلقيس، ترى كيف ستقضين ليلتك؟ أفكر في لوحة جديدة أفتتح بأول ضرباتها أولى دقائق العام الجديد. حسنًا تفعلين، أنفاسي معك فكوني مع عامك الجديد مبدعة دائمًا، وهل لي أن أعرف شيئًا عن موضوعها، إن لم يكن ذلك سرًّا؟ زهرة بيضاء في تيه أغبر منحنية قليلاً للأمام. ولا شيء غير؟ لا شيء غير. هذا مختلف عن موضوعاتك. هو ذا ما أريد وما لا أريد التحدث عنه أكثر. نعم هوذا الفن، كنت أقول مع نفسي، الحرية في الإختيار.

قبل ساعتين من هذا الوقت، اتصلت بي زوجتي متجاوزة الخلاف الذي حصل بيننا وزعلي إثر ذلك، وامتناعي عن العودة إلى البيت لمشاركة العائلة في احتفالها بالعام الجديد، وكنا اتفقنا مسبقًا على ذلك واشترط علينا الإبن الأكبر، أن نتحرر هذه الليلة التي يحتفل فيها الناس بالسلام والأماني والبهجات: مساء الخير/ مساء الخير/ لماذا لم تحضر ولم تعد للبيت/ أنا مشغول/ غدًا عطلة/ الواجب يقتضي أن نعمل في العطلة لنعدّ أخبار الغد والأيام القادمة.. قلت وقد أخذتني رأفة بها وبعواطفها الجليلة نحوي / وما بكِ؟ قالت، وقد تهدّج صوتها / قلعتُ سني، وضغطي مرتفع فالمخدر يرفع درجة الضغط، ورأسي مصدوع الآن/ ولماذا سنك وماذا طرأ عليه؟ / لقد اشتدت عليّ حمى مفاجئة فاصطكت أسناني فكسر واحد منها وكان عليّ أن أقلعه ففعلت.

أشعر الآن بأنني فشلت في تحقيق وئام خالد مع زوجتي كما هو عليه حال كثير من الازواج، وأنني مصدر شكوك وعذاب لها، فرغم ما

ساد حياتنا الداخلية مـن صـفاء فقـد وقـف أمامنـا كثـير مـن العوائـق الخارجية منذ أول أيام زواجنا حتى الآن، ولولا إصرارهـا النبيـل، عـلى الاستمرار في هذه الحياة لما استمرت كل هذه الأعوام الطـوال. عـلى أي حال انتهى الإتصال بيننا بهدوء. لم أمنحها سلامًا مطلقًا، كما لم أغلـظ في مقابلتي لها.

كل شيء إلا هذا

تضجرني أحيانًا العطل المتلاحقة، ونحن في بلد عطله كثيرة وبلا حساب! ثم لما جاء يوم ثلاثاء بعد أربعة أيام عاطلة سعدت به، لكنه فاجأني ببرد قارس شديد لم أحتط له إلا ببدلة "بهارية"، طرية الملمس خفيفة الوزن، تستقبل الريح بباب مفتوح! شعرت بالبرد ينفذ إلى عظامي. لكن ارتفاع قرص الشمس لاحقًا، أحال البرد الى دفء لذيذ تجاوز جسدي إلى نفسي. وصلت إلى المدرسة. دخلت غرفتي، وجدت كل شيء فيها معدًا ودافئًا. قبل أن آخذ طريقي إلى مجلسي، أجريت طقسي المعتاد بإطلالة السلام على المدرسات.

بعد دقائق لا تزيد على الخمس حضرت بملوكيتها. سلمتْ. نهضتُ لاستقبالها مادًا يدي تصافح يدها المضمومة خلف كفٍّ جلديٍّ أسود، سارعتْ إلى خلعه قبل أن تلتقي يدانا. جلستْ. تأملتها قبل أن

أكلمها، فما عادت نفسي تكلّم بكلام خاص، امرأة مكلومة بحادث قريب أكل بناره الهوجاء عشرات الناس، حين دخل خيمة عزاء شاب بحزام ناسف فجر نفسه بعد ان تناول العشاء مع المعزين. قلت أخيرًا؛ كيف الأحوال، قالت، والله كما ترى. قلت نعم، والحمد لله على سلامة أهلك. ومن نجا من الحادث؟ قليل. أحدهم مرت من أسفله ومن أعلاه ومن جميع جوانبه شظايا الحديد ولم يخدش وكما دخل الخيمة خرج منها.الأعمار بيد الله ونحن في فوضى، ومن يخرج من بيته لا ضمان لعودته سالمًا. قلت، لقد دخلنا الجد الحزين أو المحزن ولا أريد أن نستمر فيه. حدثيني ما قراءتك هذه الأيام، قالت وما تزال مسحة الحزن تلون ملامحها : ليس لدي شيء أقرؤه، قلت، لدي كتاب مترجم من سلسلة عالم المعرفة اسمه "سوسيولوجيا الفن"، وأنا مزمع على شراء نسخة لك منه فأنه مفيد وشامل ويضيف أشياء كثيرة إلى عقل المثقف العراقي، وهكذا لأنني أحبك أفكر حتى في ما تقرئين. قالت؛ أشكرك. أمس اتصل بي أخي يخبرني بأنه وجد عملاً مناسبًا فأثار بهذا الخبر سعادتي. توقفتْ عن الكلام. عمّنا صمت. تراجعت قليلاً في مجلسي وفي أفكاري. تأملت المرأة من جديد وتأملت ما سبق أن شفّ عنه كلامها؛ لا يمكن أن أكرر التجربة. هي تجربة واحدة ولا يمكن أن أعيدها، ثم إنني امرأة غريبة وحدانية، أتوقف عند كل كلمة تردني حتى لو كانت منك، لكنني أعرفك وأقدرك ولا أزعل منك. قلت، لك الحق في ما تقولين وتشعرين، ولكن إعلمي جيدًا ولا تنسي من كلامي هذا حرفًا،

وسبق أن كررت مثله أو بعضه عليك، أنت حبي الأعظم. وحبك هذا من الضخامة بحيث زلزل كل شيء وقف أمامه، وحلّ بثبات في مكان مكين، أنا أحب الناس، أحب الناس جميعًا، لكنك زحزحتِ هؤلاء جميعًا وحللت دونهم بلا منازع. حتمًا أنت تحب الناس لأنهم يحبونك لما تتميز به من ميزات خاصة، لا. أنا أحب الناس عمومًا وأن لي فيهم أصدقاء ممتازين، وهم قلة وبعضهم على ندرة فائقة لا مثيل لها، وارتبطت معهم بخصائص تاريخية فريدة، ثم إنني متزوج من امرأة نادرة هي الأخرى، ذات مواصفات لا تقل عن مواصفاتك وكنت أتمنى، بل كم تمنيت أن تلتقيا قبيل رسالة "التهديد" المشؤومة، لتعجب – بالتأكيد– كل منكما بالأخرى، فاعلمي إذًا مقدار تضحيتي وقدرّي حجم موقعك في نفسي. أعرف ذلك. أعرفه تمامًا، لكن هذا هو الواقع ولا يمكن أن يتغير إلى غيره.

نهضت على الإتفاق عينه، الساعة الثانية عشرة والنصف. وأنا اليوم في طريقي إلى بيت أهلي. ليكن فلا أظن بيتًا يضيق بك. وضحكت وأطرقت. تبدأ الحمرة على خديها حال تدخل غرفتي ولا تبارحها، أجدها تلتهب وتتموج، على أحاديثي التي لم أسقط الغزل عنها، لأشعر أن هنالك خلفها نداء عميق ولكنه صامت، وقور مستحٍ وسعيد، وكنت أبتهج به ليس لأنه يشوقني إليها حسب، كذلك لأنه يزيدها جمالاً. امتدت جلستنا دقائق كانت مشحونة بالحب والصراحة والصدق. شغفي بهذه المرأة يضعف مصداتي لكنه في الأخير، يوفر لي امتلاء ثريًا

بها، موسومًا بالعقل قبل العاطفة والزهد قبل الجشع. أو هكذا يغلب عليّ هذا السلوك.

في السيارة ناولتها مظروفًا فيه بعض الهدايا الصغيرة ؛ زوج جوارب نسائي صوفي أو قطني بالأحرى ملون مما يدفئ القدمين ويستخدم داخل البيت، ومغلفًا ينضم على بعض الحلوى. عند النقطة التي تغادر فيها السيارة نحو بيت أهلها هبطتُ معها. رافقتها عند عبورها الشارع الأول وتوقفتُ عند الرصيف الوسط، أتابعها بنظري حتى عبرت الشارع الآخر المعاكس وأختفت. هناك عند منعطف الشارع وبعد خطوات منه، لبثت أتابع خطواتنا المشتركة إلى مكتب سفريات قريب من بيت أهلها للحصول على تأشيرة دخول الأردن بناء على دعودة جاءتني من صديق هناك. ربما كانت مسيرتنا من وإلى المكتب أجمل مسيرة لنا، إذ خلت من كثافة الناس وزحام السيارات وزعيق أبواقها، كنت أسمع الغناء الداخلي في صدرها وتسمع الهدير الخارجي في صدري، كنا متطامنين على هذا، بل أن أصابعنا اشتبكت لحظة كما لو على أتفاق وعلى زمن قصير، حتى دخلنا مخزنًا كانت تود شراء بعض أغراض منه، قبل أن ندخل كافيه نتناول العصائر فيه. كانت المكالمة التي وردتها من أخيها جعلتها في ذروة سعادتها؛ إنه مبتهج وفي طريقه إلى قلب فتاة دمشقية، قد يحتاج إلى حضوري لأسهم في خطبتها له. إنه لشيء يثير الفرح حقًا، المرأة السورية جميلة وأم زوجها، قلت أشاركها بهجتها.

اتصل بي نزار أخي يخبرني بعودته إلى بيته. لقدعدت إليه ولن أبرحه مرة أخرى حتى لو وجهت المدافع علي؛ يهون من يترك بيته وينسي حَجَره، من يخلف لغيره عطره وشذى مقهاه وظلال زقاقه، والنخلةالتي يوزع تمرها على الجيران. أنا الآن أتنفس بعمق كما لو أنني عدت من سجن إلى حريتي؛ هذا هو بيتي وهذا هو زقاقي وأولاء أصدقائي وجيراني، حانتي ومقهاي، طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي، من له القدرة على مسح هذا غير الله، وكنت وأنا في الطريق إليه أفكر مثله؛ من يستطيع أن يغير الحياة نحو منطق الجهالة غير الجهالة نفسها، ومتى كان هذا منطقًا ثابتًا للحياة. جيراني ناس طيبون لا يفرقون بين مسلم ومسلم، ومسلم ومسيحي، ومسيحي ومندائي، لهم طقوسهم في إكرام الجار، لكنني لم أألف وضعي الجديد ليس لأنهم مسلمون جميعًا، بل لأن الحياة ليست كل هذا، إنما لأنني نشأت هناك، أصبّح المسلم قبل المسيحي وأمسّي المسيحي قبل المسلم، أسهر في بيت المندائي، نشرب معًا ولا يضيرني إن تأخرت هناك إلى ما قبل منتصف الليل، إنها النشأة الأولى يا سليم؛ هذا الدم الجاري في جسدي وما تركب وامتزج فيه. حسنًا فعلت يا نزار، ثم إننا هنا متقاربان، ولن نكون متباعدين مرة أخرى. ولأن البيت هذا أوسع من ذاك عادت الى جدرانها الإولى صور العذراء وابنها الإله والقديسين وصورة بالأتمين للعشاء الأخير وضعت منفردة على الجدار الذي على يمين الباب وأنت تدخل الإستقبال، ماذا لو لم يكن ثمة يهوذا على الارض؟ وضعتُ باقة الزهور بين يديه وأنا أشعر أن

الصحيح عاد إلى موقعه، ومن خلال هذا أو بهذا تستقيم الحياة. لم أساله عن الجديد في تحوله، فأن تعود إلى وضعك السليم لن يسألك أحد لماذا ولا ينبغي له. كنت أنا الآخر سعيد بحفلة الشاي هنا أكثر مما سعدت بها هناك، كنت أشم مع عطر الشاي عطرًا آخر ربما عطر الناس، السوق القريب، صياح بعض الصبية،أغنية بعيدة، مجلس عزاء مسلمين على ذكرى استشهاد أحد أئمة آل البيت. عطر لا يخونه أنفك ولا تتنكر له ذائقتك. الكرادة.. يا لعطرها المصنوع من ألف عطر!

زيارة في طقس بارد

لعل خيالي لا يريد أن يصدق انّ كرسيها سيكون شاغرًا، فعدت إلى غرفتي أتوسل وسيلة لمعرفة أسبابها. لم تكن زميلتنا الأثيرة قد انتظمت في الدوام حتى السابعة والنصف وهي نافذتي المباشرة والأمينة عليها، بيد أنها لما حضرتْ وسلمتْ أصبحتُ مطمئنًا على معرفة أخبارها وغير مطمئن في الوقت نفسه على نوع هذه الأخبار. كان الجو باردًا، شتائيًا تمامًا يدفع الى التنقل بملابس مناسبة، وهكذا فعلتُ، ثم أن الشمس التي سطعت على مدى سماء زرقاء منوّرة، أتاحت لنفسي هدوءًا ورغبة في أن تكون حاضرة معي. دخلتُ غرفتي ثم انعطفتُ نحو الغرفة الأخرى أقدم تحية الصباح وكانت نظرتي تغافلني لتستلقي على موقعها حسب خيالي الطفلي ذاك.

كنت ضامنًا سلامة الموقف من جهة زوجتي لسببين أولهما أنها، أي زوجتي، كانت اتصلت بي اتصالاً حميميًا قبل أن تردني رسالة الإعتذار أمس:

"مساء أروع. أعتذر عن الحضور غدًا لاسباب شخصية. أتمنى لك يومًا سعيدًا ونومًا هانئًا، لا تقلق سأكون بخير، وورقة إجازتي أمامك".

وثانيهما أن رسالة الإعتذار كانت منفتحة كثيرًا، وليس فيها ما يشي إلى أن تكون زوجتي طرفًا في أي جانب منها.

لم أطق الإنتظار فأرسلت بطلب زميلتنا. قلت؛ لم تحضر اليوم بلقيس. آه. نعم. لقد اتصلت بي. هي بصدد زيارة قبر زوجها؛ فغدًا يصادف ذكرى استشهاده وهي منذ اليوم تحضر لزيارته. وبقدر ما شعرت بالتخفف من قلقي الثقيل حزنت وشعرت بالأسى. قلت، هي امرأة عظيمة ولكن الحظ لم يحالفها، فلها الله. قالت نعم، وربما ستجد صعوبة في الزيارة، البرد شديد. قلت المكان قريب، وهذه الدرجة من البرد لا تشكل عائقًا، لقد مررنا بيوم بارد جدًا سقط فيه الثلج على بغداد ولم يعطل الحياة، بل احتفل فيه الناس وحسبوه يومًا مشهودًا وفريدًا. كنت في الحقيقة أفكر في انتقالها بين الشواهد وعثرات الطريق، لم أسأل إن كانت وحيدة تواجه هنالك الصمت والبرد ووحشة المكان. كنت أحتفظ بهذا ولا أنكر أنني، إن تخففت قليلاً من حزني أو قلقي لم أتخفف من حزنها أو الحزن على حزنها، كنت أريد الكتابة إليها فلا أجد العبارة

الملائمة، كذلك المناسبة أيضًا. كنت محيرًا لم أستطع النفاذ إلى طريقة من التفكير، تعينني على اتخاذ موقف مناسب بإزاء ما يحيط بها. أخيرًا وكمن يلقي بنفسه في مغامرة ما، كتبت لها:

"أشاركك حزنك وأجد ذلك، لأنني عميق الشعور فيه، أبلغ ما يمكن أن أقدمه فالراحل العزيز صديقي".

أرسلت هذه الرسالة الساعة الثامنة ليلاً وحتى كتابة هذه الحروف من التاسعة والنصف، لم يرد أي جواب. المرأة حزينة، بل شديدة الحزن، وقد تكون في حال من يستعيد حياة سابقة مع زوج حبيب، فهي هنا منغلقة، إن لم تكن عليه وأيامها السعيدة معه، فعلى مناسبة رحيله، وهي، كما يعلم من عرفه، مناسبة فجائعية رحل فيها شاب مرموق في عالم الفن التشكيلي هو الآخر، بصورة ستظل مجهولة لأمد غير قريب.

ماء الرصافة

كان لانقطاع الماء في منطقة الرصافة عامة، الأثر المباشر في تركي المؤسسة والهرع إلى البيت الذي هو في جانب الكرخ، فلقد مكث الناس هنا في هذا الصوب الجميل من بغداد يومين متتالين من دون ماء شرب أو غسيل. فهالني الأمر شخصيًا، وإذ كنت عوضتُ عن شرب الماء العادي بشرب الماء المعلب واللبن وتناول بعض الخضروات، فلم يكن ثمة من تعويض لماء الغسيل. هكذا قررت الذهاب إلى البيت. وصلت عصرًا، مبكرًا بالقياس على الأيام التي أصل فيها إليه عادة. استقبلتني زوجتي بلهفتها المعهودة. نهضت من مكانها وفتحت الباب وعيناها أكثر سعة من بسمتها، تناولتْ يدي تحاول تقبيلها ثم انتقلت الى فمي وطبعت عليه قبلة عميقة، ورافقتني حتى الحمام مهيئة لي ملابس جديدة لأرتديها.

مضت الساعات هانئة دافئة إذ تعشيت عشاء لذيذًا صرّحتُ بجودته أمامها، فأحالت ذلك إلى طبيعة طعام البيوت وأفضليته على أطعمة المطاعم، فأمّنت على كلامها. كانت محقة وكنت صادقًا.

وحتى العاشرة، وكانت كل ساعة تقبلني، جرى كل شيء بصورة سارة مقنعة وهادئة، وكنت في الوقت نفسه حذرًا متوجسًا أن يردني نداء من يلقيس، فأخرست الجهاز وأستأمنت مفاجآته وخلدتُ الى النوم. بعد دقائق من ذلك جاءتني زوجتي وداعبتني متسائلة إن كنتُ نمت؟ فقلت، تعالي ونامي ودفئيني فأنني أشعر بالبرد. نامت بقربي، وضعتْ يدي تحت رأسها الذي نام على صدري جهة القلب، سكنتْ لحظات ثم ما لبثتْ أن رفعت رأسها وأزاحت جسدها عني ونهضت عن السرير مثيرة شكوكي. نظرتُ إلى الأمر بجدية، حريصًا على أن أعرف شيئًا عن وضعها الجديد المغاير لما قبل دقائق ليس غير. قلت، موجهًا سؤالي نحوها، ما بكِ؟ لم ترد، ثم لما أعدت السؤال، قالت دعني أرتح.

نهضتُ نحوها فوجدتها قد ركنت رأسها على فراش مركون أسفل السرير، وقد استبد بها وضع غريب يثير أقصى درجات الحيرة والإستغراب، فمنذ قليل هي في أسعد حالاتها، ترى ما الأمر وما الجديد الذي طرأ على عقلها أو خيالها؟

كان جسدها يهتز ويرتجف، نائية عن الحديث معي أو الإستماع اليّ، كل هذا وأنا في دوامة من الأسئلة الذاتية والتداعيات الذهنية

والشكوك، ما أثار برمي وضيقي فلما أحست ذلك، قالت، باسم مَنْ ناديتني قبل قليل؟ قلت، بمن؟ لا ادري. قالت، بأي إسم؟ قلت لا أدري، ثم هل نطقت أنا بإسم لكي تسأليني عن إسم نطقتُ به؟ وعلى سريري تنطق باسمها؟ يا لهواني، ويا لرخصك يا سرير! أنا لم أنطق بأي إسم أصلاً وليس في ذهني إسم محدد أنطق به. وكان ذهني ينزاح نحوها، وما إذا كنتُ ناديتها باسمها من دون أن أدري. واصلت زوجتي تهمتي، وواصلت نفي التهمة عني، وبدلاً من الغضب برغم ما شملني من استياء، حاولت استدراجها نحو حقيقة أنني أحبها وأخلص الود لها ولا يمكن لامرأة أن تزحم قلبي عليها.

عقب مغادرة غرفة النوم ساعة لتصريف حزنها، بالتفرج على التلفزيون، شيئًا بعد شيء، عادت ونامت مرتجفة الجسد مضطربة الفؤاد فدثرتها ثم ضممتها إلى جانبي محيطًا إياها بجسدي وذراعي، كانت مثل طفلة آلمها أبوها الذي لا حماية تلتجيء إليها منه إلّا حمايته هو نفسه. كنت أشعر بالألم والحزن والأسف، أن يصل الأمر بزوجتي إلى هذا الحد من الضعف الجسدي والتوتر النفسي، لينتهي بها إلى هذه الحالة المزرية من القلق والشك. خلدنا أخيرًا إلى النوم محزونين مفترقين نفسيًا، مألومين إلى الدرجة التي شعرت فيها بصدري يذبح، وشعرت فيها برأسها يتصدع بمثل ما أشارتْ وعبرتْ، كان الإسم الذي طلبته رغبةً فيه، يراودني في خيال مشوش وصدر مجروح.

في العراق

لا أعرف إن كنت نهضت وحدي، أم على اتصال زوجتي وفي صوتها حشرجة بكاء خفيّة، كانت تغالبها. سأذهب لزيارة مرقد الإمام علي/ لماذا؟ / قلبي محزون أريد أن أفرّج عنه./ ومن سيذهب معك؟ / وحدي./ لماذا ليس مع أحد ولدينا؟/ عرضت عليهما مرافقتي فأبيا، أريد أن أذهب بمفردي./ حسن إذهبي، ولكن عودي في اليوم نفسه. / نعم.. في حديثنا المشترك هذا أحسست أن ثمة آلامًا ما زالت تعصف بقلبها، وأنها في حاجة ماسة لمثل هذه الزيارة التي يجد فيها الناس ما يخفف من أعبائهم النفسية. ولما لم أعرف من زوجتي قيامها بزيارة ضريح مقدس بمفردها إلا مرة واحدة، أدركت حجم حاجتها للانفراد مع نفسها أمام ذلك الضريح الجليل، لتفريغ أحزانها بما تبثه من شكاواها وما يضيق به صدرها، لذلك ما مرت ساعة حتى اتصلت

بها؛ ألم تذهبي بعد؟ / بعد قليل/ هل أنت بحاجة إلى نقود؟ / كلا/ إذًا رافقتك السلامة. وأغلقتُ الخط ومسحت دمعتين سالتا على وجنتيّ.

عدت إلى غرفتي. جلست أمام منضدتي وكتبت رسالتي، فلقد فاض قلبي باشتياقي إليها:

"لا أملك إلّا أن أسلّم بصباح الخير. أنا قلق جدًا، يسعدني، إن أمكن، معرفة وضعك، أرجو لقلبك الراحة. أشكرك"

"مساء الخير، شكرًا لرعايتك، حزني سأتخطاه، وظرفي الصعب سينجلي. هي مسألة وقت". حزنها واضح ولربما لقاؤنا القادم يزيل غموض المواقف الصعبة. أعتقد أننا في العراق وفي هذا الواقع الذي نحياه رغمًا عنا، أكثر الناس تعرضًا للأذى، بل أن ما لحق بنا منذ عهود يكفي لمجموع سكان الأرض ويفيض، بذا تكون مواقفنا الإجتماعية أبعد مما نتمنى، وأتفه مما يُنتظر منا.

مساءً وفي حدود العاشرة اتصلتُ بزوجتي أستعرض مراحل عودتها. قالت، لم تأخذ زيارتي وقتًا طويلاً سوى السلام على الإمام لذلك عدت سريعًا، قلت، وما الذي دعوت إليه هناك، هل دعوت لي بالخير؟ قالت، نعم، قلت، صحيح؟ قالت، إذًا لماذا ذهبت، لقد ذهبت من أجل الدعاء لك. قلت أشكرك! شعوري بانشطار قلبي اللحظة لا أظن أحدًا عرفه قبلي، فالسكة التي أمشي عليها يتوازى معها طريقان محفوفان بالثلج والنار، تمامًا مثل هذا الذي يثلج ويكوي ساقيّ.

بعد عشاء متاخر أخذتني سِنة من نوم قطعته عليّ مكالمة صديق بعيد، لكنه غير معني بزمن مكالمته أو مناسبتها وصلاحيتها، كان ثملاً، وكان حديثه هذه المرة مؤلمًا ومفرطًا في توكيد ذات غير صالحة لأي ادعاء ما أضجرني منه، ولولا تذرعي بنظافة مشاعره نحوي، وعظم تقديره لي لانفجرت بوجهه ضاربًا عرض الحائط كل ما فاه به وادعاه، كانت تأتيني مع حديثه إشارات بأن أحدًا يتصل بي فانسحبت، بعد أن تركته ينفض كل غباره عليّ وأغلقت الهاتف. كانت المكالمة من زوجتي تعاود السؤال عني وعن صحتي وإن كنت وحدي أو أن أحدًا معي. وحدي، قلت، تبادلنا أحاديث عامة وضعتُ فيها جلّ طاقتي لترطيب قلبها وبث الإطمئنان فيه، وكنت أجد في هذا، لطبع صعب جُبلتُ عليه، غاية المشقة برغم ما له من أهمية عظيمة، وغالبًا ما كانت مناورتي معها مقطوعة الحد، حذرة من التواصل المديد، وكانت كلما أشارت إلى قلبي، أشارت إلى صندوق حديد، ومهما تلونت إشاراتها هذه بدعابة ما، وهو ما يحصل دائمًا، فإنها أي إشاراتها غالبًا ما وقعت على ما يختبىء فيه، فأغضب بدرجة ما، إذ أكون كمن تأخذه العزة بالإثم. لقد تواصلتْ حيرتها معي؛ حبًا وشكًا ومناورة ومداورة من دون أن تقف على يقين خالص تمامًا، وظللتُ ذلك اللغز الثمين والحبيب الذي لا غنى لها عنه. انتهت المكالمة أخيرًا بالسؤال عن الأولاد والإطمئنان على وجودهم في البيت، وقد أحسست أنني حققت لها إطمئنانًا ما. ما يزيد من ناري أن أي صورة لزوجتي تراودني وهي سعيدة بي حد الفناء، تقابلها في المجال نفسه صورة أخرى يحف بها ضوء ساطع يفوق الإحتمال؛ إلهي ما لأحد

قرار فوق قرارك، أنت وحدك من يشاء ولا اعتراض على مشيئتك، لكي لا يدخل من يفعله في عقابك.

– يا لها من امرأة عظيمة، يا لقوة أعصابها وكبر نفسها، أكاد أقول إن هذه المرأة من بلور خالص.

– حقًا إنها أثمن وأنقى. قلت وأنا أراها تنهض تفتح الشباك وتسحب هواءً بعمق صدرها.

برغم حياتنا التي لم يسدها خلاف شديد لطبيعة زوجتي اللينة، بعثت الرسائل التي اكتشفت

واحدة أو اثنتين منها شكًا لينًا في نفسها ليقينها أنني لها وهي لي، وقد عالجتُ ذلك بالإمتثال لهذا اليقين، ليس على مستوى الإلتزام الشخصي الخاص وإنما على مستوى الإلتزام العام في طقوسنا ومعتقداتنا، فما دام الأمر كذلك فلك الحرية أو بعضها في ما تلهو به إذا كنت تحب ذلك، أو هذا ما كان عليه طبع زوجتي دون غيرها من النساء، لذلك كانت حريتي محكومة بيقينها بي لا بيقيني بنفسي أولاً، هي مدرسة وأنا مدرس وفي الشارع آلاف الناس، لكننا حينما ندخل البيت كأننا لم نخرج منه، كنت أمازحها بعدد المعجبات وتمازحني بالعدد الأكبر من المعجبين فأكذبها وتكذبني، مع ما في ذلك من حقائق عامة تصدقني عليها أحيانًا وتبيح لي التحدث عنها؛ فالرجال مسموح لهم أن يتفاخروا حتى بأكاذيبهم، أما النساء فمحرم صدقهن وكذبهن معًا! ما كان قلبًا ذلك الذي لا يهفو لجمال الوردة، أحثّ الناس على ذلك، وأمنعهم من قطفها.

محرم الحرام

جاءت مظاهر الإحتفال بالعاشر من محرم الحرام هذه السنة، على أعلى درجات الإحتفال بظاهرة دينية في تاريخ العراق منذ عقود، إن لم يكن في تاريخنا القديم والحديث على الإطلاق، إذ كثرت جموع اللطم على الصدور، وضرب الاقفية المجردة بسلاسل الحديد"الزناجيل"، وشق الجباه بنوع من السكاكين الطويلة، العريضة "القامات"، جابت الطرق والشوارع والمحلات، متفرقة بادئ ذي بدء ثم متصلة من بعد، لتشكل إعلانًا واضحًا للكثرة العددية، والإصرار على التقليد، ومواصلة الحزن على الحسين الشهيد، يضاف الى ذلك كثرة صور الاحتفال بهذه المناسبة من تعليق الاعلام الملونة فوق البيوت، وعلى الجسور والأعمدة والبنايات والأسيجة، ما توفرت الى ذلك فرصة، والإسراف في ذبح الذبائح والطبخ وتوزيع الطعام، حتى ضاقت البيوت بما كان يردها منه وعلى أكثر من صورة ولون.

ليس من شك، في أن مظاهر احتفالية بمثل هذه الصورة التي تشكلت عليها هذا العام، تثير كثيرًا من التساؤلات عن الدافع الذي يقف خلفها، وهي تساؤلات ربما اكتسبت لونًا تاريخيًا لم تبرأ منه أية مظاهرة من هذا النوع، على مدى ظهورها وممارستها مذ تشكلت أو عرفت في العراق. "إن محنة العراق والعراقيين، يقول صديقي الذي زارني قبل ساعة لإجراء حوار معي إلى جريدته التي يدير تحريرها، هو شيء اسمه السياسة، التصق بهم وصار علامة احتفالاتهم منذ تاريخهم القديم. بل لعلنا لا نبرئ حركة أو جماعة أو دعوة أو أي نشاط جماعي من الطابع السياسي، وهو ما يحيلنا إلى طابع العلاقات بين الطبقات الإجتماعية العراقية، أو بين الحاكم والمحكوم على مر سنيّ هذا التاريخ".

مع إعتقادي الجازم بأحقية أية جماعة، في الإعلان عن مشاعرها الخاصة ومعتقداتها المقدسة، وهو ما حصل هذه السنة وبصورته الإنفجارية لتمثيل شعائر شيعة آل البيت في العراق، فإنني انجررت لا إراديًا إلى التساؤل عن مقدار ما يتحقق للشعب العراقي، لو تحول جزء بسيط من تكاليف هذا العزاء العظيم إلى إنجاز مشروع اقتصادي أو صناعي، وما سيكون عليه حجم هذا المشروع وحجم ما يفيد منه الشعب برمته وعلى مدى تاريخ طويل، مع الاحتفاظ بالاحتفال بهذه المناسبة او مناسبات أخرى، ولكن بأساليب جديدة هادئة مقنعة للجميع وطرائق مبرمجة وبتكاليف أقل، عندئذ يربح المذهب والإمام.

لم نقتنع بجواب حاسم، فهذا من أعسر الموضوعات، لأنه يرتبط بالعقيدة والإعتقاد، وطرق ممارسة هذا الإعتقاد، وما قطعه من شوط على مدى الزمن النفسي والذهني للناس، كما أنه لم يكن الإجراء الوحيد المتعلق بمثل هذه الممارسات، بل هناك الكثير، وعلى عموم الطوائف والطبقات ما يستدعي انقلابًا في العقائد ونظم التفكير، وهو أمر لا تصح المداولة فيه الآن، لأنه في آخر المنوال أمر يتعلق بالتاريخ والدين وحرية عبادات الناس.

لا أنكر تاثري بهذه المناسبة وحزني على أبطالها الشجعان، وانغماري في جلل مصابهم في العاشر من محرم الحرام. بل إنني أعدّها ملحمة نضالية فريدة من نوعها، تسقي المسلم وغير المسلم كثيرًا من قيمها البطولية والإنسانية، وتلهمه مواقف لا تنسى ولا يستهان بها مهما تقدم تأريخ وقوعها. على أي حال مرت أيام العطلة من دون فوائد أدبية مهمة، تتناسب وما حزمتُ أمري على تنفيذه من أعمال خلال هذه الأيام. وفكرت بأنني سوف أعوضها أثناء مبيتي في المؤسسة، وها أنا أفعل ذلك بصورة أو بأخرى.

لم أنقطع عن التفكير فيها. أرسلت لها، ضمن من أرسلت لهم، كلمات عزاء على مناسبة ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام، وهو شيء لم أدرج عليه من قبل، بل ربما كان ذلك بسبب ما أثاره في دفين نفسي، الإحتفاءُ الواسعُ بهذه المناسبة، وتخييمه على طابع العلاقات بين الناس،

تحديدًا في المكان الذي أسكن فيه. لم أحصل على جواب منها، كنت أستعجل الساعات والأيام لتنقضي، حتى يحل الأحد الذي سأراها، لا مندوحة، فيه.

كل شيء هادىء.. كل شيء يمور

عندما غادرت غرفتي نحو الغرفة الاخرى لاسلم على الجميع رايتها، فهي موجودة إذًا وبهاؤها يملا الفضاء. جرت العلاقة بيني وبين زوجتي على أفضلها أيام عطلتي. كانت تغني على وجودي وترقص. وكانت بطبيعتها المرحة العذبة، وبسمتها النظيفة بثناياها البلورية، تحقق لنظري ومشاعري إطمئنانًا لا حدود له. وباستثناء الألم القلبي الذي جعل يعكر عليّ بعض ساعات أيامي، فلقد كنت سعيدًا. وكم تمنيت أن اقضي سنوات عمري هكذا بين دفء امرأة جميلة وقريبة، ذات قدرة فائقة على تقديم صور فريدة من الجمال والألفة والوفاء، وعطر امرأة أخرى تبث في جوانحي أجمل صور الرغبة في الحياة ولها في نفسي هذا الإمتياز الكبير.

بسبب شدة الإزدحام، وكثرة نقاط التفتيش، وخروج السائقين على نظام المرور، وتناهب الأسبقيات دونما وجه حق، كانت "الرحلة" إلى

المدرسة مضنية. بعد ذلك العناء كنت أتمتع، أثناء قطع الطريق إلى غرفتي، بما يتخلل ذلك من فضاء تزينه أشجار ومساحات خضراء، تتعانق فيها زهور تبث أشذاءها في الأرجاء. كنت أحب هذا الطريق لجماله، لفضاءاته وأروقته، ولأننا كثيرًا ما خطونا عليه.

عدت سريعًا مفكرًا في الطريقة التي أستدعيها فيها، مستعجلاً الوقت في الآن نفسه. ما أن جلست على مقعدي، حتى انتبهت إلى كتاب كان موضوعًا على طرف من منضدتي، جاءني هدية من صديق شاعر خصني بإهداء جميل. خلل دقائق حضرتْ. جلستْ على كرسيها المعهود. الكرسي الذي لا يفصلني عنه، سوى منضدة خشب سطحها زجاج أسود لامع صقيل، عليه حافظة أوراق وأقلام، ومجموعة من كتب كنت أتناوب القراءة فيها، كلما أتيحت لي فرصة إلى ذلك، وزهرية صغيرة ملونة كانت جاءتني بها، تتألق في داخلها وردة ياسمين وضعتها اليوم فإن لم تكن هي فإحدى المدرسات. سلمتُ عليها وأخبرتها عن قلقي على وضعها، وتساءلتُ عن الشيء الذي ألم بها. أشارت إلى المناسبة المحزنة، مناسبة وفاة زوجها، ثم ما ألم بها فضلاً عن ذلك من زكام مصحوب بآلام جسدية، تمركز القسم الأعظم منها في الرأس صداعًا قاهرًا. "اذا كان قهر الانسان بالموت فان قهري بصداع الرأس، لذا لم أستطع الرد على رسائلك"، "أنت تعرف مقدار أسفي". أضافت. شاركتها على ما أفاضت به، حزنًا وألمًا.. وأعلنتُ عن استعدادي للذهاب بها إلى طبيب أو مستشفى فأعربتْ عن امتنانها، لقدا تناولتُ

مختلف الأدوية، لكن المرض استفحل علي وقهرني طوال هذه الأيام وإنني مقبلة على الشفاء.

نظرت إليها محولاً الحديث، قلت، ولكن لا يبدو أنك مريضة، فلون وجهك طيب وملامحك جميلة. نظرت اليّ وقالت، لا، لقد مرضتُ حقًا وهدّ جسدي. ألقتني في بحر جسدها وهالني أنني أحبه هذا الحب، مثلما هالني الوضع الذي يمنعني عنه. وأكدتُ مرة أخرى على سلامة وجهها من شوائب المرض، وإنك كهيئتك كل مرة جميلة وجميلة، وكانت نفسي، لترتوي، تشدّ علي قل، حتى قلت، وجسدكِ سليم.

حدقتْ في وجهي مليًا وقالت أسألك سؤالاً أرجو الإجابة عليه، لقد أرسلت لي رسالة من قبل تسألني فيها، "هل أنتِ جميلة؟ أأنا الذي أجيب، وهل أنا جميلة حقًا؟ قلتُ، سؤالي ذاك كان من نوع التثبيت على حقيقة أعرفها ولن تحتاج إلى جواب، ثم إنك جميلة حقًا، وما عرفت في عمري امرأة بجمالك، وما أنشددت لامرأة بمثل ما انشددت إليك. أنا أحبك، وأهواك، وأعشقك وأقدرك. أشكرك إنما هي مشاعرك ولربما لم أكن جميلة بهذا القدر. أنت جميلة وإن سألتك عن ذلك فلأنني كنت في أبهج ساعاتي. وكان ذلك بسبب حبك، هذا الحب الذي أجدني عاجزًا عنه ولا أقوى عليه.

غضت من بصرها. كنت أرى الدوي فيها أعظم من طاقتها فأسكتها. أخذتني الرأفة بها مثلما أخذتني بنفسي؛ الأشياء القوية لا

تقاوم إلا بحجمها، كنت أقترح على نفسي وأفشل في تحقيق ذلك، وقد تهيأتْ للنهوض.

لحظة بعد أخرى كنت، كلما تأملتُ، أجد قربها يشكل صعوبة على نفسي، فبمقدار ما كانت قريبة مني كنت أحسها قصية عني، كان شوقي الذي لم يخمد لحظة واحدة يأخذني إليها فأتوه في عوالمها، أنسى عهودي معها، تنحل الروابط وتبطل المواثيق، كان بحرها عظيمًا يستحثني كل آن، وكلما فكرت في إلقاء نفسي دفعة واحدة فيه، خشيت أن أكون كالسابح في بحر متلاطم الأمواج لا يفكر أخيرًا إلا في إنقاذ نفسه، عندئذ سأخسرها وأخسر نفسي. هل سأعيش طويلاً لأضفر بها كما يتمنى جميع نفسي، وحتى كم من السنين بعد؟ سؤال كان يستحثني إليه هو الآخر على سكة نار.

السفر

مع اقتراب الصيف، وكما أنا كل صيف، عزمت على السفر. لقد أنذرتني روحي بأن العالم الجميل، ذاك الذي من أجلّ مظاهره حرية الإنسان يدعوني وينتظرني، فهو مآلي الذي يعيد لي توازني، كنت مضطربًا أول الأمر، لكن الرغبة كانت فوق اضطرابي. شعوري بأن سفري أقوى مما يحيط بي، لقد جردني من هواجسي وانفعالاتي وترددي، وغالى في فتح المنافذ والرؤى لحريتي، كان شعورًا مضببًا أول الأمر لكنه راح يصفو لحظة بعد أخرى حتى غدا يقينًا، حاولت أن أتجاوز حزن عينيها المرتقب وأنا أخبرها بقراري، أنا الآخر لم أنظر في عينيها لترى حزن عينيّ، كان كلامنا همسًا، همسًا مستحيًا متموجًا، كانت بين الشك واليقين من أمري، لذا لم تجرؤ على مكاشفتي بسعير صدرها، مثلما لم أكن أنا كذلك، كلانا كان يخفي صورته الدفينة خلف حجاب حرير ويموّه عليه بغيرها، إنه سفر وكفى، هكذا فهمتْ، وهكذا لم تشأ أن تفهم أكثر، فصمتها على

أشياء كثيرة سابقة، محزنة أو مسرة، كان يحقق لنفسها القدرة على الصبر الطويل، الآن رفعتُ عينيّ إلى عينيها، رأيت الغيوم تجول فيهما، فكرتُ بأن أي سؤال عن ذلك سيفجر المطر المكنون فيهما، تحاشيتُ ذلك وابتسمتُ ثم قلت لننهض، لم تنهض بل رفعتْ عينيها نحوي تقولان عدْ واجلس فما يزال في صمتنا كلام لم يُقل بعد، إننا برغم ما تبادلنا من رسائل لم نقل جميع كلامنا، إن ما يفجر قلبي الآن، هو ما أخفيته عنكَ وما أبحث عن فرصة مناسبة أكثر لقوله، إن اعظم حقائق الحب، هي تلك التي يكون فيها الصمتُ حيًّا فلا ينهض للكلام إلّا حينما يتهدد الحبَّ موتٌ، دع سفرك للمجهول هذه المرة، لموسم آخر فالمواسم الأنسب قادمة، أنتَ الأقرب إلى روحي لا يمكن أن تكون بعيدًا عنها زمنًا طويلاً، البعد موت والموت آخر ما يفكر فيه الإنسان، ومثلما وهبنا الله حبًا وهبنا قربًا، فلا تركب رغبتك وتخالف مشيئة الله، سأقول لك كلامًا لم أقله من قبل، ولا أظن أن بمقدوري قوله بعد ذلك. كنتُ حزمت أمري فما عادت لي فرصة للتفكير بغير ذلك، كنت أريد أن أستنشق الهواء وأغوص في تيارات الماء لإطفىء هذا اللهب الذي يستعر في صدري، مددت ذراعي نحوها وأنهضتها، كانت ثقيلة الجسد بطيئة الاستجابة لكنها في الأخير نهضتْ، كان بمقدوري أن أقبلها عندما جاءت على يديّ، سهلة مطواعة مثل طفلة غاضبة أقنعها أبوها على تناول طعامها، نظرتْ إلى ساعتها وابتعدتْ، صار جسدها بعيدًا من جسدي، أول مرة أشعر جسدها بعيدًا مني هذا البعد، جسدها الذي كم

أحببته وكم تمنيته. تجرعتُ مرارة فمي واكتفيتُ بنظرة شبه حالمة تشيّع خطواتها الراحلة، الحلم ينسرب بهدوء كأنه نفحة ريح عابرة، الشبابيك تراءت لي مغلقة والأبواب موصدة، وأنا وحيد ولا حقيقة أمام عينيّ الآن إلا ما يخلب اللب ويأخذ بالفؤاد، صرخت بجميعي أن عودي، كنت برغم حرّ بغداد مقرورًا منزوع الثياب، صوتي كان خافتًا يفح فحيح مريض أهذته حمّى عاتية. السيول الندية التي ملأت سماء عينيّ منعت عني رؤيتها، حسبتها ذهبت إلى النهر القريب تسرب في عمقه المكين بعض حزنها، ثم خيل إلي بأنها ستعود بعد لحظات مبلولة الجسد يلتصق ثوبها على جسدها المغري لتجدني تخليت عن عزمي، إن لم يكن من أجلها فمن أجل زوجتي، كانت زوجتي إلى جانبي حينما أخبرتها هي الأخرى بسفري. لم تحزن حزنًا جارحًا بقدر ما كانت ترى في سفري، فسحة لصدرها يتنفس فيها هواءً لا شك فيه ولا ظنون، كانت تحاول أن تشتري يقينها ولو بحياتي أو حياتها. طرفت عينها بدمعة صغيرة صافية، وانفرجت شفتاها عن كلام؛ أن سافر ما دمت ترى في ذلك فسحة لروحك، أنا الأخرى سأسافر الى الشمال، سأمكث هناك أيامًا قد تمتد إلى زمن لا أعرفه، أقضيها في بيت جارتنا الكوردية سابقًا أم محمود، أنت تعرف كيف هي في عداد أخواتي. بغداد لم تعد بغداد، لقد ضاقت روحي بها، وإنها لتضيق بها كل يوم. سددتْ نحوي نظرة غامضة لكنني أحسستها أليمة مؤلمة، قبلتني بشوق وابتعدتْ بهدوء رفيع.

وأنا أقرأ وجدت زوجتي ابتعدت عني، مضت تعدّ لنا شيئًا من قبيل القهوة أو الشاي، حسبت أنها بدأت تتشاغل بذلك عن الاستمرار بالقراءة معي. دعوتها إلى أن تعود، فها نحن نقرأ شيئًا قد يكون الوهم حقيقته، لم يصل حتى الآن الى مستوى المقروء على الورق ليكون وثيقة ما، مهما كانت نسبة الصدق أو خلافه فيها، هلمي نمضِ ليلنا عليها، ولا سيما أنها أشرفت على نهايتها. لقد عزم الرجل كما يقول على السفر، سيركب الطائرة وزوجته ستسافر الى الشمال، وكم سيكون حسنًا إن سافرنا وقضينا أيامًا من صيفنا فيه، ولو أفاض في ذكر أوصافها فلربما شاهدناها هناك، هذا إن كان في الموضوع حقيقة ما. مدن الشمال ليست كبيرة جدًا ومناطق السياحة فيها نعرفها مثلما نعرف مناطق الراحة في بغداد. هاتي قهوتك وتعالي نقرأ معًا. ستكون قراءة الرواية سلوتنا الوحيدة إلى تزجية ليلنا الطويل. وقد تكون الرواية القادمة بقلم امرأة فهي لا تموّه علينا مثلما موّه علينا هذا الروائي المجهول. سليم ناصر. حقًا أنا لم أسمع بهذا الإسم من قبل غير أن يكون إسمي أنا، أو إسم بطل رواية كما ذكرت أول الصفحات وقد صدرت بطبعتين؛ قبل ٢٠٠٣ وبعدها! أو هو سليم ناصر ذلك الفتى الجنوبي الوسيم، صديق الصبا والطالب معي في النظامية المتوسطة أيام تلك، الذي حين ينادى على أي منا سليم يلتفت كلانا فيكون؛ هو أنا وأنا هو حتى لو كان الكلام موجهًا لأحد محدد منا. لا أدري أن كان ثمة من عجب أن يكون صديقي ذاك هو هذا العاشق العظيم، مدون هذه الصفحات الطوال. كانت آخر رؤيتي لشبح يشبهه قبل شهر، بعد عقود بصحبة امرأة جميلة تلبس لباس

الملكات اليمنيات، يسرع بها بين زحام ناس المتنبي نحو بائع الكتب الموصوف بالأحمر، نفسه الذي سبق أن ابتعت منه كتاب " حي بن يقظان" ، يسأله،لا هفًا، عن شيء فيغيب. كان يوم جمعة وزحام المتنبي على أشده فلم أستطع تحقيق اللقاء به، ما عرفته من الأحمر بعدئذ أنه جاء يبحث هنا وهناك، عن قرص سقط منه في هذا الشارع قبل شهر. لم يعرب عما يحتوي القرص ولا ما مكتوب على غلافه من عنوان." كان مجنونًا يسأل عن شيء بلا عنوان، إذا سقط بشر في المتنبي يضيع بين الأقدام"! ربما كان من حظي أنني لم أعثر على صديقي ذاك، فقد أعيد إليه قرصه إن كان هو مدون المدونة ذي لنحرم من بعدُ من استكمال القراءة فيها، ونجهل من ثم ما قد يفعله فيه، جهازكِ يرنّ أسرعي إليه، لا أحد يتصل بنا في مثل هذا الوقت إلا مريم أو يوسف على العموم، لقد بلّغت بعضًا من أهلنا ممن بقي هنا، ألّا يتصلوا بنا في ساعات الليل لمجرد السلام أو تفقد الأحوال.

- مريم. إنها مريم. أهلاً مريم، يا له من خبر سعيد، ومتى؟ الشهر القادم؟ أهلاً وسهلاً بك، كلنا في لهفة وانتظار، ويا لعقلك من عقل سليم وراجح. يصلُ وهو يسمع صوتك ويسلّم عليك كذلك، على فكرة أنتِ وحدكِ أم كلاكما؟ أهلاً وسهلاً بكما.

تركتْ قهوتها وجاءت مسرعة تنقل إليّ سلام مريم، وتزف خبر قرارها وزوجها زيارة بغداد لوضع ولدها هنا، وإكسابه الجنسية العراقية. ربما كان هذا أقرب الأخبار سعادة إلى نفسي منذ سنين؛ مريم

تسلم عليك كثيرًا وتقول إنها ستعود إلى بغداد لتلد هنا، سيكون عيسى، وهو الإسم المقترح له، عراقيًا. أهناك ما هو أجمل من هذا؟

- هاتي قهوتك وهلمي نقرأ، نحن الآن في ذروة سعادتنا. فمثلما لا حدود للسعادة، فلا موعد لها.

ركبت الطائرة التي تاخمت الغيوم وألقت بي قريبًا من الساحل، من هناك ركبت السفينة الماخرة وفي نفسي تجوب أمنيات ورغبات كثيرة، السفينة أصدق من الطائرة لأنها الأقرب الى ملامسة الأشياء، والأكثر تحققًا منها، منذ طفولتي عشقت البحر، كان ذلك من أماني نفسي حتى بعد أن كبرت، لقد زرته كثيرًا وغمرت نفسي في مائه كثيرًا، لفتني دواماته مرات وعجبت من نفسي لأنني كنت أعود إلى ساحله مع موجة من أمواجه، لا أعرف إن كان ذلك من غلطها أم من غلطي. لا يوجد شيء أعظم من الهيمان مع البحر، فهو ملاذ عظيم إن لجأتَ اليه، فهناك تجد ديمومتك، وهناك تجد المسارب والشعاب التي بمقدورك أن تسرب عبرها همومك، هناك لا تسأل عن المصير الأسمى أو المصير الألذ لحياتك، حيث وأنت في الظلمة الدامسة يتولد النور وتبدأ الأشياء بالتشكل من جديد بلا حساب أو فواتير حتى لكأنك في الأساطير.

حتى وانا هناك كنت أشاهد عينيها اللتين تودعانني مفتوحتين على نور، الآن حيث تتتوج السعادة بالصفاء والحب بالقبول التام، يتسنى للنفس أن تتوغل في المحيط، مأخوذة بإيقاع شقي متوحش لا ينكفئ،

يتردد في الداخل والخارج؛ أن هيا لا تتردد، إلى الأسفل إلى الأسفل وحتى القاع. لم يعد القاع شيئًا مخيفًا مرعبًا بعد الآن، كما لم يعد شيئًا مجهولاً بعد أن تبنّت الدوامات الملتفة السفر إليه. ما كان يزيد لهفتي إلى ذلك، الأصوات المبهمة الضاجة بما يشبه النشيد، لقد أيقظ الإيقاع الذي أستمع اليه الآن أعمق دعوات نفسي، مذ كنت طفلاً، إلى الغوص في المتناهيات مهما عظم جبروتها، كنت لحظتئذٍ كمن يقطع شكوكه بايمانه القديم محققًا لذاتي صدقها الذي لازمها منذ ذلك الحين حتى الآن.

كان شيء ما يتناوب الظهور بين بصري وبصري، سفينة تواصل مخر البحر في ليل ساج تتناثر على جانبيها أمواج تنطبع على أعرافها وتنمسح، وفي تواتر لا يهدأ، بلورات النور البعيد القادم من أعماق الكون، وعلى أعلى سطحها تتناوب، في دوامات تتصاعد كلما ادلهم الليل، رغبات رجل في الإنضمام الى هذا الكون السفلي الغامض، فلعله يجد هناك ضالته في الدوامة المعتمة حيث يتصل السطح بالعمق، والعتمة بالنور، والصمت بالهدير، والروح بالجسد، حيث السكون المتفرد الفريد، حيث ستغنّي نفسه غناء الحياة المؤلمة والموت السعيد.

اللحظة بدأت الأنوار تشق الظلمة من الجانب الآخر البعيد فترجف النفس، ها هو وعد المرتحل على سطحها قادم إليه، بل ها هو يزحف إليه، يشم ترابه عبر لا يدري كم من الأميال، هناك في البيوت والشوارع بل حتى في الفيافي والغاباب تصطخب الحياة، وإذ ترسو السفينة يهبط مع ركابها صخب العالم كله بحيث لا يدري أحد ما

ربحت السفينة أو خسرت منه، غير ما ربح هو من نفسه، هو ذاته لا غير..

الليل حجاب على الساعات الفائتة والصباح سفور على القادم الجديد.

من هناك، من حيث الصخب العاتي والإحتمالات الجارفة وكل شيء إذا أخذه الموج لن يعود، عدت منه لأغني لها؛ أتوج رأسها بإكليل من ورد، وأحيط جيدها بقلادة من أصداف البحر، أدون آخر سطوري معها، مخفيًا بعض أسرار لعبتنا في تلافيف حروفي عنها، مقدرًا لفطنتكَ العالية بالنفاذ إليها. هنا، وحده، سيكون نجاحي إن واصلتَ قراءتها واهتديتَ إليها، إنما ستكون سعادتي كذلك!

أغلقتُ الجهاز على الكلمات الأخيرة، وزوجتي إلى جانبي، كان من سعادتي أني أهديت نزار نسخة من مدونة هذا الذي غمط حقنا في معرفة الحقيقة، فمزج بين وهمه وخيالنا، وغلّبنا ولو أيامًا على وقائع محنتنا. هناك سيحكي من يقرأ هذه المدونة قصته معها هو الآخر، مثلما حكينا قصتنا معها نحن، وستتناسل النسخ وتنتشر وقد تغطي الكون كله، ربما.....

تمت